
بلاد ما بين النهرين
بين ولاءين
تأليف
ولسن
ترجمة
فؤاد جميل

بلاد
ما بين النهرين

بين ولاءين

خواطر شخصية وتاريخية

تأليف : سر أرنُلد تي . ويلسُون

وكيل الحاكم الملكي البريطاني العام

(أيام الاحتلال الدابر)

نقله الى العربية ، قدم له ، وعلّق عليه :

فؤاد جميل

الجزء الاول

من (احتلال البصرة) الى (احتلال بغداد)

الطبعة الاولى

١٩٦٩

على طناب) الكتاب) على (دار الخاصة

طبع (الكتاب) على مطابع (دار الجمهورية)

و

بنفقة (المترجم) الخاصة

١٥٠٠/١٩٦٩

الاهداء

الى :

ارواح الذين وقفوا ـ بعزم وثبات ، وقاوموا (الاحتلال البريطاني البغيض الدابر) ل (عراقنا الغالي الحر الأبي الزاهر) ...

فسقطوا صرعى ، وصعدت ارواحهم الطاهرة لترفرف في (جنان الخلد) : مثوى الشهداء الابرار .

ف . ج



مقـــدمة (المترجـم)

ومن وعى (التأريخ) في صدره أضاف أعماراً الى عمره !

يكتب (التاريخ الحـق) للعبرة والاعتبار ... وكم فيـه من عِبَر لمعتبر ومثلات لمتدبّر ، ولمن (كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) . ذلك أنه يرمي – ابتـداءً – الى تدوين سير شخصياته وتسجيل وقائعـه – وكـل من الشخصيات والوقائع في هذا التأريخ مؤثر ومتأثر – بعمق ، وشمول ، واصالة ، ووثاقة ، ليغدو ، انتهاءً ، الأساس الركين المكين في تربية الشعب ، بأجياله : القائمة ، والقابلة ، تربية قومية ، وطنية ، واعية سليمة ، فينبجس في هذا الشعب احساس عميق ، بوجوده بين الشعوب ، ويغدو من مستقبله (آملا) .

و (الكتاب) الذي تمسك (الجزء الاول) منه بيمينك – أيها القـارىء الكريم – الموسوم في أصله ب : (Loyalties Mesopotamia I 1914-1917) من تأليف : (سر أرنولد تي. ويلسون : Sir Arnold T. Wilson) هو من الكتب الأسانيد المعتبرة الشوامخ في فحواه ومحتواه ، بقدر تعلّق الأمر بالبرهة التي يشملها من تأريخ عراقنا الغـالي الحبيب . انـه صنيع رجـل قـدّر لـه ان يواكب حملة الاستعباد البريطاني على العراق ، منذ طالعة أمرها حتى نهايتها ، بوصفه ضابطا سياسيا كبيرا فيها ، ثم قدّر له أن يتبوّأ في جلّ سني الاحتلال البريطاني البغيض لهذا البلد الحرّ الأبي العريق منصب (وكيل الحاكم الملكي البريطاني العام) حتى أيام ثورته المشرقة المشرّفة سنة ١٩٢٠ .

والقارىء الذي قرأ كتابنا المترجم الموســوم ب (ثورة العراق ١٩٢٠) يتذكر ما ذكرناه فيه عن هذا (المؤلف) و (كتابه) ، اذ وردت في (مقدمة) ذلك (الكتاب) العبارة التي تلي السطر :

« ولا معدى عن أن يقرن هذا الكتاب بكتاب آخر ألّفه من كان مسؤولا عن الادارة المدنية والشؤون السياسية في الوقت نفسه ، وأعني به :

Sir Arnold T. Wilson: Loyalties Mesopotamia

اذ كان من أسباب تأليفــه ، على ما عرف ، ردّ ما ورد في كتاب (المؤلف – القـائد)(*) من طعن عليــه ، وعلى من كان في إمرته من الحكام السياسيين وتجريح لهم » .

وعلى ذلك فان هـــذا (الكتاب المترجم) – بأجزائه الثلاثة – ، وكتـــاب (ثورة العراق ١٩٢٠) ، يكونان للحلقة التأريخية من ابتداء (الحملة) حتى انتهاء

(*) أعني الفريق سر إلمر هولدين ، مؤلف الكتاب الأصل عن (ثورة العراق ١٩٢٠) وكان قد نجم بينه وبين ارنولد ويلسون لجاج وتمادت بينهما الخصومة حتى غادر الأخير العراق الى غير رجعة .

(الثورة) وتشكيل (الحكم الملكي الدابر) في العراق ، حلقة موصولة غير مفصومة .

وثمة قولة ذائعة شائعة ، هي ان (الرجل باسلوبه) ، فالمؤلف ، على ما ينم عليه (مؤلفه) من الرجال الطماح ، شديد الذكاء ، أصيل العقل ، متمكن من اللغة الانكليزية وآدابها ، والفرنسية واللاطينية ، على حد سواء ، وانك لتجده يفتتح (فصول كتابه) بدرر خلابة وعبارات براقة وردت على لسان رجال عظام لتلقي أضواءاً على محتواها وفحواها . كما انه يجمل أسلوبه برصعات مونقات ! على ان أهدافه الاستعبادية وهواه البريطاني سالت في (مؤلفه) فهو ينتقد على أهل بلاد ما بين النهرين ، وخاصة اعرابها ، انتقادا لا نصفة فيه ، وقد يتلمس مما في سطوره أنه مغيظ محنق حاقد (والغيظ يخرج كامن الاحقاد) وكأنه يريدهم أن يستقبلوا جيش الاستعباد والاحتـــلال استقبال المنقـــذ المحرر لهم على ما زعم اﻟ (جنرال مود) اثر احتلال بغداد ، ضلة !

وللحقيقة والتأريخ نقول : إن كثـــيرا من بني قوم (المؤلف) ما كانوا يرون فيه رجلا اداريا مثاليا ذا مرة وروية ، أو سيرة محمودة وعاقبة رشيدة ، يدلك على ذلك ما رواه الاستاذ ساطع الحصري في كتابه الموسوم : (مذكراتي في العراق ١٩٢١ـ١٩٢٧ ج١ ص٦١) عن مستشار الماليـــة البريطاني اذ ذاك (غاربيت) ولسانه : (ماكان يستحسن سياسة ويلسون ، وان تأخر مجيء السر برسي كوكس ـ بسبب انشغاله في ايران ـ صار كارثة على العراق . كان يقال على الدوام ، سيأتي قريبا ، ومر بهذه الصورة نحو تسعة أشهر ... سببت كثيرا من المشاكل . لو لم تشغل قضايا ايران السر برسي كوكس بهذه الصورة لسافر ويلسون قبل تسعة أشهر) ، ولا ينبئك مثل خبير !

أما سياسة ويلسون على التحقيق فكانت : (تهنيد العراق) وحكمه حكما مباشرا لاستغلال امكاناته وثرواته في مقابل ما أنفق على (الحملة) التي شنت عليه ، والضحايا في الارواح التي بذلتها الانبراطورية المستعبدة .

ان هذه السياسة ، عينها ، هي التي اثارت أبناء العراق الأباة الأحرار الأعزة فكانت (ثورة العشرين) المشرقة المشرفة التي جعلت المكلف البريطاني يكابد خسراناً فادحاً ، وأودت بحياة كثير من الجنود البريطانيين والهنود وضباطهم، فارتفعت الأصوات في بريطانية بالتـــذمر الشديد من السياسة المتبعة في العراق ، تلح في اتباع سياسة التهدئة ، وتلبية جانب من المطالب الوطنية ـ القومية ، وتندد باخفاق سياسة (ويلسون) وبعدها عن الواقع ، وكان الجو العالمي ، يومذاك ، يردد مبادىء (ويلسون) آخر هو (رئيس جمهورية الولايات المتحدة الاميركية) في الحرية والعتق و (تقرير المصير) ، وشتان ما بين مبادىء (ويلسون) الاول وسياسة (ويلسون) الثاني ، وان اشتراكا في اسم واحد !

ومن التقاليد المتبعة في (السياسة البريطانية) : ان تبـــديل السياسة يستتبع تبديل الاشخاص المولجين بتنفيذها ، وانكلترة ، على ما ورد على لسان دهقان من دهاقنتها السياسيين : (ليس لها أصدقاء دوم ، أو أعداء دوم ، بل لها مصالح مستدامة ، حسب!) ، وعلى هذا وصل (سر برسي كوكس) بغداد في ١١ تشرين الاول ١٩٢٠ ، وكان وصوله ايذانا برحيل سر ارنولد ويلسون وذهاب سياسته ، لينفذ سياسة لينة مختلفة ويقيم حكومة «وطنية» عصرية ، وان كان (مظهرها عربيا ومخبرها انكليزيا) ، فختمت بذلك صفحة (المؤلف)

في هذه البلاد ، بعد أن أبلغ سياسة بريطانية الاستعبادية حـــدها وجاوزته في (بلغ السكين العظم)(**) وعصفت بالبـــلاد الهزاهز والاضطرابات ، وهـــوى الناموس البريطاني فيها الى الحضيض الاوهد معجلا ، بل : (أسرع من مـــاء الى حدور) .

لقـــد قامت بين (سر برسي كوكس) ومرؤوسه (سر ارنلد ويلسون) ـ مؤلف الكتاب ـ زمالة طويلة وصلة وثيقة ، حين عملا معا لحكومة الهند في مناصب سياسية في (الخليج العربي) قبل الحرب العالمية الاولى . وما أن شنّت الحملة البريطانية على العراق الا جاء (الاول) معها بوصفه : (الضابط السياسي الرئيس) وجاء معه (الثاني) مساعدا له وسندا وظهيرا حتى احتلال بغداد حين غدا (وكيله) .

قلنا : ان الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ اندلعت و (المؤلف) يدعى ب (وكيل الحاكم الملكي العام) أي وكيل ال (سر برسي : الحاكم العام) الموفد الى طهران ، وباندلاعها استدعي (الحاكم العام الاصيل) بعد أن غاب عن منصبه من سنة ١٩١٨ حتى سنة ١٩٢٠ وترك الأمر الى (المؤلف) ، وكيله ، على أنه بقي طوال تلك المدة مسؤولا ، من الوجهة النظرية ، عن السياسة العليـــا البريطانية في العراق . وما أن وصـــل كوكس البصرة الا كان (ويلسون) في استقباله ، وغادرها بعد ذلك وفي قلبه حسرة كامنة وفي نفسه كرب دخيـــل لأنه لم يوفق لتنفيذ (سياسته) ولم يحقق ما كان يبيّته للعراق ، على حـــين استطاع (رئيسه) ، فيما بعد ، أن ينفذ سياسة الحكومة البريطانية المرسومة في (مؤتمر القاهرة) ، وهكذا لم يدرك (الضالع) شأن (الضليع) ! ورأى ناس من أنصار سر أرنلد ويلسون في (خاتمته) ان حكومته جعلته (كبش الفداء) ، وأسفوا على انه لم يصل ، في سلم الارتقاء ، الى درجة أكبر من الدرجة التي بلغها . على حين كان يرى أنصار سر برسي كوكس انه الرجل الصالح لتنفيذ (السياسة الجديدة) ، جزل الرأي ، يؤثر الجد الصراح ، هادىء الطبع ، عميق التفكير بعيد النظر ، وانه كان يكف من اسراف (مرؤوسه) : ويلسون ، حين كان في العراق ويطامن من اندفاع كثير من العسكريين والمدنيـــين الذين كان يعمل معهم ، أو يعملون في امرته .

●

ولا معدى ، ونحن نحرر (مقدمة الكتاب) عن التطرق ، بايجاز ، الى قصة الاحتلال البريطاني للعراق ، وهي التي يتناول القسم الاول منها (الجزء الاول) حصرا . ان مطامع بريطانية في العراق ، باعتداده الطريق القاصد الى الهند ، وفي نفطه ، وفي معادنه وغلاته وانتاجه الآخر ، وباعتداده سوقاً ترتجى لصادراتها ، معروفة استنفد فيها القول وما بقي مزيد لمستزيد . ولقد قام قناصلها ورحّالوها وعملاؤها ، سراً وعلانية ، بدراسة امكانات بلادنا وطاقاتها وأودعوا دراساتهم ومخططاتهم للجهات السياسية والعسكرية وكلها كانت حوافز وعوناً على حملة بريطانية عليه ابان الحرب العالمية الاولى .

كانت بريطانية تنشد ، منذ أول القرن التاسع عشر ، طريقا سهلا قصيرا

(**) هذا من الاقوال الدائرة على لسان عامة العراق وما دروا ان امام البلغاء (الجاحظ) استعمله في كتابه النابه الذكر (البخلاء) .

الى (جوهرة) انبراطوريتها يومذاك : الهند • وفي سنة ١٨٣٧ انفقت مالا كبيرا على مسح وادي الفرات لهذه الغاية ، عينها ، وحصلت من تركية على امتياز مد خط سكة حديد تصل (اسكندرون) بالخليج العربي ، وكان ذلك سنة ١٨٥١ • الا أن بريطانية نبذت مشروع الملاحة في الفرات سنة ١٨٧٦ عندما وفقت لشراء ما قيمته أربعة ملايين باون من سهام (قناة السويس) ، ورأت أن الافادة من (القناة) أفضل من الاستفادة من مشروع ملاحة وسكة حديد ، عبر الفرات وواديه • وقبيل الحرب العالمية الاولى أخذت المانية تفكر في مشروع سكة حديد تمتد من برلين فاصطنبول فبغداد والبصرة ، وهذا شيء أقلق مضاجع الساسة البريطانيين ، عهد ذاك ، وهم الذين كانوا يسعون جاهدين الى الحفاظ على حياد تركية وابعاد النفوذ الالماني عنها ، الا أن مجيء (جمعية الاتحاد والترقي) الى الحكم في الانبراطورية العثمانية ، وهوى قادتها ، على ما هو معلوم كان مع الالمان وحلفائهم ، بدد ماكانت تصبو اليه بريطانية في هذا الصدد•

لقد أراد الالمان من وراء (سكة حديد برلين ـ اصطنبول ـ بغداد ـ البصرة) التقرب من الهند وخلق المتاعب واثارة القلاقل في أرجاء العالم الاسلامي لخلخلة كيان الانبراطورية البريطانية من جهة ، وتهديد استثمار النفط ، وقد ازدادت أهميته في الحرب حتى قيل بحق : « ان قطرة من بترول تساوي قطرة من دم » ، ومركز استثماره على الخليج العربي حيث تعمل (شركة النفط الانكليزية الفارسية) المؤلفة منذ سنة ١٩٠٦ • لقد كانت (الشركة) المذكورة تستغل آبار النفط في (ششتر) فيجري في خط من الانابيب طوله ١٤٠ ميلا ويصل المصافي الواقعة في (عبادان) شرقي الخليج •

واحرق (اهل عبادان) نفط ومحترق به (اهل العراق)

ولما رأى رجال السياسة والعسكرية في الهند وبريطانية أن لم يبقَ في القوس منزع ، وان تركية مالت الى جانب المانية وحليفاتها ، جهزت حملتها الاستكشافية الموسومة ب (د : رتل ديلامين) طليعة الحملة الكبرى على العراق ، وخبرها مسرود ، بوجه متعانق ، في هذا (الجزء) من (الكتاب) ، ومفصل تفصيلا •

وأخيرا ••• ولما كنا نؤرخ التأريخ في حيدة مطلقة التزمنا جانب الامانة التامة في نقل فصول (الكتاب) الى العربية لنجعلها في متناول يد الجيل القائم والأجيال القابلة مستندا خطيرا وثبتاً منيراً وهو الذي حرره مسؤول كبير في ايام الفترة التي يتناولها ، وهي فترة حظت بوقائع جسام وحوادث عظام سحب اليوم عليها الزمان أذيال النسيان • الا أننا لم نشأ ، وديدننا الانصاف ، أن يصدر (الكتاب) من دون تحقيق وتمحيص وتدقيق لذلك حفلت حواشيه بتصويباتنا وشروحنا وتعليقاتنا ليبلغ (الكتاب) ما نصبو اليه من جلاء تأريخنا على الوجه الصحيح الشامل المتعمق، وبذلك يشبع النهم العلمي ويروى ظمأ أبناء جيلنا ، والاجيال القابلة ، الى استشفاف أفاويق تأريخهم الطويل الحفيل •

ذلك حسبي ، والله الموفق للانجاح ، الهادي الى سواء السبيل •

بغداد ١٩٦٩/١١/١



مقدمة المؤلف

في

طبعة (الكتاب) الاولى

« وضع « لورد كرى » قاعدة محصلها : ان من الضروري جدا للعالم طرا دراسة السبب في نجوم الحرب العالمية الاولى دراسة دقيقة مستأنية تجرى في ضوء اوفى من المعلومات المتيسرة • وهو يعتقد ان من الحتم اللازم تهيئة المعلومات عن الوقائع السياسية والدبلوماطيقية التي سبقت الحرب آنفة الذكر • ولقيت هذه «القاعدة» تصديقا واقرارا عامين • وثمة حالات خاصة ، في بلدان كثيرة قدر لها الاسهام في تلكم الحرب ، جاد بعضهم ، تلقائيا بمذكرات تتسم بسمة الدعاية ، ومؤلفات تأريخية ومجموعات صريحة ، وكلها مما جاء قبل الحوادث التي تتناولها أو بعيدها • انها جميعا جاءت على التفصيل وقد ترشد مؤرخي المستقبل أو تقودهم في طريق الضلال • فان أريد لها أن تمس أصول الذوق العريقة ••• وجب أن ترعى قضية السلم ••• وأن يقف الناس على الضلالات المبينة التي انزلق اليها والاعمال الخاطئة التي ارتكبت •• وليصبح الميل الى ارتكابها أقل من ذي قبل شأنا » •

لورد دبرنن (سفير السلام) سنة ١٩٢٩

ها قد مضت ست عشرة سنة على نزول (قواتنا) الى الفاو تحت ستار من قذائف مدافع الاسطول البريطاني ••• وها قد مرت اثنتا عشرة سنة على توقيع الاتراك اتفاقية الهدنة المعقودة على خليج مدرس Mudros • ان ذاكرة الناس سريعة النسيان ، لذا غـدت آراء كثير ممن لهم أدوار رئيسة في بلاد ما بين النهرين مشوبة بعتمة • ولم يعمد احد منهم ، باستثناء الراحل سر جي ، تاونسند،

وسر المر هولدين[1] الى ان يسرد (دوره) ويدلي في الموضوع دلوه ، على ان كلا من سر ويليم مارشل وسر جورج ماكمن ، وسر جورج ينكهزبند القوا ضوءاً كاشفا في (الخواطر) التي نشروها في الناس ، وتناولت الوقائع التي كان لهم شأن في صياغتها • واذا ما قارنا هذه بالمؤلفات الضخام التي اصدرتها جهات اخر ، تبين لنا ان ما نشر عن (العربية التركية)[2] قليل جدا ، ان قيس ذلك بعدد القطعات التي حاربت فيها ، وعدد الضحايا ، ومقدار الكلفة ، وطول المسافة بينها وبين انكلترة ، وسعة الارض التي جرت فيها الحركات العسكرية • بهذه المقاييس يصحّ اعتداد الحركات هذه أكبر عملية عسكرية قامت بها انكلترة ، باستثناء (الحملة الاستكشافية البريطانية) في فرنسة ، وبالنظر الى الضحايا : (حملة الدردنيل) •

وصف اللواء موبرلي Moberly المؤرّخ البريطاني الرسمي الحملات العسكرية حتى يوم توقيع الهدنة بدقة واصابة ، وضمّن سرده لها أربعة مجلدات متقنة التحرير ، وثيقة الانضمام ، لكن القيود التي فرضها عليه مركزه ؟ وطبيعة العمل الذي كان يقوم به ، حالت دون ان يكون (صنيعه) شاملا جميع ما وقع في هذا البلد من بلدان العالم • انه لا يشير الى تشكيل الادارة المدنية Civil Administration فيها الا عرضا • انها (الادارة) التي قامت على جناحي الجيش ، وسعت تحت ظل قادته العامين المتتابعين الى تنشيط حياة السكان وخلقها خلقا جديدا ، واقامة اداة حكومية تحل محل الحكم التركي المجهز عليه ، وان تحقّق ، بقدر ما يتصل بنا ، وعود الحرية والعدالة والازدهار التي كيلت للعرب في مطلع (الحملة) جزافا •

---

(١) هو الفريق سر المر هولدين Lt. Gen. Sir. Aylmer Haldane. القائد العام للقوات البريطانية في العراق ابان ثورة العشرين وصاحب كتاب Insurrection In Mesopotamia الذي نقلناه الى العربية وقدمنا له وعلقنا عليه ونشرناه سنة ١٩٦٦ بعنوان (ثورة العراق ١٩٢٠) وكان مؤلفه غريما لمؤلف هذا الكتاب • (المترجم)

(٢) كان يراد بهذا المصطلح (Turkish Arabia) بلاد ما بين النهرين وعلى ما كان يجيء في المؤلفات الانكليزية والمراسلات الرسمية • (المترجم)

ان المؤلّف الموسوم بـ (عرض لجهاز الحكم المدني : Review of the Civil Administration) ، والذي اعدته ، بايعـاز مني ، الآنسة غرترود بـل Miss. G. Bell [٣] ورفع سنة ١٩٢٠ الى (البرلمان البريطاني) هو المستند الفذ المتصل بحكمنا لبلاد ما بين النهرين المنشور في انكلترة • سأتطرق الى خدمات مس بيل في مناسبات قادمة ، ويكفي ان أقرر هنا ان (الكتاب) آنف الذكر هو سجل خالد يفصح عن ملكتها الادبية ونشاطها الذي لا يتطرّق الوهن اليه ابدا ، وقد سخرتهما لخدمة وطنها ، داخلا وخارجا •

تناول الراحل مستر ادمند كاندلر بعض وجهات النظر العسكرية فوفق الى اجلاء صورها بأسلوبه الناصع اللاحب • وكثير ذلك الذي كتب عن الفاجعة التي منيت بها (حامية الكوت) ، ومن كتب فيها كان ممن اكتوى بنارها ، وشهد وقائعها المريرة شهود عيان لا شهود سماع •

وكتب النقيب هي : Hay في الفترة التي سبقت (الهـدنة) وتنـاول (كردستان) الشمالية الشـرقية ، والنقيب ليل : Lyell في عشـائر الفرات وما قام به أهل النجف وكربلاء ، على حين ستبقى رسائل النقيب مان : Mann ذكرى مستدامة تفصح عن روح حكام الاقاليم الذين كانوا على ملاك (الادارة المدنية) في تلكم الايام • وفي الصفحات التي دبّجتها يراعة (حاج ريكّان)[٤] تجد معلومات ثرة عن حياة أهل البطائح (المعدان)[٥] ونفسيتهم •

---

(٣) توفيت في بغداد يوم الـ ١٢ من تموز سنة ١٩٢٦ • (المؤلف)
وكانت تشغل في (دار المندوب السامي البريطاني في العراق) وظيفة يطلق عليها (السكرتير الشرقي) ولم تكن على وفاق مع رئيسها (مؤلف الكتاب) ابان اشتغالها في أمرته في (الادارة المدنية) قبل ذلك • (المترجم)

(٤) Hajj Rikkan: Marsh Arab by Fulanain (S.E. Hedgecock)
وفي الكتاب يظهر العطف على حياة المعدان (سكان البطائح) في العراق على ما كانت عليه في نهاية الحرب العالمية الاولى • وقد نقل هذا الكتاب الى العربية وطبع في بغداد • (المترجم)

(٥) قيل ان الاسم من عدن أي اسهل ، والبدو يسمون العشائر الريفية في العراق (معدان) والعشائر الريفية تسمي سكان البطائح (معدان) •
(المترجم)

انها صفحات تدلّ على أسلوب كاتبيها اللذين استعارا (فلانين) اسما لهما ووضعاه على ديباجة الكتاب • لكن الكتب المشار اليها آنفا ، وتلك التي هي أقل منها شأنا، لا تتناول موضوع بلاد ما بين النهرين على الوجه الشامل ، كما ان أصحابها لم يكونوا في وضع يمكّنهم من ذلك أيضا •

ولم ينشر على « الجانب الآخر » الا القليل • لقد اشير الى الحملة على بلاد الرافدين في المؤلفات التركية والالمانية في نتف مبعثرة ، وهذا يدلّ على ان (أعداءنا) السابقين لم يروموا تدوين النوازل التي حلّت بهم وأسفر عنها فقدان جميع البلدان العربية التي كانت جزءاً من الانبراطورية التركية وتحطيم المطامح الالمانية ، وكانت جدّ واسعة عظيمة •

وكنت قد سعيت في كتابي الموسوم بـ (خليج فارس)[٦] :The Persian Gulf الى سرد الاوضاع التي سادت في ذلك الشطر من العالم منذ أقدم الازمان حتى سنة ١٩٠٢ للميلاد ، وقد اوفق الى ردم الفجوة في قابل الايام ، فان رام الدارس المتتبع الاطلاع على هذه الفترة الزمنية فليرجع الى ما كتبه (سر برسي سايكس : Sir Percy Sykes) وغيره •

لقد مضت على مغادرتي بلاد ما بين النهرين عشر سنوات ، وتقاعد كل من (سر برسي كوكس : Sir Percy Cox) و (سر هنري دوبس : Sir H. Dobbs ومات (سر كلبرت كلايتن : Sir G. Clayton) سنة ١٩٢٩ ، وهو في الخدمة[٧] •

ففي ظروف كهذه ، واستجابة لطلبات جمّة انهالت عليّ من زملائي السابقين ، وجدت ان من الواجب المقدّس ان اسجل الطريقة التي حملت بموجبها (الادارة المدنية) : الامانة منذ بدء (الحملة) • وما لم يتمّ تدوين

(٦) بالاحرى (الخليج العربي) لان الاسم ورد بهذه الصيغة في مدونات بعض الكتاب الاقدمين ، ولان الشطر الاعظم من شواطئه مسكون من قبل العرب • (المترجم)

(٧) هم المندوبون السامون البريطانيون الذين تعاقبوا في العراق أيام الانتداب وكانوا حكامه الحقيقيين وان وجد (ملك) ووجدت (وزارة) ومجالس (نواب) و (اعيان) ، وجهاز اداري وآخر قضائي • (المترجم)

سير الحركات العسكرية خطوة فخطوة ، باعداد التبعات المدنية جزءاً لا يتجزأ منها ، فلن تصبح الصورة تامة الجوانب واضحة المعالم شاملة ، وليس من وراء مثلها جدوى • ينضاف الى ذلك كله ان لكثير من (الحكام السياسيين)[8] دورا بارزا في الحركات العسكرية أيضا • ان عشرين قبرا هي اليوم في معزل ، وقبورا أخرى لايعرف الناس اين هي ؟ لتشهد ، في أواخر سنة ١٩٢٠ ، على ان (الجيش) و (الادارة المدنية) سواء في الحياة وفي الممات •

وتبيّن لي ان من المتعذّر تثبيت أية عبارة ما لم تشفع بالتعليق اللازم وذكر الفصل ، كما اني لم اعمد الى ذكر حقيقة ما دون ان اقيم على ما أقول الدليل القاطع الصحيح • فان آلمت الاحياء ، بما كتبت عن الاموات ، أرجو من الاولين ان يتذكّروا قول فولتير :

On doit des égards aux vivants; on ne doit aux morts que la vérite

علينا أن نجلّ الاحياء ، اما الاموات فليس لهم علينا الا الحقيقة • فالى ذكرى اولئك الذين عانوا ما عانوا في قفار بلاد ما بين النهرين ، وقضوا نحبهم فيها دون جدوى ••• ازف هذه الحقيقة ليطلع الناس عليها جميعا • والى سائر القرّاء أقول : لقد سعيت الى ان ينطوي (كتابي) هذا ـ وقد ألّف خلال السنة الاخيرة وفي خضمّ مشاغلي الجمّة ـ على فكرة شاملة تتصل بالفاعليات التي حققّت النجح لحركات عسكرية دارت في بلاد ما بين النهرين • ولقد سعيت أيضا الى بيان ما عاناه جنودنا خلالها ، **والشجاعة التي تحلوا بها وبرزت للعيان •**

انهـا قصة أعمـال عظيمة جسام ، **شهدها البر والجو والبحر** ، وطفحت بمصارعة الاهوال والثبات والصبر والاخلاص ••• حتى النفس الاخير • لقد انصبّت هذه جميعا على تحقيق أهداف غير منظورة ، على الوجب اللاحب المبصر ، وغايات يجانبها الادراك الشامل الواضح • ان ما صدر من كتب عن بلاد الرافدين لا يبيّن ، على وجه التمام ، شجاعة تلكم النفوس الابية الكريمة وثباتها ، وهي التي ناءت تحت وطأة تلكم الايام العصيبة الشداد ، نفوس بريطانيين وهنود وعرب

---

(٨) وكانوا في امرة (المؤلف) ، اذ كان يشغل منصب (وكيل الحاكم الملكي العام في العراق) **بعد مغادرة سر برسي كوكس ، وحتى عودته •**
(المترجم)

وعرس وترك وافارقة . هذا وان منشوراتنا الرسمية الضخمة الصادرة عنها لم تفصح عن المهارة الفنية والولاء للمسلك ، وهما حليتا الآف من الجنود على اختلاف أجناسهم وأعمارهم ومناشطهم في هذه الحياة ... انهم من انصرف بكليته لا الى القتال حسب ، بل الى اعمار البلاد التي منيت بالخراب على يد حكامها السابقين السادرين في الضلالة ، وعلى غرار ما منيت به بلاد الفلاندرز تحت وطأة جهاز الحرب الحديثة الضخم المروّع .

اننا الذين نعرف ماهية تلكم المآسي ، وندرك تلك الجهود ، فأطفالنا ، وهم اليوم سعداء لانهم لا يفقهون عنها شيئا ، يجب ان يتشبّعوا بالروح التي دفعت اليها لا يسكرهم الفخر المنبثق عن الظفر والانجاز .

كانت نيتي منصرفة الى ان اسجل شيئا ما ، وان كان ناقصا ، لاجلو تلك الروح ، وكيف ان ولاءاً وقف بازاء ولاء ، وان أدّى ذلك الى ان تنتكأ الجروح وتنضح منها الدماء . قلت في بغداد سنة ١٩٢٠ : اننا ، على ما أعتقد ، الوحيدون الذين نملك القـدرة على تمكين أهـل الشرق الاوسط من وحدتهم السياسية والثقافية بشكل يفوق ما ادرك منها في أيام الانبراطوريات العظيمة التي يحفل بها ماضيهم الرومانطيقي . ان وحدة كهذه تجود عليهم بالخير والبركة ، وعلى العالم بالسلام والطمأنينة .

وتعاقبت الوزارات البريطانية على الحكم منذ تلكم الايام ، وحطّمت تلقائيا، عن سبيل عقد المعاهدات وما اليها ، (الادارة المدنية) التي كانت قادرة على اسداء العون الى أهل العراق لتحقيق الاهداف آنفة الذكر . لم تقم الا بقليل مما ينفع القوميات التي تكوّن منها شعب العراق وتمكينه من التعايش المنسجم مع جيرانه والوقوف على قدميه في خضمّ الاوضاع المضطربة العسيرة التي تكتنف العالم كله . لذا غدا المستقبل غير آمن ، ولعله ، أصبح مظلما . وليس من شأن هذا (الكتاب) تناول امر هذا المستقبل بالبحث . لقد فقدت في العراق كثيرا من أعزّ صدقائي، فالى ذكراهم العطرة والى ذكرى الـ ٦٠ ألف هالك فيه ازجي هذا الكتاب هدية ، واضعه باحترام بين أيدي القراء .

١ تشرين الثاني ١٩٣٠ **أ. تي. ويلسون**

مقدمة المؤلف

في

طبعة (الكتاب) الثانية

في خلال الاشهر الاربعة التي مرّت على يوم نشر هذا (الكتاب) ، أي منذ كانون الاول سنة **١٩٣٠** كتب عنه شيء كثير ، وحباني رجال اسهموا في الوقائع الواردة فيه أو هم من المطّلعين عليها بمئة خطاب وزيادة ، ولقد لخصّت انتقاداتهم في الالحوظات التالية • وباستثناء ما ذكر في أعلاه ، لم يرتب ناقد نزيه بالحقائق الواردة في (الكتاب) ولا في النتائج المستخلصة فيه • ان التسليم بكل شيء امر واهن ضعيف ، واني لآخر من يدعي بان تفسيري لهذه اصفحة الشائكة المعقدة من تأريخنا غير قابل للتحدي والنقاش من قبل اناس لهم معرفة خاصة ببعض وجهات كفاحنا المعيّنة ، وعلى الوجه الذي يفوق معرفتي كثيرا • ان في كفاحنا وجهات تحتمل الجدل والمناقشة ما الى الشك في ذلك من سبيل • ومهما تكن الحال ، فمن الحق ان نخلص الى ان السرد الوارد في كتابي هذا ، استطاع ، في خطوطه العريضة ، ان يصمد بازاء النقد المعاصر •

يوم القديس جورج سنة ١٩٣١

أ• تي• ويلسون

مقدمة المؤلف
في
طبعة (الكتاب) الثالثة

ها قد مرت خمس سنوات على تأليف كتابي الموسوم بـ (ولاء وولاء : Loyalties) وتابعه الذي اسميته (**صدام بين ولاء وولاء** : Clash of Loyalties) ، وقد جعلتهما في هذه (الطبعة) كتابا واحدا لم احذف منهما شيئا ولم ابدّل فيهما تبديلا •

ليس في (المقدمة) ولا في صلب (الكتاب) كلمة يخلق بي حذفها أو تغييرها أبدا • لقد أيّدت حوادث السنوات الست الاخيرة ، ولم تبدّد ، الشكوك الواردة فيه والحائمة حول قرارات (فرساي) ، والقرارات المتّخذة في (لوزان) بأخَرَة •

ان الخوف الذي ساور مصير الاقلية الآثورية[1] ، وقد نبذناها في العراء بعد ان سخّرناها لمآربنا تسخيرا (كذا) ، أيّدته النوازل التي شهدتها سنة ١٩٣٤ ، ووقوف كل من فرنسة وانكلترة بازائها وقفة المتفرّج ، غير الآبه (كذا) • لقد قتل منها خلق كثير بيد القطعات العراقية ، وكانت على أميال قليلة من (القوة الجوية البريطانية) ، وجرى ذلك على الرغم من الضمانات التي اعطيناها الى

---

(١) الآثوريون من رعايا العراق ، ومن يتمرد من رعايا العراق مهما كانت قوميته أو طبقته ، يلق العقاب المنصوص عليه في القانون العراقي ، وليس من حق دولة أجنبية التدخل ان عمدت الدولة الى تنفيذ القانون أو اتخاذ اجراءات تأديبية بازاء من يخرج على الدولة والقانون فذلك مساس بالسيادة الداخلية فما شأن فرنسة أو انكلترة في هذا الامر ؟! انها عقلية الاستعباد (الاستعمار) التي (أخنى عليها الذي أخنى على لبد !) • (المترجم)

(عصبة الامم) ولولاها لما اطمأنت هذه الى التزامات الحكومة العراقية الشكلية (كذا) ولم نسحب (سفيرنا) ، ولم نسمح لضباط (البعثة العسكرية البريطانية) في بغداد ، مع رغبتهم في ذلك ، بالعودة الى وطنهم . واحيلت قضية توطين الآثوريين الى (العصبة) ، وها قد مرت على تلكم الاحالة سنتان من دون جدوى . لقد نكثنا العهد الذي تعهدنا به في (جنيف) تجاه هؤلاء القوم . ان العالم الاسلامي برمته شاعر بالحقيقة هذه ، لذا فانه يرتاب باخلاص (ممثلينا) في جنيف عندما يرددون عبارة حرمة المعاهدات .

واعلنت الحكومة الفرنسية انها تروم التخلّي عن الانتداب على سورية الشمالية ، على حين لا تريد ان تفك قبضة يدها المطبقة على لبنان . لعل في مثل هذا القرار سدادا (كذا) . ولم يحدث في سورية خلال السنوات الخمس الاخيرة ما يحملني على ان اكيّف الرأي الذي ابديته في (الجزء الثاني) من هذا (الكتاب) ، واعني به : « ان الانتداب على سورية غير ذي نفع ولا تستأهل سورية بقاء فرنسة فيها (كذا) . ان رفع الهيمنة الفرنسية عن شماليها أو تقييد ذلك يؤدي الى نتائج ذات خطر في جنوبيها ، أي في البلاد المسماة (فلسطين) والتي تضطلع بريطانية بالانتداب عليها[٢] . ان الوقائع التي شهدتها (فلسطين) خلال السنوات الخمس الاخيرة ايدّت ما ذهبت اليه في ختام (الجزء الاول) من (كتابي) هذا حين قلت : « ان سياسة الحلفاء (في سورية وفلسطين) انطوت ، بالنسبة الى السكان اليهود والنصارى في بلاد العرب ، وبالنسبة للعرب انفسهم ، على ان يقف ولاء بازاء ولاء ، وما زالت نتيجة هذا الموقف محفوفة بالريب » . وعلى الرغم من ان رجال الحكومة البريطانية كانوا جد شاعرين بالصعوبات التي ينطوي عليها وجود اقليات جنسية ودينية في الانبراطورية التركية ، لكننا ، بارادتنا المحضة ، وتحقيقا لمصلحتنا الأنية ، التزمنا بخلق اقلية قوية جديدة

(٢) أرجو أن لا ينسى القارىء الكريم ان (الانتداب) أشد قسوة من (الاستعباد) ـ المسمى زيفا بالاستعمار ـ فالاول غامض مبهم والثاني واضح صريح والاول حكم أجنبي مقنع والثاني حكم أجنبي مباشر .

(المترجم)

في الشطر الوحيد من تركية ، بل والشطر الوحيد من سورية ، على حين لم نكن فيه قضية أقلية تسبب الاقتتال والمجازر البشرية •[٣]

كان لتصريح (بلفور) وجهان : لقد أكدنا فيه (الوطن اليهودي القومي) ، على حين لم تنل فيه حقوق العرب التي ضمنّاها الا القليل من رعاية واحترام • لم تكن في نيتنا ، ولم نجعل العرب يأملون ، بان تكون في فلسطين قرابة نصف مليون يهودي اوربي جلّهم من أعدائنا القدامى الذين انساحوا اليها من اوربة الشرقية والوسطى • انهم ليسوا بساميين أصلا (فهم في الغالب من عنصر السلاف المتهوّد) ولا قدرة لهم على الاندماج المنسجم ، انهم يهود بالحس لا بالعرف أو بالرس • لم يغادر البولنديون الذين يؤلّفون أكثرية هؤلاء اليهود ، بلادهم بسبب ما مُنوا به من ظلم واضطهاد ، وانما كان ذلك لنشدان حياة أفضل •

ودخل فلسطين نحو خمسين الف بولندي ، وبضمنهم من هاجر سرّا ، ومن كان على غيره كلاّ • ان العدد المذكور يمثل الزيادة السنوية الخالصة في نفوس بولندة ، ومن البيّن الجلي ان فلسطين لن تستطيع الى « امتصاص » مثل هذا العدد سبيلا • وليست الصهيونية بحلّ لقضية اليهود ، ولا يمكن اعتدادها وسيلة جديدة لحلها ، لكنها ، على القطع ، تؤدي الى أثر ذي خطر مؤثر في أذهان العرب في العراق والعربية السعودية وسورية •

غدت تركية وايران ، خلال السنوات الاخيرة ، دولتين قويتين في كل ناحية ، ومردّ ذلك الى رئيسيهما الحاكمين بأمرهما واللذين يستمدّان القوة من شعبيهما ، عن رضا وطواعية •

لم تبق ثمة عناصر ضعف تشوب الشرقين : الادنى والاوسط ، انهما يظهران ايدا وقوة ووحدة قصد • ان ذلك يناقض السكون ووهن القصد اللذين شابا سياسات الدمقراطيات الغربية في خلال السنين المواضي • ولو لُبّي طلب الالمان في استعادة بعض الاقطار الافريقية التي تخضع اليوم لنظام الانتداب ، وذلك

---

(٣) هذه شهادة رجل بريطاني مسوءول كبير ، بأن خلق (دويلة العصابات الصهيونية) في الجزء المحتل من فلسطين جريمة بريطانية محضة تسفر عنها مجازر بشرية ، فتأمل • (المترجم)

امر محتمل ، فمن الجائز ان تعاود تركية ، وهي اليوم بسبيل استعادة شأنها ، مطامحها • ولا توجد امارة تدلّ على مثل هذا في يوم الناس هذا ، لكن مجرى التأريخ العام يوحي ان الامم القوية الموحّدة تنشد السعة وتميل الى ضمّ « الوحدات » الضعيفة الموجودة على حدودها ، وعلى غـرار ما فعلت تركية في السنوات الـ ١٥ الاخيرة • في أقوال العـرب السائرة : اتفق العـرب على ان لا يتفقوا[٤] لكن مجرى الاحداث لا يقاس بالسنين التقويمية ، بل بالاجيال • ان تركية اليوم آمنة مطمئنة وراء الدردنيل في موقع مكين أمين ، وفي مكنتها ان ترقب « اليوم الموعود » ، ومما يساعدها على ذلك وهن الشعور بالوحدة الاسلامية ونماء كره الاجنبي مكانه • انه كره موجّه أولا الى الاوربيين ، تثيره بازاء الصهاينة بقوة • انها التزامات تناهض المبدأ الذي شاع في الناس وذاع وكلفوا به كثيرا وأعني به : مبدأ تقرير المصير • ونجم شيء فذّ خلال الـ ١٥ سنة الاخيرة هو اكتشاف النفط في حقول العراق واستثماره بمقياس كبير واكمال مدّ خط أنابيبه التي يسيل فيها وهو خام كدر من الجهة الشرقية في شمال العراق حتى طرابلس وحيفا[٥] لقد جرى استثمار ملايين الجنيهات المتدفّقة من رؤوس أموال بريطانية وامريكية وفرنسية وهولندية صبّت في هذا (المشروع) ، لذلك غدت هذه الدول معنيـة باستتباب الامن وسيادة النظام في البلاد التي تحتضن (المشروع)، شأنها في ذلك كشأن حكومات العراق وسورية وفلسطين على تفاوت • ان الكل يصبو الى منع نجوم اية اضطرابات تعرقل سير الاستثمار الذي تعود فائدته على المعنيين به جميعا • ولعل هذا أكبر ما يبعث على الامل في مصير الوضع الراهن • انه يعرقل ، وان كان لا يحول دون القيام بتبدلات عظيمة • وانه سيجود في قابل الايام ، على ما يجود به اليوم ، بواردات كبيرة تستوفيها الحكومة القائمة والحكومات الشرعية ،

(٤) الاصـح ان الاستعباد « الاستعمار » هو الذي يريدهم أن لا يتفقوا ويعمل جاهـدا في سبيل ذلك مصطنعا كل وسيلة ميسورة لتفريق الصفوف وتقطيع الوطن الاكبر الواحد ، والعاقبة للمتقين • (المترجم)

(٥) قطع خط الانابيب الممتد الى حيفا تحت ضغط الرأي العام العربي بعد قيام دولة العصابة الصهيونية في الشطر المغتصب من أرض فلسطين العربية • (المترجم)

على حد سواء • ان عسر التكّهن بما سيأتي به الغد والتطورات الآتية يستشف من حقيقة واحدة فذّة هي : ان (الشخصية) التي لمعت خلال أيام الحرب وأصبح مركزها يقوى منذ ذلك اليوم هو : ابن سعود ، الرجل الذي كان ينظر امثال (تي• اي• لورنس) و (دي• جي• هوجارث) غير خليق بأي اعتبار ، وغير مرجو الغد• وثمة حقيقةأخرى محصلها : انالاوضاع السائدة في العراقوالشرقالاوسط، باستثناء تركية وايران ، غير مستقرّة ، وان الانظمة الحاكمة فيها تحوّلية مؤقتة• ان تحسين وسائط النقل والاتصال لم يجهز على المنافسات القومية والمحلية بل زاد من حدّتها ، كما ان اتّساع وسائل نشر التعليم السطحي أدّى الى استفحال التحاسد وازدياد المطامح بالنسبة الى الذين يصبون الى شغال المناصب الادارية والاجرائية في هاتيك الاقطار • ولم تبلغ حركة من هذه الحركات حد النماء الكامل ، وان تحقق ذلك ، ولعله يتحقق في خلال عشر سنوات ، فلا معدى من ان يكون له ركس (رد فعل) • وسيشدّ من عضدها تذمّر الطبقات الكادحة والفلاحين والعمال والرعاة ممن ليسوا على شيء من الوطنية المتمرمرة الضيقة ، وهذه ، على انها مفتعلة مصطنعة (كذا) ، تثير المتخرجين في الجامعات من ابناء الطبقتين : الوسطى والعالية ، وتحفزهم [٦] • هذا واني اميل الى الاعتقاد بانهم سيتجهون نحو تركية ، فهم لم ينسوا بعد تأريخهم الماضي الطويل ، وعلى ما اتجهوا نحو انكلترة قبل عشرين سنة •

انهم ليرومون الخلاص من وضع « يمتطي فيه الاتباع الخيول المطهّمة ، والامراء يمشون على الارض مشية الاتباع » ، وذلك مشهد لا يسر له كاتب (سفر الجامعة : Ecclesiastes) من اسفار الكتاب المقدّس • وبقي شيء آخر أحبّ ان اذكره ، هو : اني اضع كتابي الجديد هذا بيد اوسع حلقة من قرائه لتقرأ فيه ما عاناه آباؤها واخوانها وما قاسوه من حمارة الصيف وصبارة الشتاء ،

---

(٦) هؤلاء هم الطليعة الواعية في الامة وهي تدرك أحابيل الاستعباد وتعرف أهدافه وهي لها منكرة ، أما الاستعباد فهو منها مسرف، مرتاب ، يريد أن يزين لها سوء عمله ويصدها عن السبيل لكن لمثل هذه الطبقة المثقفة الواعية بصائر وارادة ستحقق أهداف الامة الحصيفة وان طال جهادها واستطال كفاحها • (المترجم)

وكيف انهم خرجوا من اتون متقد ، لا يتمرمرون ولا يتذمرون ، بين بين وليسوا بصلاب أعواد وليسوا بمحطمين . لقد دأبوا على ماعرفوا به صابرين مرحين جذلين، وعلى استعداد للعودة الى مناشط الحياة المدنية الحربية خارجها . لقد خلف اولئك الجند ذكرى عطرة فواحة ، واكتسبوا اجلالا لم يحظ به أي أجنبي حل في بلد شرقي . لقد رفعوا لنا ذكرا ، لا يدانيه في ذلك حتى من بعثناه سفيرا . ولم يكن اخوتهم في السلاح من الهنود ، على ما تفصح عنه صفحات كتابي هذا ، بأقل منهم ضبطا وربطا واقداما وشجاعة . لقد تحلوا جميعاً بما نفتقده اليوم وأعني به : الثقة بالامة والامل بمستقبلها والاحسان الى مواطنيهم والكلف به .

فالى (ذكرى) أصدقائي الاعزة الذين ودعوا هذه الدنيا ورحلوا الى (دار القرار) في سوح العراق ... والى ذكرى الستين الف هالك فيه ، اهدى كتابي هذا وازجيه .

الاول من آب(٧) ١٩٣٦

ارنلد ويلسون

(٧) دعاه المؤلف : Lammas Day

(المترجم)

تصدير

عندما اذاعت (وكالة رويتر) في حزيران سنة ١٩١٤ ارهاصا بالنازلة المقبلة ، وخبر (جريمة سراجيفو) ، كان الافق السياسي في الشرق الاوسط أقل تلبدا بالسحب الثقال ، من أي وقت مضى ، خلال خمس سنين مرت وانقضت . وكان الشاه الشاب ، السلطان أحمد ، منذ تتويجه يوم الحادي والعشرين من تموز ، يحكم ايران بوصفه ملكا دستوريا ، على (بلد) مُني ، منذ مدة طويلة بوضع داخلي امره فوضى ، لذلك لم يكن لمثل حكمه ، وان استطال ، اثر فيها . « فالاغنياء » ، على ما ورد في القول الفارسي السائر ، « شغلوا بغناهم ، والفقراء شغلوا بفقرهم » . وعلى الرغم من ذلك كله كانت هناك دلائل تشير الى وجود تحسن في النظام العام ، فما ان فتح (نائب الملك في الهند) المجلس التشريعي في آذار الا نوه في (خطاب الافتتاح) بصنيع الدرك الفارسي الذي كان بامرة الضباط السويديين. وكان الحاصل الزراعي جيدا ، ومحصول الافيون منه يبشر بخير عميم ، كما كان هناك أمل عظيم معقود على شركة النفط الفارسية ـ الانكليزية المصدرة للنفط بمعدل ربع مليون طن ، وزيادة ، سنويا .

وفي العاشر من آب سنة ١٩١٤ صدق الملك القانون الذي سنه البرلمان وخول الحكومة البريطانية بان تكون لها على (الشركة) ، آنفة الذكر ، سيطرة ، وان تكون لها مصلحة فيها . واعلن مستر ونستن شرشل ، بوصفه وزير البحرية ، خلال مناقشة الموضوع في مجلس العموم ، ومستطلعا المستقبل ، بقدر تعلق الامر باستثمار حقول الشركة : « انها ستجعل الحكومة الفارسية ايدة قوية وسترو ض العشائر المتذمرة المتمردة » ، ثم تساءل ، بعد ذلك : « كيف يتسنى لهذه البلاد

ان تتقدم دون ان تستثمر مصـادر ثروتها وتنشـر نور الحضارة في اقاليمها القاصية ؟ » ومهما تكن الحال ، انها لطريقة معنوية سليمة ، تامة مشروعة • وكان ان بدأ الاخذ بالطريقة التي أشار اليها فغدت الجهة الجنوبية ــ الغربية من ايران تستمتع بسلام لم يعرفه سكانها منذ أمد طويل •

وكان هذا السلام مخيِّما على (الخليج الفارسي) أيضا • فلقد تمّ مؤخرا عقد اتفاق مع الحكومة الفرنسية ختمت بموجبه صفحة نقل الاسلحة ، عبر الخليج ، من مسقط • وكان الاسطول البريطاني ممثّلا بثلاث سفن حربية ترقب ، بعين الصقر ، سفن العرب الناشطة في استخراج اللؤلؤ ، ومصايده منتشرة على جبهة طولها نحو ١٠٠ ميل[1] كما انها كانت ترقب قرصان البحر أيضا لئلا يظهروا وينشطوا على ما كانوا عليه في الايام المواضي الخاليات • وكان يجرى بناء (المنارات البحرية) و (الطوّافات المنيرة) في بعض الجزائر والموانيء ، وكل ذلك لتأمين السلامة البحرية • وتمّ نصب أجهزة اللاسلكي في (البحرين) و (بوشهر) لفائدة التجار ولمصلحة التجارة البحرية أيضا • وساد السلام بين شيوخ الامارات العربية الموجودة على الساحل الممتد بين (المصندم[2]) والبحرين وبين رعاياهم والعالم اجمع • وكان شيخ الكويت مبارك بن صباح ، وهو من بلغ من الكبر عتيا واشتعل الرأس منه شيبا ، ولعله من خيرة ابناء جيله من العرب ، ينظر الى المستقبل نظرة يسر واسماح • لقد اقرّ (الباب العالي) حكمه الفردي خلال المفاوضات التي جرت بين الحكومتين العثمانية والانكليزية وتناولت مشروع سكة حديد بغداد • وكان (الشيخ) ينظر بعين الطمأنينة والرضا الى نماء نفوذ صديقه (ابن سعود) في الرياض نماء مطردا مستداما • وكان (ابن سعود) قد اتّجه في أيام النحوس الى (الكويت) يرجو منها العون بازاء غريمه (ابن

---

(١) من الظواهر الطبيعية العجيبة في (الخليج) ان الماء العـذب ينبع من قعره ولا يختلط بالماء الملح (هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج ــ الآية الكريمة) وفي كثير من الاماكن القريبة من الجزائر يغوص السكان اليه على غرار ما يفعلون بالنسبة للحصول على اللؤلؤ وما أن يملأوا من الماء العذب قربا الا يجدوا اللؤلؤ المكنون في أصدافه أيضا • (المترجم)

(٢) عند مدخل (الخليج العربي) • (المترجم)

رشيد) في حائل فلم يخب منه الرجاء[٣] • ولم يكن هناك موضع يمور بالقلق والاضطراب الا (واحة الاحساء) المنفصلة عن الخليج بصحراء • وكان ابن سعود يرقب قلقا ويتربص بازاء مجرى المفاوضات الانكليزية ـ التركية ، وان لم يكن هو بطرف فيها • لقد علم ان الحكومة البريطانية لن تستطيع الى نقل المفارز التركية المستقرة على موانىء الساحل سبيلا • كما كان يرى ان الاتراك سيحملونه قريبا على قبول موظفيهم للعمل في الاحساء والرياض أيضا • لذلك ، بدر فنزع سلاح الحامية التركية وطردها ، واعلن انه يحكم نجد ، المستقلة ، حكما ذاتياً ويستفيء بظل (الباب العالي) في الوقت نفسه • اما (تركية العربية) ـ وهو الاسم الذي كانت الدوائر الرسمية البريطانية نطلقه حتى سنة ١٩١٦ على ولايات : البصرة وبغداد والموصل ـ فكانت تمور بالقلاقل العشائرية وتفور ، على وجه غير معتاد • لكن هذا الوضع لم يكن بذي أهمية من الوجهة السياسية لأن تلكم القلاقل كانت محصورة بمنطقتي دجلة والفرات الكائنتين جنوبي بغداد • وكان الفلاحون دائبين على العمل في اراضيهم ، والرعاة على رعي قطعانهم، على ما كان يفعل ، طوال مئتي جيل ، اباؤهم الاولون ، وما كان تبدّل طرز الحكم في اصطنبول ليعنيهم أبدا • لقد كانوا على ما قال الشاعر الانكليزي :

ولعل ما كان شاغلا عقلهم المتبلّد لا يعدو : حبيبة وسائمة •

لكن السلام السائد كان ذا طابع راكد ، فبلاد مابين النهرين مُنيت بالخمود السياسي والتفسّخ الاقتصادي ، وما كانت الاضطرابات العشائرية الا احتياجات عمياء غير بصيرة يطلقها جهلة (كذا) تصبوا الى ما هو أفضل ، لكنها لا تستبين السبيل الى تحقيقها ابدا •

وكانت (جمعية الاتحاد والترقي)نشطة في البصرة حقا • واسفرت مطامح بعض القادة البلديين المنتمين الى احزاب متصارعة عن حرج ، لكن الحكومة لم تهتم بذلك الالماما • ذلك ان (حقي باشا) كان قد عقد مع (سر ادورد كرى)

---

(٣) ينتمي كـــل من (ابن سعود) و (ابن صباح) الى قبيلة (عنزة) أكبر قبيله عربية بدوية وينتمي (ابن رشيد) الى (شمر) ، وللعصبية القبلية أثر في مثل هذا الموقف • (المترجم)

سلسلة من الاتفاقيات التي جرى التفاوض حولها خلال ثلاث سنوات ، وشملت كل قضية ذات بال كانت قائمة بين البلدين •

وكان النزاع ، وقد استطال ، بشأن نهاية خط سكة حديد بغداد في سبيل الحل • واتفق الطرفان المعنيان ، مبدئيا ، على مسودة اتفاق ينظّم الملاحـة في شط العرب ، كما كان تخطيط الحدود التركية ـ الفارسية قـد تم أو كاد ، وبذلك ختمت صفحة نزاع أستمر نحو ٣٠٠ سنة • وكانت الملاحة في نهري : الفرات ودجلة ، ووضع الخليج الفارسي الراهن ، ومشكلات اخر من الامور التي يراد حلها بالمفاوضة مع الحكومة البريطانية ، على حين كانت هذه الحكومة تفاوض الحكومة الالمانية في الوقت نفسه • وعلى الرغم من ان الاتفاقيات هذه لم تكن قد ابرمت بعد ، الا انها وقعت بالحروف الاولى من اسماء وكـلاء المتعاقدين ، كما نوّه بها في (خطاب العرش) الذي ألقي في اليوم العاشر من شباط في حفلة افتتاح البرلمان • سترتبط اسطنبول في غضون سنوات قليلـة بالبصرة فتصبح سلطة (الباب العالي) حقة تشمل المناطق التي كانت ادارتها ، فيما سلف ، اسطورة •

وعندما بدت سحب الحرب الثقال في الافق الغربي لم يكن ليخطر ببال أحد في (تركية العربية) انها ستطبق على اهلها وشيكا ، في غضون شهور قليلة، فتنزل بهم الويل والثبور ، لم يكن ليخطر على بـال من فيهـا ان سـيهلك على أديمها ، خلال ست سنوات ، نحو ٣٠ ألف جندي بريطاني وهندي ومثلهم من الاتراك والعرب ، جند كانوا في زهرة العمر وميعة الشباب ، وسواء أكـان هلاكهم في سهل الرافدين أم على صخور براري كردستان • كما ان أحدا لم يكن ليرى مسبقا ان (مارس : اله الحرب) سيهدم ، على ما فعل (شمشون الاعمى) ، صرح كل دولة شرقية لينقضّ ، لا عليه حسب ، بل على آلاف الارواح البشرية اللطيفة البريئة ، فتنبثق من خلال الركام والاخربة فِكَر جديدة ، ودول حديثة يسيطر على مقدوتها رجال كانوا بالامس مغمورين جدا ، لايستثني منهم الا ابن سعود • ان ذلك ، وغيره ، كان من خبء القدر المجهول • لقد أشبع البحث في

سبب انضمام تركية الى اعداء الحلفاء وكيفية ذلك ، وليس من شأن هـذا (الكتاب) معاودة البحث فيهما ، فهو معني بسير الحوادث التي شهدتها بلاد مابين النهرين منذ اندلاع لهب الحرب بين بريطانية العظمى وتركية .

وفي الثاني من آب ، على ما يقول جمال باشا ، وقع الحلف التركـي - الالماني ، لكن الاتراك قرروا عدم الاسهام في الحرب قبل أن تتم التعبئـة في بلادهم . وفي الرابع من آب ابرق (هر فون جاكو) من برلين الى اصطنبول يقول : « من المحتمل ان تعلن انكلترة الحرب علينا ، اليوم او غدا ، وحذرا من ان يقطع (الباب العالي) صلته بنا ، في آخر لحظة ، تحت وطأة الاجـراء الانكليزي ، فان اعلان تركية الحرب على روسية ، ان امكن اليوم ، لـه الاهمية العظمى ، على مايتراءى » .

وكانت القنصليات البريطانية في الشرق الاوسط واعية . كان المقدم سكوت (المنسوب الى مصلحة الصحة الهندية) يقوم بمهام القنصل البريطاني العام في بغداد ، وكان في البصرة (بولارد) وفي المحمرة (المقدم تريفر) وفي اصفهان (ويعمل في الاهواز) النقيب رانكنك ، وفي كرمنشاه الشيخ الهرم مكدونالد [٤] .

وفي الـ ١١ من آب ابرق سكوت يقول : « ان أهالي بغداد متبرمون من اعلان الاحكام العرفية ويتمرمرون من تنفيذ قانون التجنيد الاجباري ، واخـذ التكاليف الحربيـة ، حيوانات وبضـائع ، وقد يعمدون الى اثارة المشـكلات الخطرة بتأثير الدعاية المناهضة لبريطانية » .

واضاف الى ذلك : « ان الوضع على مايستشفه المسؤولون المعتمدون هنا ذو احتمالات أكثر خطرا من سابقه » .

ومن البصرة ارسل (بولارد) يقول : ان شعور العداء بـازاء الروس والانكليز لقوي ، وان الجهات الرسمية تؤرثه سرا . لقد تم الاستيلاء على جميع موارد الفحم البلدية ، واوقفت الملاحة في نهر دجلة وارسل الدعاة الاتـراك الى الهند لاثارة ولاء المسلمين الهنود الكامن . واتخذت الاستعدادات ، بعـد

---

(٤) توفى في خانقين في اليوم الثاني من تشرين الثاني ١٩٢٤ . (المؤلف)

اسبوع ، لسد النهر على يد بحارة الباخرة (اكبتانا) وهي من بواخر شركة (همبرغ-امريكا) وكانت في البصرة راسية •

وأحجمت السفن البريطانية ، في هذا الوقت عينه ، عن الدخول الى شط العرب ، وبذلك حرم ملاكو البصرة من سوق لتصريف تمورهم ، وكانت جاهزة للتحميل • واخذت القوات التركية بالوصول ، وغايتها ، على ما اشيع ، الكويت • وتراءى جليا ان تركية ستعلن الحرب وشيكا • كما كان من البيّن الواضح اننا لم نكن قادرين على تأخير اتخاذ اى اجراء بازائها في هذا البلد الى مرحلة من مراحل الحرب القادمة •

« ان الاثر السياسي في الهند والخليج الفارسي » على ما قال السر ارثر هرتزل ، سكرتير الشؤون الخارجية في وزارة الهند يومذاك ـ لفاجع" ان نترك رأس الخليج سادرا مهجورا ، ولسنا بقادرين ، سياسيا ، على الاطمئنان لمثل ذلك لمدة غير محدودة ، على حين يجري حسم القضايا الرئيسة في اماكن اخرى • ان أي تحول تركي الى هذه المنطقة ، من وجهة النظر العسكرية الصرفة ، ليس بذي أهمية ، على ان ذلك لو جرى بامرة ضباط المانية لما كان معدوم الاثر بالمرة • ان الغاية منه هو التأثير السياسي في الشعور الاسلامي ، وهو ماينشده الاتراك والالمان •• ولسنا بقادرين على ان تكون باكورة اعمالنا جعل شيخ الكويت ضحية » •

لذلك كله سردت المناقشات التي استمرّت خلال شهري ايلول وتشرين الاول في (التاريخ الرسمي Official History) على الوجه الاتم الاوفى• ووافقت الوزارة مكرهة على ارسال حملة استكشافية الى الخليج الفارسى ، وكان المقرر ارسالها الى عبادان في شهر ايلول لولا احتجاج حكومة الهند التي كانت تصبو الى الا" يشعر الهنود المسلمون بأن لنا نوايا عدوانية بازاء تركية •

لقد دلت الحوادث التالية في الهند على ان تلك المخاوف لا اساس لها • وخلال الاسبوع الاخير من تشرين الاول نصب الاتراك المدافع على ضفتي شط العرب وزرعت الالغام في سبيل القطعات العسكرية في نهر دجلة نزلا •

وفي الـ ٢٩ من تشرين الأول اعلم سفير بريطانية في اصطنبول سر لويس ماليت ان صراعا خطيرا يدور في اصطنبول بين (حزب الحرب) و (المعتدلين) ، وان الامل لم يفقد بعد كليا •

وفي اليوم نفسه قصفت الباخرتان الحربيتان الالمانيتان (غوبن) و (برسلاو) عددا من الموانيء الروسية • وفي الـ ٣٠ من الشهر طلب كل من سفراء بريطانية وفرنسة وروسية جوازات سفرهم • وفي الـ ٣١ من تشرين الاول اصدرت كل من وزارتي البحرية والهند برقيات «الحرب» ، واعلنتها روسية على تركية في اليوم الثاني من تشرين الثاني ، وفي الخامس منه حذت انكلترة وفرنسة حذوها (حذو القذة بالقذة) •

وهكذا تحدّت (الانبراطورية البريطانية) دولة من أعظم دول آسية العسكرية ، ومن ورائها اعظم دول اوربة العسكرية ، ونازلتها في (جنة عدن) الاسطورية • وباء الاتراك ، خلال سنوات قليلة ، بالغضبة التي باء بها (آدم) ــ كذا ــ فعادوا من حيث جاؤوا ، و « السيف اللاهب الذي كان يدار في كل جبهـة بيـد الجيش البريطاني حال بينهم وبين الاراضي الخصبة[5] التي حكموها حكمـا سيئا ، مدة طويلة •

(٥) أراضي العراق الخصبة هي مطمع المحتلين البريطانيين ، بالاضافة الى ثروته المعدنية وموقعه الجغرافي • وقد أوضح جوالة بريطاني وحاكم سابق فيه ــ اعني : برترام رسل ــ ذلك في كتابه الموسوم ذعر وغارات
Bertram Thomas. Alarms & Excursions in Arabia.
اذ قال: «في بلد عشائري بالدرجة الاولى كنا نصبو الى الهدوء والاستقرار لتستطيع قواتنا العسكرية الى الانصراف كلها الى هدفها الرئيس : القضاء على الاترك ، واذا ما امنت العشائر من بعضها بعض على الوجه الذي لاسابق له واستطاعت ان تبيع ما تنتج من حنطة وتمور وما شابه ذلك لاطعام جيشنا العظيم في ميدان المعركة بأسعار بخسة • (ص ٢٤) » • (المترجم)

الفصـــل الاول

احتـلال البصـرة

« لا جدوى من بدء حركات عسكرية على مقيـــاس كبـير ما لم يستعد الموظفون المدنيون لتسلم مقاليد الامور في البلاد ، واقامة حكومة مدنية فيها • فان لم يتم قيام الحكومة المدنية على هذا الوجه عاد الثوار الى شأنهم بمجرد مرور القطعات العسكرية من الاقاليـم • ولدى معـاودة تأسيس الحكومة على الوجه المبين وجب أن يكون ذلك بالارتكان الى أساس رصين مكين ، مستدام غير وقتي • »

دوق ويلنكتون في ٢٠ آذار سنة ١٨٠٤

تجلى خلال شهر ايلول سنة **١٩١٨** ان الحكومة التركية ستصبح ، عما قريب ، في عداد الدول المعادية للحلفاء[1] ، ذلك ان (الدردنيل) غلق في الـ**٢٧** من الشهر المذكور ، وفي اليوم نفسه تسلم (المقيم البريطاني في الخليج العربي) من (ابن سعود) نسخ برقيات وصلته من أنور باشا[2] تنـذره بارسال الاسلحة

(١) كان الصدر الاعظـم العثماني وأغلب الوزراء يرون بقاء تركية على الحياد ، لكن (جمعية الاتحاد والترقي) وعلى رأســها (أنور باشا) وزير الحربية ، و (طلعت بك) وزير الداخلية كانوا يريدون الحرب بجانب المانية، أما جمال باشا وزير البحرية فكان مترددا بين الحرب والحياد • ومما لا شك فيه ان الوضع الداخلي والخارجي كان يرجح بقاء تركية على الحياد والافادة من نتائج الحرب وانقاذها من التقسيم ، كما ان الدول المحتربة كانت تستفيد على السواء من بقاء تركية على الحياد ولم تكن لتستطيع اكراهها على الحرب • (المترجم)

(٢) لقد بنيت الخطة العسكرية العثمانية على أساس الافادة من العشائر في الدفاع عن العراق ووردت من اصطنبول أوامر الى والي بغـــداد والى والي البصرة بهذا المآل ، كما ان أنور باشا أراد أن يضمن مساعدة أمير نجد للجيش العثماني في هذا الصدد أيضا • (المترجم)

والعتاد والضباط لتدريب أتباعه الاعراب بغية شن هجمة بلدية (محلية) لا معدى عن أن تكون بازاء البريطانيين أو على من تعاهدوا معهم . وعلمنا من (البصرة) ان الوالي .مم بأن تركية توشك أن تدخل الحرب بجانب المانية[٣] ، وان الضباط الالمان هم في طريقهم الى بغداد .

ومهما يكن من شيء ، فقد تسربت من (أصفهان) أكثر التقارير لصقا بالامر ، اذ علم ان بحثاً يدور حول القيام بهجمة على (عبادان) يشنها الاتراك في أوائل الاسبوع الثاني من آب ، كما كانت هناك بعثة تركية الى كابل ، عَبْر كرمان[٤] . وقام النقيب رانكينك ، نائب القنصل البريطاني في (عربستان) ، وهو في أصفهان يومذاك[٥] ، بارسال برقية يقترح فيها ارسال مركب حربي الى شط العرب . وكان الرائد ترفر ، قنصل بريطانية في المحمرة[٥] قد طلب ذلك أيضا .

وفي الـ٢٩ من ايلول وصلت (شط العرب) الباخرة الحربية البريطانية (اسبيكل) وألقت مراسيها قبالة (المحمرة) ، على حين كانت الباخرة الحربية البريطانية اودن قد غادرت النهر وألقت مرساها عند (حاجز الطمى) . وكانت في عبادان[٦] الباخرة الحربية البريطانية (دالهوسي) -- وهي باخرة مسلّحة استعيرت من الاسطول الهندي الملكي وزودت ببحارة منه .

---

(٣) راجع : (D'abernon, Vol. I) للوقوف على خلاصة مفيدة لسيرة أنور باشا . (المؤلف)

(٤) كانت هذه من ضمن الخطة العثمانية لاثارة العالم الاسلامي بازاء (الحلفاء) وقد جرى ارسال دعاة سريين الى الهند وبلوجستان أيضا وتردد حديث (الجهاد) كثيرا . (المترجم)

(٥) أصبحت تدعى الآن (خرمشهر) راكبة على صدر نهر كارون الذي يصب في شط العرب ، وقد أصبحت ميناء وسوقا تجاريا ذا خطر منذ سنة ١٨٨٨ عندما قام الانكليز بمشروع ملاحي في النهر المذكور ، وللحد من نشاط قراصنة شط العرب وضعت بريطانية فيه أول باخرة حربية سنة ١٨٩٨م . (المترجم)

(٦) لمحافظة أحواض البترول ومؤسساته بطبيعة الحال . (المترجم)

واعترض (الوالي) في الرابع من تشرين الاول على وجود هذه البواخر ، وكانت حجته انها ترسو في المياه الاقليمية التركية • وفي السابع من الشهر المذكور جرى تسليم خطاب رسمي ، كُتب بالتركية والانكليزية ، من قبل ضابط بحري تركي على ظهر الباخرة (اسبيكل) • وبعد أن بيّن الخطاب أولا : ان شط العرب كله ملك لتركية فلا يسوغ لسفن حربية تابعة لدول محاربة أن تدخله ، خُتم الخطاب بالعبارة التالية : « يرجى مغادرة شط العرب في غضون أربع وعشرين ساعة » • وأرسل جواب خطي على هذا الخطاب ورد فيه ما مفاده ان (اسبيكل) لايمكن أن تغادر (الشط) ما لم تردها تعليمات من وزارة البحرية البريطانية • هل ان « المفهوم التركي » هذا مما يقره القانون الدولي، وهل انه يضيق واسعا ويمنح جائزا ؟ ذلك سؤال ممتع حقا ، وفي مكنة لجنة من الفقهاء الاجانب أن تدرسه دراسة مستأنية متمهلة • وعلى الرغم من ان شط العرب قد اعترف به ، فيما مضى ، جزءا من تركية لا يتجزأ ، الا ان حقوق تركية فيه ليست مطلقة ، ذلك ان قد كان للسفن الايرانية حق ، بموجب معاهدة معقودة ، بأن تمخر عبابه « بحرية تامة ، من مصبه في البحر حتى نقطة التقاء حدود الطرفين المتعاقدين ، أي على بعد نحو خمسة أميال من المحمرة • » ينضاف الى ذلك : ان الحكومة التركية سبق لها أن اعترفت سنة ١٩١٢-١٩١٣ ، خلال مفاوضة جرت مع بريطانية العظمى ، بأن يبقى شط العرب « مفتوحا لسفن الدول كلها • ومهما تكن الحال ، لم يكن الوقت وقت حجاج قانوني على هذا المستوى ، لذا وعز الى (اسبيكل) بأن تمضي الى مسافة نصف ميل صُعُدا في نهر كارون لتحل في المياه الاقليمية الايرانية » ، على حين مضت (دالهوسي) الى «حاجز الطمى» لترقب ماجريات الامور ولئلا تظهر (امدن) على حين غرة[7] • وبقيت هناك حتى الـ٢٦ من الشهر حين اتخذت

(٧) كانت شركة الهند الشرقية ، رائدة استعباد البريطاني قد عقدت مع شاه ايران سنة ١٦٢٢م اتفاقا يخولها الاحتفاظ بسفن حربية في (الخليج) بصورة دائمة وقد عززت بريطانية هذا الاتفاق باتفاقات عقدتها مع شيوخه سنة ١٨١٩ و (امدن) هذا طراد ألماني شاع ان الحكومة الالمانية كانت تنوي بيعه الى الاتراك، ثم كان ان ظهر في مدخل الخليج العربي ، وكانت مدافع =

سبيلها الى (بوشهر) لتيسير الاتصـال اللاسلكي مع بوخر « حكومة صاحب الجلالة البريطانية » ونقليـاتها • وفي الـ١٣ من تشرين الاول أعلم (**والي البصرة**) القنصل البريطاني فيها بأن على (اسبيكل) أن تغـادر شط العرب في غضون ثمانية أيام ، وان أية محاولة للمرور فيه ، بعد مضي المدة المقررة ، ستجبه بالقوة المسلحة • وشرع الاتراك في هذه الآونة بتحصين ضـفة النهر واقيمت المدافع بازاء (المحمرة) وشرعت قطعات النجدة تسير في النهر نُزلا[٨] • وفي الـ٢٠ من تشـرين الاول اقترح والي البصرة على شـيخ المحمرة[٩] بأن يسمح لجماعة كبيرة من الجند التركي بأن تحل مستخفية على سطوح البيوت فيها ، على كل من جانبي نهر كارون ، حيث ترسو (اسبيكل) ، وتبغتها من على ظهرها • كما كان مبيتا أن يقصف المدفعان الموجودان في (دبة) أو (أم الرصاص) هذه الباخرة ، فان أجابت عن النار بالنار أطلق الجند العثماني الرصاص عليها و « على المدفعيين من جندها ، بوجه أخص » ، وبذلك تقع مذبحة غير مرتقبة• فان لم يبق من يدفع عن الباخرة الحربية هذه صعد اليها الجند وأجهزوا على من يتصدّى لهم فيها ، فيتم الاستيلاء عليها أخيرا • واباز أكثر من ذلك : « ان هـذه الفرصـة ممتازة وقد سنحت لشيخ المحمرة ليقوم بخدمة قيمة للحكومة التركية • » من نافلة القول أن نذكر انه لم تـكن لشـيخ المحمرة في الخطـة ناقة ولا جمل •

(امدن) من عيار ١ر٤ عقدة على حين كان عيار مدافع السفن الحربية العاملة في شط العرب ٤ فقط ، كما كان مدى قصف مدافعه أبعـد ، لذلك فرقت القوات البحرية البريطانية منه على ما يستبان • (المترجم)

(٨) كانت في جزيرة شمشية في شمال غربي المحمرة بطريتان تركيتان لسد شط العرب عند الحاجة ، كما كانت في الفاو بطرية أو بطريتان وكانت في جزيرة (دبّة) القريبة من مصب نهر كارون أربعة مدافع • ان الفاو من أخطر المواقع العسكرية وهو أول هدف من ناحية البحر ، وأول موضع يسد البحر بوجه سفن العـدو ، لكن الاتراك لم يحصنوه ، فكان ثغرة في خط دفاعهم • (المترجم)

(٩) تم العثور على نسخة من هذه الورقة مع والي البصرة عندما ألقي القبض عليه في القرنة • (المؤلف)

وعند منتصف ليلة الـ٣١ من تشرين الاول تلقى آمر السفينة الحربية (اسبيكل) برقية مفادها ان الحرب قد اعلنت على تركية[١٠] ، ووعز اليه بأن يقوم بحماية المصالح والممتلكات البريطانية في المحمرة وعبادان ، وأن يطمئن (شيخ المحمرة) بشأن اجراءات ستتخذ . وفي ليلة الثاني من تشرين الثاني انسابت (اسبيكل) ، ودفتها الى قُدّام ، تتهادى نُزلا في النهر ، هادئة . ومرت من دون أن يلحظها أحد ، على بعد ٣٠٠ ياردة من البطرية . ووعز آمرها بأن تلقي مراسيها في (سيحان)[١١] التي تبعد أميالا قليلة شمالي عبادان . ثم انه عمد الى ارسال جماعة من جنوده الى البر لقطع خط البرق الممتد من (الفاو) الى (البصرة) ، وكان أن جرى اصلاحه فتمّ قطعه ثانية . وفي السادس من تشرين الثاني سارت (اسبيكل) نزلا في النهر لحماية (عبادان) . وكان أن تعرّضت لنار بندقيات حامية ، عند الظهيرة ، انهالت عليها من الضفة المقابلة، لكنها استطاعت أن تخمد النار في غضون ساعتين ، باطلاقات بندقيات جندها ، ونار مدافعها .

وفي أثناء قيام (اسبيكل) بحركاتها البارعة الماهرة وعلى عِرْق من طريقة: (رمتني بدائها وانسلت) كانت الحكومة البريطانية تراسل حكومة الهند لاعداد العدة منعا لما ينجم من طوارىء عند فم الخليج ، ان قامت الحرب مع تركية حقا . وفي الـ ١٦ من تشرين الاول ١٩١٤ أبحر أول لوا من (قوة الاستكشاف الهندية) الذي رمز اليه بحرف D [١٢] . لقد أعطيت لهذه القوة ، وهي

---

(١٠) أعلنت تركية النفير العام في ٣٠ تموز ١٩١٤ على أن يشرع في تنفيذه يوم ٣ آب ، وفي الـ ٢٩ من تشرين الاول هاجم الاسطول التركي السفن الروسية وأغرق بعضها وأسر بعضا ، وفي ٣٠ تشرين الاول غادر سفراء بريطانية وفرنسة وروسية اصطنبول ، وفي ٢ تشرين الثاني أعلنت روسية الحرب على تركية وتلتها انكلترة وفرنسة وشرع القتال بهجوم الجيش الروسي على الجيش التركي في القفقاس وعلى ضفاف شط العرب بين تركية وبريطانية. (المترجم)

(١١) على بعد ٣٠ ميلا من الفاو شمالا . (المترجم)

(١٢) أُطلعت (القوة) هذه على ان وجهتها : البحرين . وقد سارت في خمس سفن ناقلة بحراسة باخرتين حربيتين ووصلت البحرين في ٢٣ تشرين الاول حيث تلقت من وزارة البحرية البريطانية أمرا بالتلبث حيث كانت لحين

تبحر من (بومبي) أوامر مختومة ، وكانت كمية الجرايات rations التـــي حملت على ظهر سفن القوة ، ونوع السفن ، معروفة عند كثـــير من الناس ، وبالنظر الى ذلك استنتج ان غايتها : البصرة ، وكان ذلـك قبل اسبوعين من ابحـارها . وكان العميد ديلا مين ، المنسوب الى الجيش الهندي ، آمرها ، يصحبه (سر برسي كوكس) بوصفه (الضابط السياسي لرئيس) . لقد شـغل الأخير، منذ بدء الحرب، منصب(كتوم الشؤون الخارجية فيحكومة الهند) فمكّنه ذلك من الاتصال المباشر بسلطات الحكومة في (وايتهول) و (سِمْلا) . وكان قد أمضى من سني خدماته ، وعدتها ثلاثون عـــاما ، ست سنوات في الجيش المرابط في الهند ، وأربع سنوات كضابط سياسي مقيم في دويلة بارودا ، وست سنوات في ساحل الصومال ، وأمضى البقية الباقية منها في (الخليج) حيث شغل من سنة **١٩٠٤** الى نهاية **١٩١٣** منصب (المقيم السياسي وقنصل عام) فيه .

وكانت أوامر العميد ديلا مين تنص على احتلال جزيرة (عبادان) للاسباب التـــالية :

١) حماية مصافي النفط وجوابيه[١٣] وأنابيبه .

٢) تغطية انزال النجدات .

٣) تطمين العرب البلديين بأننا سنكون لهم ، بإزاء تركية ، عونا .

وطُلب اليه أن لا يبدي العداوة للاتراك أو العرب ، كيلا تكون بيـد الاولين حجة ، كما أُمر بأن يتخذ (قناة بهمشير)[١٤] ، ان استطاع ، سبيلا .

ورود أوامر أخرى ، وكان أن أخذ بحارتها بالتدريب على الجدف في القوارب والنزول من السفن الى البر والصعود من البر الى السفن . وكانت القوة عبارة عن لواء مختلط من (فرقة بونا الهندية) يتألف من فوج بريطاني وفوجين هنديين وسرية نسافة ولواء مدفعية وفصيل مخابرة ونقلية ومستشفى سيار ، وما الى ذلك من سائر صنوف الخدمات المساعدة .

(المترجم)

(١٣) الجوابي (جمع جابية) ، وهي الاحواض الكبيرة .

(١٤) وهي تحد جزيرة عبادان من الشرق وتربط نهر كارون بالخليج .
(المترجم)

ان المقترح الاخير غير عملي تماما ، وهو يكشف عن جهل بالاوضاع الجغرافية الاولية ، اطبق على الدوائر العسكرية •

وكان التأثير المعنوي في نفوس الشيوخ العرب القاطنين في « رأس الخليج »، على ما كانت تذهب اليه (وزارة الهند) ، أول ما يرتجى ، وحماية مخازن النفط له المرتبة الثانية (كذا : المؤلف) •

ان الاوامر هذه نتاج مؤتمرات عقدت في (وايتهول) ، ولم تكن من بنات أفكار (حكومة الهند) ، والاخيرة ثبّتت رأيها ، ومحصله : ان انفاذ قوة ما ، في مثل تلكم الظـروف عمل « استفزازي » • ان الاوامر صيغت بكلمات هوج ، فالقطعات المرابطة في عبادان لم تكن قادرة على حماية خط أنابيب النفط الممتد الى نحو ١٣٠ ميلا شمالا ، مارا بالاهواز ، ومنتهيا بحقول النفط في (مسجدي سليمان) • كما ان قوة كهذه لن يكون لها من التأثير المرتقب الا أقله ، بقـدر تعلق الامر بالحقول نفسها ، اذ هي تقع في ارض يسـكنها في ذلك الوقت ويسيطر عليها ايرانيون رحّالة وليس عشائر عربية ، ومما يجب فرضه ابتـداءً ان حكومة الهند كانت تعتمد على العون السلبي الذي تسديه العشائر العربيـة القاطنـة على ضفتي نهر شـط العرب والتي كانت تخضع لنفوذ شيخ المحمرة والكويت[١٥] لكن أوامر العميد ديلا مين لا تفصح عن شيء في هذا الصدد[١٦]

---

(١٥) كانوا يقدرون قوة شيخ المحمرة بخمسة آلاف مقاتل وقوةالكويت بعشرين ألف مقاتل وكانا يخضعان لرغبات بريطانية ومشورتها يومذاك • (المترجم)

(١٦) وعدت حكومة الهند ، قبيل اندلاع لهيب الحرب ، هذينالشيخين ، على لسان المقيم السياسى في (بوشهر) وعدا رسميا بأنهما انبذلا مايستطيعان واستخدما عشائرهما القاطنة في الاراضي التركيـة فان بساتين النخيل التي يمتلكانها على شاطىء شط العرب التركي ستصبح ملكا لهما صرفا ولذريتهما من بعدهما أيضا وتعفى من الضرائب • من المحتمل ان قيمة مثل هذا الوعد سطحية ، اذ انها تكمن في التنفيذ ، ذلك لان كلا من الشيخين كان على ثقة من ان الحكومة البريطانية قادرة وراغبة في أن تنفذ وعودها الصريحة المكررة المنصبة على حمايتهما من أي اعتداء يقع عليهما من أية جهة • على ان الخطر، لدى فشل (القوة الاستكشافية البريطانية) سيحيق بالشيخين بسبب وقوفهما بوجه الحكومة التركية ، اذ لو قدر لها أن تفشل لكانت مصـادرة أملاكهما

لقد أشعر (العميد) بأن بقية قطعات الفرقة الهندية السادسة على استعداد لنصرته، وان قامت الحرب مع تركية حقا عليه احتلال البصرة اذ أمكن •

وألقت سفن القوة مراسيها في البحرين يوم الـ ٢٣ من تشرين الاول[١٧] وأقلعت في الـ ٢٩ منه • وكان أن أعلنت الحرب مع تركية رسميا يوم الخامس من تشرين الثاني • ولما كانت عند « حاجز الطمي » نزل شطر من اللواء السادس عشر من دون أن يمسّه ضرّ يوم السادس ، بعد تطهير الشط من الالغام في الفاو ، وكان ذلك تحت ستار من نار مدفعية الباخرة الحربية البريطانية (اودن)[١٨] • وترك العميد ديلامين فيها حامية صغيرة ثم صعدت قطعاته الى بواخرها ، وبعد يومين نزلت الى الشاطىء التركي ، تارة اخرى ، وكان ذلك تحت ستار من نار مدفعية الباخرة الحربية البريطانية (اسبيكل) • كان نزول الجنود في موقع (السنية) الكائن فوق عبادان بمسافة ميلين ونصف الميل •

ومن الحق أن نذهب الى ان بواخر البحرية كان يمكن الافادة منها على الوجه الاكثر اقداما في مثل تلكم الظروف ، اذ كان في مكنتها أن تمضي في النهر صعدا حتى البصرة لتقصفها ، كما كان في مكنتها أن تحمي السفن

الغالية أقل عقوبة تفرض عليهما •

ان العون الذي أسداه شيخ المحمرة من الناحيتين : العسكرية والسياسية ، على وجه أخص كان عونا عظيما • (المؤلف)

قلنا : لذلك وعد (سربرسي كوكس) الشيخ خزعل بن جابر بن مرداو (شيخ المحمرة) بالاعتراف به أميرا مستقلا على (عربستان) ثم رشح بعد ذلك ليكون ملكا على العراق مع غيره من مرشحين • (المترجم)

(١٧) كانت آحاد القوة في أثناء مكوثها في البحرين يتدربون على الجذف في قوارب النزول فالصعود الى البواخر والنزول منها (المترجم)

(١٨) حدث ابان ذلك حادث طريف سبّبه (السراب) : فبعد هجوم الانكليز عبر الصحراء المنبسطة قرب الفاو بلغوا الخنادق التركية فانهزم الاتراك منها وأخذوا يخوضون في الاوحال وأصبحوا هدفا لاحباً لمدفعية الانكليز • وكانت هناك باخرة حربية في شط العرب ترقب ما يجري ، وعلى حين غرة شهد من عليها مدافع زملائهم الانكليز تتوقف عن القصف على الاتراك ، على حين كان هؤلاء في مدى مرماها ، ولقد تبين بعد ذلك ان الاهداف قد اختفت عن أعين المدفعيين على مستوى الصحراء فتوقفوا عن القصف • (المترجم)

الناقلات الى نقطة تقع فيما وراء البصرة وتقبض على أي تركي يكون هناك • وعلى كل حال ، اتسمت الحركات بكثير من الحذر والحيطة ، وكانت خططها التعبوية رصينة سديدة ، لكن الاسطول لم يستخدم على ما ينبغي • وكان الزعم السائد ان الاتراك قادرون على صد نيران مدفعية البحرية ، وان البحر مغلوق • ان كلا الزعمين كان خطأ كبيرا •

وفي اليوم الـ ١١ من تشرين الثاني • انقض الاتراك على قوة العميد ديلامين ، فصدّ الهجوم ، وسقطت ، خلال ذلك ، ضحايا البريطانيين والهنود الاولى • وفي الرابع عشر من تشرين الثاني وصل الفريق سر ارثر باريت ، قائد الفرقة السادسة ، ومعه نجدات • وفي الـ ١٥ من الشهر شاغلت قوة العميد ديلامين المختلطة المؤلفة من قطعات بريطانية وهندية ، ومعها بطريتان محمولتان هنديتان ، وقد غدت ، الآن ، بامرة الفريق باريت ، القوات التركية ، فدحرتها • وجرت معركة موفقة ثانية بعد يومين قرب موقع (ساحل) قُتل في أثنائها النقيب بيرد وود ، مساعد سر برسي كوكس• وفي اليوم الـ ٢١ من الشهر شرعت قواتنا بالتجمع استعدادا لهجوم جديد يشن على الموقع التركي في (بلجانية) • وفي ذلك اليوم عينه تناهت الانباء من (شيخ المحمرة) تفيد بأن الاتراك أقروا الظفر الحاسم الذي أسفر عنه الاشتباك في (ساحل) ، وانهم قاموا باخلاء (بلجانية) و (البصرة) • وأخبر الفريق باريت يوم الـ ٢١ من الشهر وفد من وجوه البصرة ان الاعراب أخذوا يعيثون فيها فسادا ، فينهبون ويسلبون ، لذلك وعز الى (اسبيكل) و (اودن) بالمضي قدما ، على جناح طائر ، وكانت المهمة التي اوكلت الى الباخرتين هي اصطناع المهارة البحرية واجتياز العقبات الكائنة عند النهاية الشمالية لجزيرة أم الرصاص[١٩] وكانت العقبات المشار اليها مؤلفة من الباخرة الالمانية (اخباتانا : همذان) والباخرة التركية الصغيرة (كليد البحر) والباخرة البريطانية (جون اوف سكوت) وسفينة

---

(١٩) سميت بهذا الاسم لأن القوات الانكليزية اتخذتها قاعدة قصفت منها بنار بطرياتها (المحمرة) خلال الحرب الانكليزية ــ الايرانية سنة ١٨٥٦ (انظر : Hunt) • (المؤلف)

أحرى[٢٠] وتم الوصول الى البصرة في غسق ذلك اليوم عينه • وكانت لهب النيران تتصاعد من دار المكس (الكمرك) وجموع الاعراب تنشط في نهبها وسلبها حتى قام الجند النازلون الى المدينة بتفريق تلكم الجموع الغوارة • وفي الـ ٢٢ من الشهر وصلت قوة صغيرة من قواتنا وشرعت باعادة الامن الى نصابه • وفي اليوم الـ ٢٣ وصل الفريق باريت برا ، ومعه القسم الرئيس من القوة ، ودخل المدينة باحتفـال • ورفع العلم البريطاني عليهـا[٢١] وألقى سر برسي كوكس

---

(٢٠) وتدعى السفينة الرابعة هذه (جعفري)وهي ملك أحد البصريين المسمى (أغا جعفر) •

اما قصة عقبة البواخر المغرقة فنفصلها بما يلي : اغرق الاتراك هـــذه السفن قرب جـزيرة (بلجانيه) لسد الطريق على البواخر الحربية البريطانية او لتعويقها حتى تستطيع القوات التركية من الانسحاب • وكان موضع غرقها يبعد بثلاثة اميال ونصف الميل غربي مصب نهر (كارون) من جزيرة (دبة ــ أم الخصاصيف) • وجزيرة اخرى في جنوبها • وقد وضع الاتراك المدافع في جزيرة بلجانية لضرب السفن الحربية البريطانية التي سعت لازالة العقبة ، كما جعلوا في جزيرة ام الرصاص قوة لمنع السفن من الخروج من نهر كارون •

(المترجم)

وكانت هذه السفن الاربـــع مشدودة باسلاك وتسحب عبر النهر • ومضى كل شيء بيسر ورخاء حتى دنت اللحظة الاخيرة حين تباعدت الاسلاك فألقى تيار النهر الباخرة (اكباتانا) الى الساحل والتقمها اليم فانفتح المجرى • وكانت الملاحة تبدأ من هذه النقطة عينها لذلك اطلق عليها اسم (فتحة الشيطان) بسبب من خطرها في أثناء الليل • وروئي ابقاء حطام الباخرة حيث هو حتى أواخر سنة ١٩١٨ • وفي كانون الثاني سنة ١٩١٩ وجد ان الحطام قد هوى الى أعماق النهر واكتنفه الطمى وان تخريبا جزئيا فيـه يمكن من فتح مجرى عمقه ٣٠ قدما (راجع : Basrah Port Administration Report, 1942.

(المؤلف)

(٢١) أصبحت القنصلية الالمانية في البصرة دار الحاكم البريطاني فيهـا وأنزل العلم الالماني عنها ليرفع عليها العلم البريطاني (وتلك الايام نداولها بين الناس) •

(المترجم)

خطابا بالعربية وردت فيه عبارة تفصح عن السياسة المراد انتهاجها ، هي :

« لقد احتلت بريطانية ، الآن ، البصرة ، وعلى قيـام حالـة الحرب مع الحكومة التركية ليس هناك عداء بيننا وبين أهلها ، ونحن لا نتطوي على سوء قصد بازائهم • فالامل يعتلج في نفوسنا عسانا نوفق الى أن نثبت لهم اننا حماتهم وأصدقاؤهم • لم تبق هنا آثار للادارة التركية • ان العلم البريطاني يرفرف على هذه الارجاء وستستمتعون في ظله (كذا ! المترجم) بالحرية والعدالة ، بقدر تعلق الامر بشؤونكم الدينية والدنيوية » •

بهذا (البيان) تبدأ الصفحة الاولى من تأريخ (الادارة المدنية) لبلاد ما بين النهرين • وقبل البحث في كيفية تشكيلها ، لنتوقف هنيهـة ونتأمل في الظروف التي اكتنفت ذلك : قبل كل شيء ، وعلى ما قيل حقا ، لم تبق للادارة التركية باقية • لقد رحل الموظفون الاتراك ، صغارهم وكبارهم ، مستصحبين في الغالب، أكثر السجلات فائدة •• ونهبت الدوائر في (سراي الحكومة) ، واتلفت بعض الاوراق الرسمية ، وما بقي منها وضع من قبل جنودنا في فناء (السراي) بشكل أكداس مبعثرة • لقد اريد من وراء ذلك الافادة من الاماكن الصالحة للسكن فيه ، وهي جد قليلة • حقا لقد استطاع موظفو (دائرة الواردات) أن ينقذوا شطرا منها ويجروا تصنيفها ، لكن ذلك استغرق شهورا وتطلب جهدا مضنيا • ومع ذلك بقي فقدان السجلات التركية يشكل عقبة كؤودا ، واستطال ذلـك سنوات طوالا • وما كانت الادارة التركية المنقرضة على حظ من سداد وكفاية أبدا ، لكنها كانت تتسم بالشمول والاحاطة • انها على غرار الـ ٣٩ مادة المعت من قبل الجميع أمرا لا معدى عنه ، بتة وان لم يفهمها أحد • لقـد تص الادارة التركية ، طوال ثلاثة قرون ، تخللتها فترات ، في حياة العرب وه معاملاتهم • وكان لزاما علينا بموجب (القانون الدولي) المقرر أن نبقي ما استطعنا الى ذلك سبيلا • لقـد كان يشترط ألا يكون ذلك لحين

الحرب حسب ، بل الى يوم عقد معاهدة الصلح والنص على الادارة الجديدة التي تخلفها • وتعقدت الامور الى أكثر من ذلك ، ذلك اننا ، على ما ورد في (البيان) المذكور آنفا ، لم نكن نفرق على وجه الدقة بين (التركي) وبين (حكومته) و (الاهلين العرب) • اننا نروم الاجهاز على الاول ونصبوا الى أن نجعل من الاخيرين أصدقاء ••• ان بادلونا ولاء بولاء[٢٢] ونيط أمر ردم هذه الفجوة ـ وهو هدف عسكري على حظ كبير من خطر ـ بالادارة المدنية[٢٣] • لكن هذه تخبطت ، خلال الشهور والسنوات التالية ، بجدل ، هو على ضرورته ، كان طويلا ما له من فَوَاق ، وقد جرى مع فروع (الاركان العامة)، والدوائر العسكرية •

ان التجربة المريرة الناجمة من شنآن الاعراب السرّاق النهابين حملت رؤساء الدوائر في الاحيان على أن يختطوا من دون تبصر أو تدبر ما يعرض أي كيان سياسي رقيق الى خطر •

وبمرور الوقت ظهرت المشكلة ، واتخذت شكولا اخر ، ثم جاوزت حدود

---

(٢٢) بهذا الصدد نورد أقباسا من (بيان) مسبق صدر قبل الاستيلاء على البصرة ومن بيان لاحق صدر بعد الاستيلاء عليها بشهر :

١ ـ ليس للحكومة البريطانية خلاف مع العرب القاطنين على ضفة النهر ما داموا يظهرون الولاء ولا يجيرون القطعات التركية أو يشهرون السلاح بوجهنا ••• لا خوف عليهم اذن ولن تؤخذ منهم أموالهم غصبا •

٢ ـ بقدر تعلق الامر بالعرب : ان الحكومة البريطانية لا تروم أن تعاملهم كأعداء ما داموا يحافظون على الحياد والولاء ويمتنعون عن اشهار السلاح بوجه قطعاتنا • ان رغبة الحكومة البريطانية ، على النقيض من ذلك ، هو تحرير العرب من نير الاستعباد التركي والاخذ بيدهم على سبل التقدم والرفاه الاقتصادي والازدهار التجاري • (المؤلف)

(٢٣) يقول لونكريك في كتابه (العراق : ١٩٠٠ ـ ١٩٥٠) ص(٧٨) من النص الانكليزي : «ان القيادة العسكرية كانت تجهل أوضاع العراق ، وكان ضباط الاستخبارات والضباط السياسيون فيها لا يعرفون عنها شيئا ومن هؤلاء (كوكس) نفسه •

(المترجم)

بلاد الرافدين • فالقانون يعتدّ أهل البصرة من الرعايا الاتراك ، وعلى ذلك يصبحون أعداء لنا ، فيكون تسديد الديون المستحقة لهم وتسليمهم البضاعة مخالفين لهذا القانون•ولم يكن جواز السفر ، فيما مضى، أشد لزوما من لزومه أيام الحرب ، ولم تكن للحماية القنصلية حاجة كحاجتها في الايام هاته ، لكن أهل البصرة أولا لا يملكون حق الافادة من مزايا كهذه • لذا وجب أن يصار الى حلّ عاجل للامر ، فصدرت استمارات جوازات السفر ، وفيها كل ما يتعلّق بسكان الاراضي المحتلة من بلاد ما بين النهرين ، وهكذا استمتعوا بالمساعي البريطانية الحميدة (كذا) •

ومهما كانت الحال ، لنرجع الى ما كنا فيه من أمر البصرة • كان أول ما قام به الفريق باريت تعيين حاكم عسكري في المدينة ، أعني الرائد دارسي براونلو ، نائب أحكام الفرقة السادسة • ولم يكن من اختيار يفضل مثل هذا الاختيار ، فللرجل الباع الوساع في القانون العسكري ، ومعرفته به تأتت من احساس فطري مرهف لا من الدراسة (اذ لم يكن لها الوقت الكافي) ، وقد مكنّته من تنشئة (الادارة المدنية) وجعلها شديدة الملاءمة لما كان يلابسها من ظروف • لقد سنّ لها السنن ، وقعّد القواعد ، فاتجهت هذه (الادارة) ، منذ أيامها الاولى ، وجهة سديدة قاصدة • لقد ساعده منصبه الرسمي على أن يمارس واجبات وظيفته من دون تدخل لا مبرر له من قبل القادة ، ذوي الايد والقوة ، أو من المرؤوسين ذوي الحماس والحمية في الدوائر الحكومية • وكان مساعده مستر بولارد ، وهو من أشغل وظيفة (وكيل القنصل البريطاني في البصرة) ، وقد سبق له في جميع الاحوال أن شهد غليان العداء في قلوب الاتراك واستعدادهم الحربي المحموم[٢٤]، وكان دوما واقفا على خبايا الامور ، لايخد عنّه مظهرها أبدا • ان وقوفه على حال البلاد مشفوعا بفطنته ولسانه الذرب الساخر ، كل اولئك صيّره انسانا لا يثمّن في مثل هاتيك الظروف الحرجة • وكان (توم ديكستر) الذي سبقت له خدمة في (البحرية الهندية الملكية) أمدها ٣٠ سنة ،

---

(٢٤) بناء على الاوامر الصادرة له من السفارة البريطانية في اصطنبول غادر البصرة الى المحمرة بعد اعلان الحرب • (المؤلف)

وعمل في الباخرة الحربية (كوميت) التابعة لدار المقيم البريطاني في بغـداد ، مساعدا له • وكانت لديكستر مزايا خاصة أيضا ، اذ كان يعرف العرب عـلى اختلاف طبقاتهم ، وان كان ذلك أفضل من معرفته اللغة العربية • وكان الناس يجلّونه ، كما كان بنهر دجلة خبيرا[٢٥] •

وكان أهم ما عُني به الحاكم العسكري أن يستتب الأمن وتسود الطمأنينة• وهكذا شرع رجال الانضباط العسكري ، الانكليز والهنود ، بامرة (آمرهم) يجوبون الشوارع ، بعد ساعات قليلة من وصول (القوة) ، لكن عدد هؤلاء كان نكدا قليلا ، فموجود (القوة الهندية الاستكشافية د) لا يمكّن من أفراد عدد يكفي وأكبر من عددهم • وكان مدير الشرطة التركي ، ومن في أمرته جميعا ، قد أصبحوا أثرا بعد عين ، لذا لا معـدى عن ايجاد من يحلّ محلّ الذاهبين سريعا • فلقد نشطت القرصنة في شطّ العرب وانتشرت عصابـات اللصوص المسلّحة في بساتـين النخل الممتدّة من الفـاو الى البصرة • وكان (سر برسي كوكس) قد طلب من الهند مسبقا (مستر كريكسن) ـ وهـو أحد منتسبي الشرطة الهندية ، وذو خبرة طويلة بالحدود الشمالية ـ الغربية في الهند وفي تجارة الاسلحة في (الخليج الفارسي) • ان ذلك كان يؤهّله للمنصب الذي استقدم من أجله تأهيلا مثاليا • وكان أن وصل الموما اليه بعد اسبوع من سقوط البصرة ، تصحبه جماعة من الشرطة المجرّبة ، فاستطاع في غضون أشهر قليلة أن يؤسس مخافر في الاماكن التي كانت فيها للاتراك مخافر شرطة ـ على ان ذلك لم يكن في الابنية أنفسها دوما ، ذلك ان الاعراب السالبة الغوّارة كانوا قد هدموا بعضها ونقلوا حتى طابوقها ليبيعوه • لذا لم تبق ، بعد ٤٨ ساعة من رحيل الاتراك ، بنية حكومية ، خارج البصرة ، فيها باب أو شباك •

لقد ثبت بالتجربة ان تشكيل قوة شرطة في البصرة أمر شاق ، جد عسير • وكان أهلها يلتزمون بالحذر والحيطة في اظهار ولائهم لنا ، فهم يخشون ، أشد الخشية ، عودة الاتراك الى البصرة ، ليصبّوا ، بعد ذلك ، على من خدم عدوهم

---

(٢٥) أسر في الكوت بعد ذلك • (المؤلف)

الغريب الكافر جام الغضبة المزمجرة • ان هذا لهو السبب الذي جعل قلة من الناس تخفّ لتنخرط في وظائف (الادارة المدنية) ، وجعل كثرتهم تثقل عن ذلك ، وحتى بعد أن دارت رحى معركة الشعبية • لا حق لنا بأن ننحى باللائمة على هؤلاء الناس ، فلقد شهدوا في أيام سلفت (وما راءٍ كمن سمع) من بني جلدتهم من كان يشنق لأقل من ذلك ذنبا • كما قلّبوا في صحف ذاكرتهم مامرّ عليهم من المآسي ، وكيف كانت جسوم بعض مواطنيهم تغلى وتنضج في قدور راسيات في (ميدان البصرة) ، أيام حكم فخري باشا • لقد علموا ان المساجين المشاكسين كانوا يوضعون في أكياس فتخاط وترمى الى شط العرب ، أثناء الليل• ان كل هذه ترجّح حكمة التأجيل ، بقدر تعلّق الأمر بانخراط الاهلين لحين حلول يوم أيسر ، وبقدر تعلق الأمر بتغيير الولاء •

كانت الشرطة الاولى في البصرة من الهنود ، وجلّهم من المسلمين البنجابيين، كما كانت هناك قلة من الصوماليين الذين وفدوا من عدن ، وقام الجميع بواجباتهم على أفضل وجه يرتجى • ان الشرطي الهندي انسان متواضع لا تبدو عليه امارات الغطرسة ، ولا يروم توريط نفسه في أمور جسام ، لكن له غرائز أسلافه المغول • لقد ألّم باللغة البلدية بيسر ، غبطه عليه رؤساؤه ، وعامل العرب بالسماحة التي تعلي من شأنها (شرطة لندن المتربول) • لقد وجد الاشرار المحترفون ، ممن لم يقدّروا فيه قوة الملاحظة وحزم الاجراءات ، أنفسهم في غيابة السجن ، أو ، في بعض الحالات ، أسرى حرب ، وكان عدد أمثال هؤلاء كبيرا ، فما أن حل شهر نيسان الا استتب الامن حقا • وشنق بعض اللصوص الذين قرنوا جرائمهم بالقتل اثر حكم أصدرته عليهم المحاكم العسكرية • ان الانفس يُغدى عليها ويراح ، لذا فان شنقهم لم يثر أي احساس بالرأفة ، بل على النقيض من ذلك ، ارتاح الناس له كثيرا • ذلك ان من شُنق كان من (أرباب السوابق) الكثيرة دوما ومن كان يعتاش على القتل والسرقة وتهديد الناس وارعابهم • من بداءات الأمر الهين هذا نجمت القوة[٢٦] التي يربو عدد

---

(٢٦) راجع : The Police Journal. Vol. I, No. 1, 1928 للوقوف على قصة موجزة عن شرطة العراق • (المؤلف)

أفرادها اليوم على ٧٠٠٠ ، والاشياء باصولها فاذا صح الاصل صح الفرع ، وهي اليوم من العرب حصرا تضطلع بتبعة استتباب الامن والنظام في شعب نفوسه ٠٠٠ ٧٥٠ ٢ نسمة[٢٧] يتناثر في قطر مساحته نحو (١٧٢٬٠٠٠) من الأميال المربعة •

لم يمر تعيين مستر كريكسن بعنوان (قوميسير شرطة) ـ على ما ورد في (الاوامر العسكرية) من دون ملاحظة سلطات (دلهي) ، ذلك ان (دائرة الخارجية) فيها أبرقت سراً تستنكر ذلك وتقول : انه يطلق على من يرأس الشرطة في « مدينة رآسه » • وكان الجواب عن ذلك تذكيرهم بأن تعيين مستر كريكسن جرى بأمر صدر عن « القائد العام » مستعملا فيه قدرته المميزة الخلاّقة مع رجاء خاص بمراجعة سفر التكوين (١١٩/٢) • لم يذكر رأي أسبق في الموضوع أو مرجع سام وحتى من قبل حكومة الهند لذلك لم يعقب الى أبعد مما جرى •

واذا ما أنعمنا النظر في نماء هذا الطراز من (الادارة) السديدة نوعا ما ، وكان النماء في (البصرة) ، وفي غيرها فيما بعد ، سريعا ، وجب علينا أن لا ننسى ان تشكيل نظام رصين قريب المعيار من المعايير الاوربية أمر حملتنا عليه الضرورات العسكرية • لقد وصلت (القوة) في الشتاء وكانت السنة مطيرة ، فاستحالت الصحراء الى بحر ذي طين لازب ، وغدت بساتين النخل بركا يتماوج فيها الماء • وتعالت الاخصاص على نشوز الارض ، وهي قليلة ، تحيط بها أكداس القمامة من كل جانب ، والسكان البلديون ، يستسيغونها ولا يجدون فيه غضاضة ، لكنها بالنسبة الى القطعات العسكرية المستجدّة ، مميتة قاتلة • وكان لزاما علينا أن نعدّ مساكن بمقياس كبير وهي تتطلب تنظيمات صحية متقنة ، وهذه تتطلب ، بدورها ، اشرافا سليما دقيقا ، وهو من أمر الحاكم

---

(٢٧) كان ذلك وقت صدور (كتاب) المؤلف ، أما اليوم فنفوس العراق أحصيت بثمانية ملايين نسمة وزيادة • وفي العهد العثماني لم يكن احصاء النفوس بمتقن ، وكان ينصب على التجنيد حصرا • وقدرت نفوس البصرة (سنة ١٩٠٠) بنصف مليون (باستثناء المنطقة الصحراوية) ونفوس بغداد بـ ١٫٢٥٠ والموصل بأقل من نصف مليون ومجموع السكان كله بما لا يزيد عن مليونين ونصف • (المترجم)

العسكري حصرا • لذلك وجد في غضون أسابيع قليلة ان من الضروري تعيين نائبين له في كل من مدينة البصرة والعشار • واضطلع (النائبان) هذان بعبء تهيئة المساكن اللازمة وتنفيذ الانظمة الصحية ، والاول كان يشقّ على الاهلين لو لم يتقرر منذ بداءة الامر دفع بدلات استئجار عـــادلة للبيوت كافة ونقل شاغليها جميعا • ان الاعتراف بهذا المبدأ من قبل السلطات العسكرية ـ وان لم يخل من معارضة ـ أذهب بكثير من أسباب الصـــدام ومكّن من توفير وسـائل النظافة في كثير من البيوت ، وهو أمر كان متعذرا تحت وطأة ظروف اخرى • وعلى الرغم من ذلك ، بقيت قضية السكن ، على ما سنرى بعد حين ، من أهم أسباب تذمر الاهلين ومرمرتهم •

هذا وان اعتماد (القوة) في حركاتها البرية على النقل الحيواني كليا ألجأ الى توسيع مدى السيطرة على الحيوانات في البصـــرة وفي جوارها بالسـرعة المستطاعة • لم يكن في (القوة) ، عند وصولها الا ثلاثة بياطرة واسـتمرّ ذلـك منـــذ أن وصلت حتى وقت طويل فيما بعـد • لـكن البياطرة هؤلاء اتّسموا بالتفكير العملي والبدار الى اتخاذ الاجراءات الكفيلة بسلامة الحيوانات التي في عهدتهم من العدوى • ففي غضون أشهر قليلة من احتلال البصرة أخضعت جميع الخيول والبغال والحمر الى تفتيش بيطري منتظم • وكانت الحالات التي يُرتاب فيها ، تقتـــل أو تحجر ويدفـع الى أصحابها تعويض من الـواردات المدنية • واقيم مستوصف بيطري مجاني وسرعان ما طار صيته كل مطار • « لقد تطلّب ذلك كله ـ على ما حرّره اللواء سرّ ال• جي• بلينكنوب[٢٨] مالا ممدودا وأن يكون المالك العربي واثقا بتلك الاجراءات مطمئنا • أما المال فكان يتأتى من (الجهة السياسية) ، ولم يكن نكدا قليـلا ، وأما الثقـــة فكانت أشبه شيء بنبتة إتنمو ,نموا بطيئا ، ومما ساعد على نمائها ان قلة من تجار العرب (يعرفهم بعض بياطرة پونا ، وهي من أعمال الهند) حيل بينها وبين السفر فأبقتهم الحرب في البصرة فدأبوا على اشاعة الثقة وتبيان قـــدرة

---

(٢٨) راجع : History of the Great War Based On Official Documents - Veterinary Service 1925. (المؤلف)

الضابط البريطاني على معالجة كل الامور المتّصلة بالخيول •

وكان النقيب ستيفنسن هو المولج بالعمل ، (وقد أسر في الكوت بأخَرَة)• لقد فكر الرجل وقدّر وعمل فأسدى الى الجيش خدمة تذكر فتشكر ، شأنه في ذلك كشأن خدماته لاهل البصرة ، سواء بسواء • وعلى الرغم من انتشار كثير من أمراض الحيوان في البصرة أمكن الحفاظ على بغال النقليات العسكرية وخيول صنف الخيالة سليمة كل السلامة •

وازداد الطلب على العمال في البصرة فهرع اليها العرب والفرس من أقاصي الارض • وارتفعت الاسعار بشكل يجعل الولدان شيبا فبيعت ، على سبيل المثال ، أرخص أنواع التمور (في كانون الاول) بأسعار تفوق أسعار أفضلها مما كان يصدر الى أوربة قبل اندلاع لهب الحرب • وأخذ المال يتدفّق كالسيل الأتي ، ولم يكن ذلك بالنقد التركي ، فمقداره لم يكن ، على كل حال ، كافيا اذ ان الاتراك لم يبقوا من الذهب والفضة ولم يذروا شيئا ، لقد حملوا منهما كل ما استطاعوا الى حمله سبيلا ، حتا أعطوا عنهما بديلا ، لكنه من ورق ، أو كان بالدفع وعدا • لذا اضطررنا الى أن نضع العملة الهندية في التداول ، والى تثبيت سعر تحويل الروبيات الى الليرة التركية ، وتم ذلك ببيان خاص • ونجمت بين البنوك وبين عملائها من جراء ذلك مشكلات جمة معقدة ، كشأن المحاكم كثيرا[٢٩] •

وعلى حين كانت هذه الفاعليات الضرورية ، وغيرها ، تسدى فيما وراء الخطوط ، أخذ الفريق باريت يدرس (الخطة) القابلة • لم تكن لديه أوامر تقضي بغير احتلال البصرة ، وما من شيء يومىء الى سياسة (مستقبل) محتملة، وان تسلم نسخا من الرسائل المتبادلة ، كما كان لوجود سر برسي كوكس في هيأة الضباط الاركان التي في أمرته نفع كبير وهو على ما قيل آنفا كان على اتصال تام بالوضع لحين مغادرته سملا ، واستطالت المناقشات البرقية ثم نبذت فكرة التقدم نحو بغداد ، والذي ووفق عليه هو تقدم لايجاوز القرنة • وأقر أيضا

(٢٩) وبسبب من ارتفاع قيمة الذهب في وقت لاحق أصبح من الضروري منع استعماله ، استيراده وتصديره • (المؤلف)

اقتراح تقدّم به الفريق باريت ، وأعني به اقامة (موقع) في (الشعيبة) على مسافة خمسة أميال الى الشمال من الزبير ، بغيــة دعم الموقف العسكري •
وجرى احتلال هذا المكان ، من دون مقاومة العدو ، وكان ذلك في الرابع من كانون الاول ، كما تم احتلال (القرنة) الكائنة عند مخلط دجلة بالفرات في التاسع من كانون الاول اثر مناورات كثيرة وشيء من قتال خفيف[٣٠] وأسّر ألف تركي وزيادة ، كما ألقي القبض على (والي البصرة) : صبحي بك[٣١] •
وكان أن أفلت الزورق الحربي التركي : (مرمريس) من قبضــة الاسـطول البريطاني اذ انطلق في النهر صُعُدا ، لكنه استقر بعــد ذلك على رقراق ، واحترق •

وختمت الصفحة الاولى من صفحات حركاتنــا الحربيــة بالاستيلاء على

---

(٣٠) لا معــدى عن تفصيل ما أوجــزه (المؤلف) من شأن الموقف العسكري حتى هذا الوقت ـ فنقول : بعد أن تسنى للجيش البريطاني احتلال البصرة بعد ١٧ يوما فقط من الشروع بحركاته في العراق ، أرسل سر برسي كوكس (٢٣ تشرين الثاني) برقية الى نائب الملك في الهند ، لان الحملة على العراق كانت حتى هذا الحين مرتبطة به من الوجهتين : العسكرية والسياسية ، يوضح فيها ضرورة التقدم نحو بغداد ، لكن التقــدم هذا كان محفوفا من الوجهة العسكرية بالخطر ، كما لم تكن القوة كافية لافراد حاميات في المحمرة والبصرة وحماية خطوط مواصلاتها التي تصبح بالتقدم نحو بغــداد طويلة ، لذلك أنعم نائب الملك في الهند النظر في (المقترح) وأرجأ الاخذ به ، لان الجبهة البريطانية في فرنسة وحامية مصر كانتا بحاجة الى امداد ، كما ان الاتراك أخذوا بالتقدم نحو قناة السويس وعلى البريطانيين مواجهتهم هناك • لذلـك قر الرأي على التقدم نحو القرنة لان تعطيل الحركات كليا يؤثر في العشـائر فتلتف حول الاتراك معتقدة بان توقفها من ضعف الانكليز • وهكذا احتـل البريطانيون القرنة للسيطرة على حركة دجلة والفرات ، كما احتلوا الشعيبة لانها تستر البصرة من الهجمات التي تشن عليها من الصحراء • وهو السبب أيضا في اقامة مواقع عسكرية بريطانية فيهما •

(المترجم)

(٣١) كان من الضباط الاتراك اللامعين ، واستاذ التأريخ العسكري في كلية الاركان باصطنبول قبل تعيينه واليا على البصرة ، ومما يذكر ان القـائد الانكليزي (فراي) أعاد له سيفه تقـديرا للشجاعة الفائقة التي أبداها في الدفاع عن القرنة ، أو لعل لذلك (القائد) مأربا آخر أعني الافادة من الوالي بالحصول على معلومات عسكرية • (المترجم)

القرنة . ومردُ النُجْح الشامل في هذا الى العون الحق الذي أسداه الاسطول البريطاني فحمدا له وشكرا . وما لم يثر الاتراك العرب من أهل البـــلاد بازائنا فلا معدى لهم عن اتخاذ سبيلين اثنين : التسليم باحتلالنا ، أو نقل قطعات كبيرة نسبيا من نقاط اخرى لاعادة وضعهم في البلاد الى ما كان عليه سابقا . وما كنا لنرتاب في موقف سكنة شــاطىء شط العرب الممتد من القــرنة حتى الفاو . ومما يثلج الصدر أن نسجل ، بعد خمس عشرة سنة ، انه لم تقع حادثة واحدة تكدّر صفو علاقتنا بهم أبدا .

وكان الحــاكم السياسي الاول في القرنة هو النقيب كروسثويت ، وهو من حل في المحمرة عند اندلاع نار الحرب ، وخلف (بردوود) كمساعد لسر برسي كوكس . وكان شيخ المنتفق (عجيمي) قد بعث الى سر برسي ، حتى قبل احتلال البصرة ، برسول يدعى (محمد العسيمي) . وأبان (الرسول) ان (شيخه) انما يتعاون مع جند الترك في الظاهر ، وانه لراغب في أن يخضــع لنا ويسلم أربعة آلاف بندقية تركية الينا . ورؤي ان من الاحجى « ابقـــاء الشيخ على التل » ، ان لم نطلب تعاونه الحق ، شأنه في ذلك كشأن غيره ، ومثل هذا يمكن ادراكه باصطناع الحصافة الدبلوماطيقية ، شريطة أن نبـادر اليها قبل أن يضعف أثر الفوز الذي أدركنـــاه مؤخرا . وكانت العشـــائر الفارسية القاطنة على ضفة شط العرب اليسرى هادئة ساكنة . وعلى الرغم من أن خبرا ما لم يرد الينا من (ابن السعود) فان علاقتـــه بالاتراك تحملنا على الاطمئنان الى خيره .

ومهما تكن الحال ، فثمة شيء كان يفتقد : لم نكن لنرضى بأن يتعـاون العرب معنا ، باعتداد ان الحكم التركي قد حان حينه ولا رجعـة له ، ثم نذر الاتراك ، بعد ذلك ، يعودون . اذ ما لم تكن هناك تأكيدات مطمئنة في هذا الباب فلن يلتزم العرب بشيء قاطع حذر العودة هذه ، وما يصيبهم من ثأر الاتراك في أعقابها . وما كنـــا على سمو لو طلبنا من العرب الوقوف بجانبنـا ونحن لا نوقن في قرارة أنفسنا بأننا سنقف بجانبهم في خاتمة المطاف . لكن




Alizwayzi Abdulrahman
e-books library

هذا اثر « مغازلة » قصيرة الامد مع (جمعية الاتحاد والترقي)[٣٤] ان سياسة التتريك ، التي تلتزم بها ، لاتفسح لطموحه أيمنطلق ، وما كان طموحه ليقلّ عن تأسيس اقليم عربي مستقل يكون هو على رأسه . وسبّب طماحُ السيد طالب اصطدامه ب (جمعية الاتحاد والترقي) ومع (آل سعدون) وهي اسـرة سنية تسيطر على عشائر المنتفق الشيعية[٣٥] . وكانت الحكومة التركية قد ألقت القبض ، بعون من السيد طالب ، على سعدون باشا سنة ١٩١١ ، وبذلك نجمت بين (السيد) وبين (عجيمي) ابن (سعدون) عداوة ، واضطر الاخير الى التحالف مع (الجمعية) بازاء الحزب «الحر» الذي يتزعمه (السيد طالب) . وفي ربيـع سنة ١٩١٣ حاول والي البصرة مقاومة نفوذ طالب المتزايد ، تعاونه في ذلـك (المنتفق) وزعيمها (عجيمي) ، لكنه لم يصب في مسعاه هذا نجحا . لقد قُتل القائد العسكري التركي وهو من أساطين (الجمعية) في الشارع العام . واجبرت السلطات البلدية بايعاز من (طالب) على المطالبة بالاصلاح . وانحنت الجمعيـة للعاصفة ثم قرّرت التخلص من السيد طالب بعد ذلك . وشعر هذا ، على كل حال ، بالنوايا المبيتة له ، فأخذ يفاوضنا في هذه الخطة بواسطة شيخ المحمرة، لكن مطامحه كانت شخصية الى أبعد حد فلا تصلح أن تكون أساسا للبحث ، وكان أن غادر السيد طالب الى وسط جزيرة العرب . وما أن اندلعت شرارة

---

(٣٤) تألفت هذه (الجمعية) ، قبل اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، ب ١٥ سنة ودان زعماؤها بعقيدة الاصـلاح والتجديد لمـدة ٣٥ سنة ، وكان مصيرهم جميعا السجن والنفي والقتل وانقرضوا على بكرة أبيهم ، ومما يذكـر عن أحد أقطابها (أنور باشا) وزير الحربية العثماني في هذه الفترة أنه أبى أن يطلق سراح الجنرال طاونسند ، بعد أن أسر في الكوت ، على أن لايشترك في الحرب ، وذلك لقاء مليوني باون عرضهما عليه الانكليز . (المترجم)

(٣٥) سنة وشيعة هذا ما دأب المحتلون البريطانيون المستعبدون عـلى ترديده ، وهي سياسة (فرق تسد) القديمة ، وقد خبرها (المؤلف) ومن لف لفه في الهندوجاء يطبقها في العراق على حين يردد أهله كلمة الله العليا (وان هذه أمتكم أمة واحدة) . وكان (حلف المنتفق) يتألف من عشائر (الاجود) و (بنو مالك) و (السعيد) وكان من أبرز رؤسائه من آل سعدون (ناصر باشا) الذي أسس مدينة الناصرية في جنوبي العراق وكان هواه مع الاتراك .
(المترجم)

الحرب الا اتخذ سبيله الى (سيلان) معتكفا ، ثم غادرها سنة **١٩١٧** الى مصر ، ثم عاد الى البصرة في شباط سنة **١٩٢٠**[٣٦] .

ما كان السيد طالب بالناطق الوحيد بآمال العرب القومية ممن نعرف ، فلقد سعى الى البصرة خلال الشهور الستة الاولى من الحرب واحد أو اثنان من المبعوثين العرب الشبان بضمنهم (نوري بك السعيد)[٣٧] الذي غدا فيما بعد

---

(٣٦) توفي السيد طالب بن السيد رجب وله من العمر ٦١ سنة وكان ذلك في (ميونيخ) التي طار اليها للمعالجة الصحية . وفي موضع آخر من هذا (الكتاب) ذكر ظروف عودته منها الى العراق سنة ١٩٢٠ . لقد أمضى السيد سني حياته الاخيرة في دعة وشغل أثناءها بالزراعة . وخلف ولدين درسا في جامعة أكسفورد ، كما خلف وراءه ذكرا بالجري وراء مصالحه الشخصية ، وان لم تخل من أهداف مفيدة . لقد كانت له ارادة مصممة وأساليب قد تصيب النجح خلال الحكم التركي ، الا انها لاتنسجم مع الوضع الذي قام في العراق خلال السنوات التي تلت الحرب . وجيىء بجثمانه من المانية الى البصرة ليدفن في مقبرة النقيب في الزبير . وكانت هذه فرصة سانحة اهتبلت للقيام بمظاهرة فريدة في تأريخ العراق اذ سعى للاسهام بها كثـــير من القاطنين في البصـرة والزبير . (المؤلف)

قلنا : ما كان المؤلف وهو من أصبح يدعى بوتيل الحاكم الملكي العـام في العراق ، على ما يستشف من قوله الآنف الذكر : وما جرى بأخرة من القاء القبض على السيد طالب ونفيه، على وفاق تام مع السيد طالب . فبعد أندلاع لهيب ثورة العراق سنة ١٩٢٠ استدعاه (المؤلف) الى بغـــداد ليعالج الامر بما اوتي من نفوذ وسمعة ، ولكنه لم يوفق الى شيء . أما مغادرة السيد طالب البصرة ، بعد دخول الانكليز اليها ، فمردها الى (سر برسي كوكس) وقد سمح لـه بالعودة بعد انتهاء الحرب . وبصدد مطـــامح (السيد طالب النقيب) يقول أحد البريطانيين المشهورين (فيلبي) ــ وقد أشغل وظيفة مستشار وزارة الداخلية أيام الحكم البريطاني ، أو الحكم الاهلي المقنع ، وكان يعد صديقا للمرحـوم السيد طالب ــ (كان هدفه التاج العراقي دون لبس أو مواربة ، كما كان يصبو الى أن يلقب بأمير ينصب على احدى ممتلكات التاج البريطاني (كذا !) ويردد : لم لا ينعم الملك جورج علي بذلك على حين ينصب الملك حسين من آل لطف الله اللبنانيين ... امراء (كذا) » . (المترجم)

(٣٧) هكذا اتصل (نوري السعيد) بالانكليز لدى دخولهم البصرة ، تلك الصلة التي تبلورت فيما بعد بالتعاون بينه وبين من على شاكلته في تجنيد البدو في الحجاز والتفافهم حول (لورنس) وكتلة من البريطانيين ، للوقوف بوجه الاتراك ، وما اعقب ذلك من تأسيس (الملكية الفيصلية) في سورية ــ التي لم تدم الا قليلا ، ثم (الملكية الهاشمية) في العراق التي استمرت ٣٧ عاما

عضوا بارزا في الحكومة العراقية وكان يروم المساعدة البريطانية • كما ان (ابن سعود) رمى في صحراء نجد النير التركي وقد انقض ظهره وطرد الحاميات التركية في الاحساء والعُديد •

وعلى وجه العموم ، وبسبب من فقدان الضمانات المحدّدة للمستقبل ، على كل حال ، بقي الزعماء العرب ، في هذه المرحلة ، موالين للاتراك شكلا • حقا ، لقد كان (عجيمي السعدون) يدير في رأسه أمر الانضمام الينا ، لكن وساطةمحمد العسيمي ، وغيرها، لم تسفر عن شيء• وأضطُر سر برسى كوكس أخيرا ، وفي الـ ٣٠ من كانون الثاني على التحديد ، الى المبادأة فلخص ماحدث واقترح عقد اجتماع معه في(الشعيبة) مبيّنا ان الوقت ضيق لا فسحة فيه ، فعليه ان يجيب عن ذلك في غضون ثلاثة أيام • ان الجواب الوحيد الذي تناهى من عجيمي انه يشفق من ضرّ يصيب ناموسه ، ان تخلّى عن الاتراك من دون ان يكون لتخليه سبب ، لكنه سيسعى الى ايجاد السبب ، وكانت العقبة التي تقف في سبيله ، على ماعلمنا حالا ، هي في تحديد مصالحه ، هل هي في جانب الاتراك ام في جانبنا ؟ لقد كان من الاتراك مرتابا ، لكنهم على كل حال ، وعدوه باراضى (السنية) الموجودة في ولاية البصرة جميعا • اما البريطانيون ، من الجهة الاخرى ، فغرباء عن البلاد ، لا يستطيعون وعده بشيء الا قليلا، أو هم لا يستطيعون أن يعدوه بشيء مطلقا • لقد آمن، أو لعله حمل على الايمان ، باننا على اتفاق مع (السيد طالب) وخلانه ايضا • لذلك كنت ترى (عجيمي) يقدّم رجلا ويؤخّر اخرى ، ومال الى الاتراك أخيرا ولا يعلم هل كان ذلك خيرا أم شرا • ان الاتراك هم المسؤولون عن ميتة ابيه التي حدثت قبل سنوات قليلة بسبب المرض وفي سجن حلب • ولم يذر

شكلت خلالها ٥٩ وزارة كان نوري السعيد عضوا في اغلبها الى ان ختمت صفحتها بقيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وتأسيس الجمهورية العراقية وبها ختمت ايضا صفحة نوري السعيد الذى مات قتيلا على يد فريق من الشعب الثائر وقطعت أوصال جسده شلوا شلوا وله من العمر ما لم يذرف على الـ ٧٥ سنة الا قليلا •

(المترجم)

(عجيمي) بعد ميله الى الاتراك الولاء لهم ولم يعد الى ارض آبائه واجداده ابداً [٣٨] • ان امثاله من الرجال لا تعوزهم العزة ، فيما خلا داخل بلادهم ، لقد صدر عنه العفو التام ، سنة ١٩٢٠ ، لكنه أبى ذلك بأنفة •

أما الشيوخ الصغار الذين كانوا ، خلف الخطوط الحربية البريطانية ، مؤقتا فلقد كانوا يظهرون ثقة عظمى بنا دوما • وما كنا لنرجو ذلك منهم حقا• وأول من سعى منهم الينا هو شيخ الزبير : ابراهيم • والزبير واحة صغيرة ينقطع الاتصال بينها وبين البصرة بمسافة ٨ أميال من الطين في أثناء الفصل المطير كليا • وكانت مياه الفيضان تحيط بها كل سنة وترتفع الى قدمين أو ثلاث أقدام حتى قمنا بانشاء السدة الكبرى الممتدة من الشعيبة ، شمالي معقل • وأهل الزبير من أهل السنة وقد دأبوا ، منذ القديم ، على القيام باعمال الوساطة والصيرفة بين البدو ، وهم ممن لا يلج الحواضر الا على الندرى ، وبين تجار البصرة • ولكثير من أهل البصرة أملاك في الزبير ، وهم يكلفون بقضاء وقت الصيف في الصحراء ، ويفيدون بذلك من جوها الجاف النقي • والزبير موضع يتناقل من فيه الاخبار والاشاعات الهامسة ، ومن أراد انتخالها عليه أن يسعى الى مقاهيها ، فيفيد مما يدور فيها، لذلك عُدّت بقعة استعلامات قيّمة • والشيخ ابراهيم نفسه رجل كريم مضياف ، وهو ذو عين باصرة ونظر حديد ، وفخور بوضعه شبه المستقل ، وهو (وضع) استمتع به اسلافه ، من قبل ، تحت ظل الاتراك • لقد كان يعلم ان (وضعه) غير مضمون ، كشأن (وضعنا) لا أكثر ولا أقل ، وما كنا قادرين على حمايته من انتقام الاتراك لو دحرنا بازائهم وعادوا ادراجهم راجعين • وكانت اراؤه ، عندما يرى الافصاح عنها ، دليلا صادقا على مستقبلنا العسكري مقدرا تقديراً بدنيا • وخدمنا الرجل خدمة طيبة ، ومن المؤسف أن تكون هذه في ازدهار حياته سببا ، اذ سرعان ما ركبه الغرور وغلبته العنجهية فشرع يجبي الضرائب من الناس ، ويعامل أهل القرى

---

(٣٨) للوقوف على خطط (عجمي) على وجه اتمام راجع :
Miss G.L. Bell's (Review)

(المؤلف)

والبصريين من ملاكي الزبير ، على ما يحلو له ويهوى • لذلك كان عزلـه عن مشيخته سنة ١٩٢٠ أمراً ضروريا لازما • وكان القرار الذي صدر عن ذلك مؤلما مؤسفا ، وانطبعت في ذاكرتي بعمق صورته وهو كاسف البـال حزين يلتمس من السلطات ان لا تجعل اعداءه يشمتون به • لقد اخذته حكومتنـا بالشدّة ، وكانت أقسى عليه من أسلافنا • واذا ما نظرنا الى ذلك اليوم ، في ضوء الاحداث التالية ، لأنكشف لنا اننا كنا في ذلك جدّ مبالغين • ولو كانت جرائمه أعظم لعانى من جرّائها أقل ، لكن هذا هو نهجنا ابداً •

ومثل هذا كان شأن (شيخ القرنة) ، اذ ما ان احتلّت قواتنا البصرة الاّ أرسل يظهر ولاءه لنا • وعند احتلالنا القرنة اقرّ له منصبه من قبلنا • ولـدى زيارة (نائب الملك في الهند) انعم على الشيخ اكباشي ، شيخ القرنة ، بخلعة • وعلى الرغم مما حدث بقي (الشيخ) محافظا على مركزه واحترامه • ان له من المعرفـة والوقوف على التأريخ الخاص بوطنه والاعراف السائدة في منطقتـه ، كما ان لديه طلاقة بيان، الى حد ما، كل ذلك مكّنه من أن يجود بشيء ليس بقليل في تعليم (الحكام السياسيين) الذين حلوا في القرنة تباعا • ان فطنته وسرعة بديهتـه صيرتاه زائرا كريما يستقبله كبار الموظفين في اثناء تجوالهم شأنهم كشأن رجال الدائرة السياسية في البصرة •

وارى لزاما ان لا أغفل ذكر (الحاج عذار) شيخ الهارثة الواقعة بين البصرة والقرنة ، ونعوم عبو • والحاج عذار من كبار الريفيين في (سنجق البصرة) وهو أول من اشغل منصبا في (الادارة المدنية) • لقد جـرح في (كوت الزين) وأسِّر، فوسّط شيخ المحمرة الذي سبّب اطلاق سراحه وشجّعنا على استخدامه• وكان نعيم عبو نصرانيا كلدانيا من البصرة سبق أن استخدمه القناصل البريطانيون فيها (قوّاصا) امدا طويلا • لقد كان من اوائل السكان المحليين الذين ارتبطوا بمصالحنا ارتباطا وثيقا ، وقد كان يعلم جيدا المصير الذي ينتظره لو عاد الاتراك • ان شجاعته المعنوية في هذا الوقت الحرج تستأهل الثناء •

---

(٣٩) عندما استعاد الاتراك كركوك أعدموا جميع من تعاونوا مع الانكليز
راجع : "Middle East Window" Humphry Bownan P. 214.
(المؤلف)

الفصل الثـــاني

احتلال القرنة ومعركة الشعيبة

« لبست الرغبة في التقدّم ، والاشتباك مع العدو ، بأمر غير مألوف ، بالنسبة للجيش البريطاني ، لكن الصــفة التي أريد أن يتحلّى بهـــا ضباط قطعاته ، ابّان الحركات ، كان قوامها : هدوء وسداد • انها تمكّنهم من اتخاذ القرارات الفوريّة بصدد مدى التقدّم وادراكه على الوجه السديد الرشيد • »
ـ دوق ويلنكتون : ١٥ أيار سنة ١٨١١

كانت الاشهر الاولى من سنة **١٩١٥** حبالى مثقلات بأحداث جسام مرتقبة : عسكرية ومدنية • ولم تكن ل (الحملة الاستكشافية) ، وهي تغادر الهند ، من غاية غير : البصرة • وما أن تدركها الا وجب تقرير السياسة المقبلة بسبيل البرقيات المتبادلة • وعلى ذلك شرع (سر برسي كوكس) ، خـــلال الساعات القليلة التي أعقبت وصولها البصرة ، يسأل حكومة الهند النظر في أمر احتـــلال بغداد ، بأسرع ما يستطاع ، والاستيلاء على العمارة والناصرية ، باعتداد ذلك : وسيلة لغاية • قام كوكس بذلك إثْر مراجعة عاجلة قامت بهـــا طبقة التجار في البصرة • وعلى الرغم من ان حكومة الهند قامت بتأليف (لجنة) من أشخاص على حظ من كفاية لدرس المشكلة كلها ، بعامة ، وتقديمها تقريرا بتأريخ ال**١٥** من كانون الثاني **١٩١٢** يحبّذ احتلال الفاو والبصرة في حالات خاصة ، لـكن السلطات العسكرية في الهند و (وايتهول) لم تتخذ أي اجراء ، بقدر تعلّق الأمر بجمع المعلومات الصحيحة لتنفيذ ما تنطوي عليه هذه السياسة من الناحيتين : السوقية والعملية • وكانت تعليمات ال (لورد مورلي)[1] الى حكومة الهند ،

(١) يرجع تحديد مجالات الاستخبارات ، بالنسبة الى وزارة الحرب ووزارة الهند ، واناطة (تركية العربية) بالاولى الى سنة ١٩٠٥ ، أي الى ما قبل عهد لورد مورلي في وزارة الهند • (المؤلف)

على ما يفصح عنها كتابه الموسوم بـ (خواطر : Recollections) ، تقضي بأن تركّز (السلطات الهندية العسكرية) اهتماما على المشكلات الخاصة بهـا ، حسب ، وعلى كل حال لا يبرىء ذلك (هيأة الاركان العامة الهندية) من تبعة الاهمال والتقصير ، بقدر تعلّق الأمر بالحصول على معلومات ذات صبغة عامة ، ذلك ان الحرب ، على ما كان معلوما ، كانت أمرا محتوما[٢] • هذا واني لاعلم ، شخصيا ، (ويؤيد علمي هذا : سجل الحرب الهندي الرسمي ـ ص ٧) ان (الهيأة) المذكورة آنفا قد ارتكنت الى خوارط سر وليم ويلكوكس والى التقارير التي وجدت في قنصلية البصرة ، وهذه مطبوعات كانت منشورة يستطاع الحصول عليها من أية مكتبة • وعلى الرغم من ان مصادر المعلومات المطلوبة كانت لديها ميسورة ، الا ّ ان (دوائر الاستخبارات الانكليزية) لم تكن عندها (مراشد) ذوات قيمة ، كما انها أهملت ما هو موجود منها • وفي الحق ان زُبْدة الحقائق الاساسية المتّصلة بولاية البصرة ، والتي تؤلّف الفصـــل الاول من (التأريخ الرسمي لحملة بلاد ما بين النهرين) مختومة بهـــذه الالحوظة : « يجب ألاّ يغرب عن البال ان وصف البلاد ، على الوجه المبيّن سابقا ، ينطوي على معلومات حصلت عليها قواتنا اثر تجارب أشهر حقيقية ، اكتسبتها اعتبارا من يوم نزولها الى بلاد ما بين النهرين • » على ان حكومة الهند كان لها (ممثل مقيم) في بغداد لمدة تربو على قرن من الزمان ، وكان بدرجة (قنصل عام) • وقام سر وليـم ويلكوكس ، أخيرا ، بمسح متقن نشر نتائجه مشفوعة بجداول قيّمة ومتّصلة بالاحوال الجوية • كما قام ، في زمن هو أقرب من ذلك ، موظف مرموق من موظفي (الخدمة المدنية الهنـدية) ، عامل في (الدائرة السياسية الهنـدية) ، وأعني به : مستر لوريمر ، باعداد سجل متقن استغرق اعداده سنوات عدّة ،

---

(٢) المعروف ان كرّاسة رسمية تحتوي على معلومات دقيقـة مفصـلة عن شؤون العراق بعامة ، وعن البصرة بخاصة ، وتضم خوارط دقيقة ، كانت موجودة لدى رجال (الحملة) ، على حين لم يتيسّر لدى (المقر العام التركي) ـ على ما يقول المقدّم الركن التركي : مقبل بك في كتـابه الموسوم بـ « حرب العراق » ـ من الخوارط ، لدى مجيىء الحملة البريطانية ، غير خارطة العراق من مقياس ١/٠٠٠ر٥٠٠ر١ • (المترجم)

وشمل الشطر الأعظم من بلاد ما بين النهرين ، من بغداد حتى البحر • وأحجم (المقر العام) ، عموما ، وعلى وجه ملحوظ ، عن استشارة المقيمين البريطانيين في البلاد بقـــدر تعلّق الأمر بالامكانات الواقعية والاحـوال الجوية والتقلبات الفصلية • وكانت (شعبة الاستخبارات) ، على العموم ، نشطة فعّالة ، لـكن الشعب الاخرى ، وأخصّ بالذكر منها : دائرة الميرة ، ودائرة الطبيب الاول ، كانت تفضّل ، على ما هو ظاهر : (تجربة الخطأ والصواب) والجري عليها • وكانت مادة (التجارب) هذه الجنود ، أما (الاخطاء) فكانت تنبثق عن قصـر النظر والتسيّب عند الموظفين •

وصبّت (الحكومة العثمانية) ، خلال شهر كانون الثاني ، جهودها في صبغ الصراع القائم بيننا وبينهـــا ، بصبغة الجهاد بازاء كفرة ، وأثمر سعيها • وأخذ الوعّاظ يرددّون من فوق منابر الجوامع ، في سورية والعراق ، عباراته ، كما انتشر الدعاة بين العشائر وفي المدن يهيبون بالناس لى حمل السلاح والمقاتلة في سبيل الدين • وكان تأثير الحملة هذه أظهر في العشائر الشيعية في العراق واعظم ، اذ « لهم » ــ على ما يقول كاتب تركي ــ « ارباب فذّة هي : الهدايا والنُجْح » (كذا ــ المترجم) • وكان أن تجمّعت حشود العشائر على جانبي القوة التركية في الشعيبة ، لكنها لم تلعب الاّ دورا صغيرا ، أو لعلّها لم تلعب دورا في المعركة التي دارت رحاها يوم الـ ١٢ من نيسن أبدا • وفي أمسية اليوم الثاني ، وقبل أن يتراجع الاتراك ، قامت جماعات من عشائر المنتفق فغالت الجنود الهاربين ، المتخبّطين في الأوحال على شواطىء (هور الحمّار) ، وذبحتهم ذبح النعاج ، فلم تصل منهم (سراي الناصرية) الاّ قلّـــة كانت بامرة مساعـد سليمان العسكري : علي بك • لم يطلب الاتراك من الاعراب التعاون معهم في حركات عسكرية منتظمة ، بعدما جرى أبـــدا • أما المتطوّعون الذين سـاقهم الحماس الديني الى الشعيبة فلقد تجمّعوا ثم تفرقوا أيدي سبأ ، ولم يرهم أحد في ساحة المعركة[٣] ، كرّة اخرى • وقضت معاملة الاتراك لأهل النجف وكربلاء

(٣) جرت في الشعيبة معركة كاد الاتراك أن يلقوا ، بنتيجتها ، الانكليز

ـ وهما مدينتان لا تقلاّن ، بنظر الشيعة ، قدسية عن مكّة (كذا : المترجم) ـ على نجوم أي مظهر من مظاهر التعصّب الهـــائج فيهما • وشاعت في أرجـــاء الانبراطورية العثمانية قصص عن خيانة الاعراب • ولما كان الذين علت بهم السن يشعرون بأنهـــم عن (الخلافة العثمانية) غرباء ، لذلك راودتهم أحلام ، كما راودت اليُفّع رؤى •

على ان العرب القاطنين في عربستان الفارسية ـ وقد أعيد اليها ، اليوم ، اسمها : خوزستان ـ كانوا على شعور مناهض للاتراك ، وعلى وجه لا يتناسب مع خبرتهم بأساليب الحكم العثماني ، لكن نداء (الجهاد) ، وكانت من ورائه يد تركية قوية ، أصاب من النجاح شيئا • الاّ ان نداءات الجهـاد المذكورة لم تصادف هوى في قلوب أغلب القبائل العراقية ، وقد كان له صـــدى في أرجاء (الحويزة) يتردّد ، فهب له (بنو طرف) ، وجيرانهم ، ساعين لنجدة الاتراك• ودُهش من فعلهم هذا أغلب المراقبين البلديين خبرة وعلما ، فالقبائل هذه كانت تناصب السنة الاتراك العداء دوما ، كما كانت تناصب (غضبان البنيّة) ـ الذي صحب الاتراك ومعه قوة من العشائر كبيرة ـ العداء أيضا ، سواء بسواء • حقا كان أعراب الحويزة يرون في (بني لام) [٤] أعداء ألدّاء ، فكثيرا ما ارتكبت هذه العشيرة الفعال القاسية خلال غزواتها المستدامة على مناطق الحدود الفارسية •

الى اليم ويسترجعوا البصرة ، وثمة حادثة غريبة شـهدتها فغيّرت خاتمتها ، بالنسبة للبريطانيين ، الهزيمة الى ظفر • ذلك ان عربات نقل كانت تجرى خلف خطوط القوات البريطانية فتثير النقع ، فحسبه الاتراك دخان مدافع لذلك لاذوا بالفرار ، فأدرك البريطانيون من جرّاء ذلك نصرا هيّنا •

راجع: .Middle East Window, by Humphrey Bowman (المترجم)

(٤) « تنتمي الى (لام بن طي بن كهلان) وتقع مضاربها بين (شيخ سعد) و (الكميت) على دجلة في لواء العمارة ، ولها فرع يدعى (بيت عبدالخان) في الحويزة ، وبلغ من شأن هذه القبيلة العربية وتحديها حكام العراق الاتراك انها كانت تجبي من السفن المارة من ديرتها على ضفتي دجلة ، شمالي العمارة ، (خاوة) كان مقدارها (٣٠ شامية) عن كل سفينة ، والشامية من عملات تلكم الايام •

راجع : A Personal Narrative of the Euphrates Expedition by W.F. Ainsworth. Vol. II, p. 193. (المترجم)

ومهما تكن الحال ، لقد تغلّبت على هــذه المشاعر آمال خلّب منبثقة عن الرغبة في الحصول على عون كبير من الجيش التركي الغازي ، تصفّى به رواسب السخائم القديمة المستقرّة في ميدان آخر . وما كان ثمة حب مفقود بينهم وبين شيخهم : (خزعل : شيخ المحمرة) . لقد كان الشيوخ متذمّرون من نجاح (خزعل) في جباية الواردات ، نيابة عن الحكومة الفرسية ، وفي استتباب الامن في هاتيك الربوع . وكان هؤلاء الشيوخ ، طوال قرن ، وزيادة ، ولعل ذلك أطول من هذا ، يستحوذون على الواردات المجباة ويحتجنونها . وهكذا حلّت النقمة بالانكليز لانهم أعوان شيخ المحمّرة وصُدْقانه ، ولانهم الكفرة الفجرة . وكان أن سرت عدوى الهوس والهياج الى عربستان ، من قبيلة الى اخــرى ، وأهلها جميعا كانوا مطمئنين تماما الى عودة « الحكم الصالح القديم » ومخططه اليسير ، حيث الغلب فيه لذي القوة ، ومن قدر على الحفاظ على ما اخــذ ... فليفعل . وارسلت عشائر بني صالح وبني تميم وبني سكين القاطنة غربي نهر (كارون) مفرزات التحقت بـ (عله) المجاورة لكوت نهر هاشم ، على الـ (كرخة)، على حين نشطت (الباوي) القاطنة شمالي ـ شرقي الاهواز ، يوم الخامس من شباط ، فقطعت خطوط أنابيب النفط العـائدة لـ (شـركة النفط الانكليزية ـ الفارسية) ، وأسلاك التلفون ، وهي أضرار كان الاتراك يرونها ، بلا شك ، من أهدافهم الثانوية . وأعلنت الولاء للاتراك كل من عشائر (جعب : كعب) القاطنة في الفلاحية ، والمرس في هنديان ، وهما على بعد ٤٠ و ٨٠ ميلا ، على التوالي ، شرقي المحمّرة ، كما أعلنته سكنة (رام هرمز) أيضا .

وبقيت ششتر ودزفول ـ وكانتا من مواطن التعصّب الديني الاعمى في الايام الاولى (كـذا : المترجم) ـ على الحياد ترقبـان ما يستجدّ من الامور والاحوال ، وهو موقف حصيف سديد غير مرتقب . وحذت حــذو المدينتين هاتين : عشائر البختيارية . وبقي الخطر محدقا بهذا الجناح طوال أشهر . كما كان أي فشل في باب السيطرة على عناصر القلق والاضطراب والحال الفوضى

فيه نكبة لا تقل شأنا عن نكبة الاندحار في الشعبية • وتراءى انه ليس من بديل لدينا عمّا أرادنا الاتراك أن نقوم به ، أعني : تفريق قواتنا وبعثرتها حتى حين •

وكانت فارس تمور وتضطرب تحت وطأة ضـغط دائب لا يريم ، وكان يسهم فيه الضباط السويديون الذين يقودون الدرك الفارسي • وفي الجبهة الشمالية ـ الغربية منها امتدت موجة الحرب الدائرة بين الاتراك والروس حتى بلغت اذربايجان ، وكانت لها عقبى كاسحة شملت أراضي ايران ، اذ خلت منها الحاصلات والماشية وخربت قراها ، ولم يسلم من يد الخراب حتى المدن ، كما اجتاحتها موجة من الموت جوعا ، وعلى أشدّ ما تكون عنفا • وتناهت من الاهواز أنبـاء تنـذر بالويل والثبور ، ذلك ان شـيخ المحمّرة فقـد سـيطرته

وكانت الحكومة الفارسية حسنة النيّة ، ولكن من دول حول ولا قوة • كما انها لا تملك الشجاعة اللازمة ، فتخاطر بمـا لا يقرّه الرأي العـام ، واتخاذ أي اجـراء يُفضي الى اعـلان الحـرب على تركية • وبقيت عشائر البختياريـة ، بعامـة ، ثابتة صامدة ، ومـال شطر منهـا الى القضية التركية ـ الالمانية ، على ان المنافسات الفردية التي قامت بين بيوتاتها البارزة ، صيّرت أي عمل موحّد تقوم به القبيلة امرا مستحيلا ، ومهما تكن الحال ، لقد اتفق المسؤولون الرؤساء فيها على ألا تُصاب حقول النفط ، في (مسجدي سليمان) ، بضرّ ابدا • وتقع هذه الحقول في منطقة عشائرية تبعد عن شرقي (ششتر) بمسافة ٣٠ ميلا ، وعن شمالي الاهواز بمسافة ٧٠ ميلا • ويكمن الخطر الرئيس ، ها هنا ، في فقدان السبيل الذي يتمّ بموجبه الدفع الى البختيارية والعاملين في حقول النفط • وكان ان استجاب اثنان من (الخانات) الرؤساء هما : سردار جانك ، وسردار بهادر (والاخير استطاع ان يرقى الى مرتبة والده ، سردار اسعد ، ويحمل لقبـه) الى نصائح الحكومة الفارسـية ونداء (الشركة) • لقد ادرك (الرجلان) حالا اهمية تشغيل العمال جميعا ، واستطاعا ، على الرغم من انتشار القلق والاضطراب ، جلب مال لا يقل عن ١٦٠٫٠٠٠ الى الحقول «نقدا» ، كانا قد حملاه على ظهـور البغـال ، وعدتّها :

٣٠ بغلا ، ثم اودعاه لدى كاتب ارمني فذّ ، فلم تفقد منه قطعة فضية ابدا .

وضوعف من عدد الحرّاس البلديين وروقبت الممرّات . وعلى الرغم من مرور ذلك الشخص المرعب الراعب : (هر واسمس)[٥] ـ وسيأتيك ، فيما بعد ، من حديثه أكثر ـ من ششتر ورام هرمز في طريقه الى شواطئ بوشهر ، فان البذور الخصبة التي بذرها لم تصادف الا أرضا ، لا يمكن ان توصف غالبا ، الا بالجدب والقحولة . وما وقع هناك الا حادث واحد فقط : لقد اطلق الرصاص على النقيب داير ، وهو ضابط وضعت خدماته ، قبيل الحرب ، تحت تصرّف (شركة النفط الفارسية ـ الانكليزية) مؤقتا ـ وجرى ذلك قرب (دارّا خزينة) الواقعة في الارض المحايدة الكائنة بين مساكن قبائل العرب ومساكن قبائل البختيارية . ومردّ مقتله ، في الدرجة الاولى ، الى سوء الفهم الذي ينجم بيسر عند استثارة المشاعر القبلية . ذلك ان جماعة من العرب كانت بسبيل البحث عن شقاة الـ (لر)[٦] الذين دأبوا على غزو السهول، فحسبت (الجماعة) المذكورة ان النقيب داير ، وصحبه ، من اولئك الشقاة عينهم ، فاطلقت النار عليهم . وكان ان آوى (النقيب) المشار اليه الى اسفل تلّ يعصمه من النار ، ومن مكمنه رمى عربيا ، فارداه قتيلا . وما ان شعر الطرفان ان ما ارتكباه كان خطئاً كبيرا الاّ رجا العربُ (النقيب) بأن يترك عندهم بندقيته ويلوذ بالفرار ، لئلا يقدم شقيق القتيل فيثأر منه ويرديه صريعا. وولّى حصان (النقيب) فرارا فاضطر (فارسه) الى ان يمضي راجلا ، وفي اثره

---

(٥) كان للمركز الخاص الذي تمتّعت به المانية في السلطنة العثمانية أثر كبير في نشاط جواسيس الالمان في أقطارها وما جاورها ، وكان المال يغدق عليهم ، فيغدقون به على الوكلاء للحصول على كل ما يضمن مصالح بلادهم ويقوض مركز غريمتها : بريطانية . لذلك قابلت بريطانية الفعل بالفعل فأخذت توفد جواسيسها من أمثال لجمن وسون وفيلبي ومس بيل وغيرهم .
(المترجم)

(٦) اللر يختلفون عن الفرس عرقا ولهجة ، ومساكنهم جبال بشت كوه ، ومنهم الفيلية في العراق . وقد بقيت (لرستان) ، طوال ثلاثة أقرن ، تحكم من قبل ولاة ينحدرون من سلالة واحدة ويدفعون اتاوة الى الحكومة الفارسية المركزية ويتمتعون بسلطة غير محدودة في دويلتهم . (المترجم)

شقيق القتيل يسعى حثيثا . وكان ان ادرك هذا (النقيب) ، وهو اعزل من كل سلاح ، فقبض عليه ، ولا معين له ، على ما عرفتُ أخيرا . ووقف داير امام غريمه ، وجها لوجه ، منتصبا ، وعلى ما علمتُ أخيرا ، وسرعان ما اطلق عليه هذا رصاصة اخترقت رأسه ، فسقط ليلفظ النفس الاخير . انه يرقـد اليوم رقدته الابدية في حقول النفط . لقد كان لغويا بارعا ، وجنديا باسلا ، ولاعب كرة وصولجان (بولو) ممتازا ، وذا تأثير قيّم في أي مجتمع يحـلّ فيه ، واستطاع ان يبرز ذلك كله عندما غدا القوم في معـزل في (مسجدي سليمان) ، خلل الايام العصيبة المواضي الشداد ، كما تمكّن من ان يلقـي فيه درسا ستأخذ عبرة منه طلبة المدارس ، جيلا فجيلا . واعاد مصرعه الى (خانات البختيارية) خطر الحال الفوضى . ولا معدىعن ان نسجّل لهذهالقبيلة فضلا ، فعلى الرغم من ان كفة اعدائنا كانت راجحة ، على ماتراءى ، لكـن منطقتهم بقيت في منجاة من خطر الاضطراب فلم تمسّ الحاجة الى ارسـال القطعات العسكرية من الاهواز الى حقول النفط . لكن مفرزة واحدة وضعت لحماية محطة الضخ الكائنة في (تمبي) ، على بعد خمسة اميال جنوبا .

ومهما يكن من شيء ، ففي (الاهواز) لم نكن بقادرين على العثور على أمثال هؤلاء الصُدْقان الشجعان ، وان كان امرهم فرطا . فلقد اطلقت النار من وراء على المدفعي سميث ـ المنسوب الى الباخرة الحربية البريطانية: كوميت ـ واردته قتيلا . وكان سميث هذا يحرس الضابط السياسي المرافق لقطعات الجيش : النقيب كري . وكان قاتله من الحرس العرب الذين يحفون بنائب حاكم الاهواز الشيخ جاسب ، وهو ابن شيخ المحمرة : خزعل ، فما كان من الشيخ جاسب الا ان يأمر باعدام القاتل علنا وتمّ ذلك على يد زملائه الحرس . اظهر (الحادث) هذا التوتّر الشديد السائد في المنطقة ، وكانت العـرب تؤلّف الاغلبية ، وتميل الى تلبية داعي (الجهاد) ، وتراءى انها ستبادر اليه حقا . وكانت حكومة الهند تناهض فكرة ارسال القطات جهرا ، وما كنا قادرين على مثل هذا الارسال الا لماما. وهي ترى ان من الضروري ارسالها لصدّ الهجمات

على القرنة والبصرة اولا • ذلك ان اية نكسة تقع في جبهة احدى المدينتين لن تقل ضررا ، بالنسبة لانابيب النفط ، عن الضرر الذي ينجم عن اضطراب في حال الاهواز كثيرا • ولم تكن وزارة البحرية البريطانية ، في هذا الوقت عينه ، لتعلّق أهمية خاصة على حقول النفط[7] ، وجاء في احدى توقيعات[8] وزيرها يومذاك : مستر شرشل المدوّن على محضر رفته هيأة الاركان بتأريخ اليوم الاول من أيلول سنة **١٩١٤** وتطلب فيه انفاذ الجنود لحماية معامل النفط، مانصّه : « ان احتمال توافر الجند لمثل هذه (الغاية) لضعيف ، ومن الضروري استخدام القوات الهندية عند النقطة الحاسمة • سيصبح من اللازم علينا شراء النفط من محل آخر ••• » وكان ان ارسلت الباخرة الحربية البريطانيه : كوميت ، ويرفرف ، الآن ، عليها العلم الابيض ، الى الاهواز في اليوم التاسع والعشرين من كانون الثاني وجماعة صغيرة من الوحدة العسكرية المسمّاة : دورسيت • وفي طريقها لقيت باخـرة تحمل جميع الاوربيين ، وفيهم نائـب القنصل رانكنغ[9]• لقد عقد هؤلاء الراحلون العزم، اِثْرَ اشارة من (نائب الحاكم) ، على السفر لأن خطر بقائهم كان عظيما • واقرّت ذلك السلطـات

---

(٧) للوقوف على ما يفصـح عن الاعتبارات التي حملت حكومة صـاحب الجلالة البريطانية على الحصول على مصلحة مالية في شركة النفط الفارسية ـ الانكليزية المحدودة •

راجع كتاب شرشل الموسوم ب :

The World Crisis, Vol. II, pp. 132, 134, 172.

(المؤلف)

(٨) التوقيعات في تراثنا العربيما يعلقه الوزير أو الرئيس على ما يقدمله من الكتب والتقارير والعرائض والشكاوى • وكانت تجرى مجرى الامثـال في الجمع بين الجزالة والرونق ، ومنها ماكتبه جعفر البرمكي وزيـر الرشيد على شكوى قدمت له عن أحد العمال يخاطبه : (لقد كثر شاكوك وقلّ شاكروك، فاما اعتدلت واما اعتزلت) •

(المترجم)

(٩) اوفد الى فارس سنة ١٩٠٨ بشأن حماية حقول النفط الانكليزية ـ الفارسية وبقي في عربستان منذ ذلك الحين • وكان أن قتله الغزاة التانجستان في بوشهر يوم الـ١٢ من تموز سنة ١٩١٥ • (المؤلف)

العسكرية المحلية ، ولعل هذا (القرار) كان سديدا بعد مقتل المدفعي سميث ، لكنه زاد من الشعور بعدم توافر مقوّمات السلامة في حقول النفط ، وغـدا جنان العدو قويا • وعاد اغلب الاوربيين على ظهر الباخـــرة كوميت ليعيشوا عيشة شاقة عسيرة في سنوات شداد عجاف تالية •

ووصلت القوات التركية نهر الـ(كرخة) الذي يبعد مسافة عشرين ميلا عن الاهواز غربا ، وكان ذلك خلال الاسبوع الاول من شهر شباط سنة ١٩١٥ • وكانت عدّة تلكم القوات : فوجين (١٥٠٠ جندي) ، معهم مدفعا ميدان و١٠٠ من الفرسان، يساندهم ٣٠٠٠ عربي جلّهم بامرة الشيخ غضبان ، او مصاحبون له • والشيخ غضبان هذا عدو قديم للشيخ خزعل ، ولا يقل عن (بني طرف) رغبة في تصفية «الحساب القديم» • وكان القائد المقدام محمد باشا الداغستاني شيخا يتزاحف على السبعين من عمره ، وكان بَرِما بمن معه من الاعـراب الذين سببّوا الاجهاز على قواته باكثر مما سببّته الفرقتان (السادسة) و (الثانية عشرة) مجتمعتين • وفي السابع من شباط زيد من قوة (وحدةدورسيت) المرابطة في الاهواز بورود (وحدة راجبوت ـ ٧) وقوة جاد بهـــا شيخ المحمّرة تراوحت عدّتها بين ١٠٠٠ و١٥٠٠ مقاتل عربي • وكانت القوة الاخيرة مبعث خطر وليس بمدعاة طمأنينة ، كما لم يكن فيها من يمثّل أهم قبيلة عربيـة اعني : (الباوي) ، وقد كانت هذه هائجة مائجة ، على الرغـم من ان شيخ المحمّرة حباها بشيء كثير ، وانها أصبحت ، خلال سنوات خلت ، أكثر اطلاعا على الافكار والاساليب الاوربية •

ولم تعارض الحكومة الايرانية في ارسال مثل هذه القوة الى الاهواز ، ذلك انها ، ورؤساء البختيارية بدرجة أقلّ ، كانت تملك حصة مالية كبيرة في حقول النفط ، كما ان الانقسام الداخلي في صفوفها لم يمكّنها من ان تقوم بأكثر من تقديم احتجاجات قوية في اصطنبول بازاء اكتساح القوات التركية للاهواز •

وعندما وصل الـ (لورد هاردنغ) ، نائب الملك في الهند ، يوم الرابع من

شباط ، شط العرب ، لم يكن قد أقرّ ، بعد ، هل تُحمى أنابيب النفط حماية حقّه أولا ؟ وعن سبيل قوة كافية تنفذ الى الاهواز أو لا ؟ كما لم يتقرّر ، أيضا ، هل أن مثل هذه القوة يجب سحبها من البصرة أو من النجدات القادمة من الهند ؟ كل ذلك على الرغم من اصرار الـ (لورد كرو) ، في اثناء اشغاله منصب وزير الهند ، على مثل هذه الحماية ، لمبرّرات مادية ومعنوية • وكان الـ (سر فالنتاين جرول) يصحب[10] الـ (لورد هاردنغ) ، وما كان الاول مراسلا لصحيفة الـ (تايمس) اوانئذٍ ، بل كان عضوا في لجنة الخدمات العامة •

وفي اثناء غياب سر برسي كوكس بذهابه الى (حاجز الطمي)[11] في شط العرب لملاقاة (نائب الملك) حملت ، بوصفي (مساعد الضابط السياسي الرئيس) تبعة القيام بغارة على مبنى شركة ونكهاوس ، وهي شركة المانية ذات فروع في البصرة وفي عدد من موانيء (الخليج) •

وكانت قضية الوضع العام للالمان الموجودين في الجنوب الغربي من فارس قد احيلت الى (نائب الملك) ولم تسفر الاحالة هذه عن نتائج حاسمة ، لذلك وجدت ان من الافضل انزال ضربة قبل (قدومه) ومن دون ان يلتزم (رئيسي) بتبعتها • وسار كل شيء رخاء ، على وفق خطة مرسومة • وتمّ قطع خط البرق الممتد الى الاهواز المحمول على عمد من خشب في السهل الكائن خارج (البليدة) لئلا يسمع مدير الفرع الالماني في الاهواز بمصير (زميله) • وبعد ان تمّ ذلك زرت نائب الحاكم : أغا عبدي ، وهو صديق قديم لي ، واخبرته بما نويت القيام به ، فانبرى يسأل موجزا ، قائلا : (زورآست ؟) فأجبته :

---

(١٠) V. Chivol, Fifty Years In A Changing World, p. 246. (المؤلف)

(١١) تجمعت ، عبر القرون ، رواسب عظيمة من الطمي الذي يجيء به الرافدان الى شط العرب ، ابان فيضانهما على وجه أخص ، فنشأ فيه حاجزان من الطمي يحولان دون سير البواخر ذوات الغاطس العميق أكبرهما عند ملتقى مياه شط العرب بمياه الخليج العربي والآخر عند المحمّرة (خرمشهر) • (المترجم)

(انها القوة : زورآست !) فما عارض ، بعد ذلك ، أبدا • وألقيت القبض على (الشاب الالماني) بمعونة من الملازم بيلي ـ من وحدة : دورسيت ـ وجعلته على ظهر قارب بخاري أقلّه الى باخرة البريد التي مخرت ، بعد ساعات ، في النهر نزلا • وبأسرع من ردّ الطرف احتجزت السجلات جميعا ووضعت اليد على الصندوق الحديد (القاصة) فوجدت فيها مبررات جمّة لما فعلت ولالقاء القبض على زميل الرجل في الاهواز : هر هلميس[١٢] ، وقد تمّ هذا في اليوم التالي • وما أن فرغت من ذلك كله الا أسرعت الى ملاقاة نائب الملك وبطانته وكانوا على ظهر الباخرة الهندية : لورنس •

وبينا كانت الباخرة تمضي بنا في نهر كارون صعدا أشرت الى مباني شركة ونكهاوس ملفتا نظر نائب الملك اليها مبيّنا له : ان قد تمّ القاء القبض على (العميل) في الليلة السابقة ، وان لديّ الاسباب المبررّة لذلك ، فأجاب : « قد يكون القاء القبض عليه أمرا حسنا ، لكن (برقيتنا) على ما يخيّل لي ، لم تتناوله • » ولكي أتفادى أي نقاش أخرجت من جيبي مسودّة خطاب الترحيب الذي يراد القاؤه بين يديه باسم تجار البصرة ، وكان قد عهد به اليّ وسلّمته الى سر برسي كوكس ليبحثه معه •

وقبل أن يغادر الـ (لورد هاردنغ) شطّ العرب عائدا الى الهند ، تناهت من الاهواز أخبار هي أشدّ ما تكون خطرا ، فالقوات التركية تجمع الاعراب لعبور نهر (كرخه) وثمة قوات قادمة أيضا • ان (كعب الفلاحية) ثائرة ، على حين تظهر (الباوي) العداء جهرا •، وفي الخامس من شباط قطع خط الانابيب في نقطة تقع فوق الاهواز ، وفي نقطة تقع تحتها ، ونهبت المخازن ، لكن المضخّات سلمت بنتيجة الحفاظ عليها من قبل الحرّاس العرب الذين بقي

---

(١٢) كان الجواسيس الالمان من أمثال هذا الرجل وزميليه پندر ماير و زوغماير ناشطين ، لا لتوريط البريطانيين والروس في عداوات شتى حسب ، وانما لاجبار فارس ، الدولة الاسلامية ، على امتشاق الحسام بازاء الحلفاء لكي تظهر المانية ان العالم الاسلامي كله يقف بجانبها وحلفائها • (المترجم)

ولاؤهم لا يريم ولا يتزعزع ، وبنتيجة عدم رغبة (الباوي) في التطرف في الامور • وكان موقف الناقلة (الجالية) الاوربية الصغيرة ، ولا تزيد عدتها على ١٨ رجلا ، العاملة في حقول النفط ، حرجا جدا ، وسرت عنها اشاعات شتى ، ولعدم وجود أخبار رسمية لم يكن هناك من سبيل لنقضها • ان ما قام به اولئك الرجال والمهندسون المولجون بشؤون المضخات وما سعوا اليه خلال تلكم السنوات لابقاء الجهاز سليما متماسكا ، وكان عهدئذ جديدا جدا ، وكيف انهم بعثوا في صدور العشائريين السذج الثقة ، يحمل على اكبارهم وتقدير ما تحلّوا به من شجاعة وفطنة ، تقديرا كبيرا •

وحملت الحوادث هذه ال (سر ارثر باريت) على ارسال قوات اخرى مخرت نهر كارون صعدا ، ولم تكن الغاية من ذلك خط الانابيب ، حسب ، بل خطوط مواصلاتها أيضا •

لقد تجلّى ان العرب القاطنين في شرقي دجلة سينضمّون تحت راية (الجهاد) ما لم تظهر لهم امارات قوة • ووصلت النجدة ، وكانت بامرة العميد روبنصن ، الاهواز ، في ال ١٥ من شباط ، لكن أي تأثير استقراري تجود به كان مهدّدا بالزوال بسبب قدوم ال (هر وسمس) يوم ال ٢٠ من شباط ، وقدوم عملاء ألمان آخرين الى ششتر ، في طريقهم ، الى فارس والحويزة • وقبيل أيام قليلة أصدر سر برسي كوكس بيانا (انظر الملحق الاول) يهدّد فيه بمصادرة أملاك شيوخ البصرة الذين ينحرفون عن جادّة الولاء والحياد ، ويشهرون السلاح متعاونين مع الاعداء • لقد صدر (البيان) في ابّانه وبه ثبتت أقدام بعض المذبذبين الذين هم لا الى هؤلاء ولا الى اولئك ، وقوي ايمانهم • لكن الجميع شعروا ، وبضمنهم الانكليز : ان القضية ستحلّ ، بالحسام ، قبل مضي وقت طويل •

وفي اليوم الثاني من آذار شنّ ال (جنرال روبنصن) حملة غير موفّقة على القوات التركية القادمة مؤخّرا ، تؤازرها قوة كبيرة من الاعراب بقيادة غضبان• وجرت المعركة عند التلال الواطئة الكائنة على بعد نحو عشرة أميال الى الشمال

ـ الغربي من (امينية) ، وهي قرية تقع قبالة : الاهواز • وبلغت ضحايا قوتنا الصغيرة : ٦٢ قتيلا و١٢٧ جريحا ، وتلألأت في المعركة مزايا أفرادها • أما العدو فلقد اعترف بأن قد بلغت ضحاياه : ٢٠٠ قتيل وزيادة ، و٦٠٠ من الجرحى • ولدى التأمل في هذه المشاغلة مع الاعراب ، وفي غيرها ، يجب ألا يعزُب عن الذهن ان لهم مقدرة على الحركة ، غير معتادة • فما أن يكون هؤلاء القوم على صهوات جيادهم الا ّ يصبحوا سبّاقين مجلّين في الميدان لا تباريهم خيالتنا ، شأنهم في ذلك كشأنهم وهم مشاة راجلون ، انهم ، دوما يسار وراءهم ، لا يسايرون ولا يسبقون • فان برقت الأسنة ولمعت السيوف وجاء الموت الباغت لا يبالي أحدهم أوقع على الموت أو وقع الموت عليه • لقد دلّت على ذلك تجربة ضابط خيال هنـدي أصبح في معزل في الصحراء في يوم ما ، وكان يمتطي مهرا ، وسبق أن جعـل في سباق الكرة والصولجان الدولي المعقود مع الولايات المتحدة الامريكية احتياطا • لقـد وجد هـذا (الضابط) ان العرب يستطيعون مباراته وادراكه ، ولو كانوا راجلين ، لـذا لم يستطع الافلات من قبضتهم الا ّ بعون من مدفعية بريطانية (التأريخ الرسمي جـ١ ص١٨٥) • ووضع غضبان جائزة من ليرات ذهب عديدة لكل من يأتي برأس بريطاني أو هندي ، وهكذا أجهز على كل جريح وقع بيد الاعراب فحزّ رأسه حالا ، وفي الجائزة المذكورة طمعا • وكان من بينهم ضـابط بريطاني أحاط به الاعراب وهو ملقى على الارض أعزل جريحا ، وعلى ما رواه لي شاهد عيان عربي بعد أيام قليلـة من الحادث • وكان أن أشار الاعراب على الضابط الجريح بأن قد حان حينه فعليه أن يستعدّ لقطع حلقومه، فما كان منـه الا ّ أن يشير عليهم بالتريّث لحين تمكّنه من خلع حـذائه • ودُهش الاعراب وتوافقوا هائبين ، وأصبحوا في أمر مريب وظنوا ان الرجل يريد أن يصلّي وليس بقادر على ذلك الا ّ اذا خلع حـذاءه ••• وبتصويب مسدّد ألقى الضابط الجريح الحذاء في وجه أعدائه وقد تكأكأوا عليه مطبقين •

لا يقلّ عن هذا شأنا رفض جندي منسوب الى (وحدة بفس) الخضوع الى (اليوسفي) على ما خلّد ذلك دويل Doyle .

ولما كانت نتيجة المعركة غير مرضية ، والضحايا الكبيرة التي مُني بهـا غضبان ورهطه كثيرة لذلك أحجم القوم عن الاشتباك معنا مجددا . وغدا الوضع في عربستان أيسر من ذي قبل قليلا ، وان بقي بالخطر محفوفا . وكانت آثاره في « جبهة الوطن » واضحة[١٣] . وأعلم ال (لورد كرو) ، نائب الملك في الهند ، ان حكومة صاحب الجلالة البريطانية أصدرت أمرا قاطعا يقضي بتعزيز قوات ال (جنرال باريت) فورا ، وانه ، والقائد العام ، أصبحا في حـلّ من تبعة ما يسفر عن ذلك في الهند . وكان أن تقرّر ارسال النجدات من بمبي توّا ، وتم وصولها يوم الـ ٢٥ من آذار ، وكانت بامرة ال (جنرال كورنج). وما أن بلغت القوات المـذكورة البصـرة الا" كانت آثار حركة ال (جنرال روبنصن) آخذة في الزوال ، وعادت (جعب : كعب) و (الباوي)[١٤] الى حال التمرّد والعصيان ، كما شهر أهل (رام هرمز) ، وهي مدينة بختيارية السكان عموما السلاح بوجهنا . وأصدر ال (سر برسي كوكس) بيانا[١٥] الى شيوخ (جعب) وآحادها ينذرهم بلزوم البقاء على الحياد ، وقد جاء في مختتم (بيانه) : « لا تنخدعوا ، وان كان قد أخذ بيدكم على طريق الباطل والغواية ، لا على

---

(١٣) شرعت المقامات العالية في انكلترة تلح في هـذا الوقت ، عينه ، على فكرة انزال القطعات في (اسكندرون) باعتداد ذلك حركة مساندة لحملة ما بين النهرين ، كما غدا احتمال انزال قوات في ازمير ، حيث كنـا نجري حركات ، موضع التفكير .

راجع : Corbet: Vol. II, and Younghusband, Forty Years, p. 279.

(المؤلف)

(١٤) « جاء في (تأريخ الكرد وكردستان لمحمد أمين زكي ص٤٣٣) ان الباوي من ال (كوهلكوبي) وهي فرع من ال (لر) الكردية القاطنة في منطقة بشتكوه الفارسية ، لكنها مسألة فيها نظر . (المترجم)

(١٥) مطبوع نصا في الملحق رقم (١) . (المؤلف)

جادة الحق والهداية ، فتركتم قراكم والتحقتم بأعـــداء بريطـانية ، وفارس محايدة ، فان الحكومة البريطانية ستناصبكم العداء بعداء ، وان لها على ذلـك سلاحا ماضيا ، وستمضي الى ذلك دراكا ، خذوها نصيحة نصـوحا ولا تلقوا بأنفسكم الى التهلكة ، فليس من وراء ذلك جدوى أبدا • »

ولم تنخدع بذلك (جعب) ، وعلى الرغم من آن الباوي دأبت على الثورة المكشوفة ، لكن خط مواصلاتنا النهري المفضي الى الاهواز لم يتعرّض الى خطر كبير ، كما لم تقم القـوات التركية المرابطة قبالة الاهواز الا بهجمات واهنة • وكان أن تلقّى (آمرها) أمرا يقضي بالزحف على المحمّرة ، لـكننا نستشفّ مما ورد في كتاب (المؤلّف التركي) ، الذي سبق أن استقينا منـه فيما مضى ، ان (الآمر) المشار اليه أحجم عن الزحف بسبب عن عدم اطمئنانه الى ولاء حلفائه الاعراب ، مشفقا من شباك ضرّهم وحبائل شرّهم ، لذلـك لم يتقدّم الى الاهواز ، ولا الى المحمّرة ، تقدّما كاسحا • وفي اليوم الـ ٣١ من اذار جرت حركات متقطّعة ، تلتهـا في الايام : الـ٦ والـ١١ والـ١٢ من نيسان حركات اخر ، ولم تعاود تركية أية محاولة على هذا الجناح ، وذلك اثر الظفر الذي أدركناه في الشعيبة • عند هذا نترك ، بيسر ، (جناحنا الايمن) للنظر فيما كان جاريا على (جناحنا الايسر) ، في بلاد العرب •

قبل أن تعلن تركية الحرب ، أُوفد النقيب شكسبير من انكلترة مزوّدا بـ (تعليمات) تقضي بالاتصال بـ (ابن سعود) لضمان نوايا العرب السليمة ان قامت الحرب مع تركيـــة • وكان (النقيب) ، آنفَ الذكر ، قبلا ، (مقيما سياسيا في الكويت) ، وقد طوّف في بلاد العرب وجوّل كثيرا ، ويعـــرف (ابن السعود) جيدا • وكان قد أعلم (ابن سعود) في الوقت نفسه ، بواسطة شيخ الكويت : ابن صباح[١٦] بأن الالمان يسعون جاهدين الى انتزاع تركية من

(١٦) أتاه اليقين في تشرين الثاني سنة ١٩١٥ ، فخلفه ابنه (جابر) الذي لقي ربه سنة ١٩١٦ تاركا (مشيخة الكويت) الى ولد آخر من أولاد : مبارك هو (سالم) ، وهو رجل على حظ من الخلق المتين ، وان ضاقت منه النظرة • (المؤلف)

صف بريطانية ، وان الأمل معقود عليه في باب السعي ، وشيخ الكويت ، لاستتباب الامن في بلاد العرب والسكينة[١٧] وفي خطاب مؤرّخ بتأريخ الرابع من كانون الثاني ، وهو آخر خطاب أرسله ، ذكر النقيب شكسبير ان نداء (الجهاد) لا يلقى في (نجد الجنوبية) أذنا صاغية ، بل على النقيض من ذلك ، شعّت في قلب جزيرة العرب الفرحة الغامرة عندما استوت بريطانية على البصرة والقرنة • وكان ابن سعود ، على ما طمأن سر برسي كوكس به ، يقف في صفنا تماما ، وما كان يصبو الى أكثر من تحرير البصرة (كذا ! : المترجم) وانتزاعها من يد تركية • وكان يروم عقد معاهدة صريحة[١٨] مع بريطانية العظمى ، لانها تجعله آمنا مستقرّا •

وبعد أيام قليلة أسفرت المنافسة بين (ابن سعود) و (ابن رشيد) الحائلي عن معركة عوان Pitched battle • وكان أن جرح فيها النقيب شكسبير باطلاقة طائشة ، فأعمل سيّافة (ابن رشيد) ، بعد ذلك ، الصوارم في جسده• (وباعث هذا الخلق للخلق وارث !) ، فبموته فقدت دليا حميما ، وبه رزئت (الدائرة) ضابطا على حظ كبير من الفَوَق والمقدرة •

وكان أن أوضح (ابن سعود) الظروف التي اكتنفت رحيل شكسبير عن هذه الدنيا وذلك في خطاب من هذه الخطابات الموجزة الواضحة السنية التي يجيد تحريرها اجادة تامّة ، قال :

« حاربنا (ابن رشيد) في ارطاوي ، فكانت وقعة عظيمة • ان الاسى ليحزّ

---

(١٧) كانت سياسة بريطانية بازاء تركية وبلاد العرب ، قبل اندلاع لهيب الحرب ، أن يسود السلام في هذه المنطقة من العالم ، لاحبا بها ، وانما لان قيام أي اضطراب وقلق يؤثر تأثيرا سيئا في مصالحها • اذ لو قام نزاع بين تركية وفارس مثلا ، وهما متداعيتان ، سهّل ذلك التوسع الروسي بازاء الهند ، ولكن للامور بغتات :

تقفون والفلك المسخّر دائر   وتقدّرون فتضحك الاقدار

اذ سرعان ما نشبت الحرب العالمية الاولى واشتركت فيها روسية وتركية وبريطانية العظمى والمانية وغيرها وكانت بلاد العرب وتركية من ساحاتها •
(المترجم)

(١٨) عقدت في تشرين الاول معاهدة • راجع الملحق الاول •   (المؤلف)

في القلب اذ جاءت من بعيد رصاصة فأردت صديقا حميما وانسانا ذا نوايا طيبة لايصادف مثله الا على الفلتة النادرة • لقد ألححنا عليه عساه ، قبل أن تستعر المعركة ، يغادرنا ، لكنه أبى وأصر على البقاء في غمارها ، قائلا : (ان الاوامر الصادرة اليّ تقضي عليّ بأن أبقى معكم ، ها هنا ، فان تركتكم ، خالفتها ، ولن يكون عملي هذا مشرّفا ، لقد وطّدت النفس على البقاء حقا • أرجو تبليغ « حكومة صاحب الجلالة البريطانية » بما مسّ قلبي من أسى[١٩]) •

وسيذكر شكسبير من في الخليج امدا طويلا : (والذكر للانسان عمر ثان)• كان آليا (ميكانيكيا) جيدا ، وامضى ثلاثة اشهر يدور على «المشاغل» ، وكان بحّارا يستطيع اجراء أية سفينة ، فتتّخذ في اليمّ سبيلا • كما كان قادرا على المضي بقاربه البخاري ، لا يأبه لاعصار ، ان دهمه ، ابدا • وذات يوم كنت على ظهر باخرة البريد البطيئة ، الماخرة بين (الكويت) وبين (بوشهر) ، فلقينا قاربه البخاري ، وريح (الشمال) تهبّ عاتية وهو يمضي به الى جهة مضادة ، والقارب يتقلّب فيبعث كثيرا من الاشفاق والروعة • وسرعان ماتناهت من سارية (القارب البحري) رسالة قائلة : (اتريدون شيئا من معونة) ؟ وحسبت ان ثمة خطأ في الرسالة ، لكن (ربّان باخرتنا) كان يعرف جيدا مَن ارسلها ، فأجاب عنها الاجابة المناسبة • ان مثل هذه الرجل من الصفوة المختارة ، لاينجب أي (مسلك) منهم الا قلّة ، وليست بلاد العرب بمكان لأمثاله بالمرّة[٢٠] •

وكانت المعركة التي لقي فيها شكسبير حتفه محفوفة بريبة ، لكنها ، على التحقيق ، تركت (ابن سعود) في وضع اسوأ من ذي قبل ، كما انصرفت عنايته، خلال الاشهر القليلة التالية ، الى ثورة (قبيلة العجمان) فحزبه امرهم واهمّه شأنهم ، ولولا العون المالي والعون المعنوي اللذين اسداهما له الشيخ الهرم : مبارك

---

(١٩) راجع ملاحظة سر برسي كوكس (بيل ج٢/ص٥٠٩) وفيلبي (ج١ ص٣٨٥) • (المؤلف)

(٢٠) للوقوف على وصف تام لرحلات النقيب شكسبير السابقة ، راجع : Carruthers, Geog. Journal, lix, 1922 (المؤلف)

لأسقط في يديه • وفي الشيخ مبارك يقـول لَفِت فريزر : « كان يجلس في ديوانه العالي مرسلا النظر الى البحر يتملّى بعينين نفاذتين فاحصتين ، له وجه مثل وجه (ريشيليو) ، وطموحه يشـــبه الى حـــد ما طموحـــه • لنـــا ان ننظر الى مستقبل العرب بثقة والى استقلالهم المضمون مادامو يرفعون الى سدّة الحكم رجالا من امثال (مبارك) وابن سعود ، وقليل ما هم •

ليس من شأن هذا (الكتاب) لزاما ، ولا مجال فيه للبحث في شؤون قلب جزيرة العرب ، الا لاشارة عابرة • لقد تناولها في تفصيل وفضل بيان ، وان كان بتحيّز الى جهة واحدة في الاحيان ، مستر فيلبي في كتابه الموسوم بـ (قلب جزيرة العرب) وكتابه الموسوم بـ (بلاد العرب الوهابية) • ان ما وقع في هذه الارجاء من احداث لم يكن الا ذا اثر قليل في ماجريات الحرب في بلاد مابين النهرين ، لكن تبعة اسداء المشورة الى «حكومة صاحب الجلالة البريطانية» في شأن السياسة البريطانية في بلاد العرب الوسطى ، خلال المدة التي يتناولها بالبحث هذا (الكتاب) ، كانت وزرا ثقيلا فوق اوزار (الادارة المدنية) • وممـا زاد في الطين بلّة ان الرسائل المبردة من بغداد الى نجد ، وبالعكس ، كانت تصل في مدة لاتقل عن ستة اسابيع الا على الندرى ، اما البرقيات فكانت تستغرق شهرا •

* * *

لزاما علينا الآن ان نعود الى البصرة والى زيارة (نائب الملك) • انها على العموم لم تسفر عن نتائج مرضية • لقد عني (التأريخ الرسمي) بذكر زيارته المستشفيات وانه وجد الاحوال طيبة ، والجند سعداء ينعمون براحة ، وانه لم تقع من الوفيات ، خلال الاشهر الثلاثة الا اسبوعا ، غير ٢٥ وفاة مسبَّبة عن مرض • وان لم يعزب عن البال ان سفينة مستشفى (فاريلا) كانت جارية بين البصرة وبمبي و (الرحلة تقطع في خمسة ايام) دوما ، وانه لم تجر حركة ذات خطر منذ احتلال البصرة ، واذا ما تذكّرنا ان القطعات كانت ملائمة فليس من عجب ان تكون انطباعات الـ(لورد هاردنك) حسنة ، لكنها ليست في مكانها حقا ، ذلك انه اقتيد الى النتيجة القائلة بالا ضرورة لمنجدات في هذا الوقت • ان لواء المشاة الذي كان معدّا لارساله الى البصرة الغي امر حركته من قبل

(نائب الملك) مباشرة ، ونقل هذا (الامر) الى (القائد العام) بواسطة المبرقة . وبقي التفاؤل يعتلج في نفسه لمدة طويلة ، حتى بعد زوال اي مبرر له . مما لا شك فيه ان الهند كانت في خضمّ مشكلات خطيرة تختصّ بها في هـــذا الوقت ، ذاته ، ولعل احداها كانت (بلاد مابين النهرين) وقد لاتكون اخطـــر تبعات الهند العسكرية . وكان الخطاب الذي القاه في (غرفة التجارة البريطانية)، بقدر تعلّقه بالمستقبل ، غير ملتزم ، لذلك اوهن من شأن (البيانات) السابقـــة واضعف آثارها . كل ذلك على الرغم من اشادته بالطائفة التجارية وتنويهـــه بفضلهـا ، وتقديمه صحنين الى عضوين من اعضائها ، تقـديرا للعـون الـدائب المسدى لـ (الحملة الاستكشافية) ، وقوله : « لقد جعلتم مواردكم وموظفيكـم ومبانيكم على طرف الثمام منها ، وجدتم بكل عون مستطاع » .ومع ذلك ، ومما يذكر بالتقدير والشكران ان (نائب الملك في الهند) ، من الجهة الاخرى ، وهو المثقل بالتبعات التي لاتعد ولا تحصى ، قام برحلته الطويلـــة الى البصرة ليتمكّن من الاتصال شخصيا بالعاملين فيها . ومما يؤسف له ان (القائد العام) في الهند لم يتبع خطاه ، كما لم يفعل ذلك اي واحد من ضباطـــه الاركان الرئيسين طوال سنتين وزيادة[٢١] .

وما ان ادار (نائب الملك) وجهه واتّخذ الى الهند سبيلا الاّ اصبح الوضع في (عربستان) على ما اوضحناه آنفا ، يبعث قلقا . واخذ مستوى الماء في شط العرب يتعالى فيزحزح قواتنا ، وقوات الاتراك في القرنـــة ، عن مواضعها .

---

(٢١) يستبان من هذا كله : ان شؤون الاراضي المحتلة من قبل الجيش البريطاني في العراق ، كانت مرتبطة ، عهد ذاك ، بـ (حكومة الهند) وعلى رأسها (نائب الملك) و (القائد العام) فيها . وخليق بالذكر ان احتلال منطقة البصرة كان ، في الاصل ، مشروعا اقترحته لجنة مؤلفة من القائد البحري العام ورئيس أركان الجيش الهندي والعقيد سر هنري ماكمهون (كتوم الشؤون الخارجية في حكومة الهند) ، وسر برسي كوكس (المقيم السياسي في الخليج) ، وكانذلك في الـ ١٥ من كانون الثاني سنة ١٩١٢ . وانا لنعلم علما ليس بالظن ، ويؤيد ذلك ماورد عن (الطائفة التجارية) في كلمـــة (نائب الملك) ان الحملة كانت ابتداء للصفق والتجارة والموارد الطبيعية .

(المترجم)

واستحالت الصحراء الممتدّة بين البصرة والشعيبة الى (بحر خضمّ به الامواج تلتطمّ) ، تمده مياه الفيضان ، وعمقه ثلاث اقدام ويمتدّ الى مسافة خمسة اميال ، بحيث يشقّ على الحيوانات المحمّلة بالاثقال اجتيازه ، لايستثنى منها الاّ الخيول والبغال ، كما يعسر ذلك على العربات والمدفعية جدا وان سحبها صفّان من الحيوانات الجارّة[٢٢]

وجرى تنظيم (وحدة النقل بالابلام) في آذار سنة ١٩١٥ ونيط بها نقل المؤن والتجهيزات ، عبر مياه الفيضان ، بين الزبير والبصرة • و «البلم» قارب ثقيل طويل يحمل على ظهره مازنته نحو نصف طن • وكان يدير أبلام النقل المذكورة الاعراب البلديون ويشرف عليهم جنـدي انكليزي ، او هندي • وحسّن عملهم ، وان تجلّت فيهم روح غير المحاربين حينا ، لاسيما عندما كانوا يسمعون دوي المدفعية النائية وهي تقصف نارا • وكان الجند التركي ، في الوقت نفسه يتقاطر على البلاد في الفرات نزولا ، وكان علينا ان نشدّ من ازر قواتنا في الشعيبة ، وكانت مشكلات النقل بالنسبة الينا عسيرة معسرة ، ولكنها اقل من مشكلات الاتراك عسرا • والى (قوة الحصار الفراتية) الحمد والشكران ، على مابذلته من صنيع فعّال ، والى ابعد مدى • لقد عملت هذه (القوة) في الاهوار الكائنة غربي (كرمة علي) وشماليها الغربي ، واستخدمت السفن القديمة والجنائب ، والقوارب البخارية ، في قصف معسكر الاتراك في (النخيلة) ، واضطرتهم على نبذ استخدام السفن النهرية في العشرين ميلاالاخيرة من خط مواصلاتهم • وان قوتنا ، وهي مؤلّفة من ١٤٤٠٠ جندي و٤٠ مدفعا كانت تنتشر على جبهات ثلاث ، لكننا كنا نمتلك مواصلات نهرية حسنة ، بين

---

(٢٢) الماء في بلاد ما بين النهرين ، من الوجهة العسكرية ، مشكلة حولية ، سواء أكان قليلا أم كان غمرا ، ومن الوجهة الاقتصادية كثيرا ما هدد طوفانه أهل البلاد فباتوا على هلع وغفلة ، فلا نوم ولا راحة ، وكثيرا ما شحّ الماء في رافديه فغدا العراق على حال الهيمان الصادي ، وأصيب أهله في معايشهم ، وهو مصداق قوله تعالى : (وجعلنا من الماء كل شيء حي) •

(المترجم)

القرنة والاهواز والبصرة ، على حين لم تكن هناك مواصلات ، من أي نوع ، ولمقاصد عملية ، بين القوات التركية العاملة في الشعيبة • ومهما يكن من أمر، لقد كانوا أكثر نفيرا ، في الشعيبة وفي الاهواز ، معا • ولو اضيفت الوحدات العربيةالطارئة لاصبحت عدّة (القوة) فيالشعيبة نحو ٧٦٠٠ من الاتراك و١٨٠٠٠ من العرب ، ومعها ٢١ مدفعا ، وفي الاهواز : ١٥٠٠ من الاتراك و٣٠٠٠ من العرب ، ومعها مدفعان ، وذلك على وَفْق تخمين هيئـة أركاننا الحربية يوم ٣١ من آذار •

وتقرّر ، خلال آذار ، وفي غمرة ظروف وردت في تفصيل وفضل بيـان على صفحات (التأريخ الرسمي) ، ارسال النجدات الى بلاد ما بين النهرين • وأقرّت حكومة الهند أيضا تنظيم القوة على شكل (فيلق جيش)[٢٣] ، وأن يخلف ال (سر ارثر باريت) ضابط أعلى رتبة هو : ال (جنرال جي• أي• نيكسون) ، وقد وصل هذا ، ومعه هيئة من الضباط الاركان اضافية ، البصرة يوم ال٩ من نيسان وعاد ال (جنرال باريت) الى الهند وتسلَّم فيها واجبات (الجيش الشمالي) وهي أقل مشقة •

ان ال (سرجون نيكسون) وال (سر ارثر باريت) على طرفي نقيض ، بقدر تعلّق الامر بالمزاج ، وما من شك الاّ على القلّة ، في ان ال (سر ارثر باريت) من بينهما هو الاصلح لمعالجة معضلة ما بين النهرين ، بالنسبة لخلفه • كان ال (سر جون نيكسون) يستمرح بممارسة التبعـة ـ و « ليس من بينة قائمة لدينا » ـ على ما سجلته « لجنة بلاد ما بين النهرين ـ « تظهر عقد مؤتمر من أي نوع ، قبل اعلامه (نائب الملك) انه على فتح طريق بغـــداد لقادر •» وكان في مكنـــة ال (سر ارثر باريت) الاضطلاع بالتبعة ، لكنه كان يؤثر الحذر طبعا ، وكان في المشاورة صبورا ، وفي الاقدام على العمل سريعا ، وكل ذلك بعد اقرار القواعد أولا •

---

(٢٣) كان مؤلّفا من فرقتي مشاة ، وكان وصول ال (جنرال نيكسون) البصرة يوم ٩ نيسان • (المترجم)

ودأب على الخدمة في الهند حتى سنة ١٩٢٠ ، وكانت آخر (قيادة) له هي قيادة (قوة الحدود الشمالية ـ الغربية) • وبرتبة (مشير) ، وفي تشرين الاول من سنة ١٩٢٦ ودّع هذه الدنيا الفانية وكل حيّ هالك : (وان طالت الايام وانفسح العمر) • لقد كان على المذهب الراديكالي سياسيا ، وانصرف الى دراسة علم النبات والتتبّع ، وليس الى ميدان الالعاب الرياضية • كان حسن المحضر ، وسيم المظهر ، وليس مما يوهن شأن خليفته أن يقال ان الرجل لو بقي في (القيادة) لأنجز كثيراً من الاشياء ، على وجه مختلف• وعندما درست (لجنة ما بين النهرين) أسباب النازلات التي جاءت بأخرَه أشادت ببعد نظره حين أصرّ على طلب سكة حديد خفيفة للناصرية (انظر • الفصل الحادي عشر) •

وما أن وطئت قدما ال (جنرال نيكسون) ثرى البلاد الا كان كل شيء، لأول معركة من معاركنا على الجبهة الجنوبية ، وأكثرها حيوية ، معدّا • وبعد ستة أيام ، وفي الـ١٢ من نيسان على التحديد ، شرع الاتراك بالهجوم على موقعنا في الشعيبة • وعند الفجر الوليد من اليوم ال ١٥ ، واثر ٧٢ ساعة من القتال المستدام تقريبا ، بقي الظفر بجانبنا[٢٣]• كانت معركة الشعيبة من «قتال المصادمة : Encounter battle » وقد تطوّرت ، على غير خطة ، وانما

---

(٢٣) منح الرائد ويلر ، المنسوب الى وحدة (هاريانا لانسرز/٧) وسام (صليب فكتورية الحديد .V.C) لما أبداه من بسالة خلال المعركة ، وبعد مقتله دبيرا («اثرنا «دبيرا» ترجمة لما جاء في الاصل : Posthumously) (المترجم)

وقد تطرّقت الى ذلك جريدة (غازيت) اللندنية ، في عددها الصادر بتأريخ اليوم الاول من ايلول سنة ١٩١٥ ، على وفق ما يلي السطر :

استأذن المقدم ويلر ، يوم ال ١٢ من نيسان باخراج رعيله ومحاولة الاستحواذ على (علم) ، وكان هذا نقطة مركزية لجماعة من الاعداء كانت تطلق النار على ربيئة من رباياتا • وتقدّم ، فهاجم مشاة العدو بالرمح ، وأجهز على الكثيرين منهم • ثم شرع بالانسحاب حين أخذ العدو يخرج من أرض خبء ، فاحدث هدفا ممتازا لمدفعيتنا المحمولة •

وفي ال ١٣ من نيسان ١٩١٥ قاد الرائد ويلر رعيله لمهاجمة « التل الشمالي » • وشوهد أمام جنوده على مسافة بعيدة مندفعا وحده نحو رايات العدو • وكان أن قتل هذا الضابط الشجاع فوق التل • » (المؤلّف)

كان ذلك آنيا ، ولعب كل صنف من صنوف الجيش دوره فيها . هذا وان سلوك الوحدات الهنـــدية ، وكانت تؤلف أكثرية مجموع القوة ، ليشيع في قلب (ويلنكتن) ، فرحا عامرا . وما كانت لدينا ، بطبيعة الحال ، طـــائرات ، ولعل هذه المعركة كانت آخر قتال عظيم يحدث حقا ، ومن دون أن يكون ثمة استطلاع جوي قبلا . وما كانت الوحدات البحرية الموجودة على الجناح الايمن بقادرة على أن تســدي للمعركة عونا ، لـكنها استطاعت الى عرقلة الانسحاب سبيلا .

وبقيت القوة البريطانية ، خـلال القتـــال الذي استمر مدة ثلاثة أيام ، مدافعة . وما كانت هناك مطـــاردة ، فاستطاع الاتراك نقل مدافعهم جميعا . وكانت المطاردة بواسطة مشاتنا غير ذات موضوع ، ذلك ان النقليات الميسورة كانت غير كافية بالمرة . لكننا كنا نملك لواء خيالة وبطرية محمولة . واستخدمت الخيالة على جناحنا الايمن ، وما كان لها من مجال للمناورة ، لانها لم تستطع الالتفاف حول ميسرة الاتراك بسبب من الفيضان . ولو جرى استخدامها ، مع البطرية المحمولة ، على جناحنا الأيسر ، لكانت حركتها ، خلال المعركة التي شنتها حاسمة ، ولعلها كانت تستطيع ابادة القوات التركية أو تأسرها ، وهي تتراجع ، كليا . لقد كانت عارفة بالارضين ، وذلك بنتيجة الاستكشاف المتواصل الذي قامت به خلال شهري آذار ونيسان ، وأظهرت في حركاتها الجارية على الجناح الأيمن تشبثا .

وبلغت ضحايانا ، خلال معركة الايام الثلاثة : ١٢٥٧ ، وضحايا الاتراك نحو ضعف هذا العدد ، ينضاف الى ذلك اننا أسرنا نحو ٨٠٠٠ وغنمنا مدفعين جبليين .

ووصل النقيب لجمن[٢٤] (العقيد فيما بعد) ، المنسوب الى وحدة رويال سسكس الجوابة ، والخبير بشؤون بلاد العرب ، والجندي الذي شهد الخدمة في

---

(٢٤) هو من عيون الانكليز الذين طوفوا في ارجاء الانبراطورية العثمانية بعامة ، وفي العراق عندما كان جزءا منها ، بخاصة ، ومن أضرابه : (مس بيل) و (سون) و (فيلبي) و (برترام تومس) و (ديكسن) وكلهم كانوا ناشطين في باب ايجاد

أكثر من معركة ، في شباط ، وألحق بالمقر العام للفرقة ، في الشعيبة ، باعتداده : ضابطا سياسيا • وقام بخدمة في هذه (المعركة) بسبيل ارسال الاشارة ، وبالحفاظ على أوثق الصلات ، عن طريق الزبير ، مع خُلْصَانه الصحراويين ، فحصل على آخر المعلومات المتصّلة بفاعليات العدو • وسأتحدّث عنه ، فيما يلي ، بأكثر من هذا •

ان اندحار الاتراك الماحق الساحق في الشعيبة كان عاملا كبيرا في تبديد مخاوف اولئك العرب الذين يؤلّفون أغلب السكان ، ممن كانت نواياهم حسنة بازائنا • لكن الطبقات الدنيا لم ترحب بذلك تماما • لقد تحاشت هذ. أساليبنا الغريبة واستنكرت عاداتنا أولا ، ومن ذلك ان ركبات جنودنا العاريات كانت تستثيرهم، وتبعث تقزّزهم • وكنت بين الحشد الذي شهد وصول الدفعة الاولى من اسرى الاتراك عند باب الزبير • لقد كان عددهم لا يتناسب مع عدد أحراسهم من الجنود الانكليز ابداً ، كما كان الاخيرون ليسوا بأقل كثيرا من اسراهم ، هلهلة ثياب ونصبا ، لذلك شاع في الناس ان الاتراك يدخلون المدينة ظافرين ، وتعالت صيحات الفرح والجذل مدوّية • وأخطأ عريف تركي مغزى هذا (التهليل) فقذف الجمهور المحتشد بشتيمة، لذلك خيّم عليهم السكون ، وأطبق ، فيما خلا نحيب امرأة ، في لمّة من النسوة كن على سطح احدى الدور، وهي تردّد : « يا رب ، والى متى هذا النصر للكافرين ، الى متى؟! » • وسرعان ما استدارت اليها مئة من وجوه نسوة ، وأخذن بالعويل وهو يتردّد من سطح بيت لسطح بيت ، وسرعان ماخمدت الاصوات ورجعت النسوة الى التجمّل والسداد • وعلمنا بأخرة ان (خطاب ترحيب) كان قد أعدّ ليلقى بين يدي : سليمان العسكري[٢٥] ، ومما لاشك فيه انه تّخذ سبيله الى تنور بيت

العملاء والحصول على معلومات واعداد المسوح والخوارط والاحصائيات لفائدة الحملة المرتقبة عليه ، وسيأتي طرف من نشاط (لجمن) في (متن الكتاب) وفي (التعليقات) • (المترجم)

(٢٥) جرح هذا القائد في (معركة الشعيبة) ثم نقل الى المستشفى العسكري في بغداد ولم يمكث فيه الا لأيا من الزمن ثم عاد الى ميدان القتال ،

لاهب تلك الليلة عينها •

وكانت ثمة امارات من امارات القلق في جوار (بوشهر) أي على جناحنا الايمن ، وبالاحرى خلفنا • لقد ألمعنا ، فيما مضى ، الى وصول (هر وسمس) الى (خوزستان) في طريقه الى فارس •

ولم يمرّ رحيله من دون أن يلحظه أحد ، وقد جرت محاولة لالقاء القبض عليه وهو يساحل البحر وراء (بندر ريك) في مقاطعة (حياة داود) • وكان الضابط الذي اوكل اليه ذلك هو : النقيب نويل ، المنسوب الى (الدائرة السياسية الهندية) • انه انسان جمع الىالقوة الخارقة الصبر ، وانه لذو معلومات جمّة عن عادات العشائر ، ومعرفة باللغة الفارسية تامة • وبعد سلسلة من المسيرات الاضطرازية استطاع أن يلقي القبض على الجماعة كلها ، لكنالحارس الفارسيالموكول اليه مراقبة المعسكر أخذتهسنة من النوم ، وتلك عادة اضرابه الملازمة ، فاستطاع (هر وسمس) أن يفلت من الاسر وينجو • وارسلت بقية الجماعة الىمعسكر اعتقال في الهند ، وكان قد ارسل اليه من قبل (هرليستمان) الذي كان يشغل منصب القنصل الالماني في بوشهر ، والذي كان تصرّفه العدائي بازائنا ، وان لم يكن ذلك بالنسبة اليه أمرا شائنا ، هو السبب في نقله شخصيا • لقد وجدت في أوراقه وأوراق (هر وسمس) فعالا فاضحة ، عليها دلائل بيّنة ، وخطط لا تتفق مع الحفاظ على حياد ايران • وكان (هروسمس) يحمل كمية كبيرة منقود ذهب وكراسات باللغى الفارسية والبنجابية والهندية والاردو لاستهلاك الجنود الهنود • وكانت الكراسات هذه من النوع التافه الرخيص ، ولم يكن ليقدر لها أن تحقّق شيئا ما ، ولعل ما يمكن أن تحقّقه لا يعدو أن يكون قليلا ، ولكن نشاط (هر وسمس) العارم وماله جاءا بالاعاجيب•

كانت قبائل تانجستان على شاطيء بوشهر على حال فوضى ، لسنوات حقا ، وكانت مسلّحة تسليحا تاما •

وما أن رأى جيشه يولي الادبار الا انتحر وكان ذلك في نيسان ١٩١٥ ، والشعيبة لها أهمية سوقية عظيمة فكل الطرق الآتية من الغرب ومن الشمال المؤدية الى البصرة تمرّ منها • (المترجم)

واستطاعت هذه القبائل أن تستولي على (بوشهر) مرتين ، خلال السنوات العشر الاخيرة • ولما كانت هذه القبائل تسهم اسهاما ناشطا في تجارة الاسلحة، لذلك وقفت موقف المستنكّر المقاوم لنشاط الاسطول الحربي البريطاني الذي دأب منذ سنة ١٩١٠ ، بموافقة الحكومة الفارسية وبعون منها ، على قمع هـذا الاتجار • لقـد كان كل شيء يترقّب الشـرارة التي تلهب النار في الهشيم ، وكان أن أشعلها (وسمس) واستطاع بعون ناشط من بعض ضباط السويـد الذين يقودون الدرك الفارسي ، والموظفين الفرس ، أن يثير القبائل وغـيرها لمهاجمة القنصلية البريطانية في كل من شيراز وبوشهر[٢٦] • وليس من شـأن هـذا (الكتاب) ، على كل حال ، البحث في الحـوادث التي وقعت في شـيراز وداخل فارس • لقد تناولها سر برسي سايكس بالبحث التام ، وهو من نزل الى البرّ الفارسي عند (بندر عباس) سنة ١٩١٦ ، ومعه جماعة صغيرة من الجند الانكليزي والهندي • لقد جنّد ١١٠٠٠ من الفرس ، أهل البلاد ، ليحلّوا محل الدرك ، فاغلب هؤلاء كان قد انضمّ الى الالمـان أو تفرّق شـذر مذر بسبب عدم دفع المعاش لهم • ان القوة التي جرى تشكيلها على الوجه المبيّن دعيت بـ (وحدة بندقيات فارس الجنوبية) ، وكانت الغاية من تشكيلها حصرا : اعلاء كلمة القانون وسيادة النظام وضمان حياد فارس ، في الجهة الجنوبية • أما في الشمال فكانت قوة تشكّل باسم (لواء القوزاق) يشرف عليهـا الروس بالعدد نفسه ، لتبقى طوال أيام الحرب •

ولعل وجود هذه القوى في فارس أثار مشكلات أكثر من المشكلات التي سعت الى حلّها ، لكنها استطاعت أن تحول دون انضمام فارس الى الـدول المركزية ، كان للالمان نفوذ قوي يمارسونه في افغانستان والحـدود الهنديـة الشمالية الغربية •

---

(٢٦) راجع :

F. Tuohy, the Crater of Mars, p. 181, and the Secret-Corps, p. 200.

ان سرد فعال هر وسمس يدخل في باب الاساطير على وجه التمام ، لاسيما ما اتصل منه بالاشارة الى «الفتيات الاسيرات الانكليزيات» (المؤلف)

وتأزمت الحال في (بوشهر) عند منتصف آذار ، وتراءى ان من المحتمل نقل القوات من بلاد ما بين النهرين الى (بوشهر) لحمايتها ، وهكذا ارسل فوج مشاة هندي اليها بعد معركة الشعيبة بقليل. وفي حزيران وسّعت تبعات الـ(جنرال نيكسون) فشملت (بوشهر) وقويت وسائل الدفاع عنها بمدفعين تمّ الاستيلاء عليهما من الاتراك . ووسعت الحامية أخيراً فأصبحت (لواء) وقد حارب هذا اللواء بأمرة (الجنرال بروكنك) قبائل التانجستان ، كما شاغلتها جماعة من الجنـد نزلت من الاسطول .

وعلى الرغم من ان هذه الحوادث ليست على صلة كبيرة بموضوعنا لكنها زادت من قلق القائد العام في بلاد ما بين النهرين ومستشاريه السياسيين .



الفصل الثالث

حركات الاهواز (خوزستان) واحتلال العمارة

(من البيّن الجلي ان لو تخلى جيش ما عن : مدافعه وتجهيزاته ولوازمه ومهماته ، أي عن كل مايزيده قوة على قوة ، ويصيّره كالبنيان المرصوص ، ولو تخلى عن حاميه فغدا سيره متعثرا معرقلا ، وأصبح يحمل أوزارا ثقالا ، فما عليه الا أن يمضي في سبيل لا يقوى احد على السير في اعقابه ، أو يتسنى ، لجيش ، لم يجد بمثل تضحيته ، من اللحوق به) .

دوق ويلنكتون ١٨ ايار ١٨٠٩

وما أن ادرك ال(سر جون نيكسون) النصر المؤزّر في الشعيبة الا تفرّغ لوضع خطط تنصبّ على وضع التعليمات الصادرة له موضع التنفيذ ، واليكها :ـ

« ١ ـ المرتجى من قطعاتك ان تسيطر سيطرة تامة على الشطر الاسفل من بلاد مابين النهرين الذي يضمّ ولاية البصرة ويشمل جميع المنافذ المؤدية الى النهر ، بالاضافة الى الاراضى المتاخمة ذوات الاثر في حركاتك .

٢ ـ عليك ، بقدر ما تراه ، ان تؤمّن سلامة حقول النفط وانابيبه ومصافيه ، ملك شركة النفط الفارسية ـ الانكليزية ، ما استطعت الى ذلك سبيلا ، ومن دون ان يؤثر ذلك في حركاتك الرئيسة .

٣ ـ وما ان تتعرّف على الوضع محليا الا يصبح لزاما عليك ان تقدم :

أ ـ خطة رصينة لاحتلال البصرة .

---

(١) المراجع :
Official History, Critical Study, Candler, Townshend, Naval Review, Vol. III, 'H.B.R.' Memory of a side show; Army Quar-terly 1921.

[المؤلف]

ب ــ واخرى للتقدّم ، بعد ذلك ، نحو بغداد •

٤ ــ عليك أن تحترم ، ابّان القيام بالحركات كلها ، حياد فارس ، وبقدر ما تسمح به الضرورات العسكرية والسياسية • •

وكما كان لزاما عليه: تقديم (تقارير) عمّا يحتاج اليه من وسائط النقل الحيواني ، واستخدام سكة حديد خفيفة ، وسيارات مسلّحة ونقليات آلية ، وطائرات ، وعن صلاح بعض السفن النهرية وكفايتها ، وكانت هذه في طريقها الى بلاد مابين النهرين • ولقد «ابردت» نسخ من هذه التعليمات الى (وزارة الهند) فوصلت يوم الثاني من أيار •

ونيط أمر الحركات في دجلة ، باتجاه العمارة ، باللواء طاونسند الـذي تسلّم قيادة الفرقة السادسة ، يوم الثاني والعشرين من نيسان • اما الحركات في خوزستان فقد عهدت الى اللواء كورنج ، قائد الفرقـة الـ١٢ • وسآتي ، أولا ، على القول في الحركات الاخيرة اذ ان خطورتها جاءت في برقيات صدرت عن (وزارة الهند) وفيها ورد ان (وزارة البحرية) مشوقة جدا الى اصلاح خط الانابيب وتريده مبكرا ، وذلك « ان قضية النفط أصبحت ذات خطر » • انها لهجة تختلف جدا عن لهجة اصطنعها (وزير البحرية) قبل ستة شهور • ومذ هذا الوقت اخذت (وزارة البحرية) تؤكّد ، في جميع مخابراتها مع (وزارة الهند) على الاهمية الحيوية المنبثقة عن حماية حقول النفط وانابيبه ومصافيه على الوجه الرصين الاقوم • ومهما كانت الحال ، فثمة وجهة اخرى للحركات في خوزستان ، واعني بها : التأثير المحتمل لتلكم الحركات في الاتراك المرابطين على دجلة ، وفي مكنة اللواء كورنج تهديد مؤخرتهم ، ان وفّق الى ذلك • ولم ينعم الـ (سرجون نيكسون) النظر في مثل هذا الاحتمال الا قليلا • ذلك ان المعلومات المتوافـّرة[٢] كانت تشير الى ان مياه الفيضان ستحول دون « الوصول الى العمارة

---

(٢) ليس في ايراد هذه الحقيقة ما يمس (شعبة الاستخبارات) بقصور نظر أو بتقصير عمل • لقد سبق لكاتب هذه السطور ان اعلمها بان (لجنة الحدود التركية ــ الفارسية) التي كانت تحل في معسكر راكب على (نهر دويريج) خلال الاسبوع الاول من اذار سنة ١٩١٤ ، لم تستطع الاتصال بالعمارة بسبب الفيضان ، ولما كان في اللجنة المذكورة ممثلون من الاهلين ، فان هذه المعلومات

بسبيل نهر كرخه » ، لكن الذي لا شك فيه هو تأثير ذلك في الاتراك الى حد ما • ان ارسال فرقة كاملة الى الاهوار ، في مثل هذا الوقت، ليس،على كل حال، ضروري ابدا ، فكتيبة خيالة تكفي ، وليس من سبيل آخر ، في هذا الـوقت عينه أيضا ، الى استخدام ما هو ميسور من الخيالة في ميدان آخر ، على الوجه النافذ الاكمل •

وكانت قوة اللواء كورنج تتألف من : ستة رعائل خيالة[٣] و١٧ مدفعا وستة افواج مشاة وقطار موصل ، وقد تجمعت هذه القوة باتخاذ سبيل البر تارة ، وسبيل النهر تارة اخرى ، في نقطة على ضفة نهر كارون اليمنى ، على بعد ١٤ ميلا شمالي المحمّرة ، ومنها سارت الى (سبعة) حيث وافتها بقيتها قادمة من البصرة • وكان قوام وسائط النقل التي عندهـا ، على العموم ، ٩٠٠ بغل استعيرت من شركة النفط الفارسية ـ الانكليزية •

وكانت القوة التركية ، قبالة الاهواز بأمرة محمد فاضل باشا الداغستاني ، وهي تتراجع كليا • واصبح أمر (بني لام) فرطا ، وعـادت (بنو طرف) الى موطنها في اهوار (كرخه) تحاول التفاوض معنا • وقامت (الباوي) نفجا تعرض أمر حماية القوافل وانابيب النفط ، علينـا • وكان البارومتر ، السياسي آخـذا بالارتفاع دراكا • وفي هذا الوقت عينه عيّنت (ضابطا سياسيا) ملحقـا باللـواء كورنج فاتخذت ، ومراسلي العربي ، السبيل الى مقره ممتطيا صهوة جواد عريان، ومعي حقيبة سفر فيها ما احتاج اليه كله •

وغبّ حديث موجز مع القنصل البريطاني ، مستر تريفر (المعيّن خلفـا

على ما يتراءى ويحتمل ، موثوقة ، وان تبين انها لا تصح الا بالنسبة لشهر ايار من سنة ١٩١٥ وان اردت ان تقف على مزيد من اعمال (لجنـة الحدود التركية ـ الفارسية) فراجع مضانها من مؤلفي (هبارد Hubbard و(رايدر Ryder) (المؤلف) •

(٣) وبضمنها الكتيبة الـ ٣٣ الخيالة التي قاتلت باسم الكتيبة الثالثة وبأمرة (اوترام) خلال الحرب الانكليزية الفارسية سنة ١٨٥٧ قـرب (بوشهر) عنـد (خوشاب) وقد نال في المعركة احد ضباطها الملازم مالكولمسن وسـام الصليـب الحديد يوم الـ ٨ من شباط •

[«لندن غازيت» ٣ آب ١٨٦٠] • (المؤلّف)

للمقدم نوكس في بوشهر ، بعد اسبوعين ، حالا محل العقيد كينين ، المنسوب الى (الدائرة السياسية الهندية) اتخذت سبيلي، على صهوة جواد ، للالتحاق باللواء كورنيج ، قبالة (بريكة) ، وكان ذلك في امسية اليوم الثلاثين من الشهر الجاري • ومن اسف ان وصولي كان متأخرا جدا اذ لم أوفق الى الحيلولة دون وقوع حادث مرير ، لعل الحيلولة دون وقوعه كان أمرا ممكنا ، واعني به : قتل الاعراب المقدم اندرسن المنسوب الى (وحدة الخيالة/٣٣) ابان قيامه باستكشاف الارضين الواقعة بازاء عقيقة نهر (كرخه) القديمة •

ورد في (التاريخ الرسمي) ان خوارط خوزستان غير متسمة بالدقة ، وانها لذلك مضللة ، فالحاجة ماسة ، في هذاالوقت عينه، الىالقيامباستكشاف أولي ارضي قبل القيام بالحركات البرية • وفي الحق ان الخوارط التيزودت بها القطعات كانت مضللة ، لكن مادتها الاولية المتسعة بالدقة المتناهية ، بمقياس بوصة واحدة لكل ميل ، كانت متيسرة في دوائر المحفوظات[٤] في حكومة الهند ، وفي دار المقيم البريطاني في (بوشهر) وفي قنصليتي المحمرة والاهواز • لقد طوفت ، خلال سنة ١٩٠٩ و ١٩١٠ ، في المنطقة هذه مرارا ، ومع (لجنة الحدود) سنة ١٩١٤ تكرارا ، وكان في مكنتي تقديم معلومات دقيقة لأني صحبت (سر ويليم ويلكوكس) ، وهو من طار صيته في بلاد مابين النهرين ومصر كل مطار ، في زيارته نهر كرخه في شهر ايار ١٩٠٩ ، كما امضيت بضعة اسابيع من شهري تموز وآب سنة ١٩٠٩ في اعداد خارطة متقنة للمنطقة الكائنة جنوبي (علة) على مستويات مفصلة تفصيلا • وكانت الخوارط هذه متيسرة أيضا ، لكن مقر الجيش في (سملا) لم يستفد منها ابدا • لقد ران الكتمان على نوايا القائد العام في البصرة واطبق تماما ، لذا لم يتضح ،

---

(٤) أعد المقدم مورتن مسحا بمقياس كبير للارضين الكائنة على ضفتي نهر كارون ، جنوبي الاهواز ، وكان هذا الضابط قد اوفد من قبل (دائرة الاشغال العامة فى الهند) ، وبموافقة الحكومة الفارسية ، لدراسة امكانات الري في عربستان الجنوبية • لقد زود بمسح ذى مقياس بوصة واحدة أعده مستر سكوت ، المنسوب الى دائرة مساحة الهند ، سنة ١٩١١ ، لشركة النفط الفارسية ــ الانكليزية • (المؤلف)

حتى وقت متأخر جدا ، ان مصادر المعلومات لهذه غير متيسرة لهم قطعا . لقد اشير الى هذه المسوح في التقريـــر العسكري الرسمي المتّصل بجنوبي غربي ايران حقا ، وكنت قد اعددته لمقر الجيش سنة ١٩٠٩ ابّان اشغـالي منصب وكيل القنصل في المحمّرة . ينضاف الى ذلك : ان لجنة الحـدود التركية ـ الفارسية كانت تستعمل منها ، كل يوم ، نسخا . لقد أعدّت النسخ هذه من قبل (دائرة المساحة الهندية) ، بمقياس بوصة لكل ميل ، على خوارط يرجـع عهدها الى سنة ١٨٥٠ ، رسمها المساحون الانكليز للجنة حـــــدود سابقة ، واتسمت بالدّقة المتناهية . لقد كنت شاعرا بضخامة العمل وفائدته ، بقدر تعلق الأمر باعداد خارطة لبلاد العرب وخليج فارس ، والاستقاء من كل مصدر متيسر خلال المدة التي سبقت الحرب مباشرة(٥) . لكنني لم اطّلع الا في وقت متأخر جدا على ان هذه المعلومات القيّمة كانت قد نبذت واهملت الافادة منها ، ولعل مردّ ذلك الى انهم لم يستفيدوا منها في اعداد خارطة «للاستعمال الرسمي» حسب» و «سرية» .

وما ان بلغت غايتي الا واجهت العميد ميليس ، وما ان اطلع على ماعندي من معلومات تتّصل بالبلاد الا تطلّق وجهه وانشرح . والعميد ميليس هو من شاع ذكره وعرف بالرأي الأسدّ والأيد الاشدّ والسلاح الاحد ، وانه افضل مقاتل من بين امراء الفيالق في ارض بلاد مابين النهرين . وفي اليوم التالي ، أي اليوم الاول من آيار ، قمت بواجب الدليل الهادي لرتل مؤلّف من فيلق خيالة ، ومن مشاة وبطرية ، انفذ لتأسيس (مستودع متقدم) على عقيقة نهر كرخه القديمة المعروفة عند العرب بـ (شط الاعمى) . وعلى حين كنت في المقدمـــة مع كوكبة من الفرسان ، راكبا بامرة النقيب مايكلجون ، شهدنا جثمان (اندرسن) ملقى خارج مسارنا . وكان ان ترجّلت وغطّيته بقماش من قطن كنت أستعمله

---

(٥) راجع :

Frazer Hunter: 'Reminicenes of the Map of Arabia and the Persian Gulf' Geo. Journal, December, 1919.

[المؤلف]

لفراشي غطاءا ، ذلك (ان الجو أصبح حارا) • ودفنت الجثمان مكرّما قبل ان يمضي (الرتل) في سبيله قُدُما • وبلغنا عقيقة نهر كرخه القديمة فوجدناها جافّة عند غايتنا ، لكنني كنت على يقين من ان في الجهة الغربية وشلا • ومرّت هنيهة توق ، وسر الجميع عندما عادت دورية راكبة تقول ان في عقيقة (النهر) على مسافة ميل واحد ، ماءا عذبا فراتا • ومكثت القوة في هذا المكان اسبوعا ثم مضت لمسافة خمسة اميال صُعُدا • وكان ان بلغت (علّة) ، وعندها اتخذ مايلزم لعبور النهر حالا • ان (التأريخ الرسمي) (ص٢٢٧) يصرّ على وجوب القيام بالاستكشاف لايجاد افضل مكان للقيام بذلك طرّا • ومهما يكن من أمر لقد تجلّى ، منذ مطلع الامر ، ان عبور النهر في هذا الموقع كان سليما آمنا ، واستبعد أي مكان آخر ابدا • لقد أظهرت آثار عجلات الاتراك انهم اختاروه لهذه الغاية حصرا • ان مساقط الماء المسماة (سن العباس) موجودة شمالا • والى الجنوب منها ، عند دورة النهر قرب (كوت السيد علي) حيث يوجد معبر عربي يتخذ في ايام السلم ، يتّسع مجرى النهر ، على حين غرة ، كثيرا • وعرض النهر هنا ٢٥٠ ياردة وشاطئاه منحدران انحدارا بيّنا • وذوبان الثلوج في (لورستان) هو السبب في اتساع هذا المجرى ، وبما ان قطر السماء لم يسقط عند اعاليه فلم يكن ماوءه ، طوال ايام ، طاغيا ، وفي مثل هذه الحال يتّعذر عبوره طبعا • وكانت مواجهتي الاولى مع (اللواء كورنج) في اليوم الثاني من أيار ، فأثرت في نفسي شخصيته القوية كثيرا • لقد خدم الرجل في مصر ، وفي وزارة الحرب ، والهند ، كمهندس عسكري ، طويلا • وبقيت في هيأة ضباطه الاركان الى ما بعد مرور اشهر على الاستيلاء على الناصرية ، في أواخر السنة • وكان لزاما عليّ أن أكون على اتصال دائب مع (العقيد دنت) في شعبة الاستخبارات طوال عشر سنوات • لقد كان هذا الاتصال يفجّر في نفسى فرحا وان كان بالخوف ، في الاحيان ، مشوبا • وخلال مقابلتي الاولى معه ذكرت له اني اعتدت في فارس على جعل الخيل تسبح في النهر ، فكان ان صدر أمر اليّ في أمسية وصولي (علّه) بان « اجعل البغال تسبح عبر النهر » • انه لعمل

طريف ظريف يضطلع به : (ضابط سياسي) حقا . وعمل كهذا هو عليّ هيّن ، وأسعدني الحظ اذ كنت أركب فرسا ماهرة معتادة على عبور النهر ، وكان معي ثلاثة من غلمان شيخ المحمّرة كان احدهم يمتطي مثلها أيضاً . وما ان انبلج الفجر الاّ حشر في مكان ملائم عشرون او ثلاثون بغلا ، ثم تعالت صيحات الجنود تهيب بهذه الوحوش الى الماء لتسير في أعقاب فرسي وهي تخوضه عابرة النهر ، وماؤه في برودة الثلج . وعمدت الى رشّ الماء في وجه الفرس ليبقى رأسها عاليا فوق مستوى مجرى النهر . ومن حسن الحظ ان تسير البغال في اثر الفرس ، وهكذا عبرته المفرزة الاولى بسلام . لكن المحاولة الثانية كانت أقلّ توفيقا ، ذلك ان قاربا من جنفاص كان يعجّ بالجنود تناوشته الامواج فأصبح في وسطنا ، ونحن في منتصف المسافة ، عَبر النهر ، فذعرت لذلك البغال وحاولت ان تلج القارب على حين كانت الجنود تدافعها عنه . انه لمنظر ساخر ، يدعو الى الضحك ، وسرعان ما شملني أيضا ، فلقد تحلّقت البغال حول فرسي ، فسقطت من فوقها ، وغمرني الماء . وشرعت البغال تدوس بقوائمها الامامية على ظهري بعنف فتسبّب لي ألما . وغبّ هذا الحادث شرع جنود (الوحدة/٦٦) ووحدة البنجاب/٧٦ ، وهم من خَبَر سباحة البغال في بلادهم ، في انهرها الخمسة ، بالقيام بهذه العمليات ، كما نيطت بهم شؤون القوارب ايضا . وحذت ذلك الخيالة والمدفعية ، حذو القذّة بالقذّة ، وبعد حينٍ شمل ذلك القوة كلها ، وان اسعفتني ذاكرتي بالرقم الصحيح فلم تحدث الا ميتتان ، غرقا ، فقط . وكان نقل المدافع واللوازم والمهمات يتطلب وقتا اطول ، ولقد ثبت ان ليس من الهين اليسير اقامة جسر طائر «٦» . وكتب عليّ ان اعبر نهر كرخة كرة اخرى ، وكان ذلك في نقطة تبعد مسافة ميلين في النهر صُعُدا وكانت الغاية من ذلك تلبية رغبة اللواء كورنج في ايجاد معبر بديل ، أسهل ، ان امكن ذلك . وكان

---

(٦) استخدم الاتراك نظام « الابلام » المزدوجة ، لأنهم استولوا على جميع السفن المتيسرة وأخذوها معهم وهم ينسحبون .

(المؤلف)

النهر عند هذا المكان هادئا ، لكن ثمة تيارات خفية تحتانية جرفتني فيه نُزلا ، مسافة ميل وزيادة ، قبل ان ابلغ ضفة النهر الاخرى • ولم أعد التجربة مرة اخرى •

وكان الطقس ، في الوقت نفسه آخذا بالتحوّل نحو الحرّ ، والجند واخصّ منهم البريطانيين ، يعانون منه كثيرا • ولم يكن الذباب قد أصبح بعد عاملا مزعجا ، وكانت الليالي قرّة باردة ، وأخذت العقارب تدبّ بكثرة ، وفي ليلة سعت حيّة كبيرة ، تبين فيما بعد انها من نوع ذي سم وَحي[7] ، مرت فوقي ، وانا مضطجع في خيمة الملازم سايكس ، آمر مفرزة اللاسلكي• وأدرنا نحوها مصباحا كشّافا فوجدناها قد تلوّت واصبحت على شكل دائرة واستقرّت في نهاية الخيمة ، فوق مسدس سايكس ، وسرعان ما سحبنا مسدس جار لنا واطلقنا عليها النار ثم علقناها صباح اليوم التالي خارج خيمة مطعم الضباط ليتخذّ الراؤون الحذر والحيطة •

واخيرا ••• وفي صباح اليوم الـ ١٣ تقدّمنا ، باسناد من رتل بامرة الجنرال لين ، على الضفةاليسرى ، متّجهين الى (خفاجية) • وكانت مهمتي ارشاد الرتل ، وهي تبعة ذات خطر ، اذ على الرغم من اني خبرت هذه الاماكن ، خلال اشتغالي في (لجنة الحدود) في اثناء الحرب السابقة ، وكنت قبل ذلك قد جوّلت فيها واصطدت ، الاّ اني لم اكن اعرفها تمام المعرفة ، كمعرفتي المنطقة التي خلفناها ظهرياً •

وعلى كل حال تذكّرت ان ثمة فرجة في سلسلة التلال الخفيضة (جبل شداخ) الواقعة في الشمال الشرقي من (خفاجية) مباشرة ، وان مسارا للقوافل يتّجه شمالا فيفضي اليها وينفذ منها • وتذكرت ايضا ان القوافل السائرة عليه تتلبّث عند اقدام التلال هذه ، قرب الفرجة ، لكي تتعرّف على الارضين بالشمّ ، ان لم تستطع ، بطريقة اخرى ، الى غير ذلك سبيلا ، وبلغنا المكان الموعود في ست ساعات لم يحدث خللها ما يعكّر صفو مسيرنا ابدا • ومما ساعد على

---

(٧) القاتل المميت •

ذلك ، غير قليل ، ان مفرزة (الكركه) التي كانت بامرة النقيب اكسهام ، عثرت ، على آثار عجلات مدافع الاتراك ، وعلى الرغم من ان عمق هاته الآثار في الارض الصلصال لم يكن ليزيد على ربع بوصة • وأمضينا الايام الثلاثة الاولى التالية ننزل العقاب (كذا) بقبيلة (بني طرف) النازلة في (خفاجية) ، وما كان من وراء هذا العقاب طائل ولا جدوى • واضطلع رتل الجنرال لين ، الموجود على الضفة اليسرى ، بتبعة ثقيلة ، وقاسى من شدة شوب الحر ما هو اقسى واشدّ من ضربات العدو • وكانت المدفعية معنا ، على الضفة اليمنى ، فاخذت تصبّ حمم قذائفها على الأخصاص ، فاشتعلت فيها النار واحترقت بعض الخيول والجواميس التاعسة التي نبذها اصحابها في العراء ، فكانت شواءاً حياً • وعلى الرغم من ذلك كله قاتل (بنو طُرف) بايدٍ وبسالة ، وبازاء قوة تفوّق عليهم عددا وعدة ؛ اما العدة فكانت فيها مدافع مركّزة ورشاشات • لكن هذه القبيلة لا تستأهل ، على كل حال ، العطف والرحمة (كذا !) ، حتى في مثل هذا الزمن البعيد ، لانها قتلت جميع جنودنا الجرحى[8] وعقدت الخناصر مع الاتراك بازائنا • ومهما كانت الحال ، فان اثبات المين والخيانةالمنسوبين اليها في (التأريخ الرسمي ج ١ ص ٢٢٦ ، ٢٣٠) أمر يساوره شك • نبعت قضية (بني طرف) ، التي عُنيت بها شخصيا ، من سوء فهم ، على التحقيق • انها فعل اناس صبّت عليهم نار المدافع اول مرة في حياتهم •

---

(٨) اما انهم قاموا بتشويههم ، على ما ورد في (التاريخ الرسمي ص ٢٢٨) فلا اعتقد انه صحيح ، ما لم تكن الاشارة الى انهم قطعوا رؤوسهم للحصول على جائزة من الشيخ غضبان • ان تعذيب عدو ، ولو كان كافرا ، ليس من عادة العربي وعرفه ، على ان ذلك لا يجهله التركي [المؤلف]

قلنا : تعليق (المؤلف) بالنسبة للعرب والمسلمين كلام فيه سمة من الحق ولمعة الصدق ، وبالنسبة للاتراك ، ما داموا مسلمين ، مسألة فيها نظر• فلقد جاء في الحديث الشريف (من آذى ذميا فليس منا) • لقد رفع (المؤلف) عن القوم تهمة المين والخيانة ، ونحن نكبر فيهم المقاومة والذود عن الحمى ، فكل انخذال عن حق أو تفويت لواجب ، هزيمة ، وما مفاوضة المستعبدين الا الاكتفاء من العمل بالقول الخادع واللفظ الطلي وهو من روح قائله خلي • [المترجم]

ما خان (بنو طرف) ولا مانوا عندما هجموا على دورية المقدم اندرسن ، فلقد كان هذا يتعارض مع احد الشيوخ الذين يجتوون ، على القطع ، الاحتراب ، لكنه ، على ما هو غالب في أمر القبائل ، لم يستطع الى السيطرة على اتباعه سبيلا .

وفي سنة ١٩١١ كنت قد حللت على الشيخين : عاصي ، وعوفي ، في (خفاجية) ضيفا ، وتكرر ذلك سنة ١٩١٤ أيضا ، ولذلك صلة بقضية الحدود . وعندما كنت اشاهد جثث بعض الخبثاء المرحين واخرى تلاعبها النار ، وكانوا ممن عرفتهم في السنين الماضيات ، كان يخامر نفسي شيء من شعور الاشفاق. وكنت استفيد ، خلال السنوات الخمس العجاف التي امضيتها في البلاد ، من رصيد معلوماتي عنها ، لغايات شتى . لقد شهدت ، وفي الحياة غرائب ، رجالا كنت اعدهم فيعداد صدقاني يذبحون ذبح النعاج . وعبرت النهر سابحا لدى سنوح أول فرصة ، وكنت آمل ان افاوض بعد ذلك بقية القوم ، وامهد لهم سبيل التسليم . وكان ان بلغت (مفتولا) متين البناء تحيط به ثلة من جنود وحدة البنجاب /٦٧ احاطة السوار بالمعصم . واشار احد ضباطها الى راية بيضاء مرفوعة على سارية من خيزران فوق (المفتول) وقال انها على هذه الحال منذ مدة ، ولعلها منذ سنة . ذلك ان امثالها ترفع عادة فوق بيوت (العلماء) ، (كذا !) . وكان ان توقف اطلاق النار وتراءى ان محاولة للتسليم تجري. وسرت الى قدام مسافة ياردات قليلات (فلقد كنا داخل الحي) وناديت القوم : ان اخرجوا ، ولكم (الحظ والبخت) . لم اشهد من خلال النافذة الصغيرة احدا ، لكنني استطعت ان اسمعهم صوتي مفاوضا ، لكن ذلك لم يكن بذي جدوى . وكان أن رميت اطلاقة ، ولعل القوم هم الذين اطلقوها ، أو لعلها جاءت من اصحابهم المختفين في كوخ ، لذلك آويت الى خندق يعصمني من النار . وسرعان ما صير جنود وحدة البنجاب / ٦٧ ملجأ القوم شعلة من نار ، ثم هجموا على من فيه وقتلوا منهم قسما واخذوا احد عشر رجلا آخرين ، من بقايا الحراب ،

اسارى • وكان الاخيرون ذوي اجرام صغار ، شعث ، ولهم جدائل طويلة ، سلاحهم بندقيات رانعليها صدأ ، وهي من طراز (مارتيني) • وكان ان قعدوا جماعة على الارض فاصبح منظرهم يبعث الاسى والاشفاق • وكانت ثلة جنود وحدة البنجاب /٦٧ قد تحلقت حولهم وحرابها تقطر ، بعد ان اعملوها في جسوم زملائهم ، دما • وعرفت احد الاسارى ، قهواتي الشيخ عاصي • وسرعانما رفع صوته يناديني بما في معنى : (لِمَ انزلت ، يامستر ويلسون ، مثل هذه النازلة بنا ؟ أأنت الذي قدت هؤلاء الجنود ؟ ألمثل هذا جئتنا فأكلت خبزنا وطوفت في اهوارنا واعددت خرائط ومسوحاً ؟ أهو المين والخيانة ••• انطوى ، قلبك ، عليهما ، فافصحت شفتاك عنهما • لقد اهدرت دماء (صحبنا) وواسفا • اسأل الله ان يرأف بك ، ولعله يفعل ذلك !) • ان الجدل بهذا الصدد ، وعلى مثل هذه الحال ، على ما يظهر ، كان غير ذي جدوى وعقيما ، ذلك ان في مثل هذا الامر وجهتي نظر غالبا •
وبلغ عدد ضحايانا في هذا الاشتباك خمسة عشر قتيلا ،ولعل ضحايا الاعراب كانت عشرةامثال العدد هذا • وفقدوا كل ميرتهم من الحنطة والف رأس من الماشية أيضا[٩] •

لقد كان درسا قاسيا ، لا بالنسبة ل (بني طرف) حسب ، وهم ، على ما ابانت التجارب التالية ل (البوربون) يشبهون ، بل بالنسبة للقبائل القاطنة على دجلة ، جنوبي العمارة ، ايضا • لقد كانت هذه القبائل قادرة على سماع مدفعيتنا ، وعلمت بما انزله (الرتل) من عقاب ، يقيناً • ان انعدام المقاومة العربية على ضفتي دجلة ، بعد أسبوعين من ذلك ، كذبا مردّه ، الى حد ما ،

---

(٩) (والله من ورائهم محيط) • ما ذنب هؤلاء الاعراب الآمنين في اهوارهم انتجرد عليهمحملة بريطانية لتقتل وتحرق وتنهب في ديارهم • لقد اراد الغزاة المستعبدون لهم الاستكانة ، وما كانت الاستكانة من شيم العرب ، ان وقوفهم بازاء عدو، هو ذو فوق عليهم، عددا وعدة، موقفمشرفأبلج ناصع يبهر أعين الناظرين [المترجم]

وبلاشـك ، الى ان (خفاجيـة) دمّرت تدميرا[١٠] ان هـذا الدرس لم يغب عن الاذهان سريعا ، ولم تقع بيننا وبين قبائل (البو محمد) القاطنة على دجلة ، جنوبي العمارة ، مشكلة ما ، سواء كان ذلك ابان الحملة ام بعدها •

ونيط بي ، بعد يوم ، اصطحاب سرية خيّالة كشّافة ، سارت نحو (ام جير) مغرّبة • وكان ان فصلنا عن المعسكر الـكائن في (بسـاتين) ، وكنـا قد تقدمنا اليه من (خفاجية) ، وسرنا ، على كره مني ، متمهّلين ، مسـافة نحو عشرة اميال • ثم توقف القسم الرئيس من الخيّالة وأُنفـذت مع ستة من (السوارية) ، بامرة الملازم هنت ، الى موقع نستطيع ان نرى منه مُعَسكر الاتراك ، ان كان ذلك مستطاعا • وعلى بعد ألف ياردة يساراً ، كانت أهوار (كرخه) ذوات مغارس القصب ، تنتشر فيها اكواخ الاعـراب وقـراهم ؛ وعلى البعد المذكور نفسه ، يمينا ، سلسلة من التلال الخفيضة ، قوامها حجر الكلس ، والى الشمال منها كثبان رمل وغابة اثل • وسرنا الى قدّام مسافة سـتة اميـال تقريبا ، ومن قمة تل من صخر رأينا (ام جير) ، ولكننا لم نشاهد ماينّم عن وجود اتراك على اعقابهم يرجعون • وما ان انجزنا ما اوفدنا لاجلـه الاّ لوينا اعنة جيادنا ، وسرنا الى معسكرنا راجعين • وما ان قطعنا من دربنا ميلا ، أو بعض ميل ، الاّ شهدت جماعة من الاعراب تتراوح عدتها بين مئتين وثلاث مئين تندفع تلقاء (خفاجية) من الاهوار ، وتسير أمامنا على بعد نصف ميل تقريبا• لقد كانوا منتشرين على خط واحد ومنهم من كان يتّخذ السبيل الى التـلال يريد ، على ما هو واضح جلي ، قطع الطريق علينا • وكانوا جميعا راجلين ، باستثناء رجلين ، احدهما (عالم) يعتم بعمامة بيضاء ، والثاني ، على ما يبدو من لباسه ومقامه بينهم ، وسيره في المقدمة ، لا معدى عن ان يكون شيخا • وعرفت الاخير بعد هنيهة : انه الشيخ عاصي نفسـه ، انـه مقـدم قبلته

---

(١٠) ليس من أساس مكين لما ذهب اليه كاندلر في كتابه (على السبيل الطويل الى بغداد) The Long Road to Baghdad من أننا ابقينا على ناقلة التجار الفرس فسلمت دورها من التخريب ، فلو صح بقاء دار سليمة كان ذلك على سبيل الصدفة • [المؤلف]

وغطريفها النحيف الهائج الذي لا ينال ولا يصرع ، ومعبودها (كذا) .
كان (عاصي) يسير في الطليعة يرفع صوته بهيعة ويلوح بعباءته ، وتلك امارة اقرب ما تكون الى رفع علم المهادنة في اقتتال العرب . وتقدمت راكبا الى الامام قليلا ايضا . وسرعان ما سمعته ينادي : (انت ويلسون؟) اجبته (اجل اني انا ويلسون !) . وعندها استدار الى ابناء قبيلته وصرخ فيهم صرخة سرعان ما اخذ الرصاص ينهال منهم علينا كالسيل المنهمر !

وكان أفضل ما نستطيع القيام به هو الاحتماء بالتلال ، والى التلال مضينا . وقدت العسكر منتظمين في صف واحد راكبا فرسى ، واقتفيت اثر خنزير بري يقضي ليله في التلال ويمضى نهاره في الاهوار . وكان ان التزمت بالسير على الاثر لان الجياد تستطيع السير على الطريق الممهد بأقدام الخنزير ، ولا تستطيع السير على آثار اقدام الاغنام والمعز . واستطعنا ان نبلغ التلال في الوقت الذي استطاع العرب فيه ان يرقوا اقرب قنة ، على بعد مئة قدم الى الامام منا . وكان ان همزنا جيادنا نحثها على السير في الارضين المتقطعة محاولين ان نجعل قنة بيننا وبين أعدائنا وبذلك استطعنا أن نرجع الى حيث القسم الرئيس من قوتنا بعد ان نفق جوادان من جيادنا فاردف فارسيهما زميلان محظوظان من زملائهما .

وفي غضون دقائق من عودتنا الى (بساتين) وعز الي بتأمين مواد التموين للقوة فيها ، وكانت جرايتها شحيحة لا تعدو لحوم الثيران و (البسكت) . وتراءى الواجب هذا يائسا . ذلك اننا كنا قد دمرنا قرية واكتسحنا اخرى. ولم تكن قواتنا بقادرة على المرور من الاهوار ، او تستطيع جمع الميرة ، فأراضي المرعى عنها بعيدة . وكان عرب (بساتين) تجارا بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، واثر حديث لم يطل الا دقائق معدودات جرى على الشاطىء ، جاء (سيد) و (عالم) يفاوضان باسلوبهما الخاص . (ان أهل ــ خفاجية ــ قد عوقبوا بالعقاب اللازم تماما) ذلك ما قاله الرجلان ، واضافا: إن الشيخ عاصي لعنة الله عليه (كذا) كان جبارا عتيا شقيا ، وقد خان

(الشيخ خزعل) ، بارك الله قلبه ، ومان ،كشأنه مع الحكومة الشاهنشاهية الفارسية ، اطال الله ايامها ! ان القوم هنا بائسون متواضعون وانهم على يقين من عدل الحكومة البريطانية ، وانهم سيقومون بما يستطاع في سبيل اطعامنا ـ شريطة ان يدفع الثمن نقدا . إن أهل الاهوار سُذّج لا يقومون بعمل ما الاّ لقاء مال معجَّل ويتبعون القائدة التجارية : هات وخذ . وما كان عندنا منه شيء ، ذلك ان خزانة النقد التي لدينا كانت صغيرة مودعة في محل على نهر كرخه ، ولم تكن فيها الاّ روبيات ، لا قرانات . وأخيرا تمّ الاتفاق على ان اكون ضامن الدين شخصيا ، وان يدفع مبلغه بواسطة (شركة لنج اخوان) في الاهوار او بواسطة (وكيلي الميل) في البصرة ، فان انسحب الجيش ، لا سمح الله ، ان يزور الدائنون (المدينة) ، بقي الامر نافذا ملزما . ولم يخطر على بالهم ، لحسن الحظ ، ان شركتي (لنج اخوان) في الاهواز أو (شركة كري مكنزي)[11] في البصرة ، العريقتين المحترمتين قد تنسحبان معنا ايضا . وما ان تمّ الاتفاق على ذلك الا اخذت موادالتموين بالورود فاستطاعت القوة ان تحصل على جراية لم يسبق انحصلت على مثلها من قبل : سلال من التمر ، مشاحيف مليئة بسمك طري ، واهل البنجاب لا يأكلونه أبدا ، عشرات من طير البط ، دجاج وبيض ، ثم جاءت بعدها الاغنام والمعز محملة في الابلام. وذبح القوم لنا جواميس بلغت من الكبر عتيا ، فكانت جلودها اكثر من لحومها ثمنا . وسرعان ما تحلّق حول الذبائح هذه حشد ينشد جلودا . وسمعت اعرابيا يخاطب جاموسته وهو يشدّها قبل النحر : « ان موتك لحق، يا حبيبة ، فسأشترى بثمن جلدك ولحمك بندقية ، لكي اغدو رجلاحقا » .

وطال ثواؤنا في (بساتين) اياما ، وكنا نستعد خلالها لنمضى نحو العمارة قدما ، ان كان ذلك لازما. وبسبب من شح الجراية عاد قسم من القوة الى (كرخه) . لقد كانت أيامنا عصيبة شدادا ، اذ لم نكن لنملك خيما ، وكان الماء كدرا ، ديف به « ملح إبسوم » ،كما كانت الحرارة شديدة ، وان كانت

(١١) اندمجت اخيرا فغدت : « شركة بلاد ما بين النهرين وفارس المحدودة » . [المؤلف]

جافة ، ولو كان هناك ظل لبلغت درجتها في المحرار ١١٥ درجـــة وزيادة ، وكانت الحرارة في الشمس تبلغ ١٦٠درجة • وما كان احد ليستطيع ان يلمس معدنا بيده المجردة ، وان تركت صفيحة ماء في الشمس خلال النهار غدت على درجة من الحرارة الشديدة بحيث لايمكن الاستحمام بمائها عند العصر • وفي الامكان ان يطبخ البيض على الرمل بسبب من رمضائه ، وكثر التمرّض واصبح عدد المرضى في صفوف القوات بقدر نزلاء المستشفيات • وفي اليوم الثالث من حزيران بلغنا نبأ سقوط العمارة ، وفي الخامس منه وعز الى ال (جنرال كورنج) بان يرسل ثلاثة افواج و كتيبة خيالة ومدفعية ميدان الى العمارة لارجاع بقية القوة الى الاهواز • ولم تصادف هاتان الحركتان مقاومة • وفي اثناء العودة ارسلت قوة تأديب لمعاقبة القبيلة التي قيل انها أسهمت في الانقضاض على المقدّم اندرسن• ولم اكن عندئذ حاضرا ، وقد اخبرني من لا اتّهم حديثه ان الفاعلين الاصليين كانوا ، آنئذ ، بعيدين ، وان البريء نسبياً هو الذي قاسى ••

وفصلنا عن (بساتين) يوم التاسع من الشهر الجاري وبلغنا العمارة يوم ال١٤ منه ، وكان من حسن حظي أيضا ان اصحب الدوريات المتقدمة وان أكون على معرفة سبيلها عونا • وما كان ذلك أمرا عسيرا ، فلقد اتخذنا من آثار عجلات مدافع الاتراك في الارض دليلا مرشدا • ولكن (بني لام) المخيمين قرب مسارنا يتطلّبون معاملة خاصة وعناية منا • وبسبب من طبيعة الارض التزمنا بالسير بتشكيل رتل وقد استطال فبلغ طوله اميالا ، وبذلك لن يستطيع ، ان هوجم ،

(١٢) كانت خطة الاتراك تنصب على الهجوم على الاهواز من العمارة حتى ينجح الهجوم على البصرة ، ويظهر ان الشيخ غضبان البنية ، شيخ بني لام ، وقد ورد ذكره في الكتاب مرات ، كان يشجع ذلك، لذا ارسلت قوة تركية مخرت في جدول المشرح في العمارة وقطعت الاهوار ثم اجتازت حدود ايران فوصلت (بساتين) في الاهواز وساندتها القبائل العربية في ايران وعسكرت في (علة) • ولقد تبين ان فارس لا تريد ان تحارب الاتراك ، ثم كان ان اوفد الاتراك الفريق محمد فاضل باشا الداغستاني لقيادة هذه القوات ، وبعد ان جرت معركة الشعيبة ارسل البريطانيون القوة التي يسرد (المؤلف) قصتها ، وفي هذا الوقت عينه انسحب الاتراك الى العمارة بعد ان علموا أن (طاونسند) بسبيل الاستيلاء عليها • (المترجم)

الى التجمع سبيلا • وكل قرية عربية مررنا بها وجدنا رجالها مسلحين تسليحا كاملا ، وكان الشك يساورهم بازاء نوايانا كما كان الشك يساورنا بنـــواياهم تجاهنا ، سواء بسواء • وزرت كل مضرب من مضاربهم صحبة (سواريين) او ثلاثة ، وسألت عن (الشيخ) فيه وشربت القهوة وقدّمت اليه بالوعد والوعيد ، وكنت في بعض الاحيان أعود الى المضرب راجعا لاتوثّق من ان كل شيء يجرى حسنا رخاء • ومن حسن الحـظ ان الماء لم يكن بمشكلة عسيرة • ذلك اننا كنا على الحافة الشمالية لما احسب انه اكبر هور في الدنيا ، وقد غرق فيـه قرب العمارة خمسة من الجنود • وكان الهـور يعج بطيـور وحشية منها (طير الفلامنكو Flamingo) القـرنفلي • وكانت اسرابه كسحاب منتشـر ، هنا وهناك ، كما ان آثار مسار قطعان الخنازير كانت تشـاهد في كل مـكان • أما (الجراية) فكنا نحصل على ما نحمله منها ، حسب •

علينـا الآن ان نعـود الى دجلة ، وقد شهد ، خلال الاسابيع الاربعة الاخيرة ، « حملة برمائية » على ما سماهـا الـ « لورد كـرو » في مجلس اللوردين ــ جاءت بنتائج بالغة الخطورة • ففي الـ ١١ من ايار امر الـ (سر جون نكسن) « الفرقة السادسة » بان تزحف صُعدا من القرنة ، وتحتـل العمارة • ان الحركات ، وقد عُرفت بـ (سـباق طاوانسـند للزوارق : Towns hend Regatta) مشـروحة في كتـاب طاونسند الشـرح الاوفى • وكان لزاما ان يزحـزح العـدو من بعض تلال الرمل الكائنـة شمالي القـرنة ، ولما كانت الارضون بين قواتنا وبينهـا مغمـورة بمـاء الفيضان الجائش المزبد لذلك تطلب الامر استخدام ٣٧٠ بلما ، يحمل الواحد منها عشرة من الجند ، ومن هذه الابلام مئة كانت مدرّعَة بصفائح من حـديد •وتطلّبت الاجـراءات التمهيدية جانبا من الوقت ، لذلك لم يشرع بالتقدم الا يوم الـ ٣١ من أيار • وجاء النصر المؤزر سريعاً ، ولا معدى عن ان يزجى الشكر الى العون البحرى الوثيق ، فله في ذلك فضل كبير • وتميّزت هذه الحـركات بظهـور اول الطائرات وكانت طائرتان قد وصلتا البصرة قبل اسـبوعين • وكان القتـال يوم

الـ ٣١ من ايار نزرا قليلا ، وتوقّف في اليوم التالي له كليا ، ذلك ان الاتراك نبذوا الهجوم وشرعوا بالتراجع في النهر صُعُدا ، وبالسرعة التي تستطيعها الجواري المستخدمة لنقلهم • وقام بحارة الزورق الحربي التركي المسمّى (مرمريس) باشعال النار فيه[١٣] فاستقرّ على الطين قرب الضفة اليمنى للنهر ، على بعد خمسة أميال من (مرقد العزير) ، لقد احرجته قذائفنا فنبذته بحارته • وما ان قام اسطولنا المؤلّف من الزوارق والجنائب المسحوبة ، منها ما كان مسلحا ومنها ما لم يكن بمسلح ، بتطهير النهر من الالغام المصنوعة من قبل الالمان أولا ، الاّ شرع يسير في أعقاب الاتراك بايْد وطاردهم بحماس ،وهوفي ذلك يستولي على مهيلة اثر مهيلة ، مليئة بجنود الاتراك • كما استولى على عدد من البواخر المحمّلة باللوازم والمهمات • ونقل الضابط البحري الاقدم (نقيب الماء : نن) مقر قيادته الى الباخرة الحربية (كوميت)[١٤] وتقدّم بها ، ومعه الجنرال طاونسند وسر برسى كوكس ، الى ما وراء قلعة صالح ، فعثر على ثلاثة من الجرحى الالمان في سيارة اسعاف ميدان • وقتل اثنان اخران من الالمان على يد الاعراب ابان محاولتهما الفرار • ولم تظهر امارات عداء عربي ، بل ، على النقيض من ذلك ، ظهرت امارات ولاء، فحمداً لما شهدته(خفاجية)وشكرا !

وقبل وصول العمارة باثنى عشر ميلا ، رأى الـ(جنرال طاونسند) ان يتوقّف، اذ لم يكن معقولا الاّ يحاول الاتراك الدفاع عن المدينة ، بتة • لكن نقيب الماء (نن) كان يغريه على متابعة التعقيب ، وقد تناهت الانباء من الطائرات ، بعد قليل ، تفيد بان الاتراك لا يزالون على حال هروب ، وان ما بقى من قوة محمد فاضل باشا الداغستاني لا يزيد على أفواج واهنة القوى ، موجودة شرقي العمارة ، وقد يكون بعضها في المدينة ايضا • وسار الزورق المسلح (شيطان) ، وقد انتقل

(١٣) يقول (التاريخ الرسمى ، ص : ٢٦٠) : « ان النـار كانت تشتعل فيه بسبب من القذائف البريطانية » ولكن – راجع Cato p. 41 – مدافعه ومخازنه كانت سليمة • (المؤلف)

(١٤) استخدمت الباخرة الحربية كوميت في آذار في نهر كارون في الاهواز ، وهي خليفة باخرة أخرى سميت باسمها نقلت الجنود البريطانيين الى الاهواز ابان الحرب الفارسية – الانكليزية في آذار سنة ١٨٥٧ (المؤلف)

اليه سر برسي كوكس ، بامرة الملازم مارك سنكلتن ، في أثر مراكب الاتراك فمرّ من جسر القوارب في العمارة وكان قد فُتح لتمرّ منه باخرة تركية محملة بالجند • لقد استطاع الاستيلاء عليها وأسرّ بحارتها وعدتهم ثمانية ، و ١١ ضابطا و ٢٥٠ جنديا ، وارغم عشرة اضعاف هذا العدد على الفرار • وبعد ساعتين وصلت جماعة الجنرال طاونسند المؤلّفة من نحو ٣٠ بحارا و ١٢ جنديا وستة ضباط ، فتسلّمت مدينة العمارة من حاكمها المدني وعدد من الضباط الاتراك • وكان ثمة فوج من (لواء الاطفائية الاصطنبولي) ـ صفوة الجند المختارة ـ في الثكنة ، وقد حسب الفوج اننا لم نشعر بوجوده ، لذلك ارسل آحاده من يعلمنا بانهم على استعداد للتسليم • وذهب صديقي الملازم بالمر المنسوب الى الأسطول الملكي ، ومعه عشرة جنود ، وترجمان ، ليجعل آحاد الفوج اسارى ، فوجدهم قد استعدوا مع ضباطهم ، وبكامل سلاحهم ، لذلك • وبعد ان ادّوا التحية على أكمل وجه ، أمرهم الملازم المذكور بالسير الى ضفة النهر ، ومنها الى الباخرة الراسية في وسط دجلة تحت حماية مدافعنا • ولما لم يكن بعد ذلك من شيء يستطاع القيام به ، شرع الزورق الحربي (شيطان) بقصف ما يقرب من الفي جندي تركي كانوا في طريقهم الآتي من جهة الاهواز الى العمارة • وسلّمت (المقدمة) نفسها ، وفرّت البقية ، على حال فوضى ، في النهر صُعُدا ، لكن بعض المقاتلة منها عادت لتسلّم نفسها الى حفنة الضباط والجنود الذين كانوا بامرة الـ(جنرال طاونسند) يحدوهم على ذلك الخوف من اعراب بني لام • واسدل الليل ستوره السود على الدنيا ، ولمّا تصل العمارة نجداتنا ، وقضت حاميتها وقتا طيبا • كان لديها ٦٠٠ من الاسارى في وسط مدينة عربية عدّة نفوسها : ١٠٠٠٠ نسمة وقد حذّر كل واحد منهم انذر بان يلزم مكانه ، اذ سيرمي بالنار ان شوهد في الطريق متجوّلا • وانطلى الامر على الناس حتى (تبيّن الخيط الابيض من الخيط الاسود) وانبلج الفجر ، وعنده شاع في المدينة نهب وسلب • وجاء ذلك متأخرا اذ وصلت بعد ساعة (وحدة نور فوكس) فأعادت الامن الى المدينة • ووصلت قوات أخرى في خلال النهار ، وفي أمسية يوم الرابع من حزيران وصل الجنرال نيكسون نفسه •

لقـد استولينا على العمارة وفيهـا ١٧ مدفعا وكميات كبيرة من السـلاح والعتاد ، وزورق حربي ، وسفينة صغيرة ، ونحو ٢٠٠٠ أسير ، ولم تتكبَد من جراء ذلك كله الا : ٤ من القتلى و ٢١ جريحا » وكانت ضحايا الاتراك عشرة أضعاف هذا العدد تقريبا • لقـد كانت حربا ، وكانت ممتازة ، وجاءت في اللحظـة المرجوّة المناسبة أيضا • ان العمـارة مركز تموين طيّب ، وهي جافة الهواء صحيّة ، وباكثر من البصرة • والعمارة تبعـد عنها بسبيل النهر مسـافة ٢٠٠ ميل تقريبا • لقـد بقيت مدة طويلة مركز المستشفيات ، وأشيع المواقع البريطانية في بلاد ما بين النهرين اسما واطيبها ذكرا • والمدينة حديثة جدا ، خططت لهـا شوارع وسيعة ، وكان تشييدها سـنة ١٨٦٦(١٥) • ان تخطيطها العام جيد ، وقد تركت فسـحة عريضة بين بيوتها وبين ضفة دجلـة اليسرى ، اعتبارا من النقطة التي تقع جنوبي نهر الكحلاء (الجحلة) المتفرّع من دجلة والذي يغرف من مائه لمقاصد اروائية شيئا كثيرا • لقد وصف (سر بيجم دف) في ايلول سنة ١٩١٥ العمارة « بانها النقطة التي يحنى عندها الرأس في بلاد ما بين النهرين » • اذ أصبحت نقلياتنا فيما وراءها عسيرة معسرة بأشد مما كانت عليه نقليـات الاتراك • والعكس كان في جنوبي العمـارة • وكان

---

(١٥) قام الوالي العثماني الفريق محمد باشا الديار بكري بتأسيس مركز لواء العمارة في موقعه الحالي • وأول ما شيد فيه (سوق الباشا) المنسوب الى الوالي المذكور، وهو الآن، قد اندرس واصبح أثرا بعد عين، وكان ذلك سنة ١٢٧٥هـ • وتأريخ (تعمير) العمارة مثبت في بيت للشاعر (الاخرس) البغدادي :

قل لمن يسأل عن تأريخهـا قد عمرت أيام عبدالقـادر
١٢٧٨ من الهجرة

وعبدالقادر هذا هو المعروف بالكولبندي مشيد محلة القادرية في العمارة •
كما قال الاخرس مؤرخا بناء منارة العمارة الوحيدة :

ومنارة بالقادرية انشـأت وتأريخها والى بغداد نامق
١٢٧٩ هـ

أما المتصرف العثماني الذي سلمت ، في عهده ، العمارة نفسها الى طلائع الحملة البريطانيـة فهـو عاصـم بـك وكـان تسـليم المدينـة يـوم الـ ١٩ مـن رجب سنة ١٣٣٣هـ • [المترجم]

الدفاع عنهـا بازاء الاتراك والاعراب هينّا يسيرا ، ولم يعمد أحد مـن هذين الشعبين الى التقرب منها مسافة ١٠٠ ميل .

ليس بغريب كثيرا ، بعد ما حدث ، ان يشعر القادة البريطانيون بانهـم يستطيعون أن يعملوا أي شيء ، وأن يشعر جنودهم وضباطهم انهم يستطيعون ، ما داموا بامرة هؤلاء القـادة ، الذهاب الى أي مكان ، ومن هذا ، على وجـه الاحتمال ، نبعت الثقة المفرطة التي اتسمّت بها الحركـات التالية في حوض نهر دجلـــة .



الفصل الـرابع[1]

احتـلال الناصرية

« ان أية حركة هجومية ... يجب أن يسبقها تفوق في البحيرات. وفي مثل هذه البلاد التي يسكنها من الناس نزر قليل ، وتنتج من الطعام ما هو شحيح ضئيل لا يتناسب مع عدتهم . وتعتد الحركات العسكرية التي تسهم فيهـا قطعات كثيرة امرا غير واقعي ، ما لم تتمكن الاطراف المعنية المشتركة فيها من استخدام الانهار الصالحة للملاحة ، بيسر دونما تعويق ، أو تستخدم وسائط نقل برية ، ولن تستطيع مثل هذه البلاد ان توفرها الا نادرا » .

ال (دوق ويلنكتون) : ٢٢ شباط ١٨١٤

حقّ لـ (سر جون نيكسون) ان شعر بأنه أنجز كل ما أرادت حكومة الهند ، ان ينجزه ، ولنتذكر ، بعد ذلك ، دوما : انه المرتبط بها ، الصادع بأمرها . لقد دُحر الاتراك في الشعيبة ، وولوا من الاهواز مدبرين ، ونزلت بهم على شاطيء دجلـة ضربة ماحقة ساحقة ، وأصبحت حقـول النفط فـي خوزستان ، وانابيبه ، آمنة من كل ضرر ، نائية عن كل خطر ، والى أبعـد حـد يستطيعه الجنرال المذكور . واستعيدت الهيبـة البريطانية في الخليـج الفارسي . وعلى الرغم مـن أن موقف فارس لم يكن مرضيا ، فلم يكـن في طوقه أن يقوم بشيء في بلادنا ما بين النهرين يؤثر فيه ، غير احتلال بغداد .

وليُلحظ ، على كل حال ، ان التعليمات الصادرة الى ال (سر جون نيكسون) والمدرجة في (ألفصل الثالث) نصاً ، جعلت ، حتى قبل معركـة الشعيبة ، أمر حمـاية حقول النفط شـيئا ثانويا ، على حـين وضعت احتلال

---

(١) المراجع Official History, Critical Study, Naval Review, Vol. iii.
[المؤلف]

الأراضي في المرتبة الاولى ، وان التعليمات اعتدّت ، أو أرادت ال (سر جون نيكسون) أن يعتدّ (بغداد) هدفا محتملا •

ان الاشارة الى (ولاية البصرة) أمر مهم ، على التخصيص ، ولعل حكومة الهند لم تكن لتعلم مساحتها ، على التحقيق ، كما انها لم تكن عارفة هل ان الكوت ، وسنسميها من هنا فصاعدا : (كوت الامارة) ، داخلة في ولاية البصرة ، على القطع ، أو ان شكا يساور وضعها عموما ؟ وفي الحق ان خط الحدود كان يعبر دجلة على بعد أميال قليلة من الكوت شرقيا • ان الولاية وحدة ادارية خطط لها ، وشأنها السوقي ال (ستراتيجي) ضعيف الخطر ، قليل الاثر •

وعندما طلب سر جون نيكسون ، والتعليمات هذه قد انتقشت على لوحة ذهنه ، قطعات اخر ، رُفض طلبه ، وقُرن الرفض بأمر من (وزارة الهند) مفاده أنها لن توافق على أي تقدّم فيما وراء ميدان الحركات الراهن : (أي : البصرة والقرنة والاهواز) ، لكنها ستدعم التقدّم نحو العمارة ، باعتداد ذلك ضامنا لسلامة خط النفط أكثر •

« ان وضعنا الحالي » ، على ما جاء في مختتم الرسالة ، « رصين من الوجهة السوقية ، ولسنا بقادرين ، في الوقت الحاضر ، على أن نتنكّب متن الاخطار بتوسيع رقعته ، دونما لزوم أو ضرورة • لتكن لعبتنا في بلاد ما بين النهرين سليمة آمنة » •

لم تكن حكمة هذه البرقية في عماية من شك أو غيابة من ظن ، لقد ابرقت عشية أول انزال لنا في (غاليبولي) ، وميدانها وميدان قناة السويس ميادين حربنا الرئيسه مع الاتراك •

لكن ثبات حكومة الهند توّج بالنصر المبين ، فعندما طلب الى (وزير الخارجية) يوم ال ٢٣ من أيار الموافقة على التقدّم نحو العمارة ، لبى الطلب ، وان شكا من أن نوايا ال (سر جون نيكسون) لم تعرض عليه قبلا: « كان من الواجب اتخاذ اجراءات الحركه المبينّة قبل أيام ، وأرى ان قد كان على ال (جنرال نيكسون) الاّ يقدّم مقترحاته في اللحظة الاخيرة » •

وكان الـ (جنرال نيكسون) يتدارس ، وحكومة الهند ، على وفق تعليماتها ، التقدم طوال أسابيع ، لكن هذه الحكومة لم تعمد الى اطلاع (وزير الخارجية) ، كما لم تطلع (وزارة الهند) على الامر لاستحصال قرار ركين مكين يضمّ سياستها في بلاد ما بين النهرين • وذلك كله على الرغم من أن الـ (لورد كرو) أضاف : « ان القضايا المنطوية على سياسة مدنية وعسكرية يجب أن يبتّ فيها مجلس الوزراء حسب الظروف الراهنة » • لقد أدرك الـ (سر جون نيكسون) من خلال نسخ البرقيات المرسلة اليه ان حكومتي انكلترة والهند ليستا على اتفاق في السياسة ، لذلك نَشَدَ أوامر قطعية : أيحتل العمارة والناصرية أم لا ؟ وأجابت حكومة الهند ، من دون الرجوع الى (وزارة الهند) ، انها لا ترى في الاوامر تناقضا ، وان كل ما أراد (وزير الخارجية) تأكيده هو عدم ارسال نجدات اخرى • واضافت الى ما سبق أن (وزارة الهند) لابد وان تسلمت (تعليماته) ونظرت فيها (لقد أرسلت التعليمات بالبريد بدافع الاقتصاد في النفقات !)

وما أن ضمن الـ (جنرال نيكسون) سلامة مرقعه على دجلة ، الا صرف عنايته الى الفرات ، وذلك طبيعي • وفي الـ ١١ من حزيران أبان انه ينشد احتلال الناصرية للاسباب التالية :

١) ان الضرورة تقضي بذلك ، لان احتلال (الولاية) يتمّ به حقا •

٢) انها المكان الذي يمكن السيطرة منه على عشائر المنتفق ، ذلك ان المدينة هي المقر العام للادارة المدنية التركية •

واضاف الى ذلك كله ، وهو فيما اضاف جانب الصواب ، انها تقع قرب النهاية الجنوبية لشطّ الغرّاف ، أو شط الحي ، وهو فرع دجلة الذي يجفّ الماء فيه وينضب طوال ستة أشهر في السنة ، على حين يتلاشى ماؤه منصبا في البطائح أو منسابا في قنوات الرّي ، على بعد خمسة وعشرين ميلا تقريبا ، شمالي الناصرية • وثمة اعتبار آخر ، اشار اليه الـ (جنرال نيكسون) ، يوم الخامس والعشرين من ايار ، وهو ان أي تقدّم على صفحة الماء ، تجاه الناصرية ، يجب ان يجرى أيام الفيضان ولا يمكن ارجاء ذلك الى ما بعد منتصف تموز •

ولقد تبيّن ، في ضوء الحوادث التالية ومعلوماتنا الحالية ، المتعلّقة بطبيعة الاراضي ، ان هذه الترتيبات خطل وضلة ، وذلك ما رأته (هيأة أركان الجيش في الهند) حقا ، وان لم يشاركها الرأي : القائد العام • كان لزاما ان يبدد كابوس (عجمي) واتباعه الآف من العرب العشائريين ، تثيرهم القطعات التركية وتسندهم ، فيقومون بحركات عدائية بازائنا في شط العرب واراضي دجلة السفلى ، في ضوء ما خبرناه عن دور الاعراب في معركة الشعيبة ، وفي غيرها • وكانت البصرة على الدفاع سهلة يسيرة ، وباحتلالنا العمارة والقرنة فان الاراضي الضيقة الكائنة على شاطىء دجلة لن تشهد معارك ذات أثر وخطر •

ومهما كان من امر ، رأى (نائب الهند) أخيرا ان تتقدّم الى الناصرية ، واقترح ذلك على (وزير الدولة لشؤون الهند) ، وعندما لم يتسلّم على مقترحه جوابا خوّل الـ (جنرال نيكسون) ، يوم الـ ٢٢ من حزيران ، البدء بالحركات •

وبهذه الملاحظات التمهيدية استرعي انتباه القاريء لحين من الوقت الى متابعة ما جرى لقوة الـ (جنرال كورنج) ، وهي القوة التي ألحقت بها ، كرة اخرى •

وفي الـ ١٤ من حزيران ، واثر سويعات من وصولي العمارة في رتل العقيد دنلوب ، غادرت المدينة بسبيل النهر ومعي مطيتاي ، واتخذت سبيلي الى (الدائرة السياسية في البصرة) • وكان ذلك في أول النهار من يوم الـ ١٥ من حزيران ، وفيها واجهت سربرسي كوكس • وسرعان ما وجدت نفسي متخبّطا في لجّه من الاعمال الرتيبة المصّلة بشؤون الدائرة المذكورة ، لكن ذلك لم يطل الا أياما معدودات • وفي الـ ٢٣ من حزيران طلب الجنرال كورنج ان اعاود الالتحاق بهيأة اركانه ، لذلك اتخذت سبيلي الى ذلك بقارب بخاري • وكانت حقيبة متاعي العسكرية تتألف ، على ما كانت عليـــه في الماضي ، من (مزودة Haver-Sack) ينضاف اليها ، بسبب سفرنا نهرا ، صندوق أو صندوقان من الطعام الانيق ، وصناديق قليلة من مشروب (جيانتي) والبيرة ، وقد تتخذ هذه ، كجواز السفر ، سبيلا الى عضوية شرف في احد مطاعم الضباط الوقتية الكائنة على بواخر شتى عديدة • وكنت اعلم ان أية فائدة لن تحصل على يديّ

ما لم أكن في عملي حرا طليقا ، لذلك لم اصطحب فراشا أو ملابس اضافيه . والتحقت بقوة ال (جنرال كورنج) في القرنة ، حيث جرى جمعها على ظهور بواخر ذوات غاطس قليل ، وعلى ما تيسر منها وقتئذ ، استعدادا لعبور بحيرة الحمّار[٢] .

وفي ال ٢٧ من حزيران اقلعت السفن بنا ، وفي مقدمتها الاسطول النهري المؤلف من الباخرتين الحربيتين (اودن) و (اسبيكل)[٣] وزورقان مسلحان سبقت لهما « خدمة فعلية » في الخليج الفارسي ، وانصبت على مكافحة تهريب الاسلحة والاتجار بها ، وثلاث سفن أخرى ، بضمنها (شوشان) ، وسفينتان اخريان على ظهر كل منهما مدفع من عيار ٤٧ر٠ وكانت السفينة شوشان قد بنيت بقصد استخدامها في انقاذ الخرطوم سنة ١٨٨٩ ، ومنذ سنة ١٨٩١ ، أو حوالي هذه السنة ، كانت السفينة عاملة في نهر كارون الاعلى . وهذه السفينة التي كانت تتراءى كبيت صغير مرجل كائن على جنبة من جنبتيها ، وقد سلحت لمهمتها الحالية بمدفع (مكسيم) ومدفع من عيار ٣ باونات ، ومدافع اخرى من عيار ١٢ باونا ،

---

(٢) عقد ال (جنرال كورنج) العزم على التقدم نحو الناصرية من هور الحمار فاتخاذ البر سبيلا ، وهو في مثل هذا الموسم الحار ، أمر يشق على مثل الجيش البريطاني ويتطلب من وسائل النقل شيئا كثيرا . وكان القائد العام للقوات البريطانية في العراق عهد ذاك ، وهو ال (جنرال نيكسون) وقد حدد له واجبه على الوجه التالي :

أ ـ فتح طريق مائي يصل هور الحمار بالفرات .

ب ـ واحتلال سوق الشيوخ .

ج ـ فاحتلال الناصرية .

ويلحظ في هذا الصدد وجود طريقين بين البصرة والناصرية ، أحدهما (بري) والآخر (مائي) وقد سلكت الطريق الاول القوات التركية عند مهاجمتها الانكليز في الشعيبة . اما الطريق المائي فيسلك مجرى الفرات القديم من القرنة حتى هور الحمار وطوله ٣٠ ميلا . ويقطع الهور من العكيكه فيصل بينه وبين (هور الصفحة) ثم يتصل بمجرى الفرات الآتي من الناصرية وهو الطريق الذي سلكته الحملة البريطانية البرمائية [المترجم]

(٣) راجع : Naval Review, iii, p. 677.

[المؤلف]

وكان هذا يهدد سطح السفينة بالتمزّق كلما اطلقت منه قذيفة . لكنها على الرغم من ذلك كله بقيت محكمة رصينة دائبة على العمل ، على ما اعلم .

وكان منظر (اودن) و (اسبيكل) وهما تمخران عباب (الحمّار) فيما وراء الجبايش ، يملأ القلوب فرقا ، ولم يكن مرأى سواري السفينتين العوالي بأقل من ذلك تأثيرا (وكان ذلك قبل استخدام الطائرات في الاستكشاف ، طبعا .)

وكانت تحيط بنا ، من ثلاث جوانب ، غابة من القصب المتعالي ، ممتدة مد البصر ، ولم تكن فيها مجار مرئية . وفي الغرب كانت بحيرة الحمّار الوسيعة ، تتناثر فيها ، هنا وهناك ، شبكات صيد الاسماك مصنوعة من جريد النخل والقصب . وكنت تشاهد (مشاحيف) العرب المصنوعة من القصب ، المكسوّة من الداخل والخارج بالقار ، وقد استطالت مقدماتها وهي تنساب ، جيئة وذهوبا ، على صفحة ماء البحيرة ، ومن الجلي انها لا تريد ان تسافك معنا دماء أو اقتتالا .

وغادرنا (اودن) و (اسبيكل) عند (الجبايش) واتخذنا سبيلنا في البحيرة حذرين . وتبادلنا اطلاقات قليلة مع الزوارق البخارية التركية (التي بنتها « ثورنكروفت » وسلّمتها في البصرة قبيل الحرب) ، وما ان رمتها مدافع الاسطول بالحمم الا ولّت فرارا . وعند العصر من ذلك اليوم كنا نسيطر على (سدّ العكيكة) ، الكائن عند صدر المجرى الوحيد الصالح للملاحة المؤدي الى الفرات . وفي الحق لقد كان سدّا متينا رصينا بُني من قبل الاعراب البلديين لمقاصد اروائية وجرى ترميمه قبل سنوات قليلة ، قوامه الطين وجريد النخل ومهيلة قديمة او مهيلتان وصخرات صلدات وخشبات قويات . والفرق بين منسوب الماء على جانبي (السدّ) نحو أربع أقدام ، وتراءى ان اطلاقات مدفع قليلة كفيلة بان تدمره كليا . واثبتت الوقائع التالية عكس ذلك ، ذلك ان جنود الاستحكام دأبوا على تطهير النهر منه طوال الليل فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلا الاّ عند صباح اليوم التالي ، وعند ذلك تدفق الماء مدويّا فلم تستطع السفن ذوات دولاب المؤخّرة ان تمضي في طريقها قدما ، من دون عون ومساعدة . وقال

(٤) هي جبايش ، على الصحيح ، والجمع جباشة ، كدس من الحصران يبنى عليها بيت من قصب . (المؤلف)

ربّان الباخرة (آشور) ، أول باخرة اريد لها ان تمضي في الفرات ، باسم الله مجراها ومرساها ، « انها لم تقدر على ذلك حتى بالصلوات الحارة والدموع السخينة » ، وهـذا الذي حدث لنا حقـا : فلقد نزل الجند من السفن وأخذوا بسحبها بقوة السواعد . وكان المثال المحتذى في ذلك : لـ (جنرال كورنج) نفسه ، وهو من صنف الاستحكام أيضا ، ذلك انه أدار الامر شخصيا ، فوقف على جزيرة في وسط (السدّ) ، وبيده مكبّر الصوت ، واخذ يصدر الايعازات الى فرق السحب على جانبي النهر . ان التطرّف في الاناة والاستبصار الذي لازم جميع حركاتنا العسكرية كانت له هنات ، كما كانت له فوائد . ذلك اننا كنا نجهل طبيعة البلاد جهلا مطبقا ، وما كانت لدينا خوارط لاي استعمال ممكن نستعين بها على ادراك مقاصد تعبوية . وكان الاستكشاف الارضي الاولي على الاقدام ضرورة لازمة ، وقد قامت (شعبة الاستخبارات) بالاستفادة من الوقت الذي انقضى في سبيل نقل الجنود ، عبر (العكيكة) ، في مقاصد مفيدة . كما اجريت سلسلة من الاستكشافات البحرية ، ولم تعدم الاراضي التي أمامنا مثلها أيضا . لقد أرسلتُ مع عدد من جماعات الاستكشاف مرات عديدة ، ذلك اني كنت في هذا الوقت ، على ما يخيّل لي ، الضابط الوحيد الذي يتكلم العربية في (الفرقة) . وتظافرت التقارير على ان العرب ، لا الاتراك ، هم الذين يقفون بوجهنا . وكان الاتراك على ضفتي الفرات مسيطرين على خط تقدّم قطعاتنا نحو العكيكة . وكنت توّاقا الى الاتصال بهؤلاء الاعراب لأحملهم على اخلاء البساتين ، وتركنا نحارب الاتراك وجها لوجه . ولم يكن هذا الامر بالهيّن اليسير . وتقدمت على الضفة اليسرى مسافة ياردات، مئين قليلة ، من مخلط الفرات ، فرع العكيكة ، يصحبني في قطع شطر من الطريق بعض جند اليوم الـ ٢٤ ، ولقد خلّفتهم ، بعد لأي من الوقت ، ظهريا لتغطية تراجعي . ورأيت اعرابيا فناديته ، وعلى الرغم من انه كان مسلّحا ، رأيته يعدو عدو الظبي في هفوه[٥] . وعلى حين كنت اعود ، بعيدا عن ضفة النهر ، وسائرا خلف اطواف من طين ، شهدت عربيا وجنديا تركيين يخرجان من بساتين النخل الى مسار ساحبي السفن المقابل لي ، ويسيران متمهّلين

---

(٥) الهفو = شدة العدو .

صُعْدا • انهما على ما كنت عليه » يقومان بالاستكشاف ، وكانا يسيران متمهّلين أمامي فاطلقت عليهما النار فاصبت احدهما من الخلف والاخر في الكتف ، ولما كنت اشفق من ان عملي سيثير ابناء جلدتيهما ، ان وجدا بمقربة ، فلقد اسرعت الى حيث كانت دوريتي ، وكانت قد عززت بدورية ثانية تسحب بلما ، بالعتاد محملا • واعقبت ذلك حركة صغيرة خفخيفة فتراءى ان من المحتمل ان ندفع الى وراء • وانحنينا خلف نخلة ودفعنا (البلم) الى وسط تيار الماء الى خطوطنا ، على وفق خطة ، وكانت الاطلاقات تنهال عليه فترسم عليه اثارها • وعبرنا الى قُدّام فراعني ان اشهد الاعراب ناشطين • كما ان التركيين اللذين رميتهما كانا (ربي كما خلقتني) عرايا وقد قطّ رأس كل منهما • ولقد خبر مثل هذا الفعل جميع المنتسبين الى (الادارة المدنية) العاملين خارج المدن الكبيرة في بلاد ما بين النهرين • ومما يدل على الروح التي شاعت في هؤلاء المنتسبين انهم استطاعوا ان يكسبوا ثقة امثال هؤلاء الاعراب ، ويثقوا بهم الى حد بعيد • لقد كانوا جميعا على يقين من ان الاوضاع لو تحسنت عوما لأدى ذلك الى صلاح الناس ، والملاءمة بينهم وبينها • على ان رجال الجيش ، بقيادته وضباطه الاركان وامراء الوحدات ، لايمكن ان يلاموا الا قليلا لو اعتدّوا الاعراب ، على الجملة ، في عداد السراق والقتلة ، عديمي الثقة ومرتزقة • وعثروا على جرحى ذبحوا ، ذبح النعاج ، مرة بعد مرة • كما عثـــروا على من وري في التراب فاخــــرج طمعا في ثيـــابه ، ثم نبذ في العــراء لتنهشه بنات آوى • ان الخيانة كانت كلمة دائرة على الافواه ، مالها من فَوَاق ، ولم يكن ذلك من دون سبب • لكن الحكام السياسيين ، كانوا يحصلون على عون من بعض القادة المحليين وتشجيع ، وان لم يكن ذلك بكل وســـيلة • لقــد ثـابر هؤلاء على اداء واجبهم « فقاموا بافضل الاشياء في اسوأ الازمان » • لقد استفادوا من كل ميسّر فنجحوا ، حتى في اكثر المناطق تخلّفا ، في وضع آساس جديدة ، ولا تزال بعض أقسامها قائمة حتى يوم الناس هذا ، وفي الامكان ان يُبنى عليها كيان امم جديدة •

لكن هذا ، على كل حال ، يخرج بنا عن الموضوع • لقد حملني واجبي في اليوم التالى على الذهاب الى ضفة العكيكة اليمنى واوامري تقضى بالذهاب صحبة وحدة الكركه ٧/٢ ، لأكون على الاستطلاع عونا • وسار الجنود (الكركه) في

مسعاهم قدما وحسنا حتى بلغوا ضفة قناة الشطرة التى كان الاتراك مسيطرين عليها • ان الارضين في هذه الارجاء مغارس رز ، وبساتين نخل ، لا يوجد فيها (ستر) فيما خلا بعض اطواف من طين ، متناثرة هنا وهناك ، وقد جعل الاتراك فيها مزاغل • واصيب النقيب هاركورت باطلاقة في كاحله ، وهو في طريقه الي لحديث ، وسقط في العراء ، وعلى حين كنا آتين به الى مكان مستور كدنا نميته تقريبا ، في ترعة غرقا • وقُتل جنديان أو ثلاثة من جنوده ، وكان « الاتصال الصفحي »[٦] مستحيلا ، والمواصلات عسيرة • ورجعت لهم لابلّغ مَنْ يلزم ، فامرت بان أقوم بواجب الدليل بالنسبة لوحدة همشاير ٤/١ التي جاءت كنجدة لهم خلل الليل • صدعت بما امرت ، ولأرسل بعد ذلك مع جماعة من وحدة باينيرز/٤٨ ، وكانت عندها تعليمات تنص على ايجاد معبر على قناة الشطرة فوق جناح العدو الايمن •

وما ان بلغنا ضفة القناة الا ّ تجلّى لي ان ثمة تغييّراً طرأ على مزاح الاعراب، اذ انهم خلصوا الى نتيجة تشير الى اننا ، من المحتمل ، سنكون أصحاب الغلب ، وان كنا لا نقبل بما ينطوي عليه ذلك • وكانت جماعات من الاعراب المسلحين تقف خلف اسوار خفيضة لقرية راكبة على ضفة قناة الشطرة الجديدة ، كما كانت هناك قلة من رجال غير مسلحين جلّهم ممن بلغ من الكبر عتيا ، تسرح وتمرح في العراء وهي لا تعلم امن الاحجى جمع ما عندها من متاع للهروب أم حماية المكان من ان ينهب ويسلب ؟ وتراءى انها فرصة مناسبة لمنع تسافك الدماء وللحصول على معبر غير ذي عائق ، وعلى ذلك سبحت ، تحت ستر من بندقيات جماعة من الوحدة/٤٨ ، القناة فصادفت شيخا همّا وقلت له : سلام عليكم » أجاب : « الله يسلمك » • وسألته « هل من اتراك قريبين من هنا ؟ فأجاب : لست بتركي ، أنا عربي • » فقلت له : « اعندك بلم نستطيع العبور به ؟ » فأجاب « لست بتركي ، أنا عربي • » فقلت له : « ارى (مرادى) بلم وغرافات موضوعات بازاء الحائط ، لذا فأنا على ثقة من انك تملك بلما • » فأجاب : « لقد

---

(٦) في الاصل Lateral Communication واثبتنا المصطلح على ما ورد في معجم المصطلحات العسكرية العراقي ومن معاني Lateral (الجانبي) أو (الجنبي)ـ المترجم

ذهب الاتراك بجميع الابلام ، انا فقير •• الخ » وكان من الضروري ان يصنع شيء ما ، لذلك امسكت بعصا واخذت بضربه (كذا) وهنا اخذ يقول (قوّة ، قوّة ، انا عبدك ، هناك مشحوف قريب سآتيك به • وخشيت من خديعة ، لذلك دأبت على ضربه(٧) • وسرعان ما اتجّه نحونا رجلان قويان يركضان وقالا : «انه والدنا ، انه شيخ خَرِف فدعه ، وسنأتيك بطرّادة • فامسكت يدي عن الضرب وسرعان ما جيىء بواحدة • ثم قلت : « عبّروني القناة بها ، وعبّروا الجند بها أيضا ، اذ لو تركت لهم لادّعوا بها غنيمة • وسرّا من هذا القول ، وبعد عبرات قليلة استطعنا ان نجعل العتاد على الجانب الآخر ، كما ان الجنود استطاعوا العبور ، وفي الحال ظهر مشحوف آخر فعبره بعض جنود همشاير • ومضت (وحدة باينيرز) أمامنا قُدُما ، والاتراك يتراجعون امامهم ، حتى وجدوا ان موضعهم الرئيس بيد الانكليز ، والفضل في ذلك كله الى الحركات النهرية .. البرية المشتركة الجارية على الضفتين • واتخذت سبيلي الى (العكيكة) وساعدت بعض جنود (وحدة همشاير) على دفن جنديين من جنودها سقطا على الضفة اليمنى عند نخلة • وقبل ان اغادر القبرين رسمت على جذعها صليبين ، لكي يميّزا بيسر وسهولة •

وسألني عربيان ذكيان اغريتهما على المجيء معي من القرية التي ضربت فيها الشيخ الهرم : « لِمَ فعلت ذلك ؟ » فاشرت الى العلم المرفرف على سارية احدى سفن الاسطول النهري ، وقلت : « هذا وسم الاحياء ، وهذا الصليب وسم الاموات • احترما هذا وذاك والا فسيراق بيننا دم ! » ورجعت الى الباخرة (شوشان) قبل ان يخيّم الظلام على الدنيا ، بعد ان اعطيت العربيين (الحظ والبخت) وتعهّدا خطيا بسلامة القرية التي جاءا منها من النقمة القابلة ، شريطة ان يكون سلوكها حسنا •

---

(٧) ان هذا لشيء عجاب ! أهو اسلوب تحرير الشعوب وتأليف القلوب الذي جاء البريطانيون المستعبدون الى العراق من أجله ؟ لكنه الهوى :

وآفة العقل الهوى فمن علا　　على هواه عقله فقد نجا

[المترجم]

وقام الاسطول ، في الوقت نفسه ، بتطهير العكيكة من الالغام ، وجمع الجرحى ونحو مئة من الاسارى ، ومدفعين ، وكمية من العتاد واللوازم • وكان عدد ضحايانا نحو ٢٥ من القتلى و٧٥ من الجرحى من عدة قوة تقل عن ٢٠٠٠ • وذهب (سر برسي كوكس) الذي وصل من البصرة قبل يوم ، مع الضابط البحري الاقدم (النقيب نن) الى سوق الشيوخ ، يوم السادس من تموز وسيطر على « البليدة » ، ثم رفع العلم البريطاني عليها وعيّن أحد الشيوخ حاكماً عليها • ولم يُستقبل بحماس في البليدة ، لكنه لقي احتراما ، ذلك ان شهرته سبقته اليها • ان اتقانه الممتاز للعربية ، وشخصيته النفّاذة ، وحكمته السديدة مكنّته من أن يبني جسرا عبر عليه المذبذبون ، ممن هم لا الى هؤلاء ولا الى اولئك ، ومن دون أن يفقدوا هذا الذي يحرص كل منهم عليه : كرامته • وما ان انهى ذلك الا ّ اصدر اليّ تعليماته بصدد ما يجب أن أسير عليه ، ثم قفل الى البصرة راجعا •

وفي ظهر ذلك اليوم نفسه كنت مع ضابط تركي أسير على ظهر الباخره (شوشان) ، وكان واجبه ، فيما مضى ، أن يدلّ على مواضع الغام العدو في مجرى النهر الرئيس • ولم يسمح الوقت ، على كل حال ، للاتراك بوضع شيء منها ، لكنهم اغرقوا سفينتين هما : (الفرات والرصافة) على مسافة ميل أو نحو ميل من (قناة امجينينة) ، وذلك في محاولة موفّقة تنصب على سدّ الطريق علينا•وسيطر على جنبة من جنبتي النهر بالقوة ، وشوهد العدو ناشطا في حفر الخنادق ، على حين أخذ (الزورق البخاري من صنع شركة ثور نكروفت) يقصفنا بدويه الخافت (بم ••• بم) ، كما رمانا مدفع قديم من مدافع الميدان بقذائف كبيرة • ولم تكن هذه لتنفجر في الطين الرخو الذي كان قوام الارضين الرئيس الا ّلماما • ان موقع الاتراك ، على ما تراءى ، كان قويا جدا ، وفي الحق انه كان يشبه كثيراً الموقع المثالي الوارد في (كتاب التدريب على رمي البندقية : Musketry Drill Book) القديم الذي خلّده ورسمه بالتصوير الكاريكاتوري : مارك سايكس Mark Sykes في كتاب له في التعبئة يدعى D'ordels Tactics • وكان على الجانبين « هور » لايمكن النفوذ منه ، كما كان على الجبهة اليمنى سهل منفتح منبسط ليس فيه الا قناة لا يعرف غورها ، وكانت جبهتهم اليسرى في بساتين النخل

التي تتخللـّها أطواف مكنتهم من كل فائدة في باب الاختباء • وللوصول الى خنادقهم لا معدى عن عبور قناة ذات غور بعيد • وكان من الضروري اعداد النجدات والمؤن، وللاتيان بها كان لزاما علينا أن نعيد بواخرنا وجميع السفن الحربية الموجودة عندنا، منها ما يجب سـحبه ، لان الماء في الحمّار اصـبح خفيضا ، وما لم نستطع الأتيان بجنود جدد ومؤن حالا فقد يتعذر الاتيان بها البتة • فان أتخذ العرب الذين كانوا خلفنا ، في الوقت نفسـه ، موقف الدفـاع قد نجد انفسـنا ، وقد أحيـط بنا من كل جانب ، وانقطعت مواصلاتنا بسبب هبوط ماء النهر • ويجب أن نتذكر انا ، وان دحرنا الاتراك ، فاننا لم نقهر العرب بعدُ • لقد قاومونا ، لكنهم فرّوا بخسار لا يذكر ، ولعلهم حصلوا على مقدار كثير من الاسلحة التركية والعتاد ، بل باكثر مما حصلنا عليه • وما كان عندنا من البندقيات ليزيد على ١٩٠٠ ، على حين كان عند الاتراك ٢٠٠٠ ، باستثناء ما لدى العرب ، كما كانوا في وضع دفاعـي قوي • لقد كان وضعا غـير مستحبّ ، وينطوي على أعظـم خطر ، بل أعظم الاخطار التي جوبهت خلال الحملة • ولو تسنّى للاتراك ، الذين كانوا بسبيل تقوية انفسهم دائبين ، ان يحصلوا على عون العرب الحق ، لحلّت الناصرية محل الكوت في التأريخ ، ولأسفر ذلك عن نتائج لا تعد ولا تحصى •

نال الجنود من قسـوة الطقس شيـئاً كثيراً ، سواء أكان ذلك في البر ام في النهر ، واشترك الجند ، طوال عشرين يوما ، (بحركات فعلية) في حرارة ظل تزيد على ١١٠ درجة ، من الساعة العاشرة صباحا حتى الساعة الرابعة من بعد الظهر ، والهواء على اشدّ ما يكون وخامة • وكانت الحشرات المؤذّية ناشطة • وكان كل صـندوق من صـناديق العتـاد ، وكل مغلّف طعام ، يحمـل من قبل رجالنا ، ذلك انا لم نكن لنملك عددا من حيوانات النقل ، ولو وجد منها عـدد لتعذّرت الاستفادة منه ، على كل حال ، بسبب من الوضع الراهن • ولم يكن لدينا عمال عرب لتفريغ الجنائب • وكان كل ضابط ، وكل جندي ، يحمل جرايتـه وعتاده بنفسـه • لقد كان عملا قاسيا ، وقد اشتدّت اثاره بفقدان اللحم الطري ، أو الخضر الطازّجة • ولم نكن لنحصل دوما على (جراياتنا) كاملة ، وعندما كانت تصلنا كنت ترى لحم البقر يطوف على الدهن المائع في علبته ، بسبب من الحرارة ،

والزُبدَة مائعة بسببها أيضا • وكان لزاما علينا أن نحسب لمواقع العدو هذه ، ولمثل هذه الاوضاع[٨] حسابا • وكان (الجنرال كورنج) ابنَ بجدتها ، رجل الطوارىء الكفء القدير • وعادت السفن النهرية حالا ، ثم رجعت بعد اسبوع وعليها لواء اضافي ، وبعض مدافع قوس ولوازم ومهمات • واناط (الجنرال) مهمة الاستكشاف بيّ ، مرة أخرى ، وكان ذلك ، أولا ، على جناحنا الايمن باتجاه (قناة العتّابية) ، وتبيّن ان ما يمكن القيام به هناك قليل ، ثم على جناحنا الايسر • وكانت بين خنادقنا وخنادق الاتراك قطعة أرض منبسطة ، ولم يكن عليها من النبت الاّ العاقول ، كما كانت قرب النهر ست عشرة نخلات سامقات • وقمت باستكشاف أولي ، خلال اليوم الذي أعقب يوم وصونا ، وكنت متنكرا (بالنسبة لمن يراني من بعيد) بزي اعرابي : عباءة وعقال وكفية ، وشهدت الاتراك من مسافة خمسين ياردة فقط وهم يغرقون في القناة (مهيلة) محمّلة بحجر ، فعينت مكانها • وكل ما كان مطلوبا : معلومات دقيقة عن عمق قناة (مجبينيه) ، التي تصل النهر بالهور الكائن أمام خنادق الاتراك • ولم أصب من النجاح ، اول مرة ، الا القليل • وكنت ارتدي قميصا عليه ما يدلّ على رتبتي وحذاءً من مطاط ، ثم اني زحفت مسافة الفي ياردة على بطني ، حتى شعرت بانها تلتهب من وخزات الشوك • وقبل أن أصل القناة تماما رأتني دورية تركية ، فأخذت تطاردني وهي تطلق النار عليّ في الظلام ، وأنا الوذ بالفرار • وألقيت بنفسي في عطفة النهر وطفت ، حتى بلغت الجانب الآخر • واخطأت في حساب المسافة ، وما أن وصلت ضفة النهر الا وجدت حارسا يقظا مفتّح العينين ، وكنت أراه ، وانا ارتعد فرقا لئلا يكون قد رآني ، وعندها لا معدي عن ان يفتح النار عليّ ، او يضربني بعصا • ولعل الذاكرة اسعفتني ، لا ادري ، اذ اني حلفت باللغة

---

(٨) نجمل مواقع الاتراك في منطقة الناصرية بما يلي :

ـ مفرزة عند ملتقى جدول العكيكة بالفرات (قبر عباس) ـ •

ـ الموقع الرئيس : الى الشمال ويبعد نحو ١٤ ميلا عن الناصرية ، ويتألف من خطين ، يمر (الرات) من وسطه • يوازي الخط الاول جدولي (مجبينية) و (ميادية) ، اما الخط الثانى فيوازي جدولا و (السدديناوية) ، وقد سدت القوات التركية النهر باغراق باخرتين فيه (المترجم)

الانكليزية فردد الحارس الحلف كما تردد الببغاء ، وسمح لي بالتقــدم ، وهكذا انتهى الامر بســـلام •

واصابت المحاولة الثانية نجاحا أكثر • لقد شحذ همتي الشوك ، وفشلي في الليلة الماضــية ، كما حفزني اصــرار (الجنرال كورنج) على اهمية المعلومات المطلوبة ، لذلك كررت المحاولة ، وكان ميدانها الجناح الايسر بعيداً عن النهر • لقد بلغت القناة التي كانت نائية عن الاتراك وهى ضحلة ويستطيع أن يخوضـــها جندي من الكركة • وحاولت ذلك مرة أخرى ، اذ زحفت صـــعدا واضطجعت مدة ساعة على ضفة القنــاة ارقب ربوة تبعــد مسافة خمسين ، أو مائة ياردة • هل هناك من حارس ؟ كنت اسمع جلبة في خطوط الاتراك ، ونثـــار حديث الاعراب • والتجأت الى شجاعتي واتخذت سبيلي في القناة حتى وصلت منتصفها ، فوجدت ان عمقها اربع اقدام وســتة انجــات • وما ان فعلت ذلك الا قفز رجلان من وراء الربوة واندفعــا نحــوي مســرعين ، وهما يطلقان النار • وما كان عليّ بعد ذلك الا ان انسلّ وأعدو عدو الارنب الهارب • لقد كنت أخشى ان تصيبني اطلاقات الحارسين العفوية او التي قد تنطلق من خطوطنا ، أو مـــن الطرفـين ، ولكن ••• لم يحدث شيء من ذلك ، والحمد للّه • وكان ان بلغت ضفة النهر، ثم اتخذت سبيلي ، وانا احذر من قطاة ، الى (قناة مجينينة) فوصلتها عند نقطة تبعد عن صدرها مسافة ٢٠٠ ياردة • ولم يكن هناك أحد بمقربة ، لذلك اتخــذت سبيلي في القناة سابحا ، والتيار يدفع بي فيها نُزُلا ، جاعلا قدماي تلامســان قعرها عساني اسبر غورها • ولم أستطع أن المس القعر هذا من الدهر حينا ، ولم أحاول الغطس لئلا احدث من جراء ذلك صوتا فاسترعي انتباها • واغمضت جفني على عيني لئلا تسترعيا الانظار كما اني غطيت وجهي بطين لازب وراسي أيضا • وعنــدما أخذت قدماي تلامسان القعــر ، ومضت مدة ، وكأنها الستون الطوال ، أصبح الماء ضحلا ليس بذى غور • وزحفت من القناة خارجا ، وعـــلى أتم استعداد للعودة اليها عند الحاجة ، لكن لم يكن هناك أحد ثم اني رجعت الى النقطة التي كنت فيها في اليوم السابق • لم أحسب للوقت حسابا • لقد حــلّ منتصف الليل قبل أن يغيب القمر ، وفي مثل هذا الوقت ، ما الفجر عني ببعيد •

وكان عليّ أن أمضي في طين عميق مسافة ميلين والطين يبلغ الركبتين ، وقد نال الاعياء مني كل منال • ومضيت في بادىء الامر الى مسافة ٢٠٠ياردة واخلدت الى راحة ، ثم قطعت ٢٠٠ ياردة أخرى ، فمائة ياردة ، ثم توقفت منهوك القوى • لقد ذهب الحذاء مني الى غير رجعة ، ولم يبق عليّ الا قميص • لم أشعر بالبرد وانما شعرت بالتعب حسب • وما ان ظهرت تباشير الفجر الا شعرت بأني قد استرجعت قواي فمشيت مسافة ياردات قليلة، كما شعرت بان الارض اخذت تصبح صلبة • وقابلت حراسنا الذين كانوا قد اشعروا بأني كنت غائب ، واغتسلت في النهر من الطين ، وكتبت تقريري ثم نمت حتى تكبدت الشمس في السماء •

وسُرّ ال (جنرال) من ذلك ، لكنه ، جرياً على عادته، قرن النصح بالثناء وعلى ما كان يفعل (الرسول بولص) سواء بسواء • وكان يحتوي فكرة هجوم جبهوي ، سيما وان عسر الرؤية جعل الافادة من مدفعيتنا ، على أتم وجه ، امرا مريباً • وفي الليلة التالية نيط بي أمر تشكيل دورية من الضباط ، بضمنهم اثنان من خريجي كلية (ايتن) ينتسبان الى وحدة همشاير ١/٤ ، المنظر في امكان معاودة الاخذ بالخطط السوقية البرمائية التي أصابت في القرنة نجاحا ، لان ميدانها الهور الكائن على يمين الاتراك • انها لتجربة مروّعة ، اذ لم يكن لدينا من دليل الا النجوم التي ترسل سهاماً مضيئة ، ومرشدة وبوصلة قليلة الفائدة • وكان الماء ضحلا ليس فيه الا مركزات من قصب متناثرات هنا وهناك ، وبسبب من الظلام المطبق انعدمت الرؤية ، وكان ثمة خط من القصب القصير يتراءى، وكأنه احد السدود • وكانت سفينتنا تستقرّ على الطين ، فيتعوّق سيرها ، ونضطر الى النزول الى الماء لدفعها ، فان اربد ان نكون على حظ من نفع وجب ان نستطيع رؤية التلال الخفيضة التي يتراءى ان جناح الاتراك الايمن مستقر عليها ، ومنه يمكن الهجوم عليهم ، كما كان لزاما علينا ان نعود بالمعلومات المطلوبة • وجلسنا نرقب « تبين الخيط الابيض من الخيط الاسود وانفجار الصبح » ، وما أن لاح لنا الا استطعنا أن نتبيّن اشباحا ، تجول على التل على بعد يتراوح بين ٤٠٠ و٦٠٠ ياردة كثيرا ، وكان في هذا كفاية لنا ،

لذا اسرعنا لئلا تنهال علينا اطلاقات رشاش ، وأبلغنا من يلزم بأن في الامكان الوصول الى التل ب (بلم) . حدث ذلك ليلة ١٢/١٣ من الشهر ، وتسلم ال (جنرال كورنج) التقرير بارتياح ورضى ، وصمم على احتلال التلال الخفيضة بحملة على ظهور الابلام محمولة . وبعد ظهر ذلك اليوم صدرت الي الاوامر بأن أقود (وحدة البنجاب : ٢٤) الى الموقع الذي بلغناه في يومنا الدابر . وحملني هذا على اتخاذ قرار جد خطير ، علم به ال (جنرال ميليس) الذى كان آمر الجناح هذا مسبقا . كنت على ثقة من ان الهجوم لن يصيب نجاحا للاسباب التي أدليت بها ، فالماء أولا كان ضحلا جدا ، ولأني لم اكن اشعر بأننا وقفنا على شيء يكفي من المعلومات ثانيا ، وكنت ارغب في القيام باستكشافات اخرى . ان القيام بواجب الدليل لوحدة عسكرية في مثل هذه الظروف تبعة كبيرة لم أكن لأعنى بها شخصيا ، وبأمل أن أحمل (الآمر) على دراسة الموقع أكثر ، كتبت اليه اقول اني أرغب في الذهاب بصفة جندي ملتحق ب (الوحدة ٢٤) ، أو بصفة ضابط سياسي ، لكني لا أروم ان اضطلع بتبعة الدلالة . ولو احالني على مجلس عسكري لما لمته ابدا ، ولعله ادرك ان رتبتي ، التي اعرضها بذلك للخطر ، كانت اعظم عندي من أي شيء آخر . لذلك لم يقل شيئا ، وارسل (النقيب دنت) مع الرتل . والنقيب دنت هو ضابط الاستخبارات الملتحق بنا . ولم يصب الهجوم نجاحا ، وقتل جميع الضباط الانكليز ، فيما خلا ضابطين ، كما قتل مئة وخمسون جنديا أو جرحوا ، من بين مجموع القوة : ٤٠٠ . وحضرت مراسيم الدفن في اليوم التالي ، وانا اسائل النفس : أكان ما صنعته حقا ؟ .. ولست حتى الآن ، من ذلك متأكدا !

لكن (وحدة البنجاب) لم تقدّم قربانا دون جدوى ابدا ، فالاتراك أخذوا يقوون جناحهم الأيسر على حساب جناحهم الايمن وقد ساعدنا هذا بأخرة . واستمرّت الحركات مدة اسبوع أو عشرة أيام ، واتسّمت بالبطء . وكان حدثا عظيما ان تصل طائرتان من طراز (كودرن) ، وهما من الطائرات الاربع الموجودة في البلاد . لقد ساعدت الطائرتان (الآمر) ، لأول مرة ، على فحص خطط (طوبوغرافية) البلاد . كما وصل لواء آخر وبطرية اضافية ايضا .

وفي الثاني والعشرين من الشهر اعدّت العدّة لمعركة الناصرية . وكان عدد مقاتلة الاتراك ٤٢٠٠ ومعهم ٦ مدافع ، وعدد كبير من العرب . كما كان عدد مقاتلة الانكليز المشاة ٤٦٠٠ ، وعندهم ٢٦ من المدافع البحرية والبرية . ويروى (التأريخ الرسمي) قصة المعركة على أحسن وجه . انها على غرار سابقتها تمثل التعاون بين الاسطول والقوة البرية ، وانها كمعركة الشعيبة ، معركة جنود ، بالدرجة الاولى . لقد شنّت المعركة في ظروف تذكّر بظروف (العصيان الهندى) والمعارك الاولى في الشرق . وهناك فارق بينهما هو : ان أغلب الجنود لم يكونوا من المجرّبين بل كانوا من المستَجدّين ، وقد انخفض عددهم ٢٥ بالمئة بسبب المرض . وكانت ضحايا الاتراك : ١٠٠٠ أسير و٢٠٠٠ من القتلى والجرحى ، أما ضحايانا فكانت ١٠٤ من القتلى و٤٢٩ من الجرحى ، وكان من بينهم ٤٤ قتيلا و ١١٠ جرحى في وحدة (ويست كنتس) ، وكان تعدادها أقل من ٥٠٠ . وكان عدد ضحايا وحدة همشاير ١/٤:٤٥ من بين مجموعها ١٤٠ . وفقدت سرية الاستحكام /١٧ عشرين جنديا من بين جنودها البالغ عددهم ٥٥ . وهذه الارقام تعطينا فكرة عن قسوة المعركة وشدتها وعن صلابة الاتراك . وكان الدور الذي لعبه الاسطول في المشاغلة لايقل روعة عن دوره في المشاغلات البرمائية السابقة[٩] . وفي لحظة حاسمة من لحظات المعركة قام (النقيب نن) بوضع الباخرة العتيقة (شوشان) قرب خنادق الاتراك وأخذت بقصفها ، كما أنه دفع الباخرة (مجيدية) الى مطاردة الاتراك الهاربين الى الناصرية ، حيث كانت الاعلام البيض ترفرف،وعددها كعدد الاطلاقاتالتي كانت تنهالمنالثكنةالتركية. وبعد المعركة ، وعلى ما حدث غبّ الاشتباك الماضى ، امضيت جانبا من الوقت اساعد على اخلاء الجرحى . لقد ملأني ما رأيت رعبا ، فلقد تبين ان هانه

(٩) في الاصل Amphibious Operations أو **الحركات المتراوحة بين الماء** والبر . ان الحركات في الاهوار تحتاج الى قوة مدربة تدريبا خاصا يسندها اسطول نهري مدرب ويحميها . وقد الف النحري : نن (وقد سما به الرتب بعد ذلك فأصبح لواء بحريا) كتابا عنوانه :

زوارق دجلة المسلحة Tigris Gun boats by Capt. Nunn

شرح فيه معارك السفن الحربية البريطانية في دجلة تفصيلا ومساندتها القوات البرية فليرجع اليه من شاء عن الموضوع . (المترجم)

الرتيبات الخرقاء مدعاة الخزي والعار وانها نجمت على يد مسؤولين في مصلحة الصحة ، ولم تنجم عن مشكلات كامنة • لقد حشر الجرحى على ظهور السفن وهي من حديد ، ولم تنظف هذه منذ أن وقفت عليها الخيول والبغال ، طـــوال اسبوع • ولم تكن هناك الا قلة من البسط • وانك لتجد هذه الانطباعات مدوّنة في (التأريخ الصحي الرسمي) على وجه التمام •

وثمة نقطة جديرة بالذكر : فلقد ارتؤي عبور قناة ، عند صدرها ، وبُني الجسر بشجاعة فائقة وخسر جنود الاستحكام خلاله كثيرا ، ولكن صعب استعماله ، وبالنظر الى (التأريخ الرسمي) منعت الجنيبة الماء عن الانسياب في القناة نُزُلا ، وبذلك انخفض مستواه • ولا اعتقد ان ذلك بصحيح • وذهبت أسعى في ذلك اليـــوم على الارض واتوق الى رؤيـــة أشياء في وضح النهـــار ، لا أراها والليـــل ساج • لقد رأيت الجنيبة لكنني لم الحظ هبوطا في مستوى مــــاء النهر • لقـــد انخفض بمقدار ستة انجات منذ ان قمت بالاستطلاع عنده ، لكن مـــردّ ذلك الى هبوط مستوى النهـــر الدائب •

وقمنا باحتلال الناصرية في صباح اليوم التالي ، اعني يوم الـ ٢٥ من تمـــوز ، وجاء وفد من العرب يقول : ان الاتراك اخلوها في الليلة الماضية ، وقد انسحبوا الى الشطرة في طريقهم الى الكوت[١٠] • وترك مستشفى مليء بالجرحى وعلى حال من القذارة يُرثى لها ويتعذر لنـــا وصفها • ولما كان سكان الناصرية ليسوا في شك من مصيرهم الآن ، فلقد قاموا باستقبالنا بالترحاب الفلسفي الذى طبع استقبالنا في العمـــارة • وعيّنت مساعداً للحاكم العسكري : العقيـــد نيفنسن ، المنســـوب الى (البطرية/٧٦ ـ المدفعية الملكية) ، وذلك بالاضافة الى واجباتي الاخرى كضابـــط سياسي ملحق بالفرقة الـ ١٢ ، وفي سبيل اداء هذا الواجب المزدوج صـــرفت شهرا من حياتي ، أثقل الايام بالتبعة واشقها • وكنت مكلفا بموجب القانـــــون

---

(١٠) وفي ٢٧ تموز ابرق (نائب الملك في الهند) الى وزير الدولـــة البريطاني لشؤون الهند يقول :

« أما وقد تم احتلال الناصرية فان احتلال (كوت الامارة) أصبح بنظرنا أمرا لازما لا حيد عنه » وهكذا كان احتلال (مدينة) في العـــراق يؤدي الى احتلال (مدينة) اخرى • « المؤلف »

العسكرى بايجاد السكن للقطعات العسكرية ، وضمان فهم الاوامر العسكريه والصحية واطاعتها ، وتوزيع العدل ، في جميع الاحوال ، بين الناس • وكانت تبعتي بوصفي (حاكما سياسيا) مرتبطة بالفرقة ، وبخط مواصلاتها اعتبارا من الجبايش ، فغربا • وكان عليّ أن أكون في الحصول على مواد التموين عونا ، وكنا اليها في حاجة ماسّة دوما ، كما كان عليّ أن أتعاون مع (شعبة الاستخبارات)، ولهذه نظام كفء كان يتضارب مع عملي أحيانا • وكنت في اداء واجبي حرّا طليقا ، وما كنت أحظى فيه بعون باستثناء كاتب جندى في امرتي ولم يكن طبعا ليتكلم العربية ابدا أو لعل ما يسديه اليّ في هذا الباب كان قليلا • وأول قضية انيط بي التحقيق فيها هي ظهور كميات كبيرة من السمك الميت في مجرى الفرات الرئيس مما أدى الى تعويق مساره، وتلويث الجو، وجعل الماء فيه لايستساغ شرابا• وظُنّ ، بادىء الرأى ، ان اعداءنا عمدوا الى تسميم الماء ، لكن تبيّن ان السمك مات من اسباب طبيعية • وعلى حين كان منسوب الماء في الاهوار آخذا بالانخفاض أخذت الحرارة عندها بالارتفاع الى حد الخطر على حياة السمك ، ولذلك أخذ يتجمع في مياه الجداول الباردة •

ثم أعقب ذلك ان ارتفعت الحرارة في الجداول فمات السمك • وقام الاعراب بشق السدّ المؤدي الى النهر ، وتركوا السمك الميت ينساب في النهر نزلا •

وكانت طلبات الدوائر لا حد لها ولا نهاية • فالمستشفيات تريد : الحليب ، والبيض ، والدجاج ، وقسم التموين يروم : لحم البقر والضأن والخضروات ، وذلك كله بكميات اكبر مما يرد منها • وبالنظر الى قلة وسائط النقل ، كنا نعتمد طوال شهور على ما تنتجه مطحنة ، خلفها الاتراك عند انسحابهم سليمة • وكانت حرية التنقل، صُعُدا في النهر ونُزلا، ضرورية ان اريد لمواد التموين أن تصلنا• وفي بادىء الامر تعسّر التنقل بسبب الرغبة في منع التجسّس • وبالنظر الى تقارير الاستخبارات المتصلة بهذه الفترة الزمنية (راجع : موبرلي ٣/٦٠ن) صرّح الضباط الاتراك بأن نفرا منهم استطاع أن يزور الاسواق متنكرين بزي الاعراب ، وانهم حصلوا على معلومات مفصلة عن حركات قطعاتنا • ولا اعتقد ان كلا الامرين صحيح ، ولو طرحنا جانبا النَفْج في الادعاءات ، وقد شاع على لسان الضباط

الاسارى ، فاني لم اسمع عن قضية موثوقة تدور حول دخول ضابط تركي احدى المدن التي كنا نحتلها • وبصدد تفصيلات تنقل قطعاتنا ، ان هذه لايطلع عليها الا كبار المسؤولين عندنا ، كما ان تعقيد نظام المواصلات في جبهتنا يضع صعوبات عسيرة في سبيل جمع معلومات ، عن ذلك ، صحيحة •

وكان من أمري أن أتعاون مع (آمر الانضباط) وجنوده وقد انيط بهم منع السرقات الطفيفة والاعتداءات ضمن نطاق المعسكر الضيّق ، وان اضمن رعاية الاعراب للتعليمات الصحية السديدة على ضفة النهر وقرب المعسكر • وكان واجبا شاقا عسيرا ، ذلك ان أي تشدد أو اصرار غير سديدين من قبلنا يخيف القرويين ويبعدهم عن الاتيان ببضاعتهم لبيعها البناء وسرعان ماوجد الحلّ الوسط ، فلقد أرسل الاعراب نساءهم الى الناصرية ، ومعهن ما تنتج القرى ، وهم واثقون من الحصول على اسعار طيبة عند بيعها ، ومطمئنون الى ان لن يصيبهم ضرر من جراء ذلك • وفي سبيل شراء المواد الغذائية بالجملة استخدم المقاولون العرب ، كما صدرت اجازات غير رسمية فحلت كثيرا من المشكلات ، وفي غضون اسبوعين استطعنا أن نقيم ما يقرب من أن يكون جهازا • وكان الدفع يتم بالروبيات، ومن المبالغ المدفوعة ماكان ، بالفضة ، ومنها ماكان بالعملة الورق ، ذلك ان المقاولين شعروا بأن الذهاب الى البصرة، صحبة حقيبة نقد، أمر محفوف بمخاطر جمّة، على حين يمكن ارسال العملة الورق المؤلفة من انصاف الروبيات صحبة سعاة يسافرون على دفعات • وخوّلت (خزانة الميدان) ، بأخرة ، اصدار مذكرات اذن الدفع على (خزانة البصرة) ، وبذلك أجهز على ما لا جدوى من ورائه ولا طائل في باب تحويل العملة •

والعرب تعلم ، منذ القديم ، ان لسعات الذباب تسبّب نقل المرض ، المسمّى بـ (الصرّة) لذلك كانوا يحجمون عن ارسال حيواناتهم الى المناطق التي يكثر فيها والكائنة على شواطىء الفرات ودجلة ، وما بين الناصرية والفاو من الارضين ، على وجه أخص • واستطعنا ان نؤجّر الجمال للعمل ضمن حدود منازل أصحابها ، ولم يكن أي مالك للجمال ليرضى بان تستخدم جماله في غير منطقة سكناه لاية مدة • وقد يبيع المالكُ الجمالَ ، على كره منه، أيضا•وعلى ذلك فان الجهود التي بذلت لتشكيل

(هيـأة النقل على ظهور الجمـال العربية) لم تكلّل ّ بالنجـاح . كما ان الجمال المستوردة ، على العموم ، لم تحقّق الامل المرتجى ، اذ على الرغم من زيادة علفها ، ومراقبتها ، فانها ، والجمال الخاضعة للاشراف العسكري ، لم تكن بمستوى جمال العرب البلديين أبدا . وليس هذا بشيء عجيب ، فليس مثل العربي من يعرف ابله ، وهو الذي اعتمد عليها أكثر من اعتماده على الخيول بكثير[١١] .

ومما لا طائل من ورائه ، ولا جدوى ، ان نبحث تفصيلا فيما يجبه كل حاكم عسكري أو ضابط سياسي من مشكلات لا تحصى لدى تسلّمه زمام الامور في مدينة أو قرية ، أول مرة . وكان تسلّمي واجبي المذكور آنفا أول ما خبرته وآخر ما خبرت من العمل في منطقـة ما ، ولم اعدم الاستفادة من هـذه الخبرة . لقد مكنتني من ان ادرك مقدار الرهق الذي يصحب هذا النوع من العمل ، لاسيما عندما تشتدّ حرارة الطقس ، في بلد ليس فيه من وسائل الراحة الانسانية الا أقل من القليل . ومن الجهة الاخرى ، كنت أتحسس بما كان يتحسّس به الجنود والضباط الاركان : لقد حاربوا العدو ، ودحروه ، فبذلوا الجهد الكبير ، كما ان المرض والموت صيرّا عدة جنود كل وحدة نصف ما كانت عليه قبلا ، أو لعل هذا العدد أكثر من النصف أيضا . ولم يلتزم العرب الحيـاد بازائنا اذ كانوا في الحق أعداءا لنا ... ولو قدرّ لنا ان ننحدر لاقضّوا علينا دون هوادة أو رحمة ، وكثيرون كانوا يشمئزّون من معاملتهم كأصدقاء ، ومن ان تدفع لهـم مبالغ مغرية لقاء خدماتهم ومؤنهم التي يقدّمونها لنا . ومما لاشك فيه ان هذه كانت على سبيل المصـانعة ، ذلك ان أية محـاولة تنصب على مصادرة الميرة تبوء بالفشل ، ابتداء ، وتشلّ الامر كله ، كما ان السخرة لا مساغ لها ، فيما خلا العرف الخالد الذي يتمثّل في وقاية الارض من الفيضان .

وفي أواخر آب طلب مني سر برسي كوكس ان اضطلع بشؤون مكتبه ابان غيابه عنه ، وذهابه صحبة سرجون نيكسون في نهر دجلة صعدا . وكان أن سلّمت

---

(١١) راجع : Blenkinsop, p. 338 (المؤلف)

مهام وظيفتي الى النقيب بلفورد[١٢] واتخذت سبيلي في (بلم) الى القرنة ، في الصباح المبكر، منذات يوم، وأنا آمل أن أجد عندها باخرة تقلني الى البصرة. وودعني قليل من الشيوخ والمختارين ، فأظهروا لي مـن المجاملة ما تشـيع في بلاد الرافدين ؛ وتجعل الحياة فيها مستساغة . لكنني كنت ممتنا أكثر من لمة من النساء عرفتني والبلم ينساب بي ، فرفعن الصوت بالعويل ، وأرسلن العيون ، هتانة المسار بالاسى ، فاكبرت رأيهن .



(١٢) راجع : Malcolm, Sketches of Persia, I, 9. (المؤلف)

الفصل الخامس *

بدء تدوير شؤون ولاية البصرة

« ان حمية الشعب لشيء حسن جداً ، ويتراءى ذلك من خلال سطور هذا الذي تخرجه المطابع ، لكنني لا اعلم انه يأتي بغير التشويش ... وعلى ذلك فاني موصيكم جاداً بالا تركنوا الى حماس الناس في اي مكان تشخصون اليه . اعطوهم حكومة قوية عادلة ، وصالحة ان امكن ، ولكن القوة صفتها الغالبة ، لكي تلزمهم على القيام بواجبهم ، بازاء انفسهم ووطنهم » .

دوق ويلنكتون : في (باب الادارة العسكرية للاراضي المحتلة)

١٠ كانون الاول ١٨١١

باحتلال الناصرية أصبحت جميع المدن الرئيسة في ولاية البصرة بيدنا . ذلك ان (علي الغربي) الراكبة على دجلة احتلت قبل زمن ما ، وبذلك أصبحنا على اتصال وثيق بالجانب الفارسي من الحدود ، وبوالي بشت كوه ، وهو من كان ، ايامئذ ، في لورستان الغربية حاكما وراثيا مستقلا . وعلى ذلك أصبحنا نضطلع بتبعة ادارة منطقة مساحتها ٢٠ ألف ميل مربع ، يسكنها ٧٨٥٦٠٠ من السكان ، موزعين على العموم ، وبموجب احصاء تخميني جرى سنة ١٩١٩ ، على الوجه التالي :

السنجق (اللواء)	السنة	الشيعة	اليهود	النصارى	الصابئة وغيرهم	المجموع
البصرة (وبضمنها: القرنة)	٢٤٤٠٨	١٣٠٤٩٤	٦٩٢٨	٢٢٢١	١٥٤٩	١٦٥٦٠٠
العمارة	٧٠٠٠	٢٨٤٧٠٠٠	٣٠٠٠	٣٠٠	٥٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
المنتفق (الناصرية)	١١١٥٠	٣٠٦٢٢٠	١٦٠	٣٠	٢٤٤٠	٣٢٠٠٠٠
المجموع	٤٢٥٥٨	٧٢١٤١٤	١٠٠٨٨	٢٥٥١	٨٩٨٩	٧٨٥٦٠٠

(*) المراجع : Hansard, Official History, Candler, Review of Civil Administration.

(المؤلف)

وعلى ما أوضحنا في (الفصل الاول من هذا الكتاب) ، كان لزاما علينا ان نبدّل في جميع أقسام الادارة المدنية السابقة في هذه المنطقة ، وقد تلاشت ، مع جميع سجلاتها ، تقريبا ، غير مخلّفة أي موظف ، مهما كان صغيرا • وكان لزاما علينا الاّ نصرّف أمور هذه المنطقة حسب ، بل ان نؤمّن مافي الوقت نفسه (الحملة الاستكشافية) الى ابعد حد مستطاع ، كما كان من واجبنا حفظ سلامة خطوط المواصلات بأقل بعثرة في قواتنا • « هذا ومن الجهة الاخرى ، كان من الضروري اتخاذ الخطوات اللازمة لمنع الاهلين من ممالأة « أعداء ملكنا » عن طريق تزويدهم بالمؤن والمعلومات • والى هذا كله انصرف ال (سر برسي كوكس) ، كليا ووحيدا ، خلال سنة ١٩١٥ • لقد جاء الى وظيفته مزدانا بالخبرة وصفاء العقل المدبّر وهما من طراز فذّ نادر • ان كيانه الشخصي أصبح صلبا ايدا ، بخدمة استطالت عشرين سنة عرفتها مسقط وساحل الصومال وبوشهر • اما الخبرة الادارية ، بالمعنى الدارج ، فلم يكن لديه منها الا القليل ، لكنه كان يتمتع بثقة حكومة (وزارة الهند) و (نائب الملك في الهند) ، وقد أشغل منصب (سكرتيره للشؤون الخارجية) حتى اندلاع لهيب الحرب • واكتسب خلال ال ١٢ سنة التي أمضاها في الخليج الفارسي احترام شيوخ الامارات العربية ، ومحبتهم في الغالب ، وبضمن هؤلاء ابن سعود الجبار • وبوصفه قنصلا عاما حصل (سر برسي كوكس) على معلومات شاملة عن كل شخصية بارزة من شخصيات فارس الجنوبية • وكان الوليّ الحميم لشيخ المحمرة ، ولم تكن معلوماته عن تصريف شؤون الحكومة الفارسية في طهران ، ونقاط ضعفها ومحنها ، نزرة قليلة[1] • هذا وان تعاونه الوثيق الطويل

---

(١) كان (كوكس) ، بحكم تدريبه العسكري ، يدرك ان الاعتبارات **العسكرية لا يمكن اخضاعها الى ما يجنى من فوائد سياسية** ، لكنه كان يدرك أيضا ان أية مغامرة عسكرية فاشلة تسفر عنها عقبى سياسية خطرة • وكان من **أشق واجباته ـ باعتداده (الضابط السياسى الرئيس)** الحيلولة دون ايقاع أذى مقابل ذنب ، من دون روية وتبصر ، وبذلك كان ينصح رؤساءه العسكريين القادة • **وعلى حين كان يضطلع بواجباته في البصرة لم يكن ليغفل عن شؤون الخليج العربي** السياسية كما كان يرقب الصراع المرير بين ابن سعود ومنافسيه في اواسط **الجزيرة العربية والوضع في جنوبى فارس حيث بقيت العناصر المعادية حتى بعد** دحر (التانجستان) قرب بوشهر في ٩ ايلول •

راجع The Life of Sir Percy Cox by Philip Graves. P. 153 & P. 193.

(المترجم)

مع الاسطول البريطاني في ميدان مكافحة الاتجار بالاسلحة في كل من الخليج الفارسي وخليج عمان صيّره قريبا من كل ضابط بحري في محطة الهند الشرقية. كما ان اشغاله منصب سكرتير الشؤون الخارجية في حكومة الهند جعله على صلة وثقى بكل شخصية بارزة من شخصيات الهند . ولم يكن ليعرف ، باديء ذي بدء ، شيئا عن (تركية العربية) أو لعله كان يعرف عنها قليلا ، لكنه كان يتكلم العربية بطلاقة ، كما كان يقرأها ويكتب فيها ، ان لزم ، بيسر . ان هذا الرجل الفذّ ، الذي لم يكن عمره الا في الخمسين عندما اندلعت الحرب ، تقاعد من خدمة الحكومة بعد عشر سنوات ، وهو يتمتّع بالصحه والنشاط وسمعته طبقت أرجاء البلدان العربية وفارس الجنوبية . لقد رفع الذكر البريطاني ، ولم يكن فضله في هذا الباب بأقلّ من فضل قواته المسلّحة الباسة . وكان مزاجه مثاليا بالنسبة الى المشكلات التي كانت تجبهه ويعالجها يوميا . وكان زمّيتا قليل الكلام ، لكنه كان يُحسن الاصغاء ، وكان ينصرف بكليته الى الجميع لكنه لم يكن في ذلك (كريشة في مهب الريح) . وكان جلدا بازاء الخطر ، صبره لا ينفذ (وما انقادت الآمال الا لصابر) وفي مكنته أن يضمن الولاء له ، وقد استطاع الى ذلك سبيلا . انه لمطاع ، وكان يعمل ، طوال أسابيع ، في اليوم ١٢ ساعة ، ولا يأبه بأن يكون ذلك في سرداب قذر مظلم من بيت عربي ، ومع ذلك لا يستفز مزاجه ، وان كان ، في الاحيان ، على ما أجاب سيدة سألته : « يجعله يتلظى داخليا » . وكان منهجيا ذا ذاكرة حسنة ، يصل الى قراره وئيدا، ولكنه كان في تنفيذه،سريعا.وكان ذا خاطر ذكي، بارعا في السعي وراء الاهداف التي يصبّ جهوده في تحقيقها . والى نفوذه، وبأكثر من نفوذ غيره ، مردّ القرارات المتعاقبة التي انتهت باحتلال بغداد . وفي الـ ٢٣ من تشرين الثاني ، يوم احتلالنا البصرة ، ارسل برقية خاصة الى (نائب الملك في الهند) يقول فيها : ان « القائد العام » يدرس قضية التقدّم على بغداد ان أقرّ ذلك » ، وأضاف: « عسير عليّ ان أرى كيف نستطيع ان نترك بغداد من دون ان نستولي عليها . وصعب علينا ان نسمح بمعاودة الاستيلاء على البصرة واثارة المشكلات بازائنا فيها ، كما ان علينا الا نسمح لاية دولة اخرى أن تستولي عليها . ما دمنا نحتلها ، اليوم ، فعلينا البقاء فيها ، اذ لا يسعنا ان نترك الترك

يعودون ، بعد ان قبلنا من العرب معونتهم ، على أساس ان حكم الاتراك ذهب الى غير رجعة . » وعلى ذلك تجلّى له ، بادىء ذي بدء ، تتابع الوقائع على الوجـــه المنطقي الذي لا معدى عنـه ، لكنه لم يستطع أن يقنـع القادة العامين المتتابعين في (بلاد ما بين النهرين) او سلطات (سملا) و (وايت هول) ليجبهوا فحوى ومحتوى سياسة طلعة ، وبما تنطوي عليه من جنود وعدّة .

وترك لسر برسي كوكس أن يقيم جهازا اداريا فعّالا في ولاية البصرة[٢].

وكانت اولى الدوائر التي عُني بها الدوائر المولجة بشؤون القانون والنظام العام : أي الشرطة ودائرة الحاكم العسكري . وكنا قد ذكرنا ان قد عُيّن مستر (فالمقدم أو العقيد فيما بعد) كريكسن مديرا للشرطة ، وانه ، اثر تعيينه ، استطاع أن يعيد الامن الى نصابه ويقيمه على أساس مكين ركين ، وبشكل لم يكن له في (سنجق البصرة) ، طوال سنوات ، مثيل . وبذلك نال تقدير الجمهور العربي والقطعات المحاربة على حد سواء . وبعد أسابيع من ذلك ، شكلّت دائرة كهذه في العمارة ، وبعدها بقليـل في الناصرية ، والقرنة ، وقلعـة صالح ، ولم تكن الاخيرتان الا قريتين صغيرتين ليس فيهما شرطة نظامية ، وان اعتادت دورية صغيرة ان تزورهما ،

---

(٢) كان رجـال السياسة ، والعسكريون البريطانيون ، يدركون ، بادىء الرأي، انهم لن يقوموا بادارة العراق ، ادارة مباشرة، بعد أن يتم احتلاله وتوطيد مركز انبراطوريتهم فيه ، لان ذلك يكلف مالا ويتطلب رجـالا لا قبل لهـم بـه لذلـك أخذوا ب (النظام الاقطاعي) ، بالنسـبة للسيطرة على العشائريين فيـه بواسـطة الشيوخ ، ومنحوهم مزايا ماديـة ومعنوية ، وأصبح كثير منهـم زاد الانبراطورية على الايام . كما أخذوا بتشكيل (جهاز اداري) استخدموا فيـه من وافق على الاستخدام من أبناء البلاد الضالعين مع سياستهم ، وجاؤوا بمن يهيمن عليهم مـن البريطانيين في مختلف الدوائر ، وان أطلقـوا عليهم في الاحيان اسـم « مستشارين » ، ومن لم يسر في ركاب الانبراطورية من العشـائريين والمدنيـين العراقيين كان (المستعبد البريطاني) ، عليه دائرة السوء ، يتربص به الدوائر ، وقد قاسى كثير منهم ، من جراء ذلك ، من حرمان وحياة قشف .

ويلحظ أن البريطانيين ، بعد أن احتلوا العراق ، ثم اخمدوا ثورة العشرين ، واتفقوا مع فرنسة على تقسيم (الهلال الخصيب) ب (معاهدة سايكس - بيكو) وبسطوا هيمنتهم على عصبة الامم،وحذرا من أطماع جاراته القوية،أخذوا يدعمون جهاز الحكم المالىء لهـم ، ولم يمانعوا في تأسيس جيش وطني يستطيع ان يقر الامن بين عشائره المسلحة الكثيرة المتنازعة ، فضلا عن الدفاع عن حدوده المترامية، ما دام ذلك يؤمن مصالحهم الحيوية فيه [المترجم] .

وكان جنودها ممن يرسلهم المختارون في القريتين • ولم تكن للدوائر البلدية هذه ، خارج أسوار الاماكن المبنيّة ، أية سلطة ، لذلك كانت السرقات ذائعة شائعة ، ولم يكن هناك شيخ يرضى بتحمّل التبعة لابعد من أميال قليلة • لذلك تقرر تشكيل شرطة غير نظامية باسم (شبانة) ـ وهي كلمة بلدية ، فارسية النجار ، تعني بالاصل : « حارس الليل » ـ لتحلّ محل الجندرمة (الدرك) التركي في الالوية • وتقرّر الا يقوموا بعملهم الا ضمن حدود مواطنهم الاصلية ، وان يجرى تجنيدهم بواسطة شيوخ قبائلهم ، الى ابعد حد مستطاع وأن يخضعوا لسلطة الحكام السياسيين في مناطقهم • وقام النقيب مكفرسن بتشكيل قوة (الشبانة) ، اول مرة ، بين العمارة والقرنة • والرجل هذا ممن امضى في خدمة (شركة كري مكنزي) عشر سنوات ، أو نحو ذلك ، وكان قد الحق بالقوة الموجودة في الاهواز لاسابيع خلت • وكان يجيد العربية ، وليس من احد يمكن ان يباريه الى مثل هذا المنصب ، أو المناصب العديدة الاخرى التي اشغلها في السنوات التالية • وبمضي الوقت شكلت قوة (شبانة) في كل منطقة ، فبلغ تعدادها بضعة الاف ، وما ان تمّ تشكيل الحكومة الدستورية في البلاد الا ضمّ أفراد الشبانة الى دوائر الشرطة والجيش العربي فيها• وبلغ تعداد الشبانة ، خلال الفترة التي يتناولها هذا (الكتاب) بالسرد : خمسمائة ، وقد حلّ هؤلاء محل القوات العسكرية المضطلعة بواجب الحرس والدورية ، على الطرق وفي الانهار ، كما جعلوا نواطير مخازن في بعض الامكنة • واستخدموا ، بعد ذلك ، في القاء القبض على المجرمين والحيلولة دون وقوع القلاقل العشائرية ، كما قاموا بجبايه الواردات • وفي سنة ١٩١٥ أصبح للشبانة في البلاد نفوذ يتعدّى السلطان المباشر ل (القوة العسكرية الاستكشافية البريطانية) ، ويفوق ما كان للدرك التركي من نفوذ ، وهم الذين حلّوا محله • وبتخليص المسافرين في ديرات العشائر من دفع (حق السراية) الى الشيوخ ، وقد جرى العرف بذلك أيام الاتراك ، لكنه لم يكن ضامنا دوما لسلامة هؤلاء المسافرين من النهب والسلب ، غدت قوة الشبانة نواة قوة شرطة تنتشر في العراق بطوله وبعرضه • ولم يتم تشكيل قوة الشرطة الا بعد سنوات عشر من ذلك •

وشغل أمرُ العدل وتوزيعه في الناس الأذهان بعـــد هذا • لقد ذهبت المحاكم التركية الى غير رجعة ، وكان لزاما اقامة محاكم تحل محلّها • وكثر الجدل حول قضية تطبيق القانون التركي او عدمه ، منذ البداية • ولم تكن تركية من الاطراف المتعاقدة في (ميثاق لاهاي)[٣] المعقود سـنة ١٩٠٧ ، الذي يضمّ ملحقاً يتعلّق بادارة شؤون الاراضي المحتلّة • لكن العرف الدولي يقضي بالاخذ بالقانون المعمول به الى أبعد حدّ مستطاع ، والى ان يصدر القائد العـــام ما ينقضــه صراحة • ولاسباب شـتّى لم يحبّذ الاخذ بالقانون التركي في هـذه المرحلة ، فالقانون هذا يرتكن : (أولا) الى وجود سلسلة من محاكم العدل تتدرج حتى تبلغ محكمة التميز في اصطنبول • ولتعديل القوانين المختلفة ، وهي على مثل هذا التدرج ، وجعلها عملية ، ضمن «المنطقة المحتلة» الضيقّة ، لا معدى عن صرف شهور من العمل • و (ثانيا) ان القانون التركي يفترض وجود هرم من الموظفين الموكلين بتطبيقه وتنفيـــذه ، وهو ما لم يكن موجـــودا • و (ثالثا) : وعلى حـين ان القانون التركي ، ذو كيـان متكامل منطقي ، ومتقن الى ابعد حد ، الا انه لم يعمل على الوجه الصحيح في بلاد ما بين النهرين • ذلك ان كثيرا من نصوصه الرئيسة كانت تفسرّ بشكل منحرف لتصبح سببا في استفادة المولجين بشؤونه ، ومعاشاتهم نزرة قليلة ، ولم يكن الجمهور ليستنكر ذلك أيضا •

ورؤي ، في مثل هذه الظروف ، تعيين موظف عدلي أقدم ، يقوم باعـداد مجموعة قوانين مؤقتـة ، تلائم حاجاتنا الآنيـــة ، وترتكن الى القانون التركي شطرا ، والى القانون الهندي شطرا • واصطُفي لذلك العقيـــد نوكس[٤] ، المنسوب الى الدائرة السياسية الهندية ، وهو محام وعلامّة في العربية ، ذو خبرة طويلة في شؤون الخليج الفارسي • وكان يعـــاونه في اداء واجبه (النقيب مكنزي) المنسوب الى (الدائرة) عينها ، وهو ذو خبرة عدلية اكتسبها في كل من

(٣) للوقوف على (النص) راجع (الملحق) [المؤلف]

(٤) شغل منصب وكيل القنصل البريطاني العام في (بوشهر) خلال سنة ١٩١٤ كلها والاشهر الاولى من سنة ١٩١٥ [المؤلف]

الهند والبحرين ، وكان اتقانه اللغة العربية خارقا •

وبدأت المحاكم باداء واجباتها في نيسان ، وشاع بها ذكر وطار اسمها كل مطار ، واضفى العقيد نوكس ومساعدوه على هذه المحاكم ، منذ طالعة امرها ، هيبة ووقارا • ومما اشاع في نفوس طبقات الناس كلها الطمأنينة والرضى ان المرافعات فيها ، وسائر الاجراءات ، كانت تجرى بالعربية ، لا التركية ، دواما • ومن الحقائق الفذة التي يغفل عنها الكتاب في شؤون بلاد ما بين النهرين غالبا ، ان الجهاز الاداري التركي ورثناه عن الاتراك ، كان ، حتى في طالعة امره ، وفي كثير من جوانبه ، أكثر من جهازنا عن الناس غرابة وبعدا • ان الخبرة التي اكتسبها العقيد نوكس من وراء تطبيق هذه المجموعة من القوانين التي عرفت بـ (قانون الاراضي المحتلة في العراق) مكنتنا ، خلال الشهور التي اعقبت احتلال بغداد ، من توحيد النظام العدلي كله ، وتنظيمه ، واستبدال القوانين المؤقتة ، ببطء على سبيل التدرج ، باخرى دائمة ، ولا تنس ان (الاولى) خدمتنا على أحسن وجه في السنوات الاولى • وسنزيدك عن هذا الموضوع في (الفصل القادم) تفصيلا • ونكتفي ، في الوقت نفسه ، بالقول ان النظام أصاب في عمله نجحا •

وقبل ان نكسر القول على دوائر ادارية أخرى لزاما علينا ان نذكر نتيجة أخرى من نتائج الاخذ بالقانون المذكور آنفا ، ونعني بها : استبدال المحاكم المدنية بالمحاكم العسكرية وقيام الاولى بالنظر في جميع القضايا التي لا تؤثر في سلامة القوات المسلحة البريطانية مباشرة • ان المحاكم العسكرية العرفية ليست بالجهة الصالحة لمحاكمة المدنيين ، اذ لا يمكن ان ترفع اليها الا جرائم القتل والسلب على الطرق العامة ، في حالة عدم وجود علاقة مباشرة لها بافراد القوات المسلحة ، الا بتوسيع القانون وشموله اياها وفي ضوء قصد الشارع الحق • كما ان رجالا لم يبرعوا في انتخال البينات والادلة لن يستطيعوا اصدار القرارات سريعا[٥] • وكان تصديق الحكم بالاعدام من صلاحية (القائد العام) ، وفي

---

(٥) راجع

Marshall, Lt.-Gen., Sir W. Memories of Four Fronts 1920, P. 277. [المؤلف]

بصديقه كان يستأنس برأي (الضابط السياسي الاول) • اما من حيث الواقع فلقد كانت المحاكم مستقلة ، وهذه حقيقة كانت شائعة ذائعة ومدعاة التقدير العـــام •

وكانت ولاية المحاكم المدنية ، باديء ذي بدء ، مقصورة على (سنجق البصرة) ، ولم تتسع فتشمل سنجقي العمـــارة والناصرية الا على ســـبيل التدريج ، وكان ذلك لسبب ما • فالمناطـــق العشائرية لا يمكن ان تخضـــع سريعا لسلطان القانون على الوجه السديد ، اعني القانون الذي سنّ لاهـــل المدن • لذلك أعدّ ال (مستر دوبس) نظاما يجري على عرق من (نظام جرائم الحـدود الهندي) وبموجبه خـوّل الحكام السياسيون النظر في القضايا التـي تحدث في مناطقهم ، على أساس العرف العشائري ، كما اعطيت لهم السلطة التامة للنظر في القضايا التي ليس من المصلحة حلّها عن سبيل التحكيم • ان هذا النظام لا يزال معمولا به[٦] في (بلاد ما بين النهرين) وقد اثبت انه خير معوان للضباط السياسيين فيهـا ، كما ارتاحت له العشائر ، ذلك انـه ساعدها على حل خصوماتها وفق الاعراف العريقة المحترمة ، وتحت اشراف جهة محايدة • وكان للنظام هذا دور كبير في احلال السلام في البلاد ، وقد نخس الرغبة في التحكيم عن طريق تخويل الحكام السياسيين تنفيذ القرارات الصادرة ، بمعاونة (الشبانة) أو الشرطة المحلية •

وسُرّ الشيوخ من هذا النظام ورتعوا في طمأنينة اليه مستدامة ، كما سُرّ منه الروحانيون الذين يمكن الاستفادة منهم في ظل (النظام) • وساعدنا على فهم القواعد التي يرتكن اليها العرف العشائري ، على وجه أفضل • وهـذه القواعد لم تكن لتختلف في اقليم وآخر الاّ قليلا • وعلى الرغم من ان الاختلاف في التفصيلات كثير وان هـذه الاعراف لم تكـن مرتكنة الى الشريعة الاسلامية ، بل الى شيء اقدم منها كثيرا ، على الجبلّة البشرية وعلى الاعراف البلدية ، ومنه

---

(٦) وشبيه به ، نو عما ، نافذ في السودان [المؤلف]

قلنا : وقد الغي بعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وأصبح العراقيون ، المدنيون والعشائريون خاضعين لقانون واحد [المترجم] •

ما لا يصعب ارجاعه الى شريعة حمورابي ، سنة ٢٠٠٠ ق٠م ، أو قبل ذلك ٠ وفي جريمة القتل حسب تعسّر علينا الاخذ بوجهة النظر العشائرية ، ذلك ان العشائريين يرون في دفع (الدّية) ، وقبولها ما يجهز على الثـأر ، وبعكس ذلك يشيع القلق والاضطراب ويتعكّر صفو السلم في المنطقة كلها ، وقد تذهب ، من جراء ذلك ضحايا بريئة تلفها أكفان الابدية ٠ ولضمان استتباب الامن والنظام يكفى أن تدفع (الدّية) بمعايير عادلة ٠ ولم يكن العشائريون يستسيغون السجن كرادع عن ارتكاب الجرائم الا قليلا ، كما انهم يرون في اعدام القاتل في ظروف اعتيادية هدرا لحياة صالحة ٠ وهم يذهبون الى « ان الله هو الدّيان ، اما الامن العام فهو من امرنا ، « وقد قمنا بما يترتب علينا ٠ » :

وقد يجمع الله (النقيضين) بعدما يضنان كل الظن ان لا تلاقيا !

ان مناهضي عقوبة الاعدام في انكلترة ليجدون تحسسًا وتفهما لوجهة نظرهم لدى هؤلاء العشائريين السُذّج ، ممن يقدسون أشياء جمة ، ليس منها الحياة ، ويعتبرون من يغزو ، وان سبّب ، ابان قيامه به ، سفك دم محرّم ، جديرا بالاحترام والتقدير ، ومثل هذا (الغازي) في كثير من الدول الاوربية ، يحظى بالحصول على المال : عصب الحياة ، سريعا ٠

وفي الوقت الذي كان يجري فيه تنظيم الشرطة والنظام القضائي اتُخذت خطوات لمعاودة تشكيل الدوائر المالية ٠ وتحقيقا لهذه الغاية حظى سر برسي كوكس بفرصة الافادة من خدمات مستر (وقد أصبح « سر » بعد ذلك) دوبس ، وهو « من الخدمة المدنية الهندية » ، ومن منتسبي (الدائرة السياسية الهندية) أيضا ٠ لقد طوّف الرجل في بلاد ما بين النهرين وجوّل كثيرا ، كشأن طوافه وتجواله في فارس في أيام ما قبل الحرب الخوالي ٠ كما اشغل منصب (قوميسير عدلي ومالي) في الهند ومنصب (قومسير حدود على الحدود الروسية ـ الافغانية) ، وكان بسبيل اشغال منصب المقيم السياسي في (تركية العربية والقنصل العام في بغداد) ، عندما اندلعت لهب الحرب ٠ ودوبس ذو معلومات شخصية شاملة عن الشرق الأوسط ، من حلب الى طهران ، وأفغانستان ، والحدود الهندية الشمالية الغربية ، وبلوجستان ، وباستطاعته ، وسر

برسي كوكس ، ان يدليا ، بحسب الاجمال ، بالتفصيل في شؤون جميع البلدان التي قد نعني بهـــا ، حتى الى ما بعد الهدنة • فان وجدت فجوات في معلوماتهما فبالامكان ان تملأ بما عند الموظفين الصغار الذين اعيرت خدماتهم ، على كره وبعد اصرار ، وبمرور شهور ، للخدمة في بلاد ما بين النهرين •

وكان خبيرنا في شؤون (البختيارية) هو : النقيب نويل ، يساعده في ذلك المستشـــار الحصيف دكتور يونج المنسوب الى (شركة النفط الانكليزية ـ الفارسية) ، وفي شؤون كردستان بعد ذلك • وكان مستر بولارد خبيرنا في شؤون اصطنبول والاتراك بعامة ، و (سون) في شؤون الاكراد ، وبعد ذلك في شؤون دزفول وششتر • وكان عندنا رجال يعرفون بغداد معرفة تامـة • وكان لوريمر قد ارتاد مجاهل بشت كوه على وجه التمام ، كما كان ليجمن قد قام برحلات طويلة في وسط الجزيرة العربية ، كما كنا نرى في مديرى الشركات ، وربابنة السفن النهرية ، معوانا لنا على الحصول على معلومات قيمّة تتصّل بأحوال بلاد ما بين النهرين • ان هؤلاء الرجال ، وغيرهم كثير ، يؤلفّون جماعة تمتلك معلومات لا تبارى ولا تجارى ، وتحت اشراف سر برسي كوكس وتوجيهه ، استطعنا ان نجعل معلوماتهم في خدمة مقاصدنا العسكرية[7] •

وكان واجب مستر دوبس ، الذي وصل في كانون الثاني سنة ١٩١٥ ، اشق من واجب كل من (الموظف العدلي الاقدم) أو (مدير الشرطة) • ان تنظيم جباية الواردات ، وهو واجب حكومي ضروري ، بصرف النظر عـن ناحيته المالية ، اشغل ذهنه ، بادىء ذي بدء • وقد ساعده الحظ فحصل على شيء من مساعدة خبيرة من أهـل البلاد ، لكن العقبة الكؤود التي وقفت في سبيل مسعاه هي فقدان السجلات المالية في مثل الظروف المذكورة •

---

(٧) عني اكثر من واحد من هؤلاء ، طوال اشتغاله في العراق ، ابان العهد العثماني بالتجسس ، وجمـــع المعلومات التـي لها فوائـــد عسكرية وسياسية واقتصادية واتخذ له السر، والتنكر في الاحيان، حجابا ، على ما فعل أحدهم (سون) حين اتخذ صفة تاجر شيرازي وطوف في كردستان حتى يستطيع جمعها بيسر دونما اعسار • ومنهم من اشغل وظيفة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب الاليم ، كالطبابه والتبشير • ثم كان أن وضعت هذه المعلومات على طرف الثمام من أيدي من خططوا للحملة فساعدوا على انجاحها واحتلال العراق • [المترجم]

والى ادارة شؤون الواردات وجبايتها اضيفت سريعا ، تبعات دائرة الاوقاف[8] ، والطابو ، والاراضي الاميرية ، والكمارك ، والدين العثماني العـــام ، وانحصار التبغ (ريجي) ، وكان لزاما ان تختم صفة الاخير على الوجه القانوني عن طريق جمع الديون البارزة • واضيف الى هذه الاشـــراف على المؤسسات التربويـة وتنظيم دوائر البلديات وماليتها • وكان مستر دوبس يضطلع بتبعات هذه الدوائر شخصيا ، باستثناء دائرة الكمارك ، ودوائر العـــدل حتى قدوم العقيد نوكس ، ودأب على ذلك حتى يوم اعتلال صحته ونقله الى الهند في تشرين الاول ١٩١٦ وقيام مستر فلبي مقامه • وقام مستر وتكنس بتنظيم (دائرة الكمارك) ، باعتدادها دائرة مستقلة ، وكان قد وصل من الهند في آب سنة ١٩١٥ • وسأتحدث عن خدماته ودائرته ، في مكان آخر من هذا (الكتاب) •

ورحل مستر دوبس عن بلاد مابينالنهرين قبل عهد طبع التقارير الادارية، فكثير من فعاله مطمور في الاضبارات الرسمية • ومهما يكن من أمر ، فاليه مردّ الفضل في وضع اساس هذه الدوائر ، وهي آساس ركينة مكينة ، قامتعليها الدوائر التي جاءت في اعقابها • وكان ان قابل الموظفون الذين عملوا مع دوبس ، وفي امرته ، تعيينه سنة ١٩٢٣ (مندوبا ساميا وقنصلا عاما في بغداد) ، خلفا لسر برسى كوكس ، بترحاب • وكان مستر دوبس يطوّف في البلاد ويجوّل لايثنيه عن ذلك الطقس ، قرا كان أم حاراً ، وكان في حلة وترحاله ، يبعث الحمية في نفوس (الحكام السياسيين) ، ويجمع المعلومات الضرورية من دون نصب أو وناء•

---

(٨) يتراءى من سرد [المؤلف] أن الدوائر التى أقامها الاحتلال البريطاني كانت تديرها الايادي القديرة العفه ، وما كان ذلك حقا ومطلقا واليك مثلا يدل على العكس من ادعائه وقد يغنى تمثيل عن تفصيل • وكان المدعو (مستر كوك) قد عهدت اليه (دائرة الاوقاف الاسلامية) ـ فتأمل ، ثم اضيفت اليـه دائرة الآثار العراقية ، فاخذ يمارس ببيع الآثار القديمة وتهريبها ، وذات يوم انكسر أحـــد الصناديق التي كان يهرّب فيها(الآثار) هذاالبريطاني في (الرطبة) باعتداده يحوي اشياءشخصية تعود له ـ فتناثرت منه اللقط الآثارية فكانت فضيحةالموسم لذلك سارع المندوب السامي البريطاني آنذاك الى ترحيله تسترا عليها لكـن الشاعر الشعبي الملا عبود الكرخي اهتبل الفرصة ونظم قصيدة مطلعها :

لا تلقلق •• يحبســـوك   ولا تكـــول (انهزم كوك)

فتأمـل !   [المترجم]

وقبل ان يرحل عن البلد كان (الجهاز) يعمل بدقة وبانتظام ، أذ قد جمع حوله جماعة من الموظفين المساعدين ممن يعتمد عليهم في المضي بالعمل على قواعـــد رصينة . ولعل ما هو أهم من ذلك كله : انه ضمن للدوائر المختلفة التي كان يهيمن عليها ، حداً من ثقة الناس لم يستطع الاتراك بلوغه ولم يصلوا اليه . وكان نظامهم ، حقا والى ابعد حد ، لا يعدو ظلم الاكثرية الشيعية عن عمـــد وحساب (كذا:المترجم)، كما كان احتقار اليهود والنصارى من مميّزات هذا (النظام) أيضاً، (كذا:المترجم).. وتقديرا لهذه الحقيقة،واكبارا للخطوات التي اتّخذتها دائرة الواردات بصدد شمول الطائفة الشيعية بالعدل ، انعدمت ، بعد واقعة الشعيبة ، الاضطرابات الداخلية الخطيرة في كل من (سنجقي) العمارة والبصرة .

وكانت مشكلة حفظ الصحة على أشدّها ، ولم يكن هناك مشروع اسالة ماء ، ودأب الناس كلهم ، حتى سنة ١٩١٧ ، على شربه من الجداول بعد ترشيحه من جرار . وكانت القطعات العسكرية تمتح الماء من وسط النهر بصفائـــح الكروسين ، ودأبت على ذلك حتى صيف سنة ١٩١٦ . وكانت عشرات من البواخر ترسوا في منتصف النهر لترمي فيه المياه القذرة والقمامة والرماد ، كما كانت تتكدس ، لشهور خلت ، جثث الحيوانات النافقة ، نتيجة للامراض ، ولم يكن حرق هذه الجثث بشيء عملي . فالوقود كان يستورد من الهند ، كما لم يكن في الامكان دفنها ، ذلك ان كل ياردة مربعة في نجوة من الارض بمنجاة من ماء الفيضان ، كانت لازمة . ومضى وقت حتى توصلنا الى حـلّ ، ولا حل الاّ : انشاء المحرقات . وكان ضيق رقعة الارض بسبب انسياب المياه ذا نتيجة اخرى . فقـــد لجأنا في شراء حاجتنا مـن اللحم الى المصادر البلديـــة وجرى لذلـك شراء الاغنام والماشية بكميات هائلة . وجاءت هذه من الفرات في الاغلب الاعم . ولم تكن فيما مضى قد علفت بالحبوب ابدا . وما اصابه مرض منها او لم ينفق ، كان ذا لحم غير ذي «جدوى»[٩] .

وبذلت كل محاولة ممكنة في سبيل تحسين عربات نقل الماء وجنائبه بغية تزويد السكان بماء افضل ، وكان ذلك احسانا ربط جيش الاحتلال بقلوب الناس

(٩) راجـع : Blenkinsop, p. 297 [المؤلف]

عامة (ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا) • وبعد اندلاع الحرب لم يقم الاتراك بأي شيء يفضي الى استعادة ولاء الشيعة المزعزع • وما ان تراءى لهم ان الجهاد قد باء بالفشل (كذا : المترجم) الا اخذوا يضطهدون العرب، ويصادرون مالهم ، وكل نفيس لديهم ، وقوتهم ، ولم يسلم حتى اهل العلم في كربلاء والنجف من فرض الغرامة • وحاولوا ان يسوقوا كل الذكور الذين تتراوح اعمارهم بين ال ٢٦ وال ٦٠ الى الخدمة العسكرية ، وبضمنهم يهود بغداد ونصاراها ممن كانوا يقدمون البدل عن هذه الخدمة ، حتى هذا الوقت • وما ان ذر قرن الفتن بعد معركة الشعيبة الا ارسل الاتراك القوات العسكرية لقمعها واعادة الامور الى مجاريها ، وكان ان وجهت فوهات المدافع في سبيل ذلك ، الى الجماهير ، وخربت العتبات المقدسة في النجف سواء كان ذلك عن عمد أم عن غير عمد ، واستطاع الجمهور الغاضب ، بعد أيام ثلاثة من الاقتتال ان تكون له اليد العليا ، فقام بحرق بنايات الحكومة الرئيسة وجرد الحامية التركية من سلاحها دون تسافك دماء ، ونهب المدينة وسلبها • واعقبت وثبة النجف وثبات أقل شأنا منها في كربلاء ، والكوفة ، والحلة ، والهندية (طويريج) فاضطر الاتراك الى سحب موظفيهم وحامياتهم (١٠) • وبدأت الوثبة في كربلاء بهجوم شنه (بنو حسن) عليها ، واحرقوا (السراي) ونهبوه ، فقامت اسرة (آل كمونة) بقيادة الجماهير والسيطرة على المدينة وطرد الحكومة التركية منها •

ولم يقمع الاتراك الثورة ، لكنها لم تسفر عن نتيجة • ولم يكن لدى العرب قادة أو نظام • وكانت ، بينهم وبين قواتنا في ولاية البصرة ، مجموعة من القبائل التي تكون عقبة كؤوداً ، وخاضعة للنفوذ التركي • لقد كان الاتراك ، منذ طالعة أمرهم ، ينظرون الى العرب بازدراء (كذا : المترجم) ، مجتمعين أم على انفراد ، ويتعالون على الشعوب التي ليست من أصل تركي • وكان العرب ينكرون على حكامهم ما يقترفون من الجرائم والآثام ، ولكن بأقل مما كنا نأمل ، ومما عندنا من سبب له • وصدر منشور الى العالم الاسلامي وقعه مثنا وجيه

(١٠) راجع Debates H.C. 21.9.15 [المؤلف]

كربلائي وايدته العلماء ، وفيه احتجاج بازاء القصف والمذبحة[11] ، وعلى الرغم من ان الحقائق الواردة فيه قاطعة ، فانها لم تثر من اهتمام البلدان الاسلاميه الا قليلا . وبعد اشهر قليلة عاد الاتراك الى حكم المدينة ، وان لم يكن حكمهم هذه المرة ايدا قويا .

وشرع في اصدار جريدة يومية انكليزية موسومة ب (بصرة تايمس) ، واول عدد منها صدر بتأريخ ٢٩ تشرين الثاني ١٩١٤ ، واخضعت للرقابة العسكرية ، وكان اول محرريها : مستر براسن . وبعد نحو ١٨ شهرا تولتها (الادارة المدنية) ، وأصبحت نشرة حكومية حتى سنة ١٩٢١ حين خضعت لادارة تجارية . وصدرت طبعة عربية للجريدة المذكورة في أوائل سنة ١٩١٥ كما صدرت طبعة فارسية لها سنة ١٩١٦ . وبعد احتلال بغداد بقليل ، صدرت (بغداد تايمس) واضطلعت بتبعتها (الادارة المدنية) أيضا ، وكان صدورها باللغتين : الانكليزية والعربية . وعنيت بهذين المشروعين عناية شخصية كبيره وشجعت المحررين على الافصاح عما لديهم من خلق وابداع ومبادأة من دون الرجوع الكثير الى الرؤساء او الرقابة . ان ثقتي بسدادهم لم تكن في محلها دوما ، لكنني شعرت ان قليلا من خطل الرأى هو « الاجر القليل » الذي يجب ان يدفع للحفاظ على مبدأ حرية الصحافة ، الذين نأخذ به . وعلى الرغم من وجود الرقابة فان (بغداد تايمس) و (بصرة تايمس) كانتا رابطة بوطننا . لقد كانتا تدونان ماجريات الامور بالدقة التي عرفت بها الصحف اليومية اللندنية ، ومن ذلك الانتصارات البريطانية والانحدارات التي شهدتها ميادين الحرب كلها . وفي الغالب كانت تتعسر تلبية الطلبات الضخمة عليهما ، وكان عشرات من الناس يقرأون كل صحيفة منهما لهفين مشوقين . كما كان كثير من الشعر والمقالات المنشورة في اعدادها الاولى ذا طابع ادبي ، وهو لا يعدم المتعة حتى في يوم الناس هذا .

وممن يجدر ذكره من محررى (بصرة تايمس) الذين تتابعوا على العمل

---

(١١) راجع Debates H.C. 12.10.16 [المؤلف]

فيها : مستر سون (وسنزيدك ، فيما بعد ، عنـه تفصيلا) والسيدة لوريمر ، زوج المقدم لوريمر الذي كان يحكم العمارة حينا من الدهر[١٢] • ولم تشهد الجريدة عهدا فيه الجودة مقرونة بقلة الرقابة كعهد السيدة المذكورة ، كما لم تشهد عهدا يفوق ، من وجهة الاشراف على الترجمة الى العربية ، مثل عهدها أيضا • انها ، والانسة غرترود بيل ، من المفاخر التي كانت تفخر بها (الادارة المدينة) بقدر تعلّق الامر بعنصرها النِسْوي •

وشرع خلال سنة ١٩١٥ بتشكيل دائرة الصحة المدنية لخدمة الاهلين • وكان أول جرائحي مدني في البصرة هـو الرائد نورمن سكوت المنسوب الى مصلحة الصحة الهندية وهو من كان جرائحي دار المقيم البريطاني في بغداد مدة طويلة • ويرجع تعيينه الى يوم ال ٣٠ من كانون الاول ١٩١٤ • ان معلوماته عن البلاد ، ومعرفته لغتها ، اصبحت ذات نفع وفائدة فيما بعد • ونيط به السجن المدني ايضا ، وكانت حاله ، عند حلولنا في البصرة ، لا تقل هولا عن حال المستشفى المدني • واتسم الاثنان بكثرة الجرذان وذيوع القذارة ، وفقدان ابسط متطلّبات الحياة الكريمـة • ولن استطيع ان اصلي في يوم ما لاولئك المساجين والاسرى من دون ان تمرّ بخاطري صورة ذاك السجن ، وذلك المستشفى ، على ما رأيتهما اول مرة ، عندما تسلمناهما ، ومصير الاسرى الانكليز والهنود الذين وقعوا بأيدي الاتراك في الكوت •

ان أحوال المستشفى التركي لم تكن لتباريها الا حال جرحانا الهـائله في شتاء سنة ١٩١٥ – ١٩١٦ •

وثمة فرع ل (الادارة المدنية) لم يكن ليؤثر في حياة سكان الولاية الا قليلا ، واعني به : دائرة السيطرة على شركات العدو التجارية • فعند احتلالنا البصرة وجدنا فيها عددا من الالمان ، يعملون في شركة (ونكهاوس) ، وكان أحدهم يقوم بوظيفة (القنصل الالماني الفخري) من دون التمتّع بالامتيازات

---

(١٢) اليك قائمة باسماء المحررين على وفق تواريخ تعيينهم : برنسن ، سون ، السيدة لوريمر ، ماككولم ، ريد ، پارى ، ستيوارت ، بيس ، كول بووين، ثورنلي ، كاميرون • والاخير هو (سنة ١٩٣٠) محرر (بغداد تايمس) [المؤلف] •

القنصلية ، باعتداده قنصلا المانيا • وارسلوا الى الهند معتقلين ، وسير في أعقابهم ، على ما ذكرنا في مكان آخر من هذا (الكتاب) ، زملاؤهم الذين كانوا في (البحرين) و (بوشهر) و (الاهواز) و (المحمّرة) • وكان لزاما علينا ان نجري الترتيبات اللازمة لحجز ممتلكاتهم الشخصية وتصريفها وموجودات الشركة أيضا • وكان ان استولي على دائرتهم ، وبيوتهم ، واتخذت سكنا بمجرد وصول قواتنا ، ودفع بدل الايجار الى صاحبها ، وهو من الملاّكين • وكانت في مخازنهم كميات كبيره من البضائع ، وقد بيعت بعد ذلك ووضع ثمن بيعها في سجل (مراقب) حساب المالكين • ولقد جمع هذا كميات كبيرة من السكر والشاي والشعير مما كانت في حوزة الشركة ، وسعّرت بالاسعار الجارية فبيعت الى (دائرة التموين العسكرية) وقيد ثمن البيع في سجل (المراقب) أيضا ، وسلّم اثاث الدائرة في الشركة المذكورة الى الجهة نفسها ، وقيّد ثمنه لحساب الشركة ، واتخذ السعر الجاري أساسا في احتسابه • اما المتاع الشخصي للاشخاص المذكورين آنفا ، فقد بيع بالمزاد العلني ، ولو لم يخزن هذا بعناية لأدّى بقاؤه الى تلفه ، وصيرورته غير ذي جدوى لمالكيه • كانت في (معقل) كمية من قضبان السكة الحديد ، وعوارضها ، وهي ملك شركة (سكة حديد بغداد)[١٣] والتي كانت

---

(١٣) ان التعويضات الكبيرة التي حصلت المانية عليها من فرنسة بعد دحرها سنة ١٨٧٠ صبتّها ، بعد أقل من عشرين سنة ، في انشاء سكة حديد **امتدت في اوربة الشرقية • وفي سنة ١٨٨٨ سافر قطار الشرق السريع نحو** القسطنطينية أول مرة • ثم بدأ التفكير في أن يصل هذا الخط الى نقطة على (الخليج العربي) وقد مسحه المهندسون الالمان ، ورأوا ان الكويت أصلح نهاية للخط ، فلها موقع ممتاز كميناء (٢٥ ميلا من البحر العميق • وتحميها ، عند المدخل ، جزيرة) ، كما ان ذلك يمكنهم من مد خط بحري تقوم به شركة **(هامبرغ ـ امريكه) تكون نهايته الكويت أيضا ، ولهذه الاسباب مجتمعة ارسل** الالمان عملاءهم للاستطلاع والتجسس ، وأقاموا (الشركة) المذكورة تمهيدا لتنفيذ **هذه المشاريع التي تهدد مركز بريطانيه في (الخليج) والهند وهو من أسباب** الحرب بين انكلترة وتركية • ويجب أن لا نغفل عن أن البصرة كانت كثيرة **الاتصال بالخليج والهند ، فتهديدها أو الاستيلاء عليها يقطع الصلة • كما ان** الاتفاقات التي تمت بين السلطنة العثمانية وبين بريطانية وألمانية وفرنسة قبل =

عندها عدد من السفن النهرية وبنى صغيرة قائمة على ضفة شط العرب • ان لهذه الاملاك جميعا قيمة بنظر القوة العسكرية ، وان اريد تجنب مجادلات جمة لا نهاية لها بشأنها ، وجب اخضاعها لرقابة موحدة • ومثل هـذا ينطبق على موجودات شركة (ونكهاوس) في موانيء الخليج الفارسي والاهواز • ولقد فرضت الرقابة على موجودات شركات العدو في سائر أرجاء العراق • واشغل منصب (مراقب شركات العدو التجارية) ، منذ سنة **١٩١٧** حتى تأريخ الغائه سنة **١٩٢٠** ، من قبل (تي• كارول ويلسون) الذي صرّف شؤون منصبه بأقل ما يمكن من الصدام •

ولعل هذا هو المكان المناسب الذي نشير فيه، باختصار، الى الفاعليات التي قامت بها شركات العدو في الخليج الفارسي وبلاد ما بين النهرين • يؤكد (كاندلر) جـ١/٢٥٣ ان شركة (ونكهاوس) لم تقم الا للكيد والدس للبريطانيين ، في الدرجة الاولى ، ثم سعيا وراء تحقيق الاهداف العسكرية والاقتصادية الالمانية ، لا الغايات التجارية ، وان ممثليها كانوا من وكلاء الاستخبارات المدربين • وكانت هذه هي النظرة العسكرية الرسمية في هذا الحين عنه ، وما كان لها من اساس قويم • صحيح ان (هر هارلنك) ، الجاسوس الشاب في شركة ونكهاوس في (البحرين) ارسل معلومات دقيقة عن تكوين (القوة الاستكشافية الهندية) الى جماعته في البصرة و (بوشهر) ، وتم ذلك بواسطة احدى السفن البلدية ، بعد اربع ساعات من وصول (القوة) المذكورة • وعلى الرغم من ذلك : هل كان التاجر البريطاني يقوم بأقل من ذلك ، وهل لنا ان نفترض حقا بأن «المعلومات الدقيقة» التي حصل عليها (هارلنك) كانت في البحرين ؟ من المحتمل ان المعلومات جاءت من (بمبي) حيث كان العالم ، وزوج الجاسوس المذكور ، على علم بتـكوين (القوة) ، على التقريب ، ولسبب آخر هو ان : القوة ارسلت من دون نقليات

الحرب قسمت مناطق النفوذ في العراق الى ٣ أقسام أساسية (١) منطقة شط العرب ـ الى بريطانية (٢) منطقة الموصل الى المانية (٣) ما بين المنطقتين مشتركة بين بريطانيـة والمانية ، وعلى أساس أنّ المواصلات النهرية الى انكلترة والبريـة لألمانية • ان قيام الحرب قلب ذلك رأسا على عقب • [المترجم] •

.رية ، وهذا ما يحمل على الاعتقاد الجازم بان غايتها (البصرة) ! ان زملاء هارلنك في (بوشهر) و (الاهواز) و (المحمرة) ما كانوا يضطلعون ، على غرار اضطلاع زميلهم ، بأكثر من واجباتهم الوطنية الظاهرة ، وبما هو أقل مما يضطلع به مواطنونا في العالم كله . والحقيقة انهم ، على غرار الالمان جميعاً ، نالوا التدريب العسكري المعتاد قبل رحيلهم عن بلادهم ، وهذا هو الذي جعل لتقاريرهم قيمة ، قوامها الاصابة ودقة الملاحظة ، لكن دراسة مستأنية لسجلات الشركة الضخمة لم تسفر عن الفرض القائل بان ماكانت تقوم به هو غير التجارة. ولعل (الشركة) كانت تحصل على معاونة غير مباشرة بواسطة (شركة هامبورغ ـ أمريكة) ، وكيلتها المحلية ، وتجود بها الدولة الالمانية . انهذا الزعم لايمكن القطع به أيضا .

وكانت فعال هيأة السلك القنصلي الالماني ، في فارس وبلاد ما بين النهرين ، تختلف عمّا ذكرنا . لقد تطرّقنـا ، فيما مضى ، الى نشاط (هر وسمس) ، أما بشأن (هر ليستمان) فان تردي صحته منعه من القيام بمهمة ما متجوّلا ، على غرار ما قام به زملاؤه جميعا ، لكن الاثنين الاولين كانا ، منذ طالعة امرهما ، يثيران الفرس بازائنـا . وكان يقودهم الامير هنري روس ، وهـو سليل بيت الماني عريق نابه جدا . وهم ليسوا بمتعنتين جامدين ، في اصطناع الطرائـق او اختيار الوكلاء الذين يستخدمونهم في التجسس ، كما انهم لم يكونوا يفرّقون بين القوات البريطانية العسكرية ورجال السلك القنصلي والتجار . واستفزّ (وسمس) ، الذي كان يطلق على نفسه اسم القنصل الالماني العام في شيراز ، القبائل لغزو (بوشهر) ، وأصاب في ذلك نجحا . ولو قدّر لجهود (ليستمان) ان تنجح ، لأسفرت عن مذبحة عامة ، ضحاياها الرعايا البريطانيون . وعيّن زميلهما المسمّى (هر بكن) الموجود في اصفهان قنصلا عاما لمقاصد الحرب ، ولم يخب في مسعاه ، لكن أساليبه كانت واهنة ، لو قيست بأساليب أصحابه من امثال : (سيلر) و (وزوكماير) و (كرايسنغر) ، في كرمان ، وغيرهم من جواسيس الحرب الالمان في الارجاء الاخرى من ايران . لقد كان هدفهم الصريح

الاجهاز على النفوذين البريطاني والروسي في فارس ، وعلى حين كانوا يستفزون كل واحد ولا يتورعون عن القتل ، كانت لديهم عصابات مأجورة تقترف ذلك خاصة . ومن الغريب ، الى حد ما ، ان الشخص الوحيد الذي ودّع الحياة هذه ، وكان من غير رجال الحرب ، هو نائب القنصل في شيراز المدعو غلام علي خان ، انه من اسرة النوّاب ، وكان قد جرح جرحا مميتا يوم السابع من ايلول . وقتل في اليوم الاول من ايلول مدير المصرف الروسي في اصفهان كما جرح مستر جورج كرهام القنصل البريطاني العام ، وقتل احد حراسه ، وهو خيّال هندي[١٤] . وفي اليـوم الـ ١٢ من تمـوز هاجمت قبيلة التانجستاني مفرزتنا المرابطة في بوشهر ، وفي آب اتخذت بحقهم الاجراءات اللازمة ، فهوجم مفرهم العام في (ديلوار) الكائن على بعد عشرين ميلا من بوشهر ، على الساحل نزلا . وكانت الحملة التي جرّدت عليهم مؤلفة من نقيب البحر ـ وقد أصبح برتبة لواء ما بعد ذلك ـ الـ (سر دي . سنت أ. ويك) المنسوب الى الباخرة (جونو) والمقدّم وينتل ، المنسوب الى (وحدة المشاة : بيرار/٩٦) . ولوحقت سـفن التانجستانيين التي تساحل ارض المنطقة ، وجرى القضاء عليها . وذهبت الباخرتان الحربيتان (بيرامس) و (دلهوسي) الى (البدعه) واجبرت الحامية التركية المرابطة في حصن (دُها) على اخلائه ، وتسليم ما فيه من اسلحة وعتاد الى شيخ قطر . وهاجمت قبيلة التانجستاني في ايلول قواتنا المرابطة في بوشهر ، وكانت بامرة الجنرال بروكنك وقد عززّت بنجدات . لقد اظهـر افراد القبيلة المذكور ، خلال الهجوم ، شجاعة وصمودا ، ولم تذهب ريحهم ويتفرّقوا ، شذر مذر ، الاّ بعد اعمال الحراب في جسومهم . وفي هذه المشاغلة ابدت مفرزات بحارة البواخر الحربية (جونو) و (بيراموس) و (مورنس) ، وبعضهم مقاتلة آخرون ، من الفعال ما يستحق التنويه .

والقي القبض ، يوم العاشر من تشرين الاول ، على قنصلنا في شيراز المقدّم (وقد اصبح سر بعد ذلك) فردريك اوكنور واحتجز مع سائر ابناء الناقلـة

---

(١٤) راجع : Debates H.C. 16.9.25 ولقـي مسـتر كريهـام حتفه في تشرين الاول ١٩٢٢ . [المؤلف]

البريطانية في (اهرام) كرهينة لقاء عودة الاسرى الفرس والبريطانيين الذين اسروا على أرض فارس ، وتلك مقابلة بالمثل مشروعة • وقد اصابت الى حد ما نجحا ، وتمّ اطلاق سراحهم في آب سنة ١٩١٦ استبدالا ببعض الفرس الذين نفوا في اوائل السنة المذكورة • وكان احد الاسرى ويدعى مستر باتنكرو ، المنسوب الى دائرة البرق الاوربي ـ الهندي ، قد رحل عن الدنيا في (اهرام) ، بسبب مرض القلب يوم الـ ٢٧ من نيسان ١٩١٦ • واعتدّ كل من (القائد العام) و (الضابط السياسي الاول في بلاد ما بين النهرين) هذه الاساليب ، منذ طلائعة امرها ، افصاحاً منطقياً عن سياسة المانيا العسكرية ، واكتفيا بمقابلتها بالروح نفسها • وعندما هرب وسمس ، في الظروف التي ذكرت قبلا ، عرض النقيب نويل جائزة على من يدلّ عليه ، أو يأتي به حيا أو ميتا • وما أن تناهى ذلك الى حكومة الهند الا اعربت في لغة قاطعة عن استنكارها له ، وطلبت الينا الغاء العرض ، ومحوه من السجل الرسمي[١٥] • وبمرور الشهور ، وبصيرورة الدسائس الالمانية خطرا شاملا ايران كلها[١٦] ، اخذت الحكومة الهندية تنظر الى الامور نظرة مختلفة ، لذلك خوّلتنا « ان نهجم على الالمان ونجهز عليهم اينما وجدوا » اخيرا • « ان فاعليات الالمان المعقّدة في ايران ، وسرد تأريخها ليس من شأن هذا (الكتاب) ، وان ذكرنا للوقائع السابقة كان بقصد تبيان البطء الذي

---

(١٥) راجع أيضا : Marshall, p. 269 [المؤلف]

(١٦) نشاط ألمانية في هذه الارجاء ، على ما يمثله نشاط عملائها المذكورين، يفسره ما ورد على لسان وانكنهايم ، السفير الالماني في اصطنبول ، عهد ذاك ، ونقله عن لسانه السفير الامريكي : موركنتو ، قال :

« اختطت ألمانية اثارة « جهاد اسلامي حق ، لتحطيم النفوذين الانكليزي والفرنسي في العالم » ، ثم يمضي فيقول : «ليست تركية على حظ من خطر ، فجيشها صغير ولا نأمل ان يقوم بشيء كبير • ستبقى على وضع الدفاع ، لكن الشيء المهم هو (العالم الاسلامي) نستطيع ان نثيره بازاء الانكليز والروس فنحملهم على طلب السلم » •

قلنا : ان حركة الرابطة الاسلامية نشطت بعد أن زار قيصر ألمانية دمشق وأعلن نفسه (حامي الاسلام) ـ كذا •

[المترجم]

اتسم به كبار موظفي الحكومة الهندية في ادراك طبيعة الصراع الذي كنا في دوامته ادراكا سليما •

ليس من الضروري ان نشير الى فروع (الادارة المدنية) الجنين الاخرى ، التي انشأناها في هذه المرحلة عينها • فالتعليم يجب ان يؤجل لحين ادراك اهدافنا العسكرية ، اضطرارا ولم تتسع الحال للافادة من خدماتنا البريدية والبرقية الهندية التي ختم عليها ب "I.E.F. "D أي (القوة الاستكشافية الهندية ـ د) وصدرت لغايات بريدية ، بعد أشهر قليلة من وصولنا[١٧] • وفي هذه (الجهات) وفي غيرها ، قام على خدمتنا الخدمة الحسنة موظفون خبراء جيء بهم من الهند ، اخص بالذكر منهم النقيب كليريسي المنسوب الى (مصلحة البريد الهندية) ، ومستر كمبلي المنسوب الى (مصلحة البرق الهندية) • وكانت البرقيات تعتمد على دائرة خطوط البرق الهندية الاوربية الممتدة من الفاو الى بوشهر ، ومنها ، (هنجام) و (جاسك) ، الى (كراجي) ، مع فروع تصل بندر عباس ومسقط • كانت لمستخدمي هذه المصلحة ، وقد نضب عددهم بسبب من متطلبات الحرب ، اعمال ضخمة تزيد كثيرا على قابلية الدائرة الاصلية • لقد كان هؤلاء المستخدمون محرومين من الاتصال المحفز مع حقائق العالم ووقائعه ، وما فيه من مبهجات شتى ، غير قادرين ، بسبب من عزلتهم ، على الاسهام في الزخم الوطني الذي اجتاح الطبقات البريطانية في خارج انكلترة فبعث ، حتى في الهند ، حماسا قويا ، وان كان ، في الاحيان ، غير متجه الوجهة السليمة • ومع ذلك دأب هؤلاء المستخدمون على أداء واجبهم دونما كلل أو ملل ، وبروح من التضحية ونكران الذات مما يستحق التنويه حتى في مثل هذا الوقت البعيد عن تلكم الايام • لم تخدم الانبراطورية ، في احرج ساعاتها ، وعلى أفضل وجه ، كمثل ما خدمت به في الخليج الفارسي (العربي : المترجم) •

وأخيرا لا معدى عن اشارة الى الدور المشرف الذي لعبته (البعثة التبشيرية

---

(١٧) ان التفصيلات المتعلقة باصدار الطوابع المحلية المتتابعة يمكن الوقوف عليه بمراجعة (الملحق الرابع من هذا الكتاب) : [المؤلف]

البرسبيتيريه) الامريكية في البصرة التي كان رأسها دكتور بينيت والاب فان ايس ، والاخير مواطن اميريكي كسب خلال ثوائه في البصرة والخليج الفارسي ، وقد استطال خمس عشرة سنة ، احترام كل الطبقات فيهما • وكان للارسالية[١٨] في البصرة مدرسة ابتدائية وأخرى ثانوية ، على أفضل مستوى ، وقد استمرت التدريسات فيهما خلال الحرب • كما كان عندها مستشفى (لانسنك) التذكاري الصغير وقد جعل في خدمة جرحى الحرب والعناية بهم ، منذ بدء الحملة • لقد كانت هذه الوحدة الطبية القديرة الوحيدة التي يستطيع الاتراك الاعتماد عليها قبل تسليم البصرة ، ودأبت على العمل ، تحت اشراف الهلال الاحمر ، لحين احتلال القوات البريطانية المدينة ، بامرة الجنرال باريت • وكان مستر فان ايس يعرف اهل المدينة على اختلاف طبقاتهم ، لا يفوته في ذلك أي فرد من أفراد الطائفة التجارية فيها ، كما كانت المشورة التي اسداها في شؤون التعليم ، بوجهتيه البلدية (المحلية) والعامة، على حظ كبير من الفائدة • وعلى حين كانت جنسيته ومهنته تتطلبان منه الوقوف موقف الحياد من الصراع الدائر ، لكنه ، وزوجه ، واعضاء الارسالية ، لعبوا دورا مشرفا ابان الحملة ، وقبلها ، وفيما بعدها • واصيب في شهر كانون الثاني ١٩١٦ جميع العاملين في (مستشفى لانسنك التذكاري) ، المذكور آنفا ، بالتيفوس وقد جاءت عدواه من الاسرى الاتراك الذين ارسلوا اليهم من السلطات الطبية باعتدادهم « يشكون من حميات » • وماتت السيدة بينيت من هذا المرض وهي تقوم على تمريض زوجها ، وقد نجا هو من الموت باعجوبة • ومات من بين ٥٩ أسيرا تركيا مصابا بالتيفوس : ١٢ • ويهمل (التأريخ الصحي الرسمي) ذكر الخدمات التي اسداها المستشفى المذكور وما شهد من حوادث تبعث على الاسى • وقام مستر فان ايس بتنظيم صفوف يختلف اليها الجنود ويتعلّمون العربية فيها ، وقد أصبحت هذه الصفوف على كل لسان ، واصابت نجحا عظيما • وقام بعد ذلك بتأليف مرشدين اولهما : (لغة الكلام في بلاد ما بين النهرين ــ ١٩١٧) والثاني (مساعد عملي في تعلم لغة الكتابة ــ

---

(١٨)للاطلاع على أمر هذه (الارسالية) وغيرها •
راجع : Mason and Barny [المؤلف]

١٩٢٠) ، وقد طُبعا ل (ادارة مناطق العراق التي تحت هيمنة بريطانية) من قبل (مطبعة جامعة اوكسفورد) • ان الكتابين ، وأولهما ، على وجـه اخص ، قـد اصبح الكتاب المقررّ ل (الامتحان المسلكي الميداني) في الدربية ، ثبتت قيمتهما العظيمة ، وما زالا افضل (المراشد) الى تعليم العربية •

وفي ختام السنة كان الموظفون المسجلون في السجل الرسمي للادارة المدنية •• فيما خلا سر برسي كوكس ، وانا ، هم : (باريت ، بولارد ، ديكسن ، دوبس ادموندس ، فول ، كريكس ، المقدم نوكس ، ليجمن ، مكفيرسن ، مكنزي ، فيلبي ، سكوت ، سون ، وتكنس ، وكان الجميع ، باستثناء وتكنس ، يتكلّمون العربية بطلاقة ، وقد طوّفوا في البلدان التي تتكلم العربية •



الفصل السادس
الزحف الاول على بغداد ١٩١٥

« لتكن لدينا ، اليد العليا ، فان كانت ، سهل أن تبقى لنا ، وسنصيب ، على القطع ، نجحا • ولكن ، لو بدأنا حربا دفاعية طويلة ••• ولم نهاجم ببراءة ، لنزلت علينا النازلة الكبرى » •

الدوق ويلنكتون ١٧ آب ١٨٠٣

باحتلال الناصرية استطاع (الجنرال نيكسون) ان يحقّق الاهداف التي وضعتها ، **نصب عينيه ، حكومة الهند اصلا ، اي : احتلال ولايـــة البصرة** كلها ، وضمان سلامة حقول النفط الفارسية ، وأنابيبها ومصافيها • ولم تكن **سيطرته على هذه المنطقة ، من الوجهة الادارية حقّة ، ذلك ان قبيلة (بني لام) التي** يتزعمها الشيخ غضبان[1] والتي تحلّ على دجلة ، ما زالت تناوشنا وتناصبنا العداء ، كما ان سلطان (آمر قـــوات الناصرية) لم يتعدّ حدود المدينـة ، وما يجاورها من الامكنة الواقعة على شواطىء الانهر ، بجوارها المباشر • ولم تكن رغبة الحكومة الهندية في ان يكون الـ (جنرال سر جون نيكسون) مهيمنا على ولاية البصرة ، على ماكان يتجلّى واضحا ، وهي نابعة من اعتبارات سوقية صرفة • **لقد كان الـ (جنرال) يرى ، ولم يكن ذلك سرا او يخفى ، وتشاطره الرأي هذا : «هيأة الاركان العامة في الهند » ، ان الغاية القصوى هي : بغداد ،** فانها المسعى • وفي الـ ٢٤ من حزيران حبّذ احتلال الكوت « التي لم تكن لتبعد عن

---

(١) ما أن أخذ الاتراك بالانسحاب من منطقة العمارة الى الكوت الا انقلبت عليهم هذه القبيلة وزعيمها ، وكان أن غنم هذا (الزعيم) من الاتراك مدفعين فقدمهما الى الانكليز هدية ووعدهم بالعون ، لكنه عاد ، بعد ذلك ، يمالىء الاتراك ، كـرة اخـرى • (المترجم)

حدود ولاية البصرة بأكثر من أربعة أميال » ، وذلك للسبب المبين آنفا ، ولسبب آخر لا يرتكن الى قرار مكين ، واعني به : ان احتلال الكوت يمنع تهديـــد الاتراك لقواتنا المرابطة على الفرات • من العسير ان يدرك المرء لِمَ كان الجنرال يذهب هذا المذهب ؟ على ان المعلومات المتوفرّة لديه عن أراضي المنطقة كانت ناقصة • وعلم ان القطعات التركية والمؤن قد وصلت الناصرية ، لا عن طريق (شط الحي) أو شط الغرّاف ، على ما يسمى عموما ، والشطرة حسب ، وانما بطريق النهر ، وعلى ظهور (الشخاتير) ـ وهي قوارب مستطيلة الشكل يحمل الواحد منها نحو عشرين جنديا • هذا في الوقت الذي لم يسمع احد فيه بان باخرة استطاعت ان تمخر من الكوت الى الناصرية ، ونيكسون يعرف جيدا ان شط الغرّاف يكون جافا خلال ستة شهور في السنة[٢] •

وكانت وفاة الراحل مستر لوريمر ، المنسوب الى الخدمة المدنية الهندية ، اثر حادثة مفجعة وقعت في بوشهر في شهر شباط ١٩١٤ ، سببا في ان تفقـد الحكومة الهندية أحد موظفيها اللامعين جدا • انه الرجل الذي قام بتحري طبيعة شط الغراف وحالاته الراهنة ، وكانت نتيجة دراسته الشخصية التي قام بها خلال السنوات : ١٩٠٢ ـ ١٩١٦ مثبتّة في كتابه العريق : (معجم الخليج الفارسي Gazetter of the Persian Gulf ـ١٩٠٨) • لم يكن فيما كتبه ، ولا في المقاله التي نشرها (كادو) في (المجلة الجغرافية) الصادرة في ايلول سنة ١٩٠٦ ، اية فائدة عملية تتّصل بهذا النهر ، من الوجهة العسكرية ، ولقد اسفرت تحريات الجنرال (كورنج) القصيرة عن ان الآراء التي كانت تدور في دماغ « هيأه الاركان » حول هذا الموضوع ، كانت خاطئة • فلو تقدّمنا نحو الكوت لامتطالت خطوط مواصلاتنا وأصبحت ضعف طولها الحالي ، ولم تكن لدينا وسائط نقل نهرية اضافية في ذلك الوقت ، كما لم يكن قد طلب منها شيء أيضا • والظاهر

(٢) يعتقد انه عقبقة دجلة القديمة ، وقد تم احياؤه ب (مشروع ســدة الكوت) (وناظم الغراف) الذي يقع شمالها • ويمر الغراف ، أو شط الحــي وماؤه لا ينقطع اليوم ، بالحى وقلعة سكر والشطرة، وشيدت، قرب الشطرة، سدة عند صدر البدعة تحول دون تسرب ميــاه النهر الى الاهوار ليستفاد منهــا في الارواء • [المترجم]

ان مثل هذه الاعتبارات لم تكن موضع اهتمام الجنرال نيكسون[٣] وصادفت آراؤه هوى في قيادة الجيش العامة في الهند • ولكن رأت (القيادة) المذكورة انه لا يوجد في الهند من القوات ما يمكن أن تعزز به قطعاته ، لذلك في الامكان ارسال لواء من عدن على سبيل الاعارة لاشهر قليلة • ولم يكن (وزير الدولة لشؤون الهند) ليميل الى مثل هذا المشروع ، ورفض ان تعير عدن (لواءها) واصرّ على وجوب اتخاذ الحذر والحيطة ، واكدّ على ضرورة حماية حقول النفط ، واقترح ان تهيأ القوات اللازمة عن طريق اخلاء الناصرية حينا من الدهر ـ : وهذه كلها لا تتفق والرغبة التي افصحت عنها حكومة الهند في وجوب السيطرة على الولاية كلها (سياسة) • وعن هذه النصائح اجاب الـ (جنرال نيكسون) برفض اخلاء الناصرية لاسباب وجيهة ، لكن الامور التي جاءت ، في أعقاب ذلك ، اثبتت ان احتلالها لم يكن عملا مصيبا • لقد اقترح الأخذ بسياسة المنح للقبائل القاطنة في جنوبي ـ غربي ايران بغية الحفاظ على حقول النفط هناك ، فسحب القطعات من الاهواز ، كما ذهب الى ان الزحف على بغداد هو خير علاج للاضطراب والقلق السائدين اليوم في ايران ، وفي قابل الايام أيضا • وعند ذلك تخلت (وزارة الهند) عما كانت تراه في مساجلة غير متكافئة ووافقت على الزحف المقترح نحو الكوت • وسبق ان طلبت محطة لاسلكي لعبادان ، وفي الـ ١٩ من ايلول ارسلت هذه الى حقول النفط فيها ، ونصبت • وعلى كل حال لم تدفع المنح لقبيلة (باوي) ابدا ، ذلك ان سر برسي كوكس الذي لم يُستَشر في أمرها مسبقا رأى ان في منحها اضعافا لمركز (شيخ المحمّرة) من جهة ، ومن الجهة الاخرى انها لا تخدم قصدا مفيدا ، ما دام خطر الاتراك قد ذهب هباءاً • ومن الجلي الواضح ان كلا من (وايت هول) و (سملا) كانتا تنظران الى مهمة قواتنا في بلاد ما بين النهرين من

---

(٣) **رأى نيكسون أن احتلال الكوت يجعل الموقف العسكري البريطاني في العراق رضيا ويحرم الاتراك من اتخاذها نقطة انطلاق لضرب القوات البريطانية في جناحي العمارة والناصرية ، و (القاعدة)** : القلب ـ البصرة • كما رأى ان **احتلال الكوت يحول دون أن تصبح قواته في هذه المواقع منعزلة عن بعضها بعضا.**

[المترجم]

زاويتين مختلفتين • فلقد كانت الاولى ترى ان هذه المهمة تنصّب على حماية حقول النفط واتخاذ سياسة سلبية في ميدان قتال يعتد في المرتبة الثانية ، وقد يبقى على هذا زمنا ما • اما (مقر الجيش في الهند) فقد كان يرى ان (الحملة) هجوم رئيس هدفه : بغداد ، شريطة ان تعدّ له الفرقة الاضافية اللازمة •

لقد درس أمر بغداد ، بعد احتلالها ، وما الذي تفعله بشأنها الامبراطورية البريطانية أو الهندية ، على التحقيق • ولكن لم نتبيّن ، ونحن في بلاد الرافدين ، ومضات من التفكير الرسمي ، كما ان (المؤرّخ الرسمي) يلتزم جانب الصمت التام بصدد هذه النقطة • وكتب (نائب الملك في الهند) يقول : لن يتمّ شيء من دون محادثات تامة تجرى مع حلفائنا ، ومع العرب أيضا • وكان سر برسي كوكس يقول : لو قبلنا تعاون العرب على أساس ان حكم الاتراك قد ذهب الى غير رجعة ، فعلينا الآ نسمح بعودته أبدا • وكان موظفو (وايت هول) صامتين ، ومما لا شك فيه ان مردّ ذلك الى انهم كانوا معنيين بميادين الحرب الجبارة الاخرى كثيراً ، ينضاف الى ذلك الاستعداد الضخم للصراع الهائل الذي أثبتت سنة ١٩١٥ الحاجة اليه ، والتفكير في القضايا الفرضية المحتملة والدائرة حول الوجهات العسكرية لما كانت (وزارة الحرب) لا تزال تراه حملة وقائية ، أو في الاكثر هجوما جانبيا بازاء تركية •

وقام الاتراك ، من الجهة الثانية ، فقدّموا جميع المغريات التي تحمل (سر جون نكسون) على الزحف نحو الكوت والاستيلاء عليها ، وانهم لم يعتبروا بالحوادث التي جاءت في اعقاب انسحابهم من الاهواز حين عادوا الى التعاون مع (غضبان) ، وهو في هذا الوقت قوي وان كان مذبذبا • واستفادوا من اخلائنا الكميت اخلاءاً مؤقتا يوم الـ ٢٠ من تموز • ان هذه (البليدة) تبعد عن العمارة بمسافة ٢٨ ميلا (وقد احتلتها قواتنا مع الثالث من تموز) ، وبقيت بيد الاتراك أياما معدودات • واجبنا عن ذلك باحتلال (علي الغربي) يوم الاول من آب ، لكن الاتراك بقوا في (شيخ سعد) ممثلين بمفرزة صغيرة • وكانت عدة قواتهم في هذا الوقت : ٥٠٠٠ بندقية و ١٩ مدفعا في الكوت ، و٢٠٠٠ من الجند ، كانوا يسيرون من الناصرية ، و٢٧٠٠ جندي في بغداد •

وكان ال (جنرال طاونسند) قد أمضى شهورا في الهنـــد مجازا باجازة مرضية ، ثم عاد الى البصرة يوم ال ٢١ من آب • وفي كتابه (الفصل السادس) يورد الانطباعات التي حصل عليها في (سملا) على وجه ممتع جدا • انه ليقول : لقد دوّنت في مفكرتي ما يفيد « بأننا بسبيل الزحف على بغداد » ، لكنه لا يذكر ، في أي مكان من (كتابه) ، الاساس الذي ارتكن اليه في تلكم الانطباعات • وعلى النقيض من ذلك ، كانت (الدائرة الخارجية) تعارض الزحف ما لم تعدُ لــه القوات الكافية ، شأنها كشأن (سر بيجم دف) الذي وجده طاونسند مرهقـا بالعمل تعبا[٤] • وقال هذا ل (جنرال طاونسند) : « كل ما أريده ضابط كبير لي فيه ثقة تامة ، بقدر تعلق الامر بالولاء ، والطاعة ، والمقـــدرة ويمكن أن يتبوأ منصب (نائب القائد العام) ويضطلع بالعمل نيابة عني لدى تمتعي باجازة قصيرة• » ويضيف ال (جنرال طاونسند) الى ذلك التعليق التالي وهو يستأهل الاقتبـاس ويتحدى التعليق « لم يكن عنده من تتوافر فيه الصفات هذه ! » •

وفي ال ٢٣ من آب تلقّى ال (جنرال طاونسند) من (سر جون نكسون)[٥] تعليماته القاضية بتحطيم العدو وتفريق شمله ، واحتلال الكوت ، و « بذلك تصبح سيطرتنا على ولاية البصرة قوية رصينة » • وكانت قوته مؤلّفة من نحو ٣٠٠٠ مقاتل بريطاني و٨٠٠٠ هندي ، وعندها ٣٢ مدفعا ، وأربع طائرات بحرية وصلت

---

(٤) توفي في كانون الثاني ١٩١٨ • وكان ، في اوج حياته ، من ألمع الكتاب في الموضوعات العسكرية الذين شهدهم جيله ، لكن السنوات الاربع التي أمضاها في (وزارة الهند) • ١٩١٠-١٩١٣ أثبتت ان من عادته الترهل والهمـــود ، و (لكل امرء من دهره ما تعودا) • وعندما خلف سراو مور كريك كقائد عام لم يغادر في يوم مامركز القيادة العامة وانعدم الاتصال بينه وبين كبار القادة في الجيش • وكان ضباطه الاركان يحيطون به وكانهم في زريبة • ولم يشعر (نائب الملك في الهند) بتردي قواه الا وئيدا • (المؤلف)

(٥) معنى ذلك : ان الخطة البريطانية قد انتقلت مـن (الدفاع السوقي) الى (التعرض السوقي) وان التقدم مـن العمارة الى الكوت يعنى استطالة خط المواصلات مسافة ١٥٠ ميلا • واني أرى أن العامل المؤثر في ذلك هو (نيكسون) نفسه• فهذا الضابط الكبير عرف بالمجازفة وبأنه يأخذ برأي محصلة: ان ادراك النصر في الحرب يرتكن الى الاقدام وتحمل التبعـة ولكن الحظ لم يحالفه دومـا اذ أن اللجنة التي الفتها الحكومة البريطانية للتحقيق في هزيمة قواتها وحصـارها في الكوت اعتدته المقصر الاول في ذلك • [المترجم]

أخيرا من افريقية الشرقية حيث كانت تقوم بحركات ناجحة بازاء ال (كونكزبرك) على (نهر رفيجي) • وكانت وسائط النقل البرّية المتيسّرة لديه قليلة كل القلة ، كما لم تكن عنده عربات نقل الماء • ولا تزال درجة الحرارة على أشدّها ، ترتفع الى نحو **١٢٠** درجة في الخيام الصغيرة ، والى **١١٠** درجات في الظل ، وذلك طوال ساعات من النهار • وكان بازائه نحو **٦٠٠٠** من حملة البندقيات و **٣٨** مدفعا ، بامرة نورالدين بك[٦] ، يحلّون في موقع منفتح على دجلة ، على مسافة ثمانية أميال جنوبي الكوت • وبدأ الهجوم يوم الـ **٢٨** من ايلول ، وهي معركة السن[٧] التي أسفرت عن أسر **١٢٨٩** تركيا ، وقتل أو جرح **١٧٠٠** ، أما خسارتنا

---

(٦) بعد انتحار القائد التركي سليمان عسكري في الشعيبة نيطت قيادة القوات التركية في العراق بـ (نور الدين بك) ، والمعروف عن هذا انه على حظ كبير من الثقافة الرفيعة والخبرة الوسيعة • وقد وصل العراق وتسلم قيادته يوم الـ ١٩ من أيار سنة ١٩١٥ وشرع بتنظيم القطعات التي في امرته في (الكوت) آملا وصول مدد من تركية • [المترجم]

(٧) تفصيلا لما اوجز (المؤلف) نقول : بدأت الحركات لاحتلال الكوت بالتجمع في علي الغربي ، وخصص (لـواء) لحراسة خط المواصلات بين العمارة والكوت ، وفي علي الغربي اجتمعت الفرقة السادسة البريطانية لاول مرة ، وعين الجنرال كورنج (آمرا) لقوة خط المواصلات ومقره في العمارة ، وكان الجنرال طاونسند يقود الفرقة السادسة ، وألحقت به القوة النهرية المؤلفة من البواخر الحربية كوميت وشيطان وسمانة وغيرها • وتقدمت قوات الجنرال طاونسند من علي الغربي الى (الصناعيات) الكائنة على ضفة دجلة اليسرى ، والسفن الحربية تسير معها • وفي ١٥ ايلول وصل الصناعيات الجنرال نيكسون القائد العام واعلم طاونسند انه جاء ليشاهد الحركات دون أن يتدخل فيها شخصيا • وكان الاتراك قد ألغموا دجلة وأغرقوا فيها بعض البواخر والدوب كسد عائق كما نصبوا على النهر جسرا يضمن الارتباط بين قطعاتهم على ضفتيه ، كما نصبوا على الفرات جسرا يضمن عبور هذه القوات عند الانسحاب • وتقدم طاونسند من (الصناعيات) يوم ٢٦ ايلول نحو (النخيلات) التي تبعد عن موضع الاتراك بأربعة أميال ، وكانت خطته ترمي الى توجيه الهجوم من الجهة اليسرى لكنه أراد خداع القائد التركي فسدد الهجوم من الضفتين لكي يشطر دفاع الاتراك • واستطاع طاونسند أن يخدع القائد المذكور فبقيت قواته طوال المعركة على الضفتين • وكان أن هرب جندي هندي الى خطوط الاتراك فأخبر القائد نور الدين بك بأن طاونسند يروم الهجوم من الضفة اليسرى ، فلم يصدقه ، وظن ان في الامر خدعة • لقد كان طاونسند يعتقد ان ضربة قوية تنزل بقوات الاتراك في الجهة اليسرى تؤدي الى انسحاب قواتهم في الضفة اليمنى • وكان أن أسفرت

فكانت ١٢٢٩ قتيلا أو جريحا • وتعاون الاسطول النهري مع القوات البرية تعاونا وثيقا نفاذاً ، وعلى عادته جريـــا ، ومن فعال البسالة فيهـــا أن يعمد المقـدّم كوكسنّ ، المنسوب الى البحرية الملكيـــة ، وهو من ضبـاط الباخرة الحربية (كوميت) ، الى تحطيـــم الصادّ(٨) في النهـــر عند موقـــع السن • لقـــد دهمته نـار الرصاص ، فهوى صريعا قبـــل أن يحقّق مـــا نوى ، فـــال صليب فيكتورية على ذلك دبيراً(٩) ، لقد كان عملا بطوليا رائعـــا ، والى عنصر (المباغتة) كان مرتكنا ، ولكن لم يحالفه التوفيق على ما حالفنا في انتصاراتنا آنفا • ولو اتبعت خطط (طاونسند) بنجاح على الخطوط التي رسمها لها لأسفر ذلك عن أسر الشطر الاعظم من القوات التركية التي كانت يومذاك في بلاد ما بين النهرين ، ان لم يكن كلها ، ولدخلنا بغـــداد من دون أن نلقى مقـــاومة اخرى • وكان الـ (جنرال نيكسون) لد (جنرال طاونسند) ، طوال المعركة مصاحبا ، ولعله كان لمثل هذا الزحف مخوّلا ، وهو ، على ما رأينا سابقا ، أمر لم يفارق عقله ، أو عقل الـ (جنرال طاونسند) ، أبدا • ذلك على الرغم من ان فقدان وسائط النقل البرية والمائية يجعل الاحتفاظ ببغداد ، بعد دخولها ، أمراً مشكوكا • ويتراءى لذلك ، ان فشل قوة الجنرال طاونسند ، بسبب فقدان وسائط النقـــل البرية في الدرجة الاولى ، في أسر القوة التركية كلها ، كان نقطة تحول ، ولعلها في المعركة كانت حاسمة عموما • وتراءت بغـــداد جائزة ذات بريق خلاّب يبهر العيون ويأخذ بالالباب • ان دخولها ، على ما كنا نحسّ ، سيكون له الصيت المدوي ، وكأننا فتحنا القسطنطينية سواء بسواء • ان مثل هذا الدخول ، لو تمّ ، لرجّح كفتنا في فارس ، ولعل ذلك في افغانستان أيضا • ، وقد يسفر ، في مثل هذا الوقت عن امور اخرى • وقصة المعركة هذه مسرودة في (التأريخ الرسمي) تماماً ، وفي

معركة السن عن اندحار الاتراك والاستيلاء على الكوت • ثم سار الجيش البريطاني يقفو المنهزمين حتى منتصف الطريق الـى بغداد ، ويلحظ المؤرخون العسكريون ان الجنود الاتراك الذين حـاربوا في معركـة الاسـتيلاء على الكـوت كانوا من المستجدين ناقصي التدريب • (المترجم)

(٨) في الاصل Boom وهو عائق في النهر يمنع المرور [المترجم]

(٩) راجع : London Gazette, 21st Jan. 1916

كتاب ال (جنرال طاونسند) أيضا فلن نحاول تثمين القيمة النسبية لمن كان من شأنه اصدار القرارات اللازمة • فوزارة الهند كانت منـــذ أول الامر تشك في رجحان الزحف على بغداد ، وقد أصدرت أوامرها ، التي بلغت الى سر جون نيكسون ، يوم السادس من تشرين الاول ، بأن يتوقف ذلك • وكان ال (لورد) كجنر يناهض فكرة الزحف هذه ، وهو في ذلك ينظر الى الهنات المتأتية من طول خطوط مواصلاتنا ووهن شأنها[١٠] • لكن (الوزارة البريطانية) رأت في بغداد فصلة من فصائل السحر تجذبهـا ، ولا تقوى على اغرائها • انهـــا ، على غرار القدس ، تتبوأ من خريطة الحياد مقاما مرموقا • لم تنشر البرقيات الخاصة التي تلقاها (نائب الملك في الهند) من كبار موظفيه في هذا الوقت نفسه ، والظـاهر ان (لجنة ما بين النهرين) لم تطلع عليها أيضا • وثمة سبب وجيه يحمل على الاعتقاد بأنها كتبت بلهجة لم يستطع (نائب الملك في الهند) أن يتحداها ويتحمل تبعة ايقاف الزحف[١١] ••

---

(١٠) راجع : Robertson, Field Marshal, Sir. W. "From Private to Field Marshal, p. 272.

[المؤلف]

(١١) كان الوضع الذي يجب على وزير الحـــرب ورئيس اركان الجيش درسه في نهاية سنة ١٩١٥ لا يبعث على الطمأنينة والرضى • ففي تشرين الاول قررت (لجنة الحرب) ــ التي كانت تسمى آنئذ (لجنة الدردنيل) ــ بايحاء من وزارة الهند ، اصدار الامر الى الجنرال نيكسون بالزحف على بغداد مستفيدا في ذلك من القوات التي عنده ، وقد وعدوه بارسال فرقتين باسرع ما يستطاع • وخالف (كجنر) هذا القرار صراحة ، وكان ذلك عبثا • ومضى الى اكثر من ذلك فحذر (وزير الهند) من انه يرى في هذا الزحف ، دون استعدادات أخر وقوة أكبر ، شيئا محفوفا بالخطر ، ومؤكدا ان في الامكان القيام به باقل تعـــرض لذلك ، وباقل كلفة وبنفس القيمة ، بعدئذ • وكان اللورد كرزن يذهب الى مثل هذا تماما ، وقد عارض ايضا اقتراحا تقدم به اللورد كجنر مفاده القيام بغزوة على بغداد للاستحواذ على ما فيها من مواد حربية دون أن يؤدي ذلك الى الثواء فيها ثواءا عسكريا مستداما • وقامت (اللجنة) ، أثر استشارة (نائب الملك في الهند) ، برفض معارضتي هذين العضوين من اعضائها ، وكلاهما كان يعـرف الشرق قبل كل احد واحسن من كل احد » •

قبس من كتاب سر جورج آرثر الموسوم ب (حيـــاة اللورد كجنـــر : Sir George Arthur: Life of Lord Kitchner. (المؤلف) • وردت في كتاب لسراوستن جامبرلن مؤرخ بتاريخ ١١ آذار ١٩٣١ التعليقات التاليـــة ، واني

وكانت الاحوال تسير سيرا سيئا في أوربة ، فوضعنا في (غاليبولي) كان بالخطر محفوفا ، وتراءى ان الالمان سيتصلون بمن في القسطنطينية قريبا • وبغداد خير عوض عما يفقد في أي مكان آخر • وتألفت لجنة تضمّ ممثلين عن دوائر

موردها بعد استئذانه بنشرها :

« ان هذه الفقرة تضل » • فلقد سردت القصة على وجه التمام في التاريخ الرسمي للحرب لمحرره الجنرال موبرلي (الجزء الثاني ، الفصل ١٣) وفي تقرير (لجنة ما بين النهرين) •

« ان وزارة الهند لم تبعث فكرة الزحف على بغداد ، وما كانت ، على ما جاء في قول سر جورج آرثر ، بموحية لها • اذ على النقيض من ذلك ، ما ان تسلمت برقية الجنرال نيكسون التي يقول فيها انه ينوي تجميع القوات في (العزيزية) لكي يفتح الطريق الى بغداد ، الا عمد وزير الدولة ، اثر مشورة الجنرال بار والسكرتير في الدائرة العسكرية ، الى ارسال برقية تراءت انها تطلب ايقاف الجنرال نيكسون عن القيام بأي تقدم آخر ، واضافت الى ذلك ان البرقية السابقة التي طلبت اتخاذ الحذر والحيطة ديدنا في سياسة ما بين النهرين هي السياسة المقررة » •

« ان القرار النهائي بالزحف على بغداد اتخذته لجنة الحرب والوزارة وكان ذلك بعد ان تقرر تعزيز قوات الجنرال نيكسون بفرقتين ، وبناء على آراء الخبراء العسكريين جميعا ، وهذا وارد بشكل ملخص في تقرير «لجنة ما بين النهرين » :

« لقد اجمع الخبراء على هذه النقطة : ان اية محاولة للاستيلاء على بغداد واحتلالها بالقوة الموجودة ينطوي على ركوب متن خطر لا مبرر له • ولكي يستطيع الجنرال نيكسون أن يُبقي بغداد في قبضتنا فلا معدى عن تزويده بفرقتين • لقد كان هناك اجماع من قبل الخبراء على ان قوة نيكسون الحالية تكفي للاستيلاء على بغداد ابتداء » • الفقرة ٢٠

« ولم يبد اللورد كجنر أي شك في قدرة الجنرال نيكسون على فتح بغداد • لقد كان معنيا بالوضع في مصر ، يرفض ارسال النجدات التي طلبتها الوزارة ، ويرغب في ان تقتصر الحركات على غزوة للحصول على ما في بغداد من مؤن ومعدات حربية » •

« وكان اللورد كرزن يعارض هذا الرأي بقوة كشأن معارضته احتلال بغداد • هذا ومن الجهة الاخرى ، كان (كجنر) يرى ان عدم السير قدما والاستحواذ على ما يكاد يكون في قبضتنا سيحمل الاهلين على الاعتقاد باننا نشفق من ذلك كثيرا ، واننا لو تراجعنا عن مواضعنا دون المضي الى بغداد لارتكبنا عملا سيئا وكالانسحاب بعد القيام بغزوها ، سواء بسواء •

والمراسلات التي تبودلت بين لورد كجنر ووزير الدولة جاءت ملخصة في في التأريخ العسكري • وكانت زيارة لورد كجنر التالية تهدف الى حمل هذا الوزير على ارسال برقية ، رآها الاخير على طرفي نقيض والقرار الذي اتخذته

للنظر في الأمر ، لكنها لم تكن مؤلّفة من ذوي السلطات العالية ، كما انها لم تمحّص الحقائق جميعا • ولم تدرك وضع النقل في نهر دجلة ، وكان ذلك بسبب خطأ في قراءة برقية بعث بها سر جون نيكسون • وأبانت اللجنة ان احتلال بغداد خير ما يرتجى شريطة أن تضمن له النجدات اللازمة • ولم يذكر شيء عن النقليات المطلوبة سواء ما كان منها في النهر أم على البر • ووافقت وزارة الحرب على تخصيص فرقتين تسحبان من جبهة فرنسة ، وفي ال ٢٤ من تشرين الاول ، وقبل أن تبدأ الفرقتان بالشخوص الى العراق ، صدر الامر الى ال(جنرال نيكسون) بالزحف على بغداد • وفي ال ٢ من تشرين الثاني تحدث رئيس الوزراء مستر اسكويث[١٢] في مجلس العموم فقال : « ان قوات الجنرال نيكسون على مقربة من بغداد • ولست أعتقد ان الحرب شهدت في جميع ميادينها مثل هذه السلسلة من الحركات المصمّمة بعناية المنفذّة بمهارة باهرة ، وبأمل النجح النهائي المرتقب » •

وفي ال ٢١ من تشرين الاول أعلم (نائب الملك في الهند) ببرقية

الوزارة • ورفض مستر جمبرلن ان يتحمل وزر هذا شخصيا وابان ان ما يسره ان يوقف هذه التعليمات ان اثار اللورد كجنر الموضوع في اجتماع الوزارة • ورفض مستر كجنر ذلك ، فكرر وزير الدولة ما قاله سابقا : من المستحيل ان ينقض قرار اتخذته الوزارة بسبب طلب عضو واحد من اعضائها ، لكنه سيطلب اليها ان تجتمع على الفور للاستماع الى آراء اللورد كجنر • ورفض (اللورد) هذا المقترح ايضا ونبذ معاودة بحث القضية في الوزارة •

١١ آذار ١٩٣١ أ • ج [المؤلف] •

(١٢) لكنه قبل ستة أشهر من ذلك ، أي في ال ٢٥ من آذار سنة ١٩١٥ ، كتب في مذكراته :

« لقد كنت و (كرى) ننظر الى أن من مصلحة بلادنا الحقة ، في قابل ايامها ، ان نردد في نهاية الحرب بأننا لم نحصل على أي شيء ولم نخسر شيئا ، وليس هذا من وجهتي النظر الخلقية او العاطفية حصرا • ان الاستيلاء على بلاد ما بين النهرين يتطلب ارسال ملايين من الجنيهات وصبها في مشاريع الري والاعمار دون ان نحصل من جراء ذلك على شيء مباشر سريع ، يضاف الى ذلك ابقاء جيش لجب في بلاد غريبة ومعالجة كل مشكلة ادارية معقدة فيها وقد تكون اسوأ من أية مشكلة جابهتنا في الهند ، ومداورة القبائل العربية ، ولو فرغنا من هذه كلها لبقي الخطر الكامن الدائب على جناحنا في كردستان » •

انظر Memories & Reflections 1928, Vol. II, 69. (المؤلف) •

« خاصة »(١٣) ان من المحتمل أن يقف ٦٠٠٠٠ مقاتل تركي بوجهنا في بلاد ما بين النهرين في شهر كانون الثاني ١٩١٦ • ان مثل هذا الامر المرتقب لم تبلغه وزارة الحرب ، على كل حال ، الى رئيس أركان الجيش في الهند ، الذي كان يعتمد ، واعتماده في محله ، على وزارة الحرب ، بقدر تعلّق الامر بتقدير الموقف الحربي• ولو بلّغ ذلـــك الى الجنرال نيكسون لعمد الى تكييف خططه ، فهو يشكو من نقص في وسائط النقل من كل نوع ، ويعلم ان الاتراك سيظهرون في الميدان قبلنا على القطع • وأنحى باللوم على (وزارة الهند) لارسالها الخبر « شخصيا » الى (نائب الملك) ، وباللائمة على الاخير أيضا لانه لم يخبر ال (جنرال نيكسون) به • وليس من شأننا النظر في مثـــل هذه الملامة ، ان ادارة الحرب من شـــأن (وزارة الحرب) وان من واجب هذه الوزارة المقرر ابلاغ أية معلومات تراها وثيقة موثوقة الى الهند لارشاد سر جـون نيكسون فيما يسعى اليه • وقبل أيام قليلة من معركة المدائن (طاق كسرى) أرسلت (وزارة الحرب) برقية تقول فيها ان ٣٠٠٠٠ من المقاتلة غادر (بتليس) وان فون درغولج في طريقـــه الى بغداد(١٤) •

ومهما كانت الحال ، لم يصدق ال (جنرال نيكسون) الخبر ، وفي الحق ، لم يؤبه بالعوامل السوقية ، وانما جعل للاعتبارات السياسية الناجمة عن الوضع في أوربّة المقام الاعلى • ولم يخامر نفوس القطعات المهاجمة شك ، وكانت الثقة

(١٣) ترتكن هذه البرقيات الى معلومات جاء بها (ســـون E.B. Soane) الى وزارة الهند ، وقد حصل عليها ابان سفره من مسينة الى بغداد وكان خـلال سفره ذا بصيرة واعية ونظرة فاحصة (والشاهد يرى ما لا يراه الغائب) (المؤلف) •

(١٤) مات في بغداد في حزيران سنة ١٩١٦ ودفن على ضفة النهر خارج الباب الجنوبي لمدينة بغداد ونقلت رفاته بعد الحرب الى المانية • (المؤلف) •

قلنا : ويريد بالباب الجنوبي الباب الذي كان قائما على مقربة من تمثـال المرحوم عبدالمحسن السعدون وساحة الحرية ، وكان يدعى الباب الشرقي ، وهو في خطط بغداد القديمة (باب كلواذا) • وقد تولى المارشال فون درغولج قيـادة الجيش التركي بعد استسلام الكوت وكان يفيض نشاطا واتخذ سامرا مقـــرا له • وكان في امرته الفيلقان الثالث عشر (وآمره على احسان باشا) والثـــامن عشر وآمره (قره بكر بك) وبعد موته تولى القيادة العامة للقوات التركية في العراق خليل باشا • (المترجم)

بين الوحدات البريطانية والوحدات الهندية متبادلة تماما • ان الفوز المتتابع في المعارك ، وما فعلته الريح والشمس في تلكم الوحدات وصيرورتها صلبة العود ، كل أولئك يدحض قول ال (جنرال طاونسند) : « ان قناتها قد لانت » • ولدينا شهادة الجنرال ميليس ، وغيره من القادة ، وفحواها ان معنوية القوة كلها بقيت عالية حتى النهاية ، وما من بشر يستطيع أن يقوم بما قام به الجند أبدا •

وكانت خطوة ال (جنرال نيكسون) الاولى أن يأمر بالتجمّع في العزيزية ، وقد تمّ ذلك يوم العاشر من تشرين الاول • ووصلت قوات اخرى بعد ذلك ، فبدأ يوم ال ١٩ من تشرين الثاني التقدّم نحو (المدائن) ، حيث موقع الاتراك • أكان (الجنرال) يا ترى ينوي « فتح الطريق المؤدي الى بغداد » على ما أبان ، أم كان يريد الاستيلاء على الموقع المذكور ، على وفق رغبة (الهند) أو رغبة (الوزارة) المشوبة بشيء من الريبة ، والتي جاءت اثر مشورة أبدتها لجنة لم يتم اختيارها على الوجه الصحيح ؟ كل ذلك لا يتراءى جليا أو يستشف من المدوّنات الميسورة • وبعد يومين اثنين ، أي في يوم ال ٢١ من تشرين الثاني ، تمّ الاستيلاء على (لاج) ، وأغذّ (طاونسند) السير نحو (المدائن) التي تبعد عن بغداد ستة عشر ميلا • وبقرب (المدائن) مرقد سلمان باك[15] ، وهو مزار اسلامي ذو حرمة سامية •

وما أن تنفسّ فجر يوم الثاني والعشرين من تشرين الثاني الا شنّ طاونسند الهجوم وتضرّم القتال كالتنور المستعرّ • وكان كل شيء في جانب الاتراك ، فموقعهم الحربي حسن اختياره ، وكان من الناحية التعبوية قويا ايدا •

---

(١٥) سلمان الفارسي صحابي ، وله صيت بعيد في المأثورات الاسلامية : وورد في المصادر التأريخية انه تنصّر أولا وانه مات سنة ٣٥ للهجرة • والمسلمون يجلون ذكراه كثيرا والشيعة منهم خصيصا • والمنقولات الحديثة تجعله حلاق النبي ، ويطلق على الحلاق في كثير من البلدان الاسلامية (سلماني) حتى يومنا هذا • وهناك من المصادر ما تجعل قبره في اصفهان ، أو اللدّ في فلسطين • وذكر الجنرال طاونسند في رسائله الخاصة ان جنوده المسلمين كانوا يجتوون القتال في جوار مرقده ، ومع ذلك ليس هناك من دليل آخر يسفر عنه حكم فصل لا معدل عنه غير ما ورد في (كتابه) من ان مثل هذه المشاعر وجدت في غير وحدة هندية جندت في الدرجة الاولى من الاصقاع الكائنة عبر حدود افغانستان • (المؤلف)

وكان الموقع يشتمل على « سور المدائن العالي » ، وهو سدّ عظيم علوه نحو خمس وعشرين قدما • وما كان غير الهجوم الجبهوي بمستطاع ، فان حالفه التوفيق تمكنّ العدو من أن ينسحب الى نهر ديالى حيث كانت وسائل الدفاع ، على ماعلمنا سنة ۱۹۱۷ ، ممتازة • وكانت عدّة الجيش التركي نحو ۲۰۰۰۰ ، كما كان هذا الجيش قادرا على شنّ هجوم • ولدى هذا الجيش جسر محمول على قوارب ، عبر دجلة ، شمالي خطهم الثاني ، كما كان لـديه جسر آخر عبر نهر ديالى • وكان العرب يشدّون من أزرهم وينشطون على جناحينا • ان الانسحاب في مثل هذا الحَرَج ، من دون مشاغلة العدو ، لم يكن بالامر الذي يستطيعه القـــائد البريطاني • ولما كانت مدافعه قليلة فلم يستطع أن يتخذ ما يلزم في باب اعداد نار مدفعية كافية • لكن روح القوة العالية ، والاندفاع الذي اتسم به الهجوم أسفرا عن فوز لم يكن في الحسبان • لقد كانت كل الامور تناهض الـ (جنرال طاونسند) باستثناء أمر واحد : شجاعة القطعات التي في امرته وروح الضبط والربط التي شاعت فيها • وتم الاستيلاء على الخنادق الامامية وكانت الخسائر في سبيل ذلك ، من القتلى والجرحى ، كثيرة • لقد لمعت في المعركة الحراب وهي تقطر بالدم وفرّ الجنود الاتراك الى الخط الثاني وهم على حال فوضى ، والخط الثاني هذا خلف الاول ، وعلى مسافة تبلغ ميلا • وكان أن شنّ على الخط الاخير هجوم فاخذ غصبا ، ولما كان الهجوم لم يستنفد القوة كلها فلقـــد اتجّه نحو البطريات التركية الموجودة في الخلف ، وكانت نتيجتـه أن استولينا على ثمانية مدافع من مدافعنا • وفي الساعة الحادية عشرة صباحا تراءى ان النصر كان منا قاب قوسين أو أدنى ، وبلغنا (الطاق) ودأبنا على الدفاع عنه مدة أربع وعشرين ساعة ، وشمل ذلك الارضين التي في جـــواره أيضا[١٦] ومن المستحيل أن يتحدّث المرء أو

---

(١٦) بعد أن سقط الخط الاول وقف طاونسند لبضعة ايام يقدم رجـــلا ويؤخر أخرى وما كان يعلم بوصول فرقتين تركيتين تضمان صفوة المقاتلين • وكان ان قرر الطرفان في آن واحد : الانسحاب ، وبدأ الاتراك به حقا •• وما ان شعروا بعد ذلك ان انسحابهم كان خطئا يقينا ، لاشك فيه جزما ، الا عـادوا الكرة فتراجعت القوات البريطانية الى الكوت (المترجم) •

يكتب ، عن البسالة التي ابديت في زخم تلكم الساعات وتستأهل جمال الاحدوثة واستفاضة الذكر ، من دون أن تغمره العاطفة ، أو تطغى عليه • ان شجاعة قواتنا مما تفخر به ساحة « ثيرموبلي Thermoplae »[17] ، وحمل لواء المشاة/٣٠ وطأة القتال المرير ، وكان بامرة (كليمو) • ولم تكن (وحدة البنجاب/٧٦) أو (وحدة الكركة : ٧/٢) بأقل شجاعة وأيداً من اخوتها في السلاح ، القطعات البريطانية • وكانت المعارك مجزرة رهيبة اذ كنت تشاهد جثث القتلى من وحدات الطرفين المتحاربين مختلطة بجثث الجنود الاتراك ، وكثير من جنود الطرفين المتحاربين اشتبكوا في القتال يدا بيد حتى النهاية • وكل من سار في المقدمة بقي من دون طعام ومن جرح منهم كثير ، ذلك ان الترتيبات الصحية كانت سيئة التصريف ، على العادة ، وقد كانت ثقة الضباط الاركان ، ان صدّقنا ما في (كتاب) ال (جنرال طاونسند) ، أكبر من ثقة رئيسهم ، وانهم أصدروا أمراً يقضي باخلاء الجرحى وارسال القادرين ، على الاقدام سيرا ، الى بغداد[18] • وتعذر التعاون مع الاسطول ، فمدافع الاتراك الثقيلة المنصوبة على النهر حالت دون تقدّم بواخرنا المسلّحة ، تسليحا خفيفا وغير المسلحة بتاتا • ومنيت الخيّالة بضحايا كبيرة أيضا اذ قتل من جنودها (٢٠٠) أو جرح ، وكان تعدادها ١٢٠٠ • وكانت ضحايا الضباط البريطانيين والهنود ، على وجه أخص ، كبيرة ، لذلك تعسّر الضبط والربط وصعبت السيطرة ؛ فجنود الافواج الهندية كانوا من المستجدّين ، أما الافواج البريطانية فكان تعدادها نصف تعداد ملاكها الحربي • وكانت عدّة لواء (هوكتن) ٧٠٠ جندي ، ولواء (ديلامين) ١٠٠٠ ، و (هملتن) ١٨٠٠ و٩٠٠ • وقد قتل أو جرح ٤٢٠٠ من بين من فقدناهم ، وعدتهم ١٢٠٠٠ ، لكننا أدركنا نصراً مؤزّرا • ومن بين ال ٣١٧ ضابطا بريطانيا قتل ١٣٠ أو جرح ، ولم يبق من ضباط وحدة اكسفورد الا : ٦ ، ومن وحدتي دورسيتس ونور

(١٧) اعدّ ارتحشششتا Artaxerxes ابن داريوس قوة بحرية كبيرة وبرية وهاجم الاغريق ، وبين الفرس وبينهم حروب تقليدية ، في سنة ٤٨٠ ق٠م ، فقام الاغريق ، وفي المقدمة الاسپارطيون منهم ، بدفاع مستميت في ممر ثيرموپوليس وكذلك في البحر ايضا لكنه لم يصد الهجوم [المترجم] •

(١٨) راجع : Cfficial Medical History IV, 202. [المؤلف] •

فوكس الا : ٩ • وكانت (وحدة مهراتا/١١٠) لا تملك الا ضابطا واحدا ، و (وحدة البندقيات /١٠٤) لاتملك الا ضابطين ، على حين ليس في كل من (وحدة البنجاب/٦٦) ، و (المهراتا/١١٧) و (الكركة ٢/٧) الا أربعة ضباط • لم يبق من ال **٢٣٥** ضابطا هنـــديا الا **١١١** ، وكانت ضحايا الضباط الاركان كبيرة • وفقدت الكتائب الهندية ال ٢٤ ، ١٠٤ و **١١٠** أكثر من نصف موجودها • ومن الجهة الاخرى كبّدنا الجهة المقابلة **٩٦٠٠** من الضحايا وأسرنا **١٢٠٠** •

وكانت الليلة التالية ، عند كثيرين ، ليلة ليلاء أطبق على الجميع خلالها أسى وشقاء و (أمر الله يأتي كل ليلة) • لقـــد جمع الجرحى ووضعوا في عربات لا نوابض لعجلاتها وتجرها البغال ، وكانت تتعالى منهم الصرخات بنتيجة سيرها على الارض الوعرة (وهم على مثل حال الذبيحة تدحض برجلها تحت سكينة الجزار) فتبعث الرعب في قلوب زملائهم الباقين • وكثير منهم كان يعاني من ظمأ دام طوال يوم ، وكان قر الليل ينفذ الى عظامهم فيثير ألما على ألم • ان مستشفيات الميدان الاربع كانت تقوم على اسداء الخدمة الطبية لاربعمئة جريح ، لكنها قامت على خدمة أربعة أضعاف ذلك العدد في ذلك اليوم عينه • « لم يكن الضباط الاطباء آبهين بما كان يحيق بهـــم من خطر ، ودأبوا على اداء واجبهم خلال المعركة ، وفيما بعدها ، الى أن سقطوا من الاعياء بعد أن قاموا بتحقيق ما كان يعانيه صـــدقانهم وأعداؤهم من آلام وشقاء ، على حد سواء(١٩) » • وشُغلنا ، طوال يومين ، في نقل الضحايا الى البواخر الراسية ، وقد حشروا على ظهورها كما تحشر القطعان ، بفارق واحد هو انك لم تكن لتسمع أحدهم يتذمر أو يتمرمر •

وفي نحو الظهيرة من يوم ال **٢٢** من تشرين الثاني تبدلت الحال ، اذ استطاع ال (جنرال هملتن) الذي كان يقود وحدتي نورفوكس والمشاة الخفيفة/**١١٠** من أن يحصل على موطىء قدم في موقع الاتراك الثـــاني • وسرعان ما سمّر في مكانه ولم يستطع أن يتقدم الى أكثر من ذلك ، ذلك ان الاتراك بقيادة (جواد بك) شنّوا عليه هجوما مضادا قويا • وجرح العقيد كليمو مرتين ولكنه استطاع أن يوقف العدو حتى الساعة الثانية من بعد الظهر ، وفي نحو الساعة **٢:١٥** جـرح

(١٩) راجع : Sandes, Major E.W.C.: In Kut & Captivity with the 6th Indian Division. [المؤلف] •

للمرة الثالثة فنقل الى المؤخَّرة • وجمع ال (جنرال ديلامين) عصبة من الجنود عدتها : ٦٠ مقاتلا ، وكلهم من صنف المخابرة والاتباع وغيرهم ، وسار بها لنجدة هملتن • وكان أن عقد الخناصر مع (وحدة راجبوت/١/) التي كان يقودها العقيد بار ، وقد عانى من المعركة كثيرا ، فقام بهجوم على خنادق الاتراك التي كانت أمامه على مسافة ٣٠٠ ياردة • وعاد الاتراك الى شن هجوم مضاد ، وتحت ستار من نار مدافعنا انسحب (ديلامين) • وأسرع الجنرال هوكتن ببقية اللواء لنجدته لكنه لم يستطع أن يجمع أكثر من ٢٥٠ جنديا ينتسبون الى مفرزات ستة أفواج مختلفة ، وكان بينهم ٦٠ بريطانيا • وتقرّب من العــدو فكان على مسافة ٣٠٠ ياردة وثبت في مكانه حتى خيّم الظلام على الدنيا كلها ، وعند ذلك جاءت نجدات العدو فما تلبّث الا يسيراً حتى اضطُر الى الانسحاب، فاختفى • وعند الغسق انسحبت الخيالة أيضا ومعها السيارات المسلّحة ، وكانت هذه قد قامت بعمل ممتاز خلال النهار • وقام ال (جنرال هملتون) بآخر محاولة في سبيل التقدّم ، وقاد الزاحفين بنفسه ، وقبل أن ينكشف ذلك على وجه التمام جاءت أوامر ال (جنرال طاونسند) بنبذ القتال ، فلقــد كان قراره يقضي بالتجمّع وشنّ هجوم جديد ، صــباح اليوم التالي •

وكان الاتراك على حال سيئة أيضا، فضحاياهم كانت أكثر من ضعفي ضحايانا، ولم تكن هناك نجدات ، فيما خلا فوجين جيىء بهما ، على استعجال ، من نهــر ديالى • وعندما نبذ طاونسند القتال سرّوا من أن يحذوا حذوه • ان فرقتهم ال ٤٥ التي ناءت تحت وطأة قتال اليوم ، لم تكن الا هيكلا • وانسحب نورالدين الى خطه الثاني ، استعدادا للانسحاب العام على نهر ديالى •

وكنا نعتقد يقينا جزما لا شك فيه ان الاتراك قد تلقوا نجدات ، لكننا على ما نعلم اليوم[٢٠] كنا في اعتقادنا هذا خاطئين • ومع أن الجنرال طاونسند كان يشعر

(٢٠) قرر ال (جنرال طاونسند) ، على اثر الفشل الذي مني به الجيش البريطاني في الدردنيل ، وتأثيره القوي في معنوية قطعاته ، القيام بمهاجمــة الاتراك في (سلمان باك) لانه رأى فيه عونا على تصعيد تلكم (المعنوية) • كمــا قرر حصر تقدمه على ضفة نهر دجلة اليسرى بغية ضرب جناح الاتراك الايسر ضربة حاطمة قاصمة ، وباعتداد ذلك اقصر سبيل الى بغداد : الغاية القصوى !
[المترجم]

بأن قطعاته لم تكن على حال تحملها على معاودة القتال مجددا ، فعدد جرحاها كبير جدا ، ولنقلهم تستنفد وسائل النقل الميسورة لديه جميعا ، ـ لكنه قرر التجمّع يوم الـ ٢٣ من تشرين الثاني عند « السور العالي » . لم يكن الطقس في صالحه ، فلقد هبّ اعصار عنيف ، منذ انسلاخ[٢١] النار من الليل حتى الغسق ، دأبا . وكان الاعصـــار يستثير النقع ويحمله فيجعل المواصلات عسيرة ، والرؤية اللازمة متعذرة . وأدرك (نورالدين) ما يرمي اليه طاونسند فشنّ هجوما ، وقصفت مدافعه مؤخرتنا ، وشلّت مواصلاتنا ، وأضافت الى شقاء جرحانا شقاءا اذ كان يحمل منهم على كل عربة ستة[٢٢] . واستمرّ الهجوم طوال الليـــل البهيم . وكان الـ (جنرال هوكتن) يشكو من شحّ العتاد ، لكنه استطاع الصمود . وصد (ديلا مين) بين الساعة التاسعة مساء والساعة الثالثة صباحا ست هجمات عنيفات تقدّمت خلالها جماعات من الجند مسافة لا تزيد على بضع ياردات من خنادقنا . وفي الساعة الرابعة صباحا ، انسحبت .

وما أن أشرقت الشمس صباح اليوم الـ ٢٤ الا كان السكون مخيما لا تعكّره اطلاقات ... لكن ما كان يخبئه القدر للقطعات المرهقة كان أشـــدّ قسوة . ان هذه القطعات ، على ما نتذكره ، وبقدر تعلّق الامر بالهندية منها ، كانت تتألف من متطوّعين مستجدّي التـدريب لا تزيد شـهوره على ثمانيـــة عشر[٢٣] ، ان صفوة المدربين في مستودعات التدريب أنفذوا الى فرنسة . وكانت الوحدات البريطانية مؤلّفة من جنود حَسُن تدريبهم ، لكن الوحدات هـــذه نضبت عدتها في الاحتراب الذي جرى قبلا ، فأصبحت تضم مستجدين أيضا .

---

(٢١) انسلخ أي خرج وانفصل ومنه قوله تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) [المترجم]

(٢٢) وبعد اسبوعين من ذلك وبتضليل من برقيات ارسلهـا ضبـــاط الـ (جنرال نيكسون) الاركان ، أعلم (سكرتير الدولة لشؤون الهند) مجلس العموم ان حالة الجرحى العامة تبعث على الطمأنينة والرضى وان الترتيبات الصحية تجري رخاءا ، وان كانت هذه في ظروف عسيرة جدا [المؤلف] .

(٢٣) مما يجدر ذكره في هذ المقام ان الهند انفذت الى العراق خلال الحرب العالميـة الاولى أكثـر مـن ٦٠٠،٠٠٠ من ابنائهـــا لمقاتلـة الاتراك في سـبيل مصلحة الاستعمار البريطاني ولا ناقة لها في تلك الحرب ولا جمل [المترجم] .

وكان الطرفان مرهقين ، لا يستطيع أحدهما أن يقوم باستكشاف ما على الوجه السليم • وضللت التقارير نورالدين ، فأصدر أمرا بالتراجع الى نهر ديالى ، وتم ذلك خلال ليلة ال ٢٤ ، لكن تقدما جديدا جرى يوم ال ٢٥ ، بالنظر الى ما ورده من أخبار حركاتنا • وقرر الجنرال طاونسند الانسحاب الى (لاج) وقد حمله على ذلك اعتقاده بأن الاتراك قد وصلتهم نجدات قوية من جهة ، وادراكه عظم الضحايا التي منيت بها قطعاته ، وحاجته الى وسائط النقل من الجهة الثانية • وكان أن وصل الموقع المذكور قبل فجر يوم ال ٢٦[٢٤] • وفي يوم ال ٢٧ اضطر تحت وطأة الاتراك الذين كانوا يسيرون في أعقابه ، وهم الآن بامرة خليل باشا ، الى الانسحاب نزلا • لقد غادر موقع (لاج) في الساعة الرابعة من بعد الظهر فوصل (العزيزية) في الساعة الخامسة صباحا من يوم ال ٢٨ •

وكان طيارو الاتراك ينقلون حركاته • انهم طليعة الطيارين الذين عملوا في هذه الجبهة • وبعد استراحة في العزيزية[٢٥] أمدها يومان ، ترك الجنرال طاونسند

---

(٢٤) لقد انسحب تحت ستار من الظلام • وكانت الوحدات البحرية ترابط عندها • وجاء في التقرير الذي رفعه بهذا الشأن : « اصبح الواجب واضحا لكل ذي عينين : انه انقاذ فرقة عن طريق الانسحاب الى حيث يمكن أن تصلها النجدات فتستطيع الثبات [المترجم] •

(٢٥) لتنفيذ خطة الزحف على بغداد اسس البريطانيون قاعدة في الكوت كدست فيها مواد تموين تكفي قواتهم لمدة شهرين ، كما تم تأسيس (قاعدة متقدمة) في العزيزية وكدست فيها مواد تموين لمدة ٣ أسابيع ؛ وعندما قرر نورالدين بك الانسحاب الى سلمان باك كان يهدف الى اطالة خطوط مواصلات البريطانيين ، وقد اتخذ خط (سلمان باك ـ المسيب) للدفاع لانه اقصر خط الى الفرات ولان نهر ديالى عائق طبيعي يمكن تنظيم القطعات خلفه ، ولان في منطقة ديالى كثيرا من التلول ، ومنها ما تكفن بقايا المدن الاثرية : طيسفون وسلوقية • ولما لم يرق القيادة العامة ابقاء القائد نورالدين بك في منصبه عين خليل باشا واليا على بغداد وقائدا للجيش وذلك في ١٢ كانون الثاني ١٩١٦ ، فاندحر الجيش البريطاني في سلمان باك وتراجع الى الكوت حيث جرى الحصار المشهور • ويلحظ ان (خليل باشا) هو من ذوي قربى انور باشا وزير الحربية العثمانية، يومذاك وأقوى شخصية عسكرية ـ سياسية في الانبراطورية العثمانية•

[المترجم]

مقداراً من الذخائر فيها ، وغادرها الى الكوت صبيحة يوم ال ٣٠ وكانت بين (القوتين) ، تلكم الليلة ، ماسّة شابكة ، وبعد أن تبادلتا الاطلاقات النارية ، انفجر الصبح فتوقّف القتال . لقد وجدَت القوتان المحتربتان ان كل واحدة منهما لا تبعد عن الاخرى بأكثر من ميل ونصف ميل . وكان أن غلب الترك فانسحبوا دؤوبا ، بعد أن تكبّدوا من الضحايا ٧٠٠ ، على حين كان عدد ضحايانا : ٥٠٠ . ولعلّ تألّق مزايا (طاونسند) الغرّ لم يكن في يوم من الايام كما كان ابان « حرب المؤخرة » التي شهدتها أم الطبول[٢٦] . لقد كانت هذه المثل الاعلى لضربة مضادة موفقة انزلتّ ابان تراجع اكتنفته صعوبات هائلة . وكانت خسائرنا في الجهات الاخرى عظيمة . ذلك ان الاتراك الذين استطاعوا الاتيان بمدافعهم الى ضفة النهر وأخذوا يقصفون اسطولنا النهري . وكنا قد فقدنا الباخرة (شيطان) قبلا ، لقد استقرّت على قاع النهر ولم نستطع أن نجعلها تطفو أبدا . واندلعت النار في كل من الباخرتين : (فاير فلاي) و (كوميت) فنبذتا على مثل هذه الحال ومعهما عدد من الجنائب والزوارق البخارية . وأخلي البحارة من السفينتين ، ونار البندقيات تنهال عليهم كالمطر الهاتن من مسافة خمسين ياردة ، ومرد هذا الاخلاء الى الباخرة : سمّانة . وكان على احدى الجنائب المنبوذة ٣٨٠ من المرضى والجرحى ، وقد ارسل بعضهم الى ال (جنرال طاونسند) أخيرا ، ذلك ان الاتراك كان عليهم أن يُعنوا بعدد كبير منْ جرحاهم فلم يستطيعوا الى العناية بمثل هؤلاء سبيلا .

يقول ساندس Sandes (ص ١٠٢)[٢٧] :

« كان في مكنة (سمّانة) أن تغرق الباخرة (فايرفلاي) بواسطة مدافعها من عيار ١٢ باونا ، ولكن كان على ظهر الباخرة الاخيرة رجل تاعس يضطجع في غرفة محركها ، ولا يزال حيا ، لكن البخار المنطلق لفحه بقسوة . وكانت حاله راعبة مرعبة ، فتعذر نقله ، لذلك اعطي حقنة من المورفين وترك

---

(٢٦) واقعة في جنوبي شرقي العزيزية (المترجم)

(٢٧) في كتابه الموسوم
"In Kut & Captivity with the 6th Indian Division:
في الكوت والاسر مع الفرقة السادسة الهندية » (المؤلف)

في السفينة • وكان وجوده على ظهرها سببا في احجام صدقّانه عن قصفها ، كما لم يكن هناك متسع للقيام بذلك وحتى لو كانت الاعتبارات الانسانية غير قائمة •»

ان مثل هذه الاعتبارات ، في مثل تلكم الظروف ، يجب أن لا تحول دون اغراق الباخرة (فاير فلاي) التي استطاع الاتراك استخدامها بقوة بازاء الكوت ، بعد أسابيع قليلة • لقد استعدناها منهم خلال زحفنا على بغداد ، وكان ذلك يوم الـ ٢٦ من شباط ١٩١٧ ، في مكان لا يبعد كثيرا عن دورة النهر ، حيث فقدناها • وثمة كاتب سرد القصة ، من وجهة نظر شخصية بحتة ، وأثبت سرده في (المجلة البحرية : Naval Review المجلد : ٤) ، قال : « بعد أن نزعت نوابض مدافع الباخرة (فاير فلاي) وعطّلت محركاتها نقل الباقون على قيد الحياة من بحارتها الى الباخرة الحربية : (سمّانة) • انه لا يذكر الحادثة التي ذكرها (ساندس) آنفا • وعلى كل حال ، ما أن استعدنا الباخرة المذكورة من الاتراك الا وجدنا ان مدافعها بحالة جيدة ومحركاتها تعمل على الوجه السليم • والظاهر ان النوابض الاحتياط التي كانت على ظهر السفينة قد أغفل أمرها • وكانت الباخرة هذه عظيمة الشأن عند الاتراك ، ومن المؤسف أن لا تتخذ السبل لتدمير أسباب الافادة منها على الوجه الفعال اللازم •

واستمر التراجع خلال اليومين الاول والثاني من كانون الاول ، ودخلنا الكوت في اليوم الثالث مبكرين • وبقي الاتراك على بعد منا ، ولم يهجم علينا غير « شياطين الليل » من الاعراب[٢٨] الذين دأبوا على سَنّ الغارة على الارتال ونهب من يتخلّف من آحادها أو قتله ، ولم تسلم منهم سيارات المستشفى ، وكانوا يتّخذون من الظلام المطبق لغاراتهم ستارا • وكان الجنود متعبين مرهقين

---

(٢٨) « أعلم وزير الدولة لشؤون الهند مجلس العموم يوم الـ ١٣ من كانون الاول ان لديه كل الاسباب التي تحمله على اعتداد (المزاعم الالمانية) القائلة بان العرب الاصدقاء قد انقلبوا على القوات الانكليزية ، غير واردة • ان العبارة لو أخذت على ظاهرها الحرفي صحيحة ، ذلك لان العرب لم يكونوا اصدقاء لنا ولن يكونوا ، لكنها عبارة مضللة • (المؤلف)

قلنا : وهكذا يبسط (المؤلف) القول في ثلب قوم لم يريدوا ممالأة الاستعمار وتبديل استعمار باستعمار (المترجم) •

جميعا ، اذ انهم قطعوا خلال ٣٦ ساعة أربعاً وأربعين ميلا ، ولم يكن لديهم ، ابان سيرهم ، طعام أو ماء كافيان فعانوا من ســـعار الجوع والعطش المميت • وكان النوم ، ان تيسّر لهم ، صعبا عسيرا ، فالبرد كان قارسا • ومن العسير أن تجد في قصص الجيشين البريطاني والهندي ما يسجل انجازاً أكثر تألقا وأشـد فخارا من هذا[٢٩] •

ولقد بيّن النقدة العسكريون ذوو الخبرة ، (ولا ينبّئك مثل خبير) ، وهم يستعرضون سلسلة المشاغلات التي كوّنت معركة طيسفون ، أن الاحتياط العام فيها كان معدوما ، وان المعلومات الصحيحة اللازمة (للطرفين) كانت مفقودة، وان انعدام العون المدفعي الكافي ، في كل وقت ، وفي كل مكان ، هو السبب في كثرة ضحايانا من الجند المشاة ، وهي جدّ عظيمة • وأبانوا ان ثلث المسافة قد قطعت خلال الايام الخمسة الاولى من أيام الانسحاب ، وقطعت بقيتها في يومين ونصف يوم ـ ولما كان الاتصال بالعدو قد انعـــدم فحمداً جزيلا للاستكشاف الذي قامت به الطائرات ، وهو استكشاف لم يكن تاما بحكم واقع الحال • وقد لوحظ ان آمر الفيلق الـ (جنرال نيكسون) ، على غرار ماحدث في(معركة السن)، كان ، وضبـاطه الاركان ، بجنب الـ (جنرال طاونسند) ابـان التقرّب مـــن طيسفون ، وخلال معركتها • ومثل هذا لم يكن بحال مرضية ، وقد حمل عليه ان (المقر العام) كان يقلّل من قوة العدو بنسبة ٥٠ بالمئة ، وانه رفض إقرار العدد الذي بيّنه الـ (جنرال طاونسند) ومقداره : ٢٠٠٠٠ ، وقد عُلم اليوم انه صحيح ، على ان (الجنرال) ثبّت في أوامر حركاته الرقم : ١٠٠٠٠ • ولمثل هذه الانتقادات المقام المعتبر في التأليف الحربي ، لكنها يجب أن تؤخذ على أساس مقارنتها بالصعوبات الجمّة التي وجد (القائد) نفسه في خضمّها • وقد كان في مكنة الـ (جنرال نيكسون) أن يفعل أحسن مما فعـل ، لو جرى ذلك في ضوء دراسة للاراضي ، ونظر في سجلات الاتراك ، لكن الواضح الجلي انه لم يكن بقادر على أن يدرك نصرا مؤزّرا • انه جنـدي شجاع أمضى زهرة شـبابه في

(٢٩) زحف طاونسند بفرقته السادسة وكان تعدادها ١٤٫٠٠٠ فخسر منهم ابان زحفه وتراجعه ٥٠٠٠ (المترجم) •

خدمة بلاده ، لكن اندفاعه بازاء العدو في الايام السود سبب" في نقض ما كان يبرم • وعلى الرغم من ذلك ما من قائد في بلاد الرافدين ، فيما خلا الجنرال مود ، استطاع أن يخلب أفئدة الجند ، البريطانيين منهم والهنود على حد سواء • ان روحه ، وأرواح (العمداء) الذين كانوا في امرته ، شاعت في ضباطه الاركان ، وآمري الكتائب ، فكانت سببا في تفجير القـــوة والتصميم في الجنود ، وبذلك استطاعوا أن يصمدوا بشجاعة وصلابة خلال سني الحرب ••• لكن ذلك كان عبثاً غير ذى جدوى ، يا أسفا •



الفصل السابع

حصار الكوت وسقوطها[1]

في اليوم الثالث من كانون الاول قامت قوات الـ (جنرال طاونسند) المؤلفة من (حملة الحراب) و ١٥٠٠ من (حملة السيوف) ، ومعها ٣٩ مدفعا ، «بالانسحاب»، على التعبير الذي ورد في البيان الصحفي ، الى «الخط الحصين في كوت الامارة » ، ووزّعت جراية اضافية بين القطعات لايام معدودات[2] ، وركّزت جهودها كليا

(١) في سرد حوادث هذا الفصل ، وعلى غرار الفصول السابقة ، اعتمدت على « التاريخ الرسمي » وعلى (دراسة نقدية : Critical Study) ولقد سمحت لنفسي بحرية التصرف في ذلك ، وعذري فيها ان هذا الكتاب ، بخلاف الكتابين المذكورين ، هو للقاريء العام • ان هذا الاعتبار نفسه جعل من الضروري أن توجز بعض الامور فيه ، وقد يكون ذلك على حساب الحقيقة • على أن التفصيلات موجودة في الكتابين المذكورين المتعين من وجهتي نظر الحركات الحربية والبحرية • ولقد اشرت الى ما كتبه كل من : (باربر) و (بيشوب) و (موزلى) و (هربرت) و (كيلنك) و (ساندس) والجنرال طاونسند نفسه •

[المؤلف]

(٢) كان الـ (جنرال طاونسند) قد طلب احتياطيا من اللوازم والتجهيزات يكفي لمدة شهور ويودع في العمارة ، وبنسبة ذلك من المدافع وعتاد البندقيات ، لانه كان يعتقد ، باعتداد ذلك مبدأ حربيا مقررا ، بان أية قوة منعزلة تروم الصمود ، من دون عون ، عليها أن تدأب على ذلك لمدة ٦ شهور • لقد كان الـ (جنرال نيكسون) يعارض في ذلك ويرى أن ما يكفي لمدة ٦ أسابيع، لاستة شهور، هو الذى خوله (المقر العام) في الهند ويجب اتباع التعليمات حرفيا • لكن الـ (جنرال طاونسند) كان متمسكا برأيه ويذهب الى أنه سيبتاع ، على تبعته الخاصة ، تجهيزات ولوازم ٦ شهور ويودعها في العمارة » ، وقد فعل ذلك •

راجع :

Sherson: Townshend of Chitral & Kut pp. 263, 264.

[المترجم]

على اقامة خط التحصينات المذكور آنفا ، وهو خط لم يسبق التفكير في شأنه حتى الان • ويقول شهود عيان ان الجراية الاضافية المذكورة قد الحق بها كثير من سرقات ونهب كان ميدانها المخازن التي خزنت فيها ، وكان ذلك على يد الجنود البريطانيين والهنود أنفسهم ، عندما وصلوا الكوت أول مرة • لقد اغضى الجنرال طاونسند عينيه عن مثل هذا التصرّف ، على مايتراءى ، وكأنه لم يحدث أبدا ، وبذلك ذهب كثير من القوت الثمين بددا • وكانت مساحة رقعة الارض الواجب الدفاع عنها ، الكائنة على ضفة النهر اليسرى ، تبلغ ، على التقريب : ٣٢٠٠ ياردة × ٢٧٠٠ ياردة ، أما على ضفة النهر اليمنى ، غربي شط الغرّاف ، فكانت هناك (ماكنة السوس) التي تحوي كمية كبيرة من الحنطة • لقد انتقد الحفاظ عليها ، وهي موقع قصي ، لاكثر من المدة اللازمة لنقل الحبوب منها ، انتقاداً ظالما • وكانت الارضون جدّ صلبة ، وكان ينقص الجند المعاول ، والعمل كان يجب ان يتمّ ، ونار الاتراك تنهال كالمطر الهاتن ، كما كان جنودنا محجمين عن الرد عليها نارا بنار ، يرومون من وراء ذلك في العتاد اقتصادا • وعلى الرغم من ذلك كله كان طول الخنادق المحفورة في نهاية الحصار ٣٠ ميلا •

وكان في الكوت عرب تتراوح عدّتهم بين ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ نسمة ، وبقي سر برسي كوكس ، الذي صحب الـ (جنرال نيكسون) ، في الكوت بعد مغادرة الاخير لها ، كما اقترح سر برسي كوكس ان يبقى مع الجنرال طاونسند ، لكن كوكس ان بدأ الحصار حقا • وقبل ان يفترق الرجلان سأل (طاونسند) (سر برسي) عن رأيه فيما يجب عمله بازاء سكان الكوت العرب ؟ «ان أول ما يجب عمله ، وفق القواعد العسكرية الصارمة : طردهم من المدينة » لكن سر برسي كوكس، على ادراكه، ابتداء ، وجوب النظر في الامر في ضوء الاعتبارات العسكرية الملحّة ، رأى لزاما عليه أن يذكّر (الجنرال طاونسند) : انه بالنظر الى حلول فصل الشتاء ، ولياليه القرّة ، فان اغلب الاطفال والنسوة من سكان الكوت سيقضون نحبهم في العراء ، من البرد ومن المسغبة • وقرر (الجنرال)

أخيراً أن يبقى الطيبون منهم وأن يخرج منها ٧٠٠ شخص غريب فقط • ولم يكن هذا أول حصار[٣] عرفه فلقد أسهم في الدفاع عن «جترال: Chitral سنة ١٨٩٥، وقد شرح ذلك شرحا وافيا فيما نشر من تآليفه • وينوه هربرت[٤] (ص ٢٠٩) في الـ١٣ من نيسان وفي (مذكرته) بهذا القرار • لكنه كان السبب الفعال في تسليم المدينة وبأشد فعلا من أي عامل آخر ،كما كان السبب في أزهاق أرواح بشرية عدتها عدد سكان المدينة ، وفي تعاسة وشقاء آخرين أكثر عددا[٥] •

ويرد (جنرال طاونسند) في كتابه (ص: ٢٢٩) هذا القرار الى «شفاعه»

---

(٣) احتل البريطانيون الكوت فاستطالت لذلك خطوط مواصلاتهم بمقدار (١٥٠ ميلا) وسبب لهم ذلك صعوبات جمة ، بقدر تعلق الامر بالتموين • وكان جيش طاونسند المحاصر عند (تسليمه) أكبر جيش بريطاني قدر له أن يسلم الى عدوه في أثناء الحرب العالمية الاولى • ومع ذلك كان لحصار الكوت ، وقد اقترن بالمسغبة المهلكة والمشقة البالغة والجهود الجهيدة مما ليس الى تصويره سبيل ، المزايا الحربية التالية بالنسبة لبريطانية :

١ ـ حال دون اندفاع الاتراك لاسترداد البصرة وابقى الاراضى التى احتلتها (الفرقة السادسة) بيدها لحين وصول النجدات اليها •
٢ ـ لو عاد الاتراك الى البصرة لتعرضت انابيب النفط في عبادان (وطولها ٢٠٠ ميل) الى خطر • والنفط قد أصبح ذا خطر كبير في الحرب •
٣ ـ سهل على الانكليز تنظيم مواصلاتهم البرية والنهرية ومد السكك الحديد جنوبي الكوت استعدادا للزحف على بغداد •
٤ ـ حال دون الاتصال بين الجيش التركي والثوار الفرس بزعامة (ريوس) ، وعدتهم كانت ١٢٠٠٠ • ولو تم ذلك لاندفعوا الى الهند فالافغان • بالحيلولة دون ذلك استطاع الروس تبديد شمل الثوار الفرس •
٥ ـ سهل دخول الروس (ارضروم) واختراق حدود تركية •

[المترجم]

(٤) Herbert, Hon., Aubrey: "Mons, Anzac & Kut, 1919, 2nd edition, 1930.

[المؤلف]

(٥) ورد في (تقرير لجنة ما بين النهرين الرسمية) في الفقرة ٧ ص٢٢ ما ترجمته :

« كان في الامكان تجنب كارثة الكوت مدة طويلة لو اخرج منها ، قبل الحصار ، السكان العرب • والظاهر ان (سر برسي كوكس) كان ينظر الى (اعتبار سياسي) ، أبعد غاية وأنأى مراما ، وفيه ربط مصير العرب المحصورين بمصير البريطانيين المحصورين وعزلهم عن الاتراك • [المترجم]

سر برسي كوكس ، وقد ندم على اتخاذه بأخرة[٦] . ومما لا شك فيه انه دونّ ما دونّ بالارتكان الى الذاكرة ، لذلك فان ما اورده لا يعدو الوجه غير الصحيح لما رآه سر برسي كوكس من نصيحة ، وهي ، بعد ، نصيحة اسديت بناء على رغبة ، وجواب عن سؤال حول قضية واضحة . ولم يشر سر برسي كوكس في (جوابه) الى التأثير السياسي الذي يحدثه قرار طرد سكان الكوت في بلاد الرافدين ، لكن الـ (جنرال طاونسند) يبيّن انه ، « كان يرى ان لذلك التأثير السياسي الفاجع في سكانها العرب الذين استخدمناهم فعلينا أن نحميهم بازاء الترك» . ان الشطر الاول من هذه العبارة لايعدو أن يكون رأيا في قضية لم يكن الـ (جنرال طاونسند) مسؤولا عنها البتة ، كما انه لم يكن بقادر على أن يعطي فيها حكما فصلا ، أما الشطر الآخر فيجانب الصواب ، ذلك اننا لم نتعهّد بمثل هذا ، لا صراحة ولا ضمنا . ان السبب الحق في اصدار قرار الاحتفاظ بالكوت ، على ماورد في (التأريخ الرسمي) ، لايجاوز الرهَق الذي مُني به الجنود ، اذ لم يعودوا قادرين على السير قُدما . وارسل الجنرال طاونسند النقيب «ليجمن» وهو انسان طيب يحبّه الجميع ، وهو شيء نادر ! [٧] مع لواء الخيالة الى خارج الكوت ، يوم السادس من كانون الاول[٨] ، لذلك لم يكن لديه ضابط سياسي خبير مستقل

---

(٦) يقول طاونسند : « كنت أعرف انهم كانوا على اتصال بالعدو ، ما الى الشك في ذلك من سبيل ، وكنت قلقا من أن كثيرا من البندقيات قد دفنت أو أخفيت ... ومن المحقّق أن النتائج تكون وخيمة لو حرضهم العدو على الثورة حين كان ثمة هجوم يجري على جبهتنا الشمالية . لذلك أوقفت بعض متقدمي المدينة واعلنت أنني سأرميهم بالرصاص ان بدت أية بادرة تدل على « خيانة » . ولكي أوقف سلب الاعراب ونهبهم قدّمت الى مجلس عسكري ١٢ رجلا وجدوا متلبسين به واعدموا رمياً بالرصاص » .
راجع :
Sherson, E. 'Townshend of Chitral & Kut, p. 303.
[المترجم]

(٧) راجع : Herbert, p. 210.
[المؤلف]

(٨) دهمهم الاعراب البلديون ، جريا على العادة ، بان مسيرتهم جنوبا .
[المؤلف]

ذو مقام محترم يستطيع ان يستشيره بصدد القضايا المتصلة بالسكان العرب .
وكان من بين هؤلاء لصوص و « اصحاب صناعة الليل » مجرّبون ، واعدم اثنا عشر منهم ، اثر حكم صدر من المحكمة العسكرية ، رميا بالرصاص ، وكانت جريمتهم نهب المخازن ، أو الاتصال بالعدو . وعلى سبيل الاحتياط جعل بعض وجهاء القوم رهائن ، وهدّد برميهم بالرصاص ان بدرت منهم أية بادرة تنمّ عن خيانة ، وهو اجراء كان الاعتماد عليه في تحقيق الهدف المذكور خطلا ، كما لم يكن رادعا للاشرار من القيام بافعال عدائية ، فما دام الرهائن مودعين في غيابة الحبس فلا يرتجى شيء منهم ، بقدر تعلق الامر بالتأثير في أبناء جلدتهم . ولم يغبّ ذلك عن بال (الجنرال) مرة واحدة فقط ، ولكن ذلك تكرر مرتين . ان قوله بأنه كان يشفق من تفتيش بيوت العرب لحين وصول النجدة ، ولئلا ينجم عن ذلك شيء سياسي غير مستحب ، لقول تحف به الريب . انه ليكشف عن سوء فهم لروحية العرب . فالعرب واقعيون اعتادوا على الاخذ بسياسة (هات وخذ) وان كانت على شكل ضربات قوية . وغبّ تلكم التجارب المريرة التي خبروها طوال الشهور الاخيرة فلا أهمية كبيرة في نظرهم لو جرى تفتيش دورهم ، كما ان شعورهم لم يكن على شيء من الخطر عسكريا .

حقاً لقد صدرت الاوامر بجمع التفصيلات التامة عن المؤن الميسورة ، وكانت نتيجة التفتيش ، بيتا بيتا ، ان قدّر ما هو موجود فأدى التقدير الفجّ الى كوارث معارك (الشيخ سعد) و (الوادي) و (الحنّة) . فالجنرال الْمر أخبر بأن مواد التموين الموجودة في الكوت لا تكفي الى ابعد من اليوم الخامس عشر من نيسان .
وفي اليوم الثامن عشر من كانون الثاني أبرق الـ (جنرال طاونسند) يقول: بقي طعام يكفي لمدة اثنين وعشرين يوما ، ولو جمعنا كل ما في المدينة من طحين وأكلنا كل ما عندنا من الخيل[9] لاستطعنا ان نعيش مدة تزيد عن ذلك كثيرا » . وفي الـ ٢٠ من

---

(٩) صعب حمل الجنود الهنود ، والهندوس منهم على وجه أخص ، على أكل لحم الخيل ، ولم يأكله منهم حتى اليوم الـ ١٣ من نيسان الا القليل . وعند هذا الوقت أدى امتناعهم عنه الى نضوب كميات الحنطة الموجودة في المدينة ووهن صحتهم . [المؤلف]
قلنا : ولم تكن في الكوت الا قلّة من الخضروات كان يحصل عليها

كانون الثاني أبرق يقول : بقي طعام يكفي لمدة ٨٤ يوما !.

وكانت روح القتال في قطعات المدينة عند بدء الحصار عالية(١٠) ، ولم يكن ذلك بدعا ، فلقد قهرت هذه القطعات الاتراك في (سلمان باك) في خضم ظروف لاتباريها أية ظروف عسيرة اخرى. والى بقية التشكيلات التي حملت عبء القتال هناك، كانت في القوة المدافعة : وحدة (اكسفورد) وبطرية متطوعة آحادها في الاكثر من المجنّدين الانكليز والهنود ، جرى تجنيدهم في مدن الهند ، وكثير منهم شباب يافع مستجّد التدريب . لقد تجلّت فيهم ، ابان الهجوم العنيف الذي جرى يوم الـ ٢٤ من كانون الاول على وجه أخص ، مزايا الثبات ، والصموت ،

للمستشفيات ، لذلك قام (طاونسند) بالابراق الى رجال الدين المسلمين في (دلهي) ورجال الدين لطائفة السيخ والدوكرا والراجبوت لكي يسمحوا لابناء طوائفهم بأكل لحم الخيل . وكان ان سمح رجال الدين المسلمون بذلك شريطة أن تذبح على مقتضى نص الشريعة الاسلامية . اما رجال الدين للطوائف الاخرى فلقد اجابوا ان لا مانع من اكل لحوم الخيل ابان الحصار ، لذلك ذبح طاونسند ١٠٠٠ من الخيل . [المترجم]

(١٠) اليك بعض التفصيلات الموضحة عما اكتنف هذا (الحصار) وما حمل عليه :

كان أول ما كتبه طاونسند في (يومية) ، اثر دخول قطعاته المتراجعة الكوت : « اروم الدفاع عن الكوت كما دافعت عن جترال Chitral » . لكنه كان يعلم ، من دراسته الدقيقة للتأريخ العسكري ، ان « المعسكرات المخندقة المحاصرة » مصيرها التسليم ، ولا أدل على ذلك مما حدث لـ (بازين : Bazaine في (ميتز : Metz) ولـ (كورنواليس : Cornwallis) في (يوركتاون : Yorktown) ولـ (ماك : Mach) في (الم Ulm) ولـ (ماسينا : Massena في (جنوه : Genoa) . لقد وعد بفك الحصار عنه في غضون شهرين فأبرق يقول : ان الجيش التركي ، ذا الفرق الست، سيطبق عليه وعلى الفرقة السادسة في الكوت قبل ذلك وسيمحي وجنوده من الوجود وتلك ضربة ماحقة ساحقة للسمعة البريطانية في بلاد ما بين النهرين وللحكم البريطاني في الهند . لقد كان يؤمن بان افضل ما يستطاع هو ان يحتذى حذو (عصمان باشا) القائد العثماني الذي دافع عن (بليفنا : Plevna) فاوقف زحف الروس وانقذ القسطنطينية ، وان حصار الكوت يمكن من الحفاظ على ولاية البصرة بيد الانكليز ويعطي (القائد) الوقت الكافي لترصين نجداته فتنقذ (الحملة) كلها من كارثة . [المترجم]

والشـــجاعة التي اشتهرت بها وحـــدة نابهـة الشأن كهــــذه الوحـدة .
وعندما كان الحصار في أيامه الاخيرة الحتمية ، كانت النفوس تخور أحيانا ،
فلقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين ، لكن المعنويات لم تكن في الدرك
الاسفل الذي يصوره ال (جنرال طاونسند) في (كتابه) ، ويتفق على هذا من بقي
على قيد الحياة من ذوي الخبرة الشخصية ، كما تتظافر عليه المؤلفات المعاصرة .
على أن هناك من كان يشعر بأن روح القطعات كان في الامكان ان ترتفع نتيجة
زيارات (القائد) ، الذي لم يكن ليشاهد الا لماما . وكانت نسبة الفرار واطئـة ،
كما أن النشرات الصبيانية التي كانت ترميها الطائرات التركية والتي تحث على
أن يترك الجنود الهنود المدينة ، وتذكر أخبارا حربية مضحكة ، لم يكن لها أي
أثرا أبدا . لقد ثبت ان كمية العتاد التي بعثت القلق ، ابان بدء الحصار ، كانت
وفيرة ، والى الاتراك يزجى الشكر لانهم أخذوا بطرائق تعبوية سلبية نسبيا .

ولقد بقي من العتاد شيء كثير في النهاية ورُمي في النهر من دون أن يدمر التدمير
اللازم ، لذلك أخرجه الاتراك واستفادوا منه بازائنا على شكل الغام ارضية .

وشرع الاتراك بالاطباق وقاموا بهجمات عديدة ، لكنهـا لم تكن ، عـلى
كل حال ، ملحة . وعلى الرغم من أن تصرفهم كان باهرا في (طيسفون) ، فان
القوات المهاجمة لم تكن نشطة فعالة خلال الحصار ، واكتفت بقصف المدينة .
وكان الاتراك يرمون النساء والاطفال العرب الذين يقصدونهم طالبين الماء بالنار ، وكان
يسهم في ذلـــك الجنود الاتراك والمتطوعون العـــرب على حـــد ســـواء .
وقصف المستشفى بنـــار المدفعيـــة ، ومن الجو ، وكان القصف الجوي ذا
تأثير مروع ، وارتاع له المحاصرون والتاعوا . ويروى (بيشوب : Bishop)
في كتابه (ص: ٢٩)[١١] عن القس العسكري الصلب الصامد في الكوت (الاب
هـ. سبونر) قوله : « لاسبيل لمقارنة ما شهده في (سلمان باك) بما حدث لردهـة
المستشفى » . وكانت ضحايا القوة المدافعة ، حتى نهاية السنة : ١٧٧٤ ، وما ان
حل أول شباط الا ارتفع الرقم الى ٢٢٤٠ .

وفي ال ١٧ من كانون الثاني تبدلت الحال الى أسوأ حال ، فلقد بلغت عدة (قوة
الانقاذ) التي بامرة الجنرال المر Aylmer: ٩٠٠٠ ، وقامت بمحاولات مستميتة في

(١١) وهـو : Bishop: A Kut Prisoner, 1920. [المترجم]

سبيل فك الحصار ، ففشلت بعد ان تكبّدت من الضحايا ٧٠٠٠[١٢] • وتساقط المطر هتاناً ، بعد ثلاثة أيام ، فاصبحت الحركات في جميع الجهات من رابــع المستحيلات • ومن هذا الوقت فصاعدا ، اتضّح ان الاتراك لا ينوون القيام بغير حصار الكوت ، ولقد سحب ٢٠٠٠ من الجند من الكوت لحركات فارس الدائرة حقا • وقام (المِسْ) بمحاولات اخرى، على ما سيجيئك تفصيله في (الفصل القادم)، وكانت نتيجتها كنتيجة محاولاته السابقـــة • وبحث في أمر (كرّة) تقوم بهـــا (حامية الكوت) لكن الرأي انعقد على مناهضتها • ولم يكن احتمال الهزيمة قد نظر فيه من قبل المقر العام للجيش ، ورؤي أن نقـل ٤٠٠٠ جندي ، عبر النهر الى (شيخ سعد) ، الراكبة على الضفة اليمنى وحيث الاتراك على شيء من الوهن ، والاتصال بقوة الانقاذ ، لن يؤثر في الوضع شيئا ، بقدر تعلق الامر بتمكين حامية الكوت الباقية وعدتها ٣٠٠٠ من الاحتفاظ بـ (المدينة) الا بشق الانفس • ان عمليات (الكرّ) و (الفرّ) يجب ان تتخذ السرّ حجابا ، حتى آخر لحظة ، ان أريد لها أن تصيب نجحا • ففي (المدينة) بثّ العدو عيونا ، ومنهم من كان محترفا ، ومنهم من كان هاويا ، وكثير من الناس عبر النهر سابحا ، وولّى فرارا • ونبذت فكـــرة الكرّ والفر ، على كل حـال ، بتدمير الجسر العائم على دجلة ، يوم التاسع من كانون الاول، وذلك بعد اسبوع من وصول الـ (جنرال طاونسند)• لقد شعر هذا بانه ليس قادرا على الاحتفاظ به من جهة النهر اليمنى • ونسف بعملية عرّض خلالها الملازمان (ماثيوز) و (سويت) نفسيهما الى خطر جسيم ، فاستحقّا (نوط الخدمة الممتازة) ، وكان معهما متطوعون من (وحدة الكركة ٢/٧)

---

(١٢) تعزى خسائر الجيش البريطاني الفادحة ، في هذه الآونة ، الى أن قطعـاته كـانت تتقـدم قبــل (الوقت المناسب) ،وتحشيده القـوات عـلى استعجال ، وارساله الجنود الى (الجبهة) أثر وصولهم البصرة توا، يضاف الى ذلك ان الجنود كانوا يلحقون بألوية هي غير ألويتهم الاصلية ، وادخالهم المعـارك قبل استكمال العدد والعدة ، على حين كان اعداؤهم ،الاتراك، يسيطرون على الجو تدريجيا • أما الطيارات التي كانت لدى (طاونسند) في الكوت فلقد ارسلها الى (علي الغربي) ــ على الرغم من حاجته اليها لفقدان قطع الغيار اللازمة لها من جهة ، واشفاقه من أنها قد تدمّر بنار القذائف أن بقيت في الكوت من جهة أخرى •

[المترجم]

ووحدة المهندسين ، لكن كثيرا من مواد الجسر فقدت ابان هذه العملية ، وبذلك انعدمت لدى (طاونسند) القدرة على نصب جسر جديد ، فاحتجاز أكبر عدد ممكن من الاتراك ، اذ ما أن علم هؤلاء انه لن يستطيع الى عبور النهر سبيلا ، الا عمدوا الى خفض القوة المحاصرة الى حدها الادنى •

وفي اليوم الاول من شباط جعلت الجراية نصف ما كانت عليه قبلا ، وزيد من خفضها يوم الـ ٩ من آذار فاصبحت لا تزيد على ما يسدّ الرمق بالنسبة للحامية كلها • بذلك ارتفع عدد المرضى حتى يوم الـ ٢٩ من نيسان حين سلّمت الى الاتراك نهائيا • وعبثا يحاول المرء باحثا في كتاب (جنرال طونسند) او في غيره من المؤلفات التي تتصل بحصار الكوت عن أية اشارة الى أية محاولة في توزيع الطعام توزيعا علميا منهجيا ، سواء أكان ذلك بالنسبة الى جنود القوة على اختلاف صنوفها أم بالنسبة الى سكان المدينة العرب • ولم يستفد احد من الخيول والبغال (والاخيرة على ما يقول « بشوب » ، كانت أفضل) على أوسع وجه • ويقول (باربر Barber) في «كتابه» (ص ١٥٣)[١٣] : « ان مطعم الضباط كان يصطلي طوال أيام بنار وقودها (بسكت) الجيش التركي • وكانت هناك كمية حسنة من زيت الوقود ، توزّع بدلا من الخشب » • وهذا الاجراء ، على ما يقول (باربر ص١٥٣) انقذ الوضع ، بقدر تعلق الامر بالمحروقات وكميتها ، وان تعرّضت الى التبديد ، من الدهر حينا • وكانت المخازن الخبيئة تكتشف دواما ، ولم يتمّ مسح منتظم لما في الكوت من مخازن الميرة الا بعد أن قام الـ (جنرال المر) بهجوم مبتسر ، وفقد خلاله ٧٠٠٠ من الضحايا[١٤] • وعلى مارأينا قبلا ، لم يقم الجنرال طاونسند باجلاء سكان الكوت

---

(١٣) وهو : Barber: Besieged in Kut and after, 1917
[المترجم]

(١٤) من الغريب أن قوة (المر) هذه ، وهي زاحفة ، كانت تعدم وسائط النقل اللازمة لحمل لوازمها ومؤنها ، ولو بلغت الكوت حقا لوجب اطعامها من القوت الشحيح الموجود فيها ، وعلى الرغم من ذلك تقرر أن يندفع (المر) على ضفة دجلة اليمنى وأن يعبر (طاونسند) النهر بطريقة ما ليتعاون معه فتقضي القوة البريطانية على الاتراك قبل أن يحلّ موسم الفيضان ، لكن قوة (المر) اخفقت في تحقيق هدفها فعزل هذا (الجنرال) • [المترجم]

لأسباب سياسية ، لم يكن هو أفضل من يستطيع الحكم عليها، كما انه رفض نصيحة أسداها له عميدان من عمداء الجيش الهندي ، وخبيران جدا بالقطعات الهندية ، بقدر تعلق الامر باستهلاك لحوم الخيل من قبل جنودها • وكان الجنرال ميليس Melliss يرى ، منذ البداية ، وجوب اصدار أوامر قاطعة الى القطعـات الهندية بلزوم أكل لحوم الخيل ، وكان الجنرال ديلامين يشاطره الرأي هذا • لكن (الجنرال طاونسند) كان يذهب الى انه اجراء شديد قاس لن يستطيع الى اتخاذه سبيلا • لقد كان ال (جنرالان) يعتقدان بأن التصريحات المليئة بالتفاؤل التي يطلقها آمرو الفرق تؤدي الى اصرار الجنود على الامتناع عن أكل طعام لم يعتادوا على تناوله • وتمّ الحصول على السماح الديني اللازم في هذا الباب ، وقام الضباط الهنود بافضل مايستطيعون في هذا الصدد ، لكن الجنود كانوا على ثقة من أن الحصار سيرفع في حينه •

وفي ال ١٢ من نيسان طوى (العميد هوكتن) الردى ، متسمّما بأعشاب كانت تجمع ، من دون تبصّر ، فتتخذ ، في هذا الوقت ، من قبل الجنود الهنود قوتا يغلب سعار الجوع وشفاءاً من (مرض الاسقربوط : Scurvy)، وكثير منهم لقي حتفه على غرار الجنرال المذكور • « وعلى الرغم من ذلك » ، ـ على ما كتب (باربر) ـ ومن قيامنا باطعام مئات من العرب ـ وبسخاء لكثير منهم ـ فان قلة منهم ظهرت عليها امارات الهزال من مسغبة ، وحتى النهاية • وكان الاطفال يتراؤون على حظ من سمنة ، ولم يظهر عليهم انهم يشكون من طعام قلة[١٥] • وكانت ثمة محاولـة لاستنبات الخضر ، لكنها كانت واهنة ، وثمة حديقة استنبتها الرائـد كونن ، الذي مات في بغداد أســـيرا ، جهزّت المستشفيات بالخضروات ، وكان جني غراسها كثيرا • »

وخلال أيام الحصار الاخيرة ، وفي ليلة الرابع والعشرين من نيسان ، على التحديد ، جرت محاولة باسلة ، اذ ارسلت ســفينة محمّلة بـ ٢٧٠ طنا من طعام ، وسارت صُعُدا في دجلة ، عساها تبلغ الكوت سالمة • انها السفينة المسماه

---

(١٥) لايؤيد هذا الراي : موزلي • [المؤلف]

(جلنّار) وقد اختيرت وزوّدت ببحارة متطوّعة[١٦] ، جعلت بامرة (الكوماندر فرمان) المنسوب الى (البحرية الملكية) وال (كوماندور المساعد كاولي) المنسوب الى الاحتياط في (متطوّعة البحرية الملكية) ، ومن مستخدمي (شركة الملاحة في الفرات ودجلة) ، وهو من أمضى ثلاثا وثلاثين سنة ماخرا عباب دجلة . وكان أن أوقف سير الباخرة المذكورة بواسطة سلك مدّ عبر النهر فانهالت عليها نار مدفعية الاتراك ، فاستقرّت على اليبس ، وتمّ الاستيلاء عليها . وقُتل في أثناء ذلك كل من (فرمان) و (كاولي) ، لكنهما مُنحا ، بعد أن طواهما الردى ، (صليب فيكتوريا) دبيراً جزاءا وفاقا »[١٧] . يقول هربرت (ص ٢٢٣) : « ان لدى كاتب هذه « الخواطر » صورا بطولية عديدة ، ولكنها لا تفوق في بطولتها بطولة الباخرة الصغيرة (جلنار) ، وهي تسير سيرا بطيئا وئيدا ، في دجلة صُعدا ، والاتراك يصلونها نارا ، ولتلقى ، بعد ذلك ، على يدهم حتفها . « وبقي الناس على جهل ، استدام طويلا ، بصدد كيفية موت (كاولي) :أكان ذلك وهو على « جسر السفينة » أم كان بنار الاتراك ، أخيراً . لقد قال الاتراك انهم وجدوه على ظهر السفينة (جلنار) ، قتيلا ، على حين أنكر ذلك من بقي من بحارتها حياً ، ومنهم الملازم الثاني البحري (ريد) المنسوب الى الاسطول الملكي الاحتياط ، خصيصا . ثم قال الاتراك بعد ذلك ان حرّاسه قتلوه ، ابانّ محاولته الفرار ، وهي من أقدم كذبات القتال . ولقد أثبتت التحريات التي جرت بعد فتح بغداد (والتأريخ الرسمي يقرّها) وعلى ما قال (موزلي) : ان قد القي القبض على (كاولي) حيّا وانه ، بأمر من (نورالدين) ، رمي بالرصاص ، باعتداده من رعايا الاتراك . ويروي (باربر) (ص : ٢٣٠) عن ضابط تركي انه و (فرمان) شيّعا تشييعا عسكريا ، اشادة بمسعاهما . لقد قال لي (كاولي) ، وكنت أراه كثيرا في جبهة الناصرية ، ان الاتراك سيرمونه بالرصاص ان ألقوا القبض عليه حيّا . لذلك فان تطوّعه ، على الرغم

---

(١٦) عندما دعا الاميرال ويميس متطوعين من الاسطول البحري لبى النداء كل بحار فيه . [المؤلف]

(١٧) London Gazette, 2nd Feb, 1917 [المؤلف]

من علمه بهذا ، يؤهلّه لأن يبقى اسمه خالدا في تأريخ شعبنا • انه ، على ما يقول اوبري هربرت : « انكليزي حقاً » •

وفي خـلال الاسبوعين الاخـيرين من حصـار الكوت جـرت محـاولة لاسـقاط الطعـام الى المحاصرين من الجـو ، لكننـا كنـا نعـدم الطائرات اللازمة لذلك ، والخبرة المطلوبة ، ان اريد لمثل هذه العملية أن تنجح طبق حاجة الـ (جنرال طاونسند) • ان الحدّ الاقصى لما يمكن اسقاطه يوميا هو طن واحد فقط ، ولم يزد ما اسقط عن ٧ أطنان ، وكان ذلك من علو يتراوح بين ٥٠٠٠ ـ ٧٠٠٠ قدم • ولم يكن هذا بشيء يؤبه له بالنسبة الى حاجة من كانوا في الكوت وعدتهم : ١٩٠٠٠[١٨] (٣٠٠٠ من البريطانيين ، و١١٠٠٠ من الهنود و٥٠٠٠ من العرب) ، وما هو ببالغها •

ويقول الـ (جنرال طاونسند) في (كتابه) ان معنوية الجنود الهنود في هذا الوقت كانت سيئة ، وان الفرار من الكوت كان بنسبة عالية • ولا يشاطره هذا زملاؤه من القادة الكبار من أمثال الـ (جنرال ميليس) والـ (جنرال ديلامين) ، وهما من كانا على صلة وثيقة بالجنود الهنود ، على حين كان الـ (جنرال طاونسند) عنهم بعيدا ـ اذ لم يكن يشاهد الا لماما ـ كما ان ما ذهب اليه طاونسند لا يقرّه العقيد هيهرا ، المنسوب الى مصلحة الصحة الهندية أيضا • ويفصّل (التأريخ الرسمي) رأيه تفصيلا • ويكفي في مثل هذا المقام أن نورد ملاحظة معـاصرة دوّنتها يراعة الاخير يوم الـ ١٨ من نيسان : « ان الجنود في أزمة حاطمة وكأنهم في (سني يوسف) فهم يعانون من الجوع كثيرا، لكنهم يبدون من الصبر والثبات شيئا عظيماً • ان الجنود البريطانيين والهنود يستحقون على ذلك شكرا وحمدا • واني اذ أقول ذلك ، وقد عشت بينهم يوميا ، واطلعت على الوضع السائد وما يتصل به من حقائق ، اطلاعا وثيقا : لا جرم ان تصرّف الجنود ، وهم يجبهون مثل تلكم الاوضاع الحرجة ، بكرة وعشيا ، لا يخالطهم ابانها حزن ولا يشوبهم

---

(١٨) انها أول خطة اختطت في تأريخ الحرب حتى هذا التأريخ •
[المترجم]

أسى ، يعتدّ تصرفا بطوليا . »[19]

وبصدد الفرار نقول : ان الحـــوادث القليلة التي وقعت كانت من قبـــل آحاد القبائل الساكنة على الحدود ، أو عَبْـر الحدود ، في الدرجة الاولى . لقد حدثت بترحيب من اناس يدينون بدين الفارين ، من جهة ، ومن الجهة الاخرى ، لقد شعر الفارون ان الحكومة البريطانية لن تضمن ، في حالة وفاتهم ، تعاقب ورثتهم الشرعيين في بلادهم .

وتقرّبت النهاية المحتومة : ذلك ان المحاولات الباسـلة التي قامت بهـا القوات البريطانية على نهر دجلة ، وما اشتملت عليه من خسائر ، بلغت عدّتها من القتلى والجرحى عدّة حامية الكوت كلها ، وأسفرت عن نتيجـة غير ذات جدوى . وجرت محاولة أخيرة كي تحصل الحامية على شروط ما . ففي ال ٢٣ من نيسان اقترح ال (جنرال طاونسند) أن يتقدّم ال (جنرال ليك) ، الذي خلف ال (جنرال نيكسون) ، بطلب الى خليل باشا ليسمح للحامية بأن تترك الكوت على ظهور السفن ، على أساس الوعد الصادق : On Parole [20] ان لزم ، وتسلّم المدينة . فهذه ، على ما أفاد ، شروط شريفة ، لكن موافقة الاتراك عليها تتطلّب مالا . ذلك ان الاخيرين لا يستطيعون الى اطعام (قوة الكوت) سبيلا ، ولا يتمكّنون من نقل الاسرى الى بغداد الاّ على الاقدام سيرا . وعلى مثل هذه الحال ، اما أن يموت الجنود وهنا ورهقا ، أو على أيدي الاعراب حتما . وأجاب ال (جنرال ليك) بأن المفاوضات يؤمّل ان تصيب نجحا ، لو فتحها ال (جنرال طاونسند) شخصيا . وما كان من شيء يسهّلها الا المال ، فلقد كانت للاتراك

---

(١٩) كانت الخيول تذبح لتؤكل ، وهو بالنسبة اليها أفضل من المـوت جوعا ، وكانت عظامها ، بعد أكل لحومها ، تغلى ويصنع الجنود منها حساءاً ثـــم يقضمون العظام ، جنديا اثر جندي ، أخيرا . وقد ينجم بينهم عراك منشؤه من يحصل على العظم الاخير انتهاء، وهكذا كان الوضع و(ليقضى الله أمرا كان مفعولا) راجـع : E. Sherson: Townshend of Chitral & Kut, p. 322

[المترجم]

(٢٠) ومحصله : ان ترحل (القوة) عن العراق وتتعهد بعدم الاشتراك في قتال ما بازاء الاتراك حتى نهاية الحرب . [المترجم]

فيها اليد العليا • وبعد تبادل برقيات ، كتب ال (جنرال طاونسند) يوم ال ٢٦ الى (آمر القوة المحاصرة في الكوت) ، والى (خليل باشا) ،يقول : انه مخوّل بفتح باب المفاوضة • وأجاب خليل باشا في اليوم نفسه بقوة ، وبلطف أيضا ، يقول : انه يطلب أن يتمّ التسليم من دون قيد أو شرط ، ويضيف الى ذلك : ان ال (جنرال طاونسند) ، وجنوده ، سيعاملون ، بعد التسليم ، بالاحترام الذي يستحقونه لما أبدوه من بطولة في الدفاع • وأعقب ذلك اجتماع بين طاونسند وخليل ، لكن الاخير لم يكيّف شروطه ، بل وعد بمراجعة أنور باشا • وكان أن اقترح ال (جنرال طاونسند) أن يجتمع خليل باشا بال (جنرال ليك) ، ومعنى ذلك التأخير على كل حال ، فال (جنرال ليك) لم يكن بمقربة • وعرض على ال (جنرال طاونسند) أن يساعده ثلاثة من الضباط في المفاوضة ، كما طلب اليه أن يشترط ضمانا يقدمه الاتراك بأن لا يثأروا من أهل الكوت المدنيين • وعلى كل حال لم يشر أحد هذه النقطة ، وان بذل النقيب هربرت بأخَرَة كل مايستطيع بشأنها ، على ما ذكر في (كتابه : ص : ٢٣٤) • وطلب ال (جنرال طاونسند) في كتاب آخر أرسله الى خليل باشا أن يسمح لقواته بالرحيل على أساس (الوعد الصادق) وأن يسلّم ما عنده من مدافع ، وعددها أربعون مدفعا ، وأن يدفع ، على ما خولتّه الوزارة البريطانية ، مليونا من الجنيهات الاسترلينية • وليس بجليّ ان كان هذا المبلغ سيدفع لحسابي خليل وأنور الشخصيين ، أو انه لمساعدة الحكومة التركية على المضي في الحرب قدما • ولم يكن مثل هذا المبلغ في بلاد ما بين النهرين موجودا ، كما لم يكن في الهند أيضا • لقد كانت دور ضرب العملة في الهند تعمل ليلا ونهارا دائبة على تحويل الفضة الى روبيات سبكا • ولنا أن نزعم ان الحكومة البريطانية فتحت اعتمادا في الولايات المتحدة الامريكية بمثل هذا المبلغ ولحساب الحكومة التركية ، وفي مقدور أمريكة أن تخوّل الحكومة الالمانية أن تسحب منه للصرف على ما تحتاج اليه • وخوّل ال (جنرال طاونسند) أن يبادل الاسرى الترك بالاسرى البريطانيين ، والهنود بالاسرى العرب • ولو صدّقنا ما تقوله المصادر الالمانية فان خليلاً اقترح على أنور باشا

أن يسمح للحامية بالرحيل على أساس (الوعد الصادق) ، لكن الاخير أجاب بالرفض البات، مبينا أن لـ (جنرال طاونسند) وحده أن يرحل على أساس (الوعد) المذكور شريطة أن يسلّم المدافع والميرة الحربية تامة غير منقوصة ـ أما البقية الباقية من الحامية فليس لها الا التسليم من دون قيد ودون شرط[٢١] . وأضاف أنور باشا في كتاب آخر ان تركية ليست بحاجة الى مال ، وذكّر خليل ان عشرة آلاف تركي استشهدوا في الكوت ، فلابد مما ليس منه بدّ !

وما أن ابلغ الأمر الى لندن الا بادرت الوزارة البريطانية الى استباق الخطب بالاستعداد لدرئه ، وقبل أن تدهمنا داهمة وتلمّ بنا ملمّة ، فزادت المبلغ المذكور الى مليوني جنيه (ومن قصد البحر استقلّ السواقيا) ، وهذا عمل عجب يناهض أقوال مستر اسكويث ، قبل ثلاثة أشهر[٢٢] ، من ان حملة ما بين النهرين على انها مهمة ، لكنها واهنة الشأن بالنسبة الى حركات الحلفاء الحربية بازاء الدول المركزية .

---

(٢١) في كتاب [حوصرت في الكوت ، وما في أعقاب ذلك Besieged in Kut and After] ، لمؤلفه المقدم الطبيب باربر Barber ، وصف لبعض جوانب حال (الحامية) المحاصرة نلخصها فيما يلي السطر :

١ ـ لجأ الجنود المحاصرون الى اصطياد الغربان والعصافير وغيرها للافادة من لحومها النزرة .

٢ ـ نزع الخشب من سقوف بيوت الكوت وابوابها ونوافذها واتخاذه وقودا .

٣ ـ كان يجرى مزاد على مخلفات القتلى والمتوفين من المرض فتبلغ اسعارها أرقاما خيالية لان النقود كثيرة والمواد شحيحة .

٤ ـ عندما كانت تغير الطائرات على المدينة كانت النواقيس المنصوبة فيها، والمتخذة من أغلفة القذائف ، تدق بمثابة صفارات الانذار اليوم .

٥ ـ بلغت حصة الجندي المحاصر نصف رغيف يوميا ،ومن يقسم الرغيف يخول رفيقه ان يختار النصف كيلا تكون القسمة ضيزى ويحدث ما لا تحمد عقباه .

٦ ـ شنق الاتراك كل من تعاون مع الانكليز ابان الحصار وفي مقدمتهم الترجمان اليهودي ساسون كما اعدم آخرون رميا بالرصاص من الخلف باعتدادهم خونة . [المترجم]

(٢٢) راجع : Debates H. C. 15.2.16 [المؤلف]

لقد ترك لنا الراحل النقيب اوبري هربرت (النائب في البرلمان البريطاني) ـ الذي أسهم في هذه المفاوضات مع العقيد بيج ، رئيس شعبة الاستخبارات في القوة الاستكشافية الهندية « د » ـ ما يسجلّ ذلك (ص ٢٢٦ وما بعدها) بشكل ناقص. ان أمرها قد ورد في (التأريخ الرسمي) على وجه التمام، لكن ذلك كان من دون تعليق ؛ لذا ، ليس من مثل هذا (التعليق) بدّ على كل حال . ان تقديم مال في مثل هاتيك الظروف ، قبل كل شيء ، أمر غير مسبوق ، ومصيره الفشل المحتوم .. لقد استشير في أمره سر برسي كوكس فناهضه بشدة ، ذلك انه كان يعتقد ان لن يكون له تأثير في (قضيتنا) ، وان مجرد معرفة النـــاس بأننا قدمناه ذو أسوأ تأثير . لقد انسحب من المفاوضـــة عـلى مثـل هـذا الاساس ، صراحة ، فنيطت بغيره ولقد أثبتت الوقائع ما كان يراه مسبقا . وعلى الرغم من ان تقديمنا المال لافتداء (الحامية) وخلاصها كان أمراً عن الصحافة البريطانية مخفيا ، الاّ ان الدول المركزية أذاعته في أرجاء العالم طرّا ، فأصبح مادة خصبة لكثير من مقالات الصدر والصور الكاريكتورية معاً . واعتدّ رفض أنور باشـــا للمال صنيعا شريفا . وقيل : لقـــد دنت ساعة انكلترة ، فالذهب الانكليزي لن يسود حيث خاب السلاح الانكليزي . وقُدّر لي أن أقرأ ، بعد سنين ، أمثال هذه الكتابات أو ترجماتها ، فكان ذلك يحزّ في نياط قلبي . لقد أعلمني كثيرون، ومنهم عرب وفرس وترك ، ان محاولة ارشاء أنور بهذا المال ، على ما وصفت دوما ، وبسبب احاطتها من قبلنا بالكتمان الشديد ، أضرّت بنا كثيرا . ينضاف الى ذلك كله انها كانت سياسة سيئة ، وحتى في سنة ١٩١٦ أيضا ، اذ ان معنى ذلك تقديم النقد والمدافع الى عدونا لقاء حماية اناس مرضى ، وان كانوا بواسل شجعانا ، بازاء مصير حربنا . وأكثر من ذلك : ان فكرة تقديم نقد بهذا المقـــدار الكبير راودتنا في آخر لحظة[٢٣] ، كشأن سائر الافكار الاخرى التي راودتنا في هذا الوقت من معركة بلاد ما بين النهرين ، وكل ذلك بدون ما يلـــزم لها من التأمل والتمحيص في (المقر العـام) في بلاد ما بين النهـــرين وفي وزارة

(٢٣) من قبل الـ (جنرال طاونسند) على ما ورد في (التاريخ الرســمي ج٢ : ٤٥٠) . [المؤلف]

الحرب ، وكان وزيرها لورد لجبر ـــ ، رئيس راي حكومة الهند أيضا ، ولم يستبن أحد من خلال المخابرات الرسمية التي نشرت حول الموضوع رأي (الضابط السياسي الرئيس) • ان تدريبه السابق ، ونباهة شأنه ، والواجبات الخاصة المناطة به من قبل (الحكومة) تجعله أفضل من يستطيع اصدار (حكم فصل) في (القضية) ان اريد لها أن تعالج على الوجه السليم • لقد كان من الواجب أن يُستشار في مصير عرب الكوت ، فخبرته الطويلة كمفاوض تجود في هذا الباب بنتيجة مفيدة •

وسلّم الـ (جنرال طاونسند) يوم الـ ٢٩ من نيسان ، بعد أن دمّر مدافعه تدميرا ، واستشاط لذلك خليل باشا غضبا • وكانت قوة الـ (جنرال طاونسند) مؤلّفة على الوجه التالي :

ـ ضباط بريطانيون	٢٧٧
ـ ضباط هنود	٢٠٤
ـ جنود بريطانيون	٢٥٩٢
ـ جنود هنود	٦٩٨٨
ـ أتباع هنود (غير محاربين)	٣٢٤٨
المجموع :	١٣٣٠٩

وقُتل ١٠٢٥ من المحاصرين متأثرين بجراحهم ، ومات ٧٢١ بنتيجة المرض ، وجرح ٢٥٠٠ ، وفقد ٧٢ وكل الذين قتلوا أو أُسّروا عند رأس الجسر يوم الـ ٩ من كانون الاول كانوا ، على التقريب ، من وحدة البنجابيين/٦٧ •

وكان في المستشفى ١٤٥٠ من الجرحى ، ولقد جرى تبادل ١١٣٠ منهم ، باعتداد حالتهم أسوأ ما تكون ، وأُرسلوا في النهر نُزُلا ، كما أرسل أكثر من ذلك في أعقابهم بعد شهور: ٣٤٥ من بغداد، وبلغ مجموع الاسرى ١٢٠٠٠ تقريبا، مات منهم أكثر من: ٤٠٠٠، وكثير منهم اكتنفت موته ظروف سنصفها في فصل مقبل، سداها القسوة ، ولحمتها الاهمال الفظيع • لقد ضمّت تربة تركية رمم ٧٠ بالمئة من الجنود

البريطانيين !

لقد شهدت الكوت ، وهي تُحتل من قبل الاتراك ، مشاهد[٢٤] : فقدان ضبط وربط ، وعنف ، وقوة مدمّرة بربرية (لا تذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم) • لقد سُلب ضباط كبار وجنود ، ومرضى ، وجرحى ، وكان السالبون من جنود الاتراك والعرب ، وضباطهم يشهدون ، كما كانت أية مقاومة لذلك تقابل بفعل لا رحمة فيه ولا هوادة • كان طعام المحاصرين يسرق ، وما كان عندهم الا رمقة وبُلغه ، كما كانت تنهب أحذيتهم وأغطيتهم أيضا • وعذّب سراة العرب الذين وقفوا بازاء الاتراك عذابا شديدا وضربوا ضربا مبرّحا ، شأنهم في ذلك كشأن تراجمة القوة ، وبضمنهم (ساسون) الذي شنق بعد كسر رجليه فاحتضرت كلماته من خوف على شفتيه وجمد ريقه في فمه وتدلى من المشنقة ، أصفر الوجه ذابل العين ، لقد عذّب أولا عذابا غليظا فرمى بنفسه من حالق بيت فكسرت رجله لكي يقتل نفسه •

لقد أجاز الاطباء الاتراك أن يسير جنود الى الأسر من دون أن يأبهوا الى حالتهم الصحية • وكان أن مات كثير ممن صنّفوا على أساس انهم كفاة للسير الى بغداد ، في الكوت نفسها ، وقبل أن يمكن نقلهم من المستشفى • لقد أرسل الى بغداد جنود كانت أرجلهم المكسورة موضوعة بين خشبات ، ومنهم من كان

---

(٢٤) يقول كيلنك في كتابه:« مغامرات في تركية وروسيا ، ١٩٢٤ :
Keeling: "Adventures in Turkey & Russia, 1924".

ان مثل هذه الوقائع شاذة • [المؤلف]

قلنا : عندما كان ال (جنرال طاونسند) في اسره الريح الهنيء في جزيرة برنكيبو Prinkipo قرب اصطنبول كان ذات يوم يتناول غداءه في (نادى بيره) وعلى مائدة كانت تضم شخصيات تركية والمانية كبيرة • وجرت مناقشته على (المائدة) حول كيفية انهاء الحرب • وادلى الحضور بارائهم وانثنى أحدهم الى طاونسند الاسير يسأله رأيه ، فما كان منه الا ان قال : أأستطيع ان اطلب اخلاء هذه المائدة من كل شيء فوقها ؟

وما ان اجيب سؤله الا وضع طاونسند عليها (باونا ذهبا) وطلب من الباقين تغطيته باوراق نقد المانية وتركية وما ان فعلوا الا نفخ في (الكومة) فطارت الاوراق وبقي (الباون الذهب) ••• وأراد بذلك لمن ستكون الغلبة •

[المترجم]

محطّم الفخذين أو أصاب عموده الفقري ضرّ ، فمات مثل هؤلاء في الطريق ، بقلب كسير وكبد حرى .

وكان يوم الـ ٢٣ من نيسان يوم (عيد الفصح) ، وقد سبق تسليم الكوت باسبوع . فكم من الذين اتخذوا السبيل الى الكنائس في انكلترة خلال الاسبوع المقدّس أدركوا مغزى « الدرس الصباحي » ليوم الاربعاء السابق ليوم عيد الفصح ، بالنسبة الى رفاقهم في الحامية المنكوبة .

« ان من يقتل بحد السيف خير ممن يقتل بفعل الجوع[٢٥] ، ذلك ان مثل الاخيرين يرحلون وهم يتوقون الى جني فاكهة الحقول الشهية » .

« لم يكن ملوك الارض وسكانها على اعتقاد بأن العدو يستطيع أن يلج من الابواب » .

« أما نحن ، فلقد خابت منا الاعين عن اسداء العون لنا ، لقد راقبنا أمة لا تستطيع الى تخليصنا سبيلا . »

« انهم يقتفون خطواتنا ، فلا نستطيع الى أن نتّخذ في مسالكنا سبلا. ان نهايتنا لقريبة وأيامنا قد تقضّت ولقد سبق السيف العذل .. ها قد دنا مصيرنا المحتوم ! » .

من ندب جرميا (٤)

(٢٥) لقد أخذت بهذا المبدأ الخزانة البريطانية عندما خصّصت معاشا تقاعديا كبيرا لنسوة الضباط الذين قتلوا في أثناء الحركات الفعلية ، يفوق ، في مقداره ، المعاش الذي خصص لنسوة من مات من الضباط بسبب المرض أو في السجون . راجع : Debates, H.C., 14.8.16 (المؤلف)

الفصـــل الثامن[1]

زيارة الهند : محاولة في سبيل انقاذ الكوت

اكل هذا العناء لمثل هذه النتيجة ...

بعد ان يذبح هذا العدد الكبير من النبلاء والرؤساء والاماجد والجنود !

لقد انقلبوا في هذا الصراع رأسا على عقب وباعوا جسومهم في سبيل مصلحة بلادهم !

امن الحق ان نعقد مثل هذا الصلح المخنث في خاتمة المطاف ؟!

شكسبير : « هنري السادس » (الباب الاول) (الفصل الخامس) (المشهد الرابع)

كانت الدائرة السياسية في البصرة ، طوال شهرين من مغادرتي الناصرية ، تلفني بشملة أعمالها ساعات اليقظة كلها ، لا أستثني من ذلك الا يوما واحدا كنت أقضيه في (النادي) الكائن على الطريق المارّ من خلف بناية شركة كري مكنزي . ان هذا النادي لصغير ولطيف ، وقد أسّسه ، أصلا ، البريطانيون المقيمون في البصرة ، في الايام التي سبقت الحرب ، باعتداده منتدى اجتماعيا .

وما أن أعلنت هذه الحرب الاّ قام أعضاؤه بجعل جميع ضباط (الحملة الاستكشافية البريطانية) أعضاء شرف فيه ، وكان ذلك عملا سخيا كريما . وما كان الشراب ليباع في محلّه المخصّص في النادي (البار) ، لقد كان الشاربون يوقّعون على « جذاذة » ، وهي « الطريقة القديمة السيئة » ، ثم تعدّ ، بعد ذلك ، قائمة ، مرفقة ، ومدعومة بوصولات لا تعد ولا تحد ، وترسل الى صاحبها شهريا . وعلى الرغم من ان النادي كان يبيع بهذه الطريقة مقدارا من الشراب كبيرا ، اذ هو المكان الوحيد الذي يستطيع الضابط أن يحتسي فيه في جو كريم شرابا ، باستثناء

---

(١) مراجع الفصل :

Official History, Critical Study, Bird, Candler Younghusband.

(المؤلف)

(خيمة المطعم) القذرة ، الا ان النادي جابه صعوبات مالية جمة ، فأعضاؤه الشرف كانوا من آلاف الضباط الذين يمرّون بميناء البصرة وطريقهم في النهر صُعُدا • ومن قتل منهم كثير ، وكثيرون جُرحوا أيضا ، ومنهم من أُسّر ، ومنهم من نقل الى ميادين الحرب الاخـــرى • لذلك كان استيفاء المبـــالغ الواردة في القوائم المذكورة أمرا عسيرا جدا ، وان كثيرا منها شُطبت باعتدادها غير قابلة للتحصيل أبدا • وفي سنة ١٩١٦ أُلغي نظام البيع بـ (الجذاذة) واستبدل بنظـــام الدفع نقدا • وفي هذا الوقت عينه ، نسي أولو الامر في النادي لِمَ أُسِّس أصلا ، وقال لي أحد ضباط القيادة العامة الكبار ، في أوائل سنة ١٩١٦ ، جادّا ، ان ثمة مقترحا يهدف الى منع المدنيين من الاختلاف الى النادي منعا باتا ، حذرا من أن تتناهى الى مسمعهم الأسرار الرسمية وهي تجاوز شفاه الضباط ، ابان ثرثراتهم ، (وكلُّ سر جاوز الشفتين شائع) ، ما في ذلك شك •

وفي تشرين الاول دهمتني البرداء (الملاريا) وكانت عليَّ شديدة الوطأة • ثم مرضت بالمرض المعروف بـ (برى ــ برى)[٢] ، فأخذت أسناني تتخلخل في اسناخها ، وأصاب الشلل يديّ وقدميّ ، وكان ينساب اليها متمهلا • وما كنت أستطيع السير الا على عصا ، وعلى عقبيّ مرتكنا ، ثم أصبحت أجـد في الكتابة عسرا • وكنت أعرف حال المستشفيات في مثل هذا الوقت تماما ، لذلك رفضت أن أحلّ في احداها نزيلا • وعالجني صديقي الدكتور فوربس بوري من مرض الأجميّة (الملاريا) بحقن الكنين في الوريد ، ونصحني ، بصدد بقية أمراضي ، بان أمضي الى الهند راحلا • وخلفني في منصبي مستر (وقد سما به سلم الرتب فأصبح ، بعد ذلـــك ، « سر ») روبرت هولاند ، المنسوب الى « سلك الخدمة المدنية الهندية » والذي عمل في « الخليج الفارسي » بوصفه المعتمد السياسي في مسقط • وكان أن رحلت على ظهر سفينة عائدة الى الهند ، وأنا لا أكاد أستطيع على القدمين سيرا • ووجدت على ظهر السفينة من البيرة شيئا ــ وما كانت هذه من صنع اليابان ، لكنها كانت من النوع الحق ــ وقد جرى في الهند تخميرُها •

---

(٢) مرض منسوب الى الشرق ، اعراضه : شلل جزئي وانتفاخ في الارجل ، وهو مسبب عن فقدان فيتامين (ب) في طعام لا يتألف الا من رز مقشور (المترجم)

وملت اليها فلازمتني عادة شربها دواما • والظاهر انها كل ما كنت أحتاج اليه ، اذ كنت لا أحسبها شرابا حسب ، بل أحسبها لحما • وما كان شعوري بصدد الكحول كمثل هذا الشعور ، فيما مضى ، وأحسست ان قدميّ أصبحتا تطاءان صعيدا زلقا • لكنني كنت أعلم اني مصاب بمرض (بري – بري) ، وان كثيرا من أصدقائي كانوا يرون ان قد حان حيني ، فشعرت بانني قاربت ميقات يوم معلوم : فاما أن تكون حياة ، واما أن يكون موتا •

وتحسّنت حالي دراكا ، وعزا الاطباء تَوْقي الى الشراب ، بعد الحادث ، الى نقص في فيتامين ، عوّضت عنه الخميرة الموجودة في الجعة (البيرة) • وفي التقرير الاحصائي عن الصحة في (الاسطول الملكي) ، الصادر سنة ١٩٢٧ ، عبارة دبّجتها يراعة ضابط طبيب في الباخرة الحربية ، لوبن Lupin ، مفادها ان المتنعين على الشراب ممن عملوا في الخليج « العربي » هم الذين اصيبوا ، خلال تلك السنة ، بمرض (بري – بري) ، حسب • ولقد أوضح وزير البحرية في البرلمان[٣] : « ليس حقا أن تُستنتج نتيجة ، كهذه ، بعيدة المدى » ومن مثل هذا الظرف عينه ، لكن تجربتي الشخصية ، قبل اثني عشر عاما ، تناهضها » •

ومَثلت في (بومبي) أمام لجنة طبية ، بالعمل مرهقة • وبينما كنت أدخل غرفة اجتماعها سمعت أحد أعضائها يرفع صوته مغنيا ، قائلا : « لقد فحصت اللجنة حالتك الصحية مليا • – (جانبا) ••• ما هي شكاتك ؟ (جانبا) ••• أين تريد أن تذهب ؟ الى (كولومبو) ، أجبته ، عساني ابدل ما كنت فيه من حال الى حال جديدة • » فقال : لن تستطيع الذهاب الى كولومبو ، خارج الهند البريطانية ، أين تريد أن تذهب ، سواها ؟ « بيشاور » أجبت • فردّد الصوت «بيشاور» ، « ولمدة ؟ » (جانبا) كم تريد من الايام اجازة ؟ « قلت ، أريد شهرا فقط »فرددالصوت : « شهرا واحدا » وعلى الطريقة العملية التجارية أعطاني (كاتب اللجنة) ورقة دوّنت عليها جميع الاجراءات اللازمة ، وبعد دقائق كان عندي اذن السفر بالسكة الحديد الى بيشاور • وفي الطريق اليها دهمتني

---

(٣) مجلس العموم البريطاني في ٦–١١–٥٦ (المؤلف)

الاجمية (الملاريا) كرة اخرى ، فشعرت ان ليس في مُكنتي أن أمضي ، بعدها ، قُدُماً . لذلك حملت نفسي على الخروج من المقطورة ، ومعي فراشي ، وكان ذلك في منتصف الليل ، عند دلهي . وكان أن ساعدني كنّاس المحطة فمددت فراشي على الارض عند زاوية من زوايا غرفة الانتظار وبقيت مضطجعا عليه حتى اليوم التالي ، وعنـــده غادرتني الحمّى . وحملت النفس على أن أخذ عربة والذهاب الى فندق ميدن . وقدّمت لي فيه غرفة نوم فوقانية ، ولكني كنت واهن القوى جدا ، لا أستطيع أن أرقى السلم اليها . وحاولت الصعود من السلم الى الغرفة المذكورة فكانت محاولتي فاشلة ، لذلك طلبت فراشا في الطابق الارضي ، فلُبّي طلبي . وبعد يوم ، أو يومين ، التقيت ، ابان وقت طعام الفطور ، بالمقدّم ماركهم كارتر ، المنسوب الى مصلحة الصحة الهندية ، والمولج بالشؤون الصحية في الباخرة المستشفى : فريلا . وإثر عبارة عابرة بدرت مني أخذنا نتبادل الرأي حول حال خدمات المستشفيات في بلاد ما بين النهرين . وقال : انه لم يترك شيئا الا فعله ، بقدر تعلق الامر بعرض هذه الحال على المقام الاعلى ، لكن معـــاملة « الجرّاح ـ العام هاثاوي » له كانت فظّة غليظـة ، ولقد هدده (نائب مدير الادارة) و (مدير الميرة) بالحجز والطرد من سفينته ، باعتداده « شخصا يتدخل فيما لا يعنيه » ، وطلب مني باعتدادي شخصا محايدا ، أن أسدي له عونا ، ان احتيج الى ذلك ، ما استطعت الى ذلك سبيلا ، وفي كل اجراء يرى اتخاذه لزاما ، وان كان في ذلك لرتبته مضحيا ، فوافقت على طلبه فورا . وفي الفصل الحادي عشر من هذا (الكتاب) سنزيدك عن انهيار الخدمات الصحية والنقلية تفصيلا . ولعلّ هذا مقام ايراد ما قرره (المفوّضون) بحق المقـدم كارتر المشار اليه آنفا ، نصا :

(انه بجهده الدائب استرعى انتبـــاه رؤسائه الى الاوضاع السيئة التي اكتنفت حال الجرحى عندما كان يُؤتى بهم ، بعـــد معركة طاق كسرى ، الى البصرة ، وانه ، عن سبل أخرى ، كشف عن الهنات التي قد يُغْضَى النظر عنها فلا يعالج أمرها أبدا . انه لعلى حظ كبير من الشعور بالتبعة ، في اقتراح العلاج

اللازم لهذه الاحوال تجلّى فيه ما ينمّ عن ذهن خصب وحيوية •)

وابّان ثوائي في (نيودلهي) قابلت (سكرتير الخارجية : سر هملتن كرانت) وكان أن أرسلني لمواجهة رئيس الاركان العـــامة : الجنرال[4] كركباترك ، فبعثني الاخير ، بدوره ، الى مدير الميرة في الهند • لقد كانت محادثتي مع الاخير مضحكة ، (ولكنه ضحك كالبكا) ، بسبب من القضايا الفاجعة التي تناولتها • لقد بدأ حديثه قائلا : « سمعت انك جئت من بلاد ما بين النهرين راجعا ، واني لزعيم بأنك مليء بالشكاوى ككل شخص فيها • » فقلت : « اننا نشكو من نقص في الخضر كثير ، وان انعدامها ، طـــوال ستة أشهر ، أسفر عن شـــيوع مرض الأسقربوط ، وذيوع مرض (بيري ـ بيري) حقا • » فأجاب : « ذلك ما يقولونه ـ فان أردتم الخضروات فلِمَ لا تستنبتونها ، يا ترى ؟ » • وأبديت احتجاجي على مثل هذه الخطة وما يلابسها من تحديد لكنه لم يعرني اذنا صاغية ، وانحنى لي مشيّعا •

وسمعت في الدوائر الرسمية فكرة محصلها : « تهنيد » بلاد ما بين النهرين جزئيا ، عن سبيل اقامة مستوطنات عسكرية على غرار ما يوجد في البنجاب منها • كما اقترح أن تكون هذه البلاد ، أو البصرة في الاقل ، في عداد توابع الهند ، المرتكنات اليها •

وخصّ الـ (لورد كرو) الآراء هذه باشارة في مناقشـة برلمانية (مجلس اللوردين : ٢٥ـ٦ـ٢٠) ، ردّد صداها في (مجلس العموم) العقيد بيت في خطاب ألقاه ميكرا ، يوم الـ ١٢ من تموز ١٩١٥ • قال ، وسط هتاف يتعالى ، : « ان في مقدور الهند أن تنفّذ مشاريع الارواء[5] العظيمة التي اختطها سر ويليم ويلكوكس[6] • وقبل ذلك تكلّم (لوردن كرزن) في مجلس اللوردين ، يوم

---

(٤) رتبة عسكرية تقابل كلا من الرتب التالية :
(الفريق) و (اللواء) و (العميد) ، بحسب الاحوال ، ونحن نثبتها على ما وردت في أصل (الكتاب) عندما لا تكون رتبة (القائد) مذكورة صراحة • (المترجم)

(٥) الشائع غلطا هو : الري (المترجم) •

(٦) راجع أيضا The Round Table, June 1916. (المؤلف)

السادس من كانون الثاني ١٩١٥ ، فأشار الى انه يتطلّع الى مستقبل زاهر لبلاد ما بين النهرين • « ان هذه (البلاد) كانت ترفل بحلّة من سندس ، وتنبت أرضها حبّ الحصيد ، وينعم أهلها بعيش رغيد ، لكنها ، اليوم ، صحراء قفر فدفد ، واني لآمل ، بوضعها الراهن ، أن تستعيد رخاءها الدابر ، وان الصحراء تعود فتصبح جنة مزدانة متفتّحة تفتح الوردة » • حالت وظيفتي الصغيرة في (الجهاز الاداري) دون تبديد آمال من يذهبون هذا المذهب ، ان اصراري على رفضها مُني بالفشل فلم أستطع أن أعمل شيئا • كان القوم يرون أني أماليء العرب ، تارة ، واماليء الفرس ، تارة اخرى ، على حين ترى (السكرتيرية) انه لا يخلق بأحد أن يماليء جهة ما ، وهذا من طبيعة الاشياء ، أبدا •

وما كانت (دلهي) ، على الرغم من سماحتها وما في مجتمعها من مباهج ، جذابة بالنسبة اليّ ، لذلك عدت الى وظيفتي ، بعد أن حصلت على شهادة طبية دونما عسر كبير ، وعلى غرار ما حدث في (بمبي) قبلا ، وأُعطيت مكانا على ظهر ناقلة مزدحمة بالركاب ، متجهة تلقاء كراجي • ولما وجد (ضباط الترحيل) اني موصوف في قائمة الركاب بـ (غير محارب) ، ومنسوب الى « الدائرة السياسية » لذا طلبوا مني أن أتخذ مكانا يروق لي على سطح السفينة الناقلة ، فغرف الباخرة محجوزة للضباط المحاربين حصرا • انها اهزولة طيبة لا سبيل الى افسادها باحتجاج ، لذلك وجدت مكانا لفراشي بين المطاريح : Davits ، وتحت زورق الباخرة ، وخيّل لي أني قد لا اقاسي من برد يوم شاق شديد القرّ ما قاساه من منحوا رتبة ضابط مؤخرا ، عندما أشغلوا غرف الباخرة • ان هؤلاء ، على كل حال ، سيجبهون أشياء كثيرة في قابل الايام ، على حين ، كنت واثقا من اني سأكون تحت سقف ما في البصرة • تميزّت الرحلة بكثرة الاشاعات المنطلقة المرعبة التي تسربت اليها من كراجي ، ولعل مردّ ذلك ، على ما اكتشفت في حينه ، الى أن القوم أصبحوا بين (العمارة) و (كوت الامارة) في أمر مضطرب مريج • ولما عدت الى مقر وظيفتي وجدت أن (سر برسي كوكس)

---

(٧) المطراح : الة لرفع زورق [المترجم] •

لا يزال في أعالي البلاد ، كما كان (هولاند) يشكو من حمى معوية ، وحاله خطرة ، لذلك عاودت العمل بوصفي (نائب الضابط السياسي الرئيس) أسفا ، أي بدلا عن الالتحاق بال (جنرال كورنج) الذي طلبني كرة اخرى • ولعل في ذلك خيرا ، ذلك اني لم أزل واهن القوى ، وان قلبي كان متعبا يثير لي صعابا • وكنت أتوق الى أن أرجع الى (الفرقة الثانية عشرة) فلي فيها أصدقاء ، وكثير ما هم • وشُغلت منذ هذا الوقت بأعمال رتيبة ، مالها من فَواق ، على انها كانت مختلفة ، وعلى حظ كبير من المتعة • وكانت القوة (والادارة المدنية معها) تكبر عددا ، فتنجم مشكلات جديدة ، على حين تتطلب القديمة منها نظرا جديدا ونظاما موحّدا ، في معالجتها وحلها • وفي (الفصل العاشر) سرد لبعض جوانب زكاء (الادارة المدنية) خلال سنة ١٩١٦ ، وقبل ذلك لا معدى عن الاشارة الى التطوّرات العسكرية على ضفتي دجلة ، خلال شتاء السنة المذكورة وربيعها ، والهدف الذي سعت اليه ، اعني : انقاذ (القوة) حصرا •

سبق أن ذكرنا في (الفصل العاشر) ان الحكومة البريطانية عندما أقرّت الزحف على بغداد وعدت بارسال القوات اللازمة الى بلاد ما بين النهرين ، من فرنسة والهند ومصر على أن تصل هذه (القوات) عندما يهلّ شهر كانون الاول • وكانت الحال قد اشتدت في هذا الوقت ذاته مما اضطر الى انفاذ لواءين من المشاة الهنود ، وثلاث بطريات ميدان ، وقطعات اخر من الهند لتسير صُعُدا في دجلة وبالسرعة التي تستطيعها وسائط النقل المتيّسرة القليلة • ورحلت بعض الكتائب برا وسارت على طريق مرفوع كانت تدأب على انشائه فرق العمال الهنود تارة ، والعمال العرب تارة أخرى ، وكان الاخيرون (بسبيل أن ينتظموا في فرقة عمال ، بامرة ضباط مختارين) ، واستمرّ العمل فيه شهورا ••• واضطلع الضباط السياسيون البلديون بتبعة جمع حشود هؤلاء العمال ومراقبة

(٨) وصلت الفرقتان البريطانيتان : ال (٧) وال (٣) البصرة على وجه غير منظم ، وعندما ارسلتا من فرنسة كان المقرر معاودة تنظيمهما في مصر ، ولكن ذلك لم يتم • وكانت بعض وحدات الفرقتين ناقصة من حيث العدد والعدة ، كما كان تدريب الفرقتين يختلف عن تدريب شتى القطعات البريطانية في العراق [المترجم]

قيامهم بالعمل في كل الفصول • لقد أصبح هؤلاء الضباط السياسيون الان على علم بمناطقهم مما يؤهلهم لطلب النصاب اللازم من العمال من كل قرية أو قبيلة •

تخلّى ال (جنرال سر فينتن المر) عن منصبه : (مدير الادارة في الهند) ليتقلّد (قيادة فيلق دجلة) المؤلّف من فرقتين ووحدات اخرى بلغ تعدادها ١٩٠٠٠ من المقاتلة ومعهم ٤٦ مدفعا • ولم يكن ليغيب عن خاطر هذا (الجنرال) الامر الصعب العسير الذي أمامه أعني : انقاذ الكوت •

وقامت الفرقة السابعة ، بقيادة ال (جنرال ينكهزبند) بالحركة الاولى • وخُمّنت القوة التركية في مستهل شهر كانون الثاني ١٩١٦ بما لا يزيد على ٣٠٠٠٠ من المقاتلة ، معهم ٨٣ مدفعا ، وكانت لها اليد العليا تعبويا • ولم تكن المسافة ، بين دجلة والهور ، الكائن على ضفتها اليسرى والممتد أميالا ، أكثر من ميل واحد • وكانت الارضون على الضفة اليمنى متقطّعة تسهّل التعويق التعبوي كليا • وكان الاتراك ، في بلدهم ، يتّخذون الدفاع نهجا ، على حين جاء كثير من جنودنا من فرنسة ، وفيها الاوضاع مختلفة شتى ، وقد منوا فيها بنازلات قاسيات ، ومنهم من جاء من مصر أيضا • وكان الطقس ، على العموم ، وعلى غير عادة ، سيئا ، وهو يوائم الاتراك ، على حين كان الاعراب ينشطون على ضفتي النهر وينهبون « المهيلات » التي تحمل على ظهورها المؤن العسكرية ، ويبدون كل براعة خارقة مشهودة لهم في « صناعة الليل » ، فهم لصوص ماهرون حقا •

لذا كانت المشكلة التي تجابه ال (جنرال نيكسون) ، القائد العام ، وال (جنرال المر) ، قائد الفيلق ، عسيرة جدا ، لقد كانت تبعاتهما ثقيلة ، كما ان قد كان عليهما أن يقوما بسلسلة من عمليات « سد مسد : Makeshifts » واخرى مرتجلة ، فالمقاتلة والميرة لديهما جد قليلة • وكانت معلوماتهما عن الاراضي التي سيقاتلان فيها معدومة أو تكاد ، وبقدر تعلق الامر (بترتيبات العدو العسكرية : Dispositions) أيضا ، وكانا على جهل مطبق بحقيقة ما عند ال (جنرال طاونسند) من ميرة ولوازم •

ودارت رحى (معركة شيخ سعد) يوم ال ٧ من كانون الثاني ، وهـذه تبعد عـن الكوت مسافة تتراوح بين ٢٥ـ٣٠ ميلا • وكان الشطر الاكبر مـن قواتنا موزعا على الضفة اليسرى ، على حين كان (فيلق الخيالة) ومدافع قليلة و « جماعة اسناد » مشاة تقـوم كلها بحركات على الضفة اليمنى • واستمر القتال مدة ٤٨ ساعة ، ما له من فواق • ومما زاد في الطين بلّة أن ريحا عاصفاً هبّت وهطل المطر مدرارا ليلة ٨ـ٩ من الشهر فأصاب الجنود من ذلك رهـق شـــديد ، اذ دأبوا في صبيحة تلك الليلـــة السارية[٩] على السير متخبّطين في الطـين ، ذاهبين آيبين • ووجد جنودنا أنفسهم بازاء خنـادق على الضفتين ما كانوا يعلمون عنها شيئا ، وعلى الضفة اليسرى طُوّق جندنا ، بدلا من أن يكونوا هم المطوّقون • وبلغت الضحايا في القوة البريطانية التي كانت عدّتها ١٨٥٠٠ أو ١٩٠٠٠ : (٤٠٠٠) وهـي ، لعمري ، لعمرك ، خسارة عظمى • هذا وان فقدان اللوازم الطبية ورجال الطبابة والنقليات النهرية سبّب للجرحى صعوبات جساما ، كما أن نقلهم الى ما وراء خط النار غدا أمرا عسيرا • وكانت ضحايا وحـدة البنجابيين /٩٢ والجات /٦ ، على وجـه أخص ، جدّ كبيرة شأنهما كشأن وحدة (ليسترز : Leicesters.) • وكانت ضحـايا الاتراك ، وهم من علمت يتخذون الدفاع نهجا ، وقواتهم أكثر منا عددا ، على ما سمعت ، كعدد ضحايانا تخمينا ، ولعلّ التخمين هذا لا يعدو أن يكون خطلا •

وكان أن تراجـع الاتراك مـن شيخ سعد الى (حنّـه) ، الى الارض الضيّقة المحصورة بين (هور شويجية) وبين دجلة ، عند (الصناعيات) • لقد قاتل الاتراك بعناد وصمود يفوقان ما أبدوه في المعارك التي دارت من قبل ، حتى

(٩) أي الليلة المطيرة و (السارية) هي السحابة الممطرة ليلا

(١٠) يقول ال (جنرال موبرلي) المؤرخ الرسمي لـ (الحملة البريطانية في بلاد ما بين النهرين) : « ان خنادق الاتراك كانت تمكنهم من السيطرة التامة على الاراضي الكائنة امامهم وهي من الارض الجدد ، المستوية ، التي ينعدم فيهـا (الستر) وكانت الاسلاك الشائكة موضوعة امامهـا ، والالغام مزروعة فيها ، وخلفها اميال من (خنادق الاتصال) • وثمة نقص واحد في تنظيمات الدفاع لديهم هو : وجود جسر واحد يربط ضفتي النهر [المترجم]

معركة سلمان باك ، انهم لم يغلبوا أبدا . وعلى ذلك يتراءى ان انسحابهم لم يكن مسببًا من أي ضغط قامت بـه قوات الـ (جنرال المر) وانمـا كان بسبب الحاجة الى تقصير خطوط مواصلاتهم .

وثمة شك قليل في أن كلا من الـ (جنرال نيكسون) والـ (جنرال إلمَر) لو كانا يعلمان ان الـ (جنرال طاونسند) لم يكن بحاجة شديدة الى من ينقذه لآثرا تأجيل التقـدم ولحـاولا ، حتى بطـريق الانسحاب ، حمل الاتراك على الوقوف أمامهما ، وجها لوجه ، وعلى أرض معركة ملائمة . وهناك عامل آخر يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار ، وهو عامل لا ندحة عن أن نعطي له الاهمية في مثل هذا الوقت عينه . ذلك أن الروس أوفدوا ١٥٠٠٠ من المقاتلة ، ومعهم ٤٦ مدفعا ، من القفقاز الى بلاد فارس ، وهم يرمون من وراء ذلك ، على القطع ، الى التعاون معنا ، بازاء الاتراك . لقد كانوا يتقدّمون نحو كرمنشاه ، على أرتال عديدة ، وعلى غـير كرمنشاه أيضا . وتراءى ان من المحتمل أن يسبّب هـذا انتشارا في القوات التركية كبيرا . وكنا على اتصـال لاسلـكي بالروس ، عن طريق (قزوين) ، وتراءى أن سيكون بيننـا وبينهم تعـاون حق في المستقبل القريب . هذا ومن الجهة الاخرى ، كانت الاحوال الجوية غير ملائمة لتقدّم سريع يقوم به الروس ، وبالنسبة لنا ، بعد نهاية آذار أيضا . ذلك أن دجلة ، عندما يمدّ بمائه ، يقطع الطرق التي تحـاذيه فينقص من أطراف الارض التي تستطيع قطعاتنا الانفتاح عليها ، فالقيام بالحركات على أية ضفة من ضفتيه .

وما أن راز الـ (جنرال المَر) هذه العوامل ، وغيرها ، الا ّ أبرق في الـ ١١ من كانون الثاني الى (سر جون نيكسون) يقول : « اني مصمّم على الزحف على الكوت ، ومن واجبي اللاحب أن ابيّن انه لعمل طارىء غير وثيق الى أقصى حد ، لكنني ، بطبيعة الحال ، اقبل تبعته تماما ، واني لأعلم ان الوضع يتطلّب جهدا عظيما ان أريد انقـاذ الـ (جنرال طاونسند) ... ان مؤسساتي الطبية قليلـة ويا أسفا .. وان الجرحى لا يُعنى بهم العناية اللازمة . وليست لديّ الا طائرة عاملة واحدة .. ومن الجهة الاخرى ، اني لعلى ثقة من أن الجنود سيقومون

بما يستطيعون اليه سبيلا .. ، أما ال (جنرال نيكسون) فكان أشدّ حماسا منه ، لذلك ابرق حالا ، قائلا : « اني لتارك الامر اليك . واني لعلى ثقة من انك وجنودك الممتازين ستدركون الغاية ، وتصيبون الهدف » .

وبدأت ، يوم ال ١٣ من كانون الثاني ، (معركة الوادي) ـ وسُميت بهذا الاسم لان رحاها دارت بجوار عقيقة نهر جانكولا (٢) ، ويطلق عليه عند مخلطه بدجلة اسم : « الوادي » . وكان الاتراك يخندقون على الضفة اليمنى ، أو القصوى ، من هذا الوادي وكانت عدتهم : ١١٠٠٠ . وخلفهم ، على بعد ثلاثة أميال ونصف ميل ، الشِعْب الضيّق الطويل المسمى : (الحنّه) الكائن بين النهر والهور . وانفجر الفجر من خلال ضباب كثيف ، ولم يبدأ القتال الا في الساعة السابعة ونصف . وبعد ساعتين بلغت قطعاتنا (الوادي) وعبرته دون أن تلقى معارضة ما . وحدث تأخير كبير ، على كل حال ، عندما أُريد أن تنقل المدفعية عَبْره ، لذلك انعدم من هجوم المشاة عامل المباغتة . ونشب قتال مرير . وسارت قواتنا حثيثا حتى خيّم الظلام على الدنيا كلها فتوقف الجسد على مسارهم الموحل ، ثم شرعوا يحفرون الخنادق على ألحان الموت تنطلق من مدفعية الاتراك . وعاود جنودنا الهجوم في اليوم التالى (١٤ كانون الثاني) ، وبسبب السراب كان الاسناد المدفعي ، سواء أكانت المدافع بحرية أم عسكرية ، أمرا عسيرا جدا ، وعلى الرغم من تقدمنا تكبدنا في سبيل ذلك ضحايا كثيرة ، وكان تموين القطعات وتجهيزها بالعتاد يبعث قلقا . ومما زاد في الطين بلّة هبوب

---

(١١) منح الضابط الهندي (جاتا سنغ) ـ المنسوب الى وحدة بهوبال/٩ (صليب فكتورية) « لشجاعته الرائعة واخلاصه لواجبه عندما ترك (الستر) ليساعد (الآمر) الذى كان ملقى في الصحراء جريحا وليس له من معين . لقد ضمد (سنغ) جراح الضابط وحفر له (سترا) بما كان لديه من اداة تصطنع في حفر الخنادق . وكان خلال ذلك كله معرضا لنار البندقيات الحامية . لقد بقي الى جانب الضابط الجريح طوال خمس ساعات حتى اطبق الظلام بسجوفه على الدنيا ، وكان ، خلال ذلك ، يستره بجسمه بازاء الجهة المكشوفة . وتحت جنح الظلام عاد (سنغ) لينشد العون فاستطاع ان يبلغ الضابط الجريح مأمنـــه » .

(لندن غازيت) ٢١ حزيران ١٩١٦ . [المؤلف]

ريح قر وازدحام الجو بسحب نقع ، وقد أخّر ذلك كله النقل بالسفن • وانقطع الارواء ، خلال تلك الليلة ، لكن مطرا شديدا هطل وخففت فيها بروق وقصفت رعود ، ولم يكن عند الجنود البريطانيين أو الهنود من القوت الا ّ قليلا • وقرّر ال (جنرال المَر) ان أي تقدم آخر ، في مثل هذه الظروف ، غير عملي ، اذ بلغت عدّة ضحاياه ١٦٠٠ والقتلى منهم ٢٠٠ وزيادة، ولم يكن من الهدف الذي كان يسعى اليه قريبا : و (كان القريب لما رجوت بعيدا) • وبالنظر الى ما رواه الاسرى : ان الاتراك تكبدوا خسائر جمّة ، وخمّن ال (جنرال المَر) عدد ضحاياهم بـ ٢٠٠٠ ، لكنهم استطاعوا الانسحاب بنجاح الى موضع (الحنّه) تحت ستار من ظلام ليلة ال ١٣/١٤ ، كما استطاعوا قصف الباخرة الحربية (كاد فلاي) وتعطيلها ، بحيث لزم ارسالها الى عبادان لاصلاحها • وساعدهم الطقس أيضا ، وكان الطين اللازب المتراكم المنتشر في كل مكان كعقبة كؤود[١٢] في سبيل المهاجمين ، لا المدافعين• وحالت الريح دون نصب جسر على دجلة عند (الوادي) ودون وصول مواد التموين نهرا • لقد كان نجمنا نجم نحوس لا نجم سعود •

واستمرّ ، خلال يوم ال ١٥ من كانون الثاني ، والليلة التي تلته اخلاء الجرحى • ولم يكن عند ال (جنرال المَر) من المقاتلة الا ٩٠٠٠ ، فلقد فقد ، في غضون اسبوع واحد ، ٦٠٠٠ منهم • وخلال النهار أرسل له ال (جنرال طاونسند) برقية تطفح بالشحناء ، هذا نصها :

« نحن اليوم في ال ١٥ من كانون الثاني ، أعني اليوم الذي حددته في كانون الاول ، باعتداده يوما عصيبا لا يمكن الثبات بعده أبدا • لقد جعلت نفسي في الكوت محصورا على أساس أن الحصار سيفكّ عني في شهر ، وها قد مضت ستة أسابيع مددا » •

وغلّت ظروف اخرى يد ال (جنرال المَر) أيضا ، ذلك ان آخر الاخبار أظهرت ان قوت ال (جنرال طاونسند) لا يكفي الى أكثر من يوم

---

(١٢) الكؤود : المرمريس ، الصعب الشديد •

ال ٧ من شباط • لقد انسحبنا من (غاليبولى) يوم ال ٧ من كانون الثاني ، وبذلك أخلينا قطعات تركية كبيرة ، وكنا نعلم انها في طريقها الى بغداد • ربما كنا لنأمل مساعدة قيمة من القوات الروسية في فارس ، وكلما طال زمن بقاء الاتراك ، حيث كانوا ، كلما أصبحت خنادقهم أكثر حصانة واتقانا ، وكلما ارتفع ماء البطائح كلما أصبح الشعب في (الحنة) أضيق كثيرا •

ان اتخاذ قرار ما لامر عسير • وما كان عقل كل من ال (جنرال نيكسون) أو ال (جنرال فينتن المر) أو ال (جنرال طاونسند) مؤهلا لمثل هذا • لقد ساءت صحة ال (جنرال سر جون نيكسون) ؛ وكان ال (جنرال سر برسي ليك) في طريقه ليخلفه • لقد تحمل (الاول) تبعة كبيرة لدى اتخاذه قرار التمسك بالكوت ، وكان يحتوي ، بطبيعة الحال ، ما يذكره ال (جنرال المر) بصدد المصاعب التي تجابه « فيلق دجلة » • ولو أدرك ان كل شيء كان ، بالنسبة للاتراك ، ملائما رخاءا وان الطقس كان يعرقل مسعى ال (جنرال المر) بشكل يدعو الى الاسى ، شأنه كشأن الفيضان ، أو لو أحس بأن ليس هناك من ضرورة ملحة تتطلب أن يغامر بكل شيء ، في محاولة نهائية ، لامتنع ، من دون شك ، عن الاصرار على اجراء مباشر ، أو لترك ل (خلفه) ، وأعني به سر برسي ليك ، الذي وصل في اليوم التالى (١٨ كانون الثاني) اتخاذ القرار اللازم • لم تكن عند سر جون هذه المعلومات ، والظاهر أن ضباطه الاركان لم يفعلوا شيئا في سبيل الحصول عليها ، نيابة عنه ، وبالاتصال ب (قائد فيلق دجلة) شخصيا •

لقد كان لزاما عليه ، على ما جرت العادة في الحرب ، أن يعمل ، مستنتجا من مصادر غير صحيحة • وكان ال (جنرال طاونسند) ، من الجهة الاخرى ، يعطي قليلا جدا ، ويطلب كثيرا جدا • كما كان ال (جنرال المر) محفوفا بمشكلات اللوازم ، والضباط ، والجنود ، والطقس ، والتنظيم ، ولعله جنح الى التشاؤم من دون مبرر • واخيرا ، ابرق ، في ال ١٧ من كانون الثاني ، الى ال (جنرال نيكسون) يبين الصعوبات التي تجبهه ، ويقترح القيام بعمل مشترك

مع ال (جنرال طاونسند) • وكان ان وُقف من (مُقْتَرحه) هذا موقفا سلبيا ، وفجائيا :

« لا أستطيع الايمان بأن الموضع الذي يجبهك يوازي ، من حيث المنعة ، المواضع التي سبق ان هاجمناها واستولينا عليها قبلا ، وهي التي كانت تعدّ لمدة اربعة اشهر طوالا • ان الذي تقترحه لكارثة ••• فلن استطيع اقراره ابدا » •

وفي الوقت الذي ارّخت فيه هذه البرقية تقريبا ، وجرى ابراقها من البصرة ، تسلّم الجنرال المر (من دون ابداء الاعتذارات) خبراً من ال (جنرال طاونسد) يفيد بان ما عنده من جراية في الكوت يكفي لثلاثة اسابيع اخر • كما انه تسلّم من رئيس ضباطه الاركان خبرا مفاده ان الجسر الذي كان يعتمد عليه في اطلاق الحرية لمناوراته قد كسر كرة اخرى •

وبموافقة (سر جون نيكسون) ، قرر ال (جنرال اِلْمَر) القيام بهجوم جبهوي تضطلع به الفرقة السابعة وينصبّ على الموقع التركي الرئيس في (الحنه) ، وكان لزاما ان يقصف الموقع المذكور ، من ضفتي النهر ومن الاسطول النهري قبل اربع وعشرين ساعة ، بالمتفجّرات الشديدة وبال (شربنيل) • وكان المراد أن يبدأ ذلك يوم ال ١٩ ، لكن وضع الطقس كان رديئا جدا ، لذلك تأخر حتى يوم ال ٢١ من كانون الثاني • ولو اريد كسب المعركة ، على الاطلاق ، لوجب ان يكون وقعها شديدا ، وان تكون جبهتها ضيقة ، وكان ال (جنرال المر) يدرك ان خسائرنا فيها ستكون كبيرة ، ما من ذلك بدّ ، لذا ابرق في الامسية التي سبقت يوم الهجوم ما يلي :

« لنزعم على وجه قاطع ان الفرقة السادسة (الممّسكة بكوت الامارة) لن تكون النقطة الواهنة الرخوة الوحيدة التي سنصل اليها ــ ولو ان خسارة العدو ستكون عظيمة ، ما الى الشك في ذلك من سبيل » •

ومن بين ال ٩٠٠٠ مقاتل كانوا في امرته ، لم يكن في الخنادق الا ٤٠٠٠ ، اما البقية الباقية فقد تسرّبت للقيام باعمال مساعدة ، ولا معدى عن مثل ذلك •

وقادت الهجوم وحدة (بلاك ووج) ووحدة (دوكراز/٤١) وسارت في اعقابهما : وحدة (جات/٦) ووحدة (المشاة/٩٧) ووحدة (دوكراز/٣٧) . لقد قتل جميع ضباط وحدة (دوكراز/٤١) او جرحوا ، ولم تكن حال وحدة (دوكراز/٣٧) بأحسن من حال أختها ، الا قليلا . ولم يصل السلك من الجنود الا : ٢٥ ، وما كانت نار المدفعية قد قطعته ، وانما كان الفعل لوحده (بلاك ووج) . ولم يتقدم اللواء التاسع عشر الا قليلا ، وكان عدد ضحاياه كبيرا ، وكان حظ اللواء التاسع ، كحظ اللواء المذكور ، سيئا ايضا . وحالت الريح دون مضى الجنود بأكثر من السير البطيء . وقتل جميع ضباط الوحدة/٦٢ ، أو جرحوا ، وما كان حظ وحدة (همشاير ١/٤) باحسن من ذلك . وكان ان اجبرت هذه الوحدة على التوقف ، ولم تستطع وحدة (كونوت رينجرز) ان تجد سترا لها ، ذلك ان الخنادق جميعا كانت بالقتلى والجرحى مليئة ، وكانت ضحايا هذه الوحدة كبيرة .

ان ضحايانا كانت عظيمة وخسائرنا فادحة ، لكن ال (جنرال ينكهزبند) قرر معاودة الهجوم بعد قصف آخر ، وحدد بالساعة الثانية من اليوم نفسه . وفتحت ابواب السماء بماء منهمر ، فتحطمت اجهزة المخابرة ، لذلك لم تصل تعليماته الى كثير من جهات خط الهجوم . وما ان بدأ الهجوم الا سحق بنار حامية ، لذلك صرف النظر عنه . وكانت الارض عسيرة السير على القوات ، لذلك لم تستطع هذه ان تسير عليها الا وئيدا . وسقط مئات من الجنود في طريقهم ، واختنق آخرون بفعل الطين الموجود في الخنادق ، داخلا وخارجا . لقد شعر ال (جنرال ينكهزبند) ان الحالة الجسمانية لقطعاته تجعل القيام بهجوم ، مرجو التوفيق ، امرا مستحيلا ، ما لم يتحسن الجو ، لذلك اجرى انسحابا لمسافة ١٣٠٠ ياردة من موقع الاتراك ، والى حيث كنا نخندق .

وقرر ال (جنرال المر) ان يقوم بمحاولة أخيرة ، لكن المواصلات ، التي كانت عسيرة دوما ، أصبحت الآن متعذرة ، كما غدا السير على وفق امر محدد امراً غير ذي موضوع . وختم المطر صفحة المعركة ، وامضى الجند

جميعاً ليلتهم واقفين أو مضطجعين في الماء وهو في برودة الثلج ، والمطر يسّاقط على رؤوسهم مدرارا ، كما كان يدهمهم الصقيع بين الفينة والفينة • ومع ذلك كله ، ما ان اسفر صباح اليوم التالي ، الا ّ جرى تنظيم الفرقة السابعة الى حد ما ، ومن لم يمت من الجرحى ، بفعل البرد القارس ، نقل الى المؤخرة •

وكانت عدّة ضحايانا نحو : ٢٧٠٠ •

واخذ دجلة يمدّ بمائه دؤوبا ، وطغى ماء (الوادي) لذلك وبغى ، وما ان حلّت امسية يوم الـ ٢١ من وقت المعركة الا اصبح ميدانها من طين مسطّح عظيم ، لا يستطيع انسان ان يجتاز منه اكثر من ميل واحد ، في الساعة الواحـدة •

وفي الصباح الباكر من يوم الـ ٢١ ، وبايعاز من الـ (جنرال المَر) ، رفع (علم الهدنة) وارسل الى خطوط العدو مشفوعا بطلب ايقاف القتال ، بغية جمع الجرحى ودفن القتلى • وما ان تراءى علم الهدنة هذا للاعراب الذين كانوا في خطوط الاتراك ، الا اندفعوا منها وشرعوا يسرقون ما عند القتلى والجرحى على حد سواء ، كما عمدوا الى قطّ رقاب الجرحى واغماد الخناجر في صدورهم ، ان استطاعوا الى ذلك ، في مأمن من رقيب ، سبيلا • وذهب ضباط وجنود غير مسلحين ، بسبب من رفع علم الهدنة ، الى انقاذ زملائهم فدهمتهم الاعراب وسرقت ما كان عندهم ، وكان هؤلاء يحومون في كل مكان ، يسعون من دون كلل او ملل الى اشباع ما يعتلج في نفوسهم من طمع في المال وحب لازهاق النفس البشرية (كذا : المترجم) •

وخابت المحاولة الثالثة التي جرت في غضون أسابيع ثلاثة ، اذ فقدنا ٨٠٠٠ من القتلى والجرحى ، وقد اسّرت قلة خلال زمن الهدنة • لقد وريت زهرة الجيش الهندي في التراب ، على ضفة دجلة الممتدة من (سلمان باك) الى الشعيبة • كما وري معهم من البريطانيين من كانوا لهم (في السلاح اخوة) • واهتزّ لذلك الرأي العام في الهند وبريطانية ، وكانت هزّة قوية ايدة انسابت الى اعماق شعور الرأي العام • لم يبدأ ، بعد ، البحث عن (كبش فداء) ،

على ان اشاعات دارت في انكلترة والهند متصلة بنقص الترتيبات الصحية في بلاد ما بين النهرين ، حملت وزارة الهند ، خلال كانون الثاني ، على الايعاز ل (القائد العام في الهند) بتعيين (لجنة تحقيق) ، أشرنا اليها في (الفصل الحادي عشر) • وكان كل اعتبار ، محلي وانبراطوري ، يقضي بالقيام بمحاولة أخرى لانقاذ الوضع من وهدته • وكان قائد الجيش الجديد (سر برسي ليك) ، رئيس الاركان السابق في الهند ، يتحمل تبعة الحوادث الفاجعة التي وقعت في بلاد ما بين النهرين ، هو وسر جون نيكسون على حد سواء • لقد اتجه ، بالاتصال بسر فيتتن المر ، الى القيام بالواجب الجديد الملقى على عاتقه •

وعلى الرغم من ان ال (جنرال نيكسون) فشل فيما سعى اليه ، الا انه احتفظ بتقدير جنوده وثقتهم ، واخص بالذكر منهم جنود الوحدات الهندية في (الحملة الاستكشافية) وكانوا تسعة اعشار آحادها • كان ال (جنرال نيكسون) يتكلم الهندستانية بطلاقة عجيبة • وكان في مقدوره ان يتكلم مع الوحدات وضباطها الهنود بلغى عديدة « يفهمها الناس » • لقد ادركت القوة ، بقيادته ، سلسلة من الانتصارات المتوالية ، وكانت هذه الانتصارات ملحوظة مرموقة بحيث اطلقت عليها احدى الصحف اليومية اسم « نزهة ما بين النهرين » • وكان الجنود آخر من ينحون باللائمة عليه • وكانت كثرة من الناس ترى انه ، على غرار (سر ارثر باريت) ، لا يقر بهنات ضباطه الاركان الا ببطء ، وانه كان متساهلا جدا مع اناس ثبت عجزهم • ومن استطاع ان يتتبع مراسلاته مع (سملا) ذهب الى انه كان لزاما عليه ان يدرك ، منذ البداية ، عجز حكومة الهند عن تقديم وسائل النقل والخدمات المساعدة اللازمة للقيام بحركات ناجحة فيما وراء العمارة ، وان كان عليه ان يبين لرؤسائه انه ما لم تلب جميع طلباته ، كاملة غير منقوصة ، فليس من السداد ان يتقدم أكثر • وفي تقديري الشخصي ان حركات عربستان والحركات على الفرات لم تكن ضرورية ، وان الاستيلاء على العمارة كان يتبعه انسحاب الاتراك من

الاهواز تلقائيا ، وان القوة المرابطة في الناصرية ما كانت لتهدّد قاعدتنا في البصرة تهديدا جديا ، او تقدر على قطع خطوط مواصلاتنا ، فالدفاع عنها كان ميسورا .

وعلى كل حال كانت تعليمات سر جون نيكسون ، منذ البداية ، تشلّ يديه ، ذلك ان الاهداف السياسية والتعبوية فيها مريجة مختلطة . انه ممن يخدم حكومته باخلاص ، وقد علم ان الاستيلاء على بغداد امر كانت تصبو اليه الوزارة كثيرا ، لذلك ركب متن الخطر ، على غرار ما يفعل جميع القادة العظام دوما ، لتحقيق الهدف المنشود ، وبذلك قامر بسمعته ، وخسرها . لقد أصبح بقاؤه بوجه انتقادات (لجنة ما بين النهرين) مستحيلا ، ولو قدر على ذلك لحالت صحته المتردية دون هذا البقاء . وكان أن رحل من (أم دُفر)[13] في كانون الاول سنة ١٩٢١ .

لقد كان اختيار سر برسي ليك خلفا ل (الجنرال نيكسون)[14] ، على كل الاحوال ، نكد الحظ سيئه . فبوصفه (رئيس أركان الجيش في الهند) وعلى وفق الاوامر الصادرة له من القائد العام والحكومة في الهند ، هو المسؤول الرسمي عن ارسال سرجون نيكسون خلفا لسر ارثر باريت ، وعن كل قرار يتّصل ب (القوة) وتجهيزاتها ، منذ التأريخ المذكور . لقد اعتدّ بحق مسؤولا عن بعض جوانب النقص في (القوة) ، وعن الاخطاء السوقية السابقة . لقد كان يعرف شخصيا كل ضابط آمر في (القوة) كما كان يعرف الضباط الاركان فيها ، وقد عيّنوا في مراكزهم الحالية باقتراح منه .

وكان آمر فيلق دجلة سر فينتن المر ، حتى اشهر قليلة خلت ، يشغل منصب مدير الادارة في الهند ، وهو زميل يثق به سر برسي ليك في شؤون الجيش الهندي الادارية كثيرا . وما كانت صحة القائد العام في الهند برافهة ، وما كان تنظيم مقرّ الجيش فيها تاما ، بحيث يستغني ، عن اثنين من ثلاثة

---

(١٣) أم دفر هي الدنيا ، وهذه (كنيتها) [المترجم]

(١٤) يقول (ينكهزبند) في كتابه (صحيفة ٢٨٦) ان التعيين كان يراد به اصلا أن يكون مؤقتا ، والى ان يصل من تعينه وزارة الحرب نفسها . [المؤلف]

يرأسون الدوائر المهمة المعنية بالشؤون الادارية ، من دون ان يخلّ ذلك بالكفاية العامة • وكانت الدائرة الثالثة ، مديرية الميرة ، بيد ضعيفة ، شائنة الضعف • وكان اصطفاء (ليك) و (المر) للقيادة العليا في بلاد ما بين النهرين يرتكن ، الى حد ما ، الى أسباب شخصية ، ولم يكن ذلك من دون مبرر • ان الجزاء الاوفى في العرف العسكري مقصور نواله على من يكون في ميدان القتال مجلياً مبرّزا ، اما الخدمات الادارية ، وان كانت لا تقل عن غيرها مشقّة ، فتبعتها أقل ، وهي لمن اقل معاشاً ، ولم تحظ بالاعتبار اللازم الاّ في الحرب الكبرى • وجاء سر برسي ليك الى بلاد ما بين النهرين تثقله حقيقة كونه على اتصال وثيق دوما بحكومة الهند التي كان يشاطرها الرأي والتحديدات ، ولم يسبق له ، او لاحد ضباط الجيش في المقر العام ، ان زار بلاد ما بين النهرين ، ابان (الحملة) ولم يصحب ضباط ركن جددا ، اذ قبل بمن كان سلفُه يعمل معهم • وكانت صحته ، لحين من الوقت ، تحول دون قيامه بالاشراف الشخصي على مذاكراتهم، واتخاذ قراراتهم • والى سر برسي يعود الفضل ، خلال تلك الشهور العصيبة ، في اصلاح كثير من اخطاء الماضي واعداد العدّة للمستقبل • لقد ادرك ، على استعجال ، ان مقر الجيش في الهند قد قلّل من شأن المصاعب الطبيعية الكبيرة في البلاد ومن ان تجهيزات القوة غير وافية كافية • واخذت النجدات تصل بأسرع مما يستطاع نقلها في النهر (فلقد كانت في البصرة قوات تفوق ما في الجبهة عددا) • وبلغ الازدحام في (القاعدة) حدا جعل السفن تبقى عندها راسية في وسط النهر لمدة شهر ، او زد عليه قليلا ، وذلك من دون ان يستطاع تفريغ حمولتها • وتعذر الحصول على شحّانين اضافيين ، وندر للغاية العمال اللازمون لاعداد المعسكرات والطرق في (القاعدة) • ولم يبدد سر برسي أي وقت يستطاع قضاؤه في سبيل قيام العمال الميسورين بما هو نافع ومفيد ، وفي افساح المجال للابداع الذاتي يصبّه الخبراء الذين ارسلوا من الهند مؤخرا في سبيل انقاذ الميناء من الحال الفوضى التي كانت تتخبطّ فيها ، وتطبق عليها • وكان سر جوج بيوكانن ، وهو مهندس نابه الذكر ، لكنه جبار عنيد ، يتحلّى بخبرة سنوات في ميناء رانكون ، قد حلّ في البصرة منذ ثلاثة أسابيع بعنوان :

(مدير الميناء العام واحكام الانهر) ، لكن دائرة (مدير الميرة العام) ، وكانت أكثر دوائر (الادارة) رجعية وتأخرا ، حالت دون قيامه بأي عمل ، غير المسوح • ومنح ال (جنرال ليك) (سر جورج بيوكانن) صلاحية واسعة ، وخوّله اقامة نظام تطهير للانهر كبير ، لكنه لم يدرك ان (الميناء) بحاجة الى معاودة تنظيم والى عدد من الموظفين كبير ، ان اريد له ان يعمل بكفاية • وقام بتحريات تتصل باحتمال مدّ سكة حديد بمحاذاة نهر دجلة صُعُدا ، والحّ على حكومة الهند ، في الوقت نفسه ، بان ترسل مواد سكة حديد خفيفة لمقاصد محلية • ولكنه لم يصب الاّ نجحا اقل ، بقــدر تعلق الامر بالتفتيش الابتدائي على تنظيمات المستشفيات • لقد خدعه انشراح بدا على الذين رآهم مرضى فيها ، و « لم يقف على الحقيقة أولا ، وقـد وقف عليهـا اخيرا ، ذلك انهـم لم يحظوا الا بتمريض سيء ، وهم في طريقهم في النهر صعدا »[١٥] • وكان ان نوّر بحقيقة الحال قبل ان يمضي وقت طويل • وفي مقدور (سر برسي ليك) ان يصرف شهرا في دراسة امثال هذه المشكلات ، وغيرها كثير ، وما كان صرف مثل هذا الوقت الاّ نافعا ومفيدا • وليس هذا مقـام التطرّق الى تلك المعضلات عينها ،

---

(١٥) اعتاد اللورد راكلان لدى زيارته مستشفيات الميدان ودخوله كل خيمة من خيامها ان يسأل الجنود المحشورين فيها ان كانت عندهم شكاوى • ولم يقل له واحد منهم :« يالوردي ! انظر الي وانا اضطجع اشكو من الرطوبة والبرد ولا أملك الا دثارا واحدا ، هو فراشي وهو لحافي • ان الاطباء كرام بوجه رائع لكن الدواء عندهم مفقود ، وليس لديهم شراب أو أي شيء اخر يرفه عني•• ولو كانّ عندي دثار اخر لاستطعت ان ابقى على قيد الحياة•»كلام وجيه لا غبار عليه ولانكير فيه،حق كالنهار، وهو ، على هذا بنظر كل مدني ، على ما اعتقد ، لكن العسكري ليس بالشخص الذي يستطيع ان يتفوه به • انه يتمسك بكل شيء قاله له (عريف التجنيد) ، لكنه يشعر بانه نذر حياته ، وجسده ، الى الحرب ، وما تأتي به، وانه، بذلك، يمكن (الملك) من شيء نذره من دون تمرمر ، أو تذمر • وكان الشجعان ، في الاحيان ــ واعني بهم الجنود الذين هم تحت السلاح ــ يقومون باكثر مما يرفه عن شدائدهم ، فان لمسوا من رئيسهم المبجل بادرة عناية، اهتبلوا الفرصة ، ليظهروا له ــ وهو مار من معسكرهم ــ انهم راضون مطمئنون• وعلى سبيل المثال: عندما سأل ال (لورد راكلان) احد الجنود ان كانت كتيبته قد حصلت على الملابس التي تبعث الدفء لم يقصر جوابه على : [اجل !] لكنــه فاه بانبساط سريرة ولسان حمد : « انها كل ما نصبوا اليه » • [المؤلف]

لكن الوضع في ميدان دجلة حمله على ان يسرع الى ملاقاة ال (جنرال المر) • لذلك غادر البصرة يوم ال ٢٤ من كانون الثاني ، فوصل مقر فيلق دجلة يوم ال ٢٨ منه • وفي أثناء سفر الجنرال ليك اعلن الجنرال طاونسند ان ما لديه من قوت يكفي لمدة ٤٨ يوما ، وليس لمدة ٢٢ يوما ، وانه يستطيع ، لذلك ، الثبات حتى يوم ال ١٧ من نيسان • وعلة ذلك انه اكتشف مخازن كبيرة مليئة بالحنطة يملكها الاهلون •

وبعد اسبوع ، أي في اليوم الثالث من شباط ، رفع (سر ويليم روبرتسن ، رئيس أركان الانبراطورية) تقريرا الى (الوزارة البريطانية) يقترح فيه ان تكون الهيمنة على حركات ما بين النهرين ، في المستقبل ، لوزارة الحرب . وكان الاقتراح قد صيغ ، بلفظ منضّد وبأسلوب السهل الممتنع المتقن ، وبالايجاز غير المخل ، لذلك اقرّ حالا من قبل (لجنة الحرب) ومن حكومة الهند • وهذا القرار يكوّن حقبة ملحوظة في (تأريخ حملة ما بين النهرين) ، وقد حظى بالارتياح والتقدير من قبل الجميع • ذلك انا اخذنا ، منذ تأريخه ، بالتموّن من موارد الانبراطورية البريطانية في امداد الحملة ، وعلى وفق ما كان يراه اولوا الامر الكبار ، بحكمتهم وسداد رأيهم • واخذ بتطبيق الاصول والطرائق البريطانية ، لا الهندية ،[١٦] وشرعنا نتجه الى « ملاكات الحرب : War Establishments » ، وان لم نستطع الى الوصول اليه سبيلا[١٧] •

وكان ان حلت محل (القوة الاستكشافية الهندية/د) ذات الذكرى

---

(١٦) من رزايا افراد (حملة ما بين النهرين) ان تمضي ستة شهور بين تقديم (وزارة الحرب) مقترحات تتصل بترقياتهم ومكافآتهم وبين نشر القائمة المصادق عليها في (الجريدة الرسمية اللندنية) • لقد اعتدت الترقيات نافذة من تاريخ نشرها ، بما ينطوي عليه ذلك من عقبى ظالمة • ان الضباط الذين تمت ترقيتهم نتيجة خدماتهم في سوح فرنسة وغاليبولي استفادوا من جراء ذلك ماليا ونالوا قدما ، كما استفادت ارملاتهم ، في حالات كثيرة ، ايضا [المؤلف]

(١٧) قام اللواء كلمان الذي غدا فيما بعد (رئيس الضباط الاركان) في امرة سر ويليم مارشل ، بجولة قصيرة في بلاد ما بين النهرين ، وكان ذلك في اذار ، ونيابة عن وزارة الحرب • انه الاول في سلسلة من ضباط الارتباط الذين اسفرت زياراتهم عن تيسير شؤون التغييرات التي حدثت أخيرا • [المؤلف]

الماجدة ، من الان فصاعدا ، (حملة ما بين النهرين الاستكشافية)[١٨] وكان حقا على (سر برسي ليك) ان يجبه الضرورات الملحّة المتّصلة بالوضع الحربي على دجلة • لقد عيّن الـ (جنرال كورنج) رئيسا للضباط الاركان في (فيلق دجلة) ، وعيّن مكانه الـ (جنرال بروكنك) ، والاخير لما له من صيت ، طار كل مطار بسبب مما ابداه في الرمادي ، وغيرها • وما كان عندنا الا طائرة واحدة ميسورة للعمل فوق دجلة ، على حين كان عند الاتراك ست طائرات ، وزيادة ، وهي طائرات أسرع من طائراتنا ، عموما ، وأفضل •وكنا شاكين من قلة في وسائل النقل ، وما كنا لنستطيع جعل قواتنا الموجودة في البلاد ، في حينه ، مقاتلة في خط النار ابداً ، شأنها كشأن القوات التي يؤمّل وصولها ، أو هي أقل منها حظا • ولكن ، حمدا لهذا الذي كشف عنه الـ (جنرال طاونسند) اعني : خزين حنطة ، اذ به استطعنا ان نؤجّل ، لبضعة شهور ، تقدمها •

وكان سر جورج كورنج مع كجنر في السودان ، وكان من انجح امراء الارتال في حرب جنوبي افريقية • لكن نشاطه المعروف ، وقوة اندفاعه لم تسعفاه في هذا الظرف الا قليلا • لم يفارقه نكد الحظ ابدا ، وما كان احد ليستطيع ان يصارع الظروف المعاكسة ، بقوة وشجاعة ، كمثل كورنج • ودارت رحى معسركة أخرى ليلة ٢٣/٢٤ من شباط جُرح في أثنائها هـذا (الجنرال) وهو يقوم باستكشاف شخصي • لقد تمّ الحصول على معلومات قيمة تتصّل بترتيبات العدو العسكرية ، ولم يثبت امكان القيام بتقدّم كبير • ومع ذلك كله ، كانت هناك فرصة ، وان لم يحط بها احد ، على ما كان يتراءى ، خُبْرا ، واعني بها : ان تمضي قواتنا الى الخط التركي فتخرقه خرقا • وكانت القوة التركية الموجودة على الضفة اليسرى ابعد مكانا من اية قطعات اخرى موجودة على الضفة اليمنى •

---

(١٨) ان الصلة بين هذا (الاسم) وبين ماورد في (العهد القديم) كانلها أثر في الدعاية الانكليزية ، لكن اتخاذه عنوانا رسميا للاصقاع التي كانت تعرف ببلاد العرب التركية ادى الى ادخاله في نصوص معاهدة الهدنة مع تركية ليـدل على الولايات التركية الثلاث : البصرة وبغداد والموصل ، وهو خطأ كانت له عواقب وخيمة (المؤلف) •

وكان بعض الضباط الاركان يذهبون الى ان الاتراك كانت لديهم من القطعات قلة ، هذا ان وجدت قطعات لديهم حقا ، وكانوا يزعمون انها ترابط بين القوة المحاصرة في الكوت وبين القوات الموجودة في الخنادق المواجهة للقوة البريطانية • واقترح على الـ (جنرال كورنج) ان يرمي بقوة صغيرة ، عَبْر النهر ، خلال الليل ، وفي نقطة يكون الهور فيها على أقرب مكان من النهر • واشترط ان تكون نار رشاشات هذه (القوة) حامية ، وان تحفر خندقا ذا وجهتين يكون موضعه بين النهر والهور • وكان الزعم الشائع ان ليس لدى الاتراك من القوت الا ما يكفيهم لايام ثلاثة تقريبا ، لذا فلا معدى عن ان يتراجعوا الى الكوت او يسلّموا • وعلى ذلك لو انحدرت القوة المحاصِرة لمهاجمة الخندق ، فان المحاصرين ، بانذار يصدر اليهم منا قبل ايام قليلة ، يستطيعون الخروج ومهاجمتهم من وراء • وكان لزاما أن تسيّر بعض وحداتنا المدفعية صعدا على ضفة النهر اليمنى ، لكي تسيطر على اية قوة تركية تهاجم الخندق • ولا يشير (التأريخ الرسمي) الى هذه (الخطة) كما لم يرد لها ذكر في الرسائل الحربية • لقد رفضها الـ (جنرال كورنج) لاسباب تراءت له ، من دون شكّ ، ثابتة قاطعة •

وجرت ، يوم الثامن من آذار ، محاولة جريئة في سبيل اختراق خط الاتراك وانقاذ حامية الكوت • واثارت الحركة هذه ، على ما ورد في (التأريخ الرسمي) « من التعليقات والانتقادات أكثر مما اثارته أية حركة أخرى من حركات (الحملة) » • وقد بدأت الحركة يوم الثامن من آذار وغايتها الدوران حول جناح الاتراك الايمن في موضعهم الكائن على ضفة النهر اليمنى وذلك عن سبيل الاستيلاء على (طابية الدجيلة) •

وبدأت الحركة بمسيرة ليل ، ناقصة التنظيم ، ولم تنفذ على الوجه التام السليم[19] :

---

(١٩) راجع :

Records of The Survey of India Vol. XX, 1925, p. 11 et seq.

ان اردت الوقوف على شيء ذي خطر في دراسة هذه المشاغلة ، اذ فيه نقد للمسيرة التي قام بها الرائد ميسون المنسوب الى صنف الهندسة الملكي والذي قاد الرتل • انه لا =

ودخل المقدّم لجمن[٢٠] مع بعض الفرسان العرب من بطانته الشخصية هذه (الطابية) حقا ، وكان لجمن قد رافق الرتل بوصفه ضابطا سياسيا • لقد ابلغ الخبر الى ال (جنرال كمبال) الذي نيط بـه واجب الاستيلاء على « الطابية » ، واعلمه ان حاميتها لا تزيد على ٤٠ جنديا • لقد رمى جنودنا جماعته بالنار لكن الاتراك لم يلحظوه ابدا • وتراءى جليا للعقيد وولتن ، آمر الفوج المتقدم (البنجابيين/٢٦) ، ان في الامكان الاستيلاء على الطابية وان ذلك يجب ان يتمّ حالا ، لذا سار اليها قُدُما • وبعد ان تأمّل آمره : (الجنرال كريسجين)[٢١] في الوضع شخصيا ، اقرّ ذلك واعلم الجنرال كمبال • لكن الاخير لم يوافق عليه ، فقد كان يشفق من شرك منصوب ، ورغب ان يسار على « وفق خطة مرسومة » ، واعتدّ نفسه ملزما بتنفيذ تعليمات ال (جنرال المر)[٢٢] الصريحة التي يظهر انها اغفلت امكان اخذ الاتراك على غرّة • لذلك اعاد وحدة البنجابيين/٢٦ وأمر المدفعية بان تعدّ العدة ، وبذلك نبذت كل منفعة تتأتى من المباغة • وغبّ ساعة ، ونصف ساعة ، رجا ال (جنرال كرسجين) أن يؤذن له بالتقدّم فرُفض الرجاء ، ومضت ثلاث

يعتقد بوجود أي تأخر في المسيرة أو أية أخطاء في الخريطة مما أدى الى الفاجعة التالية • [المؤلف]

(٢٠) راجع Tennant ان اردت الوقوف على ما يدل على السمعة التي كان يتمتع بها بين قطعاته • [المؤلف]

(٢١) توفي في كانون الثاني ١٩٣٠ [المؤلف]

(٢٢) بصدد هذه القضية الشائكة ، أعني عصيان الضابط لاوامر صدرت اليه من شخص وجبت عليه طاعته ، في ظروف معينة ، ل (لورد نيلسون) رأي ضمه خطاب ارسله الى ال (لورد سبنسر) في ٦ تشرين الثاني سنة ١٧٩٨واني انقله من المجلة البحرية Naval Review :

« انى لاقر اطاعة الاوامر اطاعة تامة •• ومع ذلك فان يقال ان الضابط يجب الا يغير ، لغاية ما ، الاوامر الصادرة اليه فشيء لااستطيع الى فهمه سبيلا• ان الامر الاعظم شأنا الصادر الى الجميع (المضمن في اعلان الحرب) هو تحطيم قوة فرنسة • وان تحقيق ذلك على الوجه الاسرع الايسر هو هدف الاوامر التي هي أقل شأنا ، فان ثبت أن خرق الامر الذى هو أقل شأنا ينطوى على طاعة تامة للامر الاعظم شأنا فلا شك ان ذلك واجب ايضا• اما تعليمات الميدان بشأن هذا (الموضوع) فهي تنص على مايلي :

ساعات ثمينات بددا ، حتى اذن للجهاز الحربي المثقل ، فشرع يعمل .

وبدأ التقدم على أسوأ حال ، والظاهر ان اللواء ال **٣٦** تقدّم ، عبَّر جبهة يومي ال ٩ وال **٢٨** من الشهر ، وكان تقدّمه ، على غرار تقدّم اللواءين الآخرين ، مدعاة الخيبة ، كما كان أمر الحركات الاخرى ، في ذلك النهار ، مريحاً . ثم كان النجح الذي اصابه اللواء الهندي الثامن ، بعد ذلك ، اذ استطاع في الساعة الرابعة من بعد الظهر ان يصحح الاخطاء التي صاحبت بدء الهجوم . وكانت الشمس تلقاء عيون آحاد اللواء المذكور ، كما كان عليهم أن يسيروا على أرض مستوية جدَد مسافة **٣٠٠٠** ياردة وزيادة . وعلى الرغم من نار الاتراك الحامية استطاعوا الانقضاض على (الطابية)[٢٣] واستولوا على قمة التل حقا . وفقدوا ، في سبيل ذلك ، نصف عددهم . ولما لم يكن ثمة ستر لهم فلقد اجبروا على التراجع اثر هجوم مقابل شنّه الاتراك ، بعد ان وصلتهم قوة جديدة ، توا .

« يسمح بالانحراف عن تنفيذ نص أي (أمر) وروحه ان استند المرؤوس الذي يتحمل تبعة ذلك الى حقائق لم يقف عليها الضابط الذي اصدر الامر » وان شعر في قرارة نفسه انه قائم بعمل لو كان رئيسه حاضرا لقام به باعتداده لازبا . فان اهمل المرؤوس ، في حالة غياب رئيسه ، الانحراف عن تنفيذ نص الاوامر الصادرة له ، وتطلبت ذلك الظروف، وتسبب عن ذلك فشل، فيعتد مسؤولا عنه [المؤلف] .

(٢٣) خلاصة الموقف الحربي في هذا الاوان :

ـ ضفة دجلة اليسرى : عزز الاتراك قواتهم في (الحنة) ومواضعهم الدفاعية في (الفلاحية) و (الصناعيات) و (النخيلات) وجناحيهم : على دجلة ، وعلى (هور الشويجة من الجهة الاخرى) .

ـ ضفة دجلة اليمنى : يؤلف (السن) خط الدفاع التركي العام ، وهو يستند الى (طابية الدجيلة) ، وهي على بعد ٥ اميال ، جنوبي النهر ، و ١٤ ميلا الى الجنوب الغربي من الخطوط البريطانية الممتدة على هذه الضفة .

اراد الجنرال المر انقاذ الكوت عن سبيل قلب جناح العدو الايمن جاعلا غايته الاولى مباغتة (طابية الدجيلة) فعبور نهرالحي . استطاعت بعض القطعات البريطانية تثبيت اقدامها عند هذه (الطابية) لكن الهجوم التركي المقابل اجبرها على التقهقر فلم تستطع الى انقاذ الكوت سبيلا .

[المترجم]

ويقول مصدر ذو خطر : ان الخيالة لم يكن لها تأثير في المعركة • « لقد حامت من غير جدوى على الجهة اليسرى ، وخلف المشاة نوعماً ، وغالبا ، وكانت حركتها اما بدون تدبّر كبير ، او بدونه مطلقا » • ولو قُدر لها ان تقاد بمقدرة وكفاية ، ولو استخدمت على وجه مطلق من امرة الـ (جنرال كمبال) ، أو في امرته أيضا ، بازاء نجدات العدو التي توافدت على الدجيلة من وراء ، لاستطاعت ان تجعل كفة الميزان لصالحنا • وفي الحق انها لم تمكّن ، ، لا في هذه المشاغلة ولا في مشاغلة سابقة جرت على دجلة ، من أن تلعب دورا يتناسب مع ما كانت تستنزفه من خدماتنا النقلية • وكانت الاعراب ، على ما ورد على لسان قاصٍ معاصر ، « تتحلقّ كل مرة حولها » • ان المبدأ المغلوط الذي قُعِّد ، ابان معركة (ساحل) والتزم به خلال (معركة الكوت) و (طيسفون) ، ما زال قائما ، فالتعليمات كانت تصدر من مقر الفيلق ، وتنص على ان الجرحى يجب ان يجمعوا ليؤخذ بهم الى (طابية الدجيلة) ، حيث العدو ، ولم يتّخذ ما يلزم عند عدم التمكّن من احتلال الموقع المذكور[٢٤] • لذلك كان الذي عاناه الجرحى على غاية من خطر ، ومما زاد في شقائهم شقاءا ان الماء كان عندهم مفقودا معدوما • لكن الماء الصالح للشرب كان موجودا ، غزيرا تحت الثرى ، لو حفروا اليه اقداما ، لشربوا منه جميعا وارتووا كثيرا •

وبقيت قوة الكوت غير فعّالة خلال النهار • لقد حطّم الـ (جنرال طاونسند) الجسر ، في كانون الاول ، وبذلك صيّر التعاون الحق مع قوة الانقاذ أمرا عسيرا ، لكننا والعدو على الحال الراهنة كنا على حد سواء ، ولو قدّر ان يوضع في كفتنا ثقل ما لمال الميزان لصالحنا • ولو قدّر لـ (جنرال طاونسند) ان ينقل بعض قوته ، أو حاول ان ينقل جزءا منها الى الضفة اليمنى ، خلال ليلة السابع من اذار ، لاستطاع ان يحدث انحرافا يخفّف من الضغط الواقع على الدجيلة ، وبذلك يجعل النصر منا قاب قوسين او ادنى • ومهما كانت الحال ، انه لم يكن لينوي العبور ما لم يشهد جنود (قوة الانقاذ) تتقدّم على الجهة القريبة من الدجيلة • ومعنى ذلك ان يجرى العبور في وضح النهار ، وبعد

(٢٤) Official Medical History, IV, 223. [المؤلف]

ان يكون مصير المعركة قد تقرّر حقا . ولم يكن هناك من تعاون حق يراد ،
وما كان الـ (جنرال طاونسند) في امرة الـ (جنرال المر) ، ولم تكن العلاقات
بينهما ، للاسباب التي لا مُشاحةَ في ان القارىء النبيه قد ادركها مما ورد
في صفحاتْ (الكتاب) الماضية ، حسنة . وورث الـ (جنرال سر برسي ليك)
هيأة الضباط الاركان الذين عملوا مع سلفه ، وما كانت عنده فضلة من
وقت يستطيع بها أن يخمّر آراء شخصية تتصل بالمشكلات السوقية والتنظيمات
التي تجبه الامراء التابعين له ، العاملين في (جبهة دجلة) . ولعل علاقاته الشخصية
الوثيقة معهم كانت تسبّب له حرجا . وكلنا كان يشكو من عوز في وسائل
النقل الميسورة . وفي الساعة السابعة خيّم على الدنيا ظلام ، ولما كان الهجوم
الاخير قد باء بفشل ، لذا قرر (الجنرال) ان ينسحب ، ليجمع قواته ويركّزها
ويترقب ما ينجم من حوادث . وجيء بالعتاد ، وجيء بالماء ، وكان قليلا نكدا ،
ونقل جرحانا ، تحت ستار الظلام ، على عربات ليس فيها نوابض ، وسارت بهم
نحو ١٥ ميلا الى (الوادي) . ولا يمكن ان يدرك ما قاساه هؤلاء الا من
كانت عنده تجربة مُعَاشة مماثلة ، وقاسى مثلهم سواء بسواء . ولكن لم يكن
عن مثل ذلك ندحة ، على ما يقرر (التأريخ الرسمي) في ميدان المعركة ، عن أن تسلب الموتى ،
وتعرى الجرحى او تجهز عليها ايضا . وكان لزاما ان يصحب حاملي النقالات
جنود مسلحون ، وكان هؤلاء ، ابان محاولة طرد الاعراب ، يتعرضون الى
نار حامية تصلى من خنادق الاتراك ، فتسبّب من الضحايا كثيرا . وعند انفجار
الصبح كان العرب في ساحة المعركة يطفحون بشرا ويدأبون على السلب
والنهب ، وان تعرّضت حياتهم الى خطر كان شرّه مستطيرا . وما كانوا ليتركوا
شيئا ، مهما كان أو سفسافا تافها ، كما كانوا يستخرجون الملابس والدثارات المدفونة
مع الموتى ، وحتى لو كان الدفن قد جرى قبل شهور ايضا . انهم الى امثالها
مستهتَرين[٢٥] وأشدّ ما يكونون تَوقا . وأصاب (القوة) ، من جرّاء مسيرة الليل ،
رهق ، ثم جاءت في اعقابها ليلة ليلاء امضوها في حفر الخنادق دائبين . ولو قدر

(٢٥) المستهتر بفتح التاء المولع بالشيء .

ان يمنوا بهجوم ناكص آخر لما استطاعوا ، من النصب ، أن يقفلوا راجعين الى (الوادي) • ومن الجهة الأخرى لو كتب لهم النصر فان وسائل النقل المتيسرة غير كافية لتجهيزهم بالطعام والعتاد اللازمين • وفي هذه المرحلة لم تكن في (بلاد ما بين النهرين) سيارة واحدة ميسورة للمقاصد العسكرية ، وما من شك في أن ال (جنرال المر) أخذ هذا بنظر الاعتبار فقرر الانسحاب يوم التاسع من الشهر مبكرا ، وكان ان نجح فيه فلم يتكبد من الخسائر شيئا خطرا ، لكن الجنود قاسوا خلاله من العطش والرهق شيئا كثيرا • وقتل ، من بين ال ٢٧ الف مقاتل كانوا على ضفتي دجلة ، ٥٠٠ وزيادة ، ونحو مثل هذا العدد كانوا في عداد المفقودين ، واكثر من ٢٥٠٠ في عداد الجرحى • وبلغت ضحايا الالوية ال ٨ وال ٩ وال ٣٦ : ٢٥ بالمئة من مجموع قوتها ، وتركت (وحدة مانجسترز) و (وحدة راجبوت/٢) ثلث جنودهما في ميدان القتال صرعى • وبلغت ضحايا الاتراك نحو ١٣٠٠ •

قيل ان نابليون اعتاد ان يسأل ، قبل ترقية اي ضابط الى منصب قيادي سام ، أهو ممن يحالفه الحظ ؟ وبقدر تعلق الامر بقادة الجيش ، او الفيلق ، او الفرقة ، الذين عملوا في (بلاد مابين النهرين) خلال الشهور الاولى من سنة ١٩١٦ ، لو سأل أحد مثل هذا السؤال عنهم لكان الجواب ، على القطع ، سلبا !

وكل امريء يسعى الى المجد جاهدا ولكن طريق المجد أكثره وعر !

وجبهت ال (جنرال المر)، على الخصوص ، صعوبات خارقة، وما كان له من دخل فيها، ذلك انه، على خلاف كل من ال (جنرال نيكسون) وال (جنرال طاونسند)، أدرك ، منذ طالعة أمره ، عسر الواجب الذي ينتظره • واليه مرد تبعة اصطفاء ال (جنرال كمبال) للقيام بالحركات بازاء الدجيلة ، واليه أيضاً مرد اصدار الاوامر المفصلة الدقيقة التي شعر ال (جنرال) المذكور بالالتزام بها حرفيا • وكانت (القوة) التي وضعت بامرة هذا الضابط مؤلفة من ألوية جيء بها من ثلاث تشكيلات شتى ، ولم يسبق لها ان عملت معا قبلا ، كما كان أمراؤها ، على غرار ضباطه الاركان ، غريبين عن ال (جنرال كمبال) نفسه ، ولا يعرف احدهم أحداً • ولو استخدمت (الفرقة الثالثة) في الهجوم الحاسم لجنبنا أمثال هذه

الهنات ، ولكانت النتيجة مختلفة عن كل احتمال بشري • ولتغيّر مجرى الحملة كليا ، ولتكيّف تأريخ الشرق الاوسط القابل ، ولعل تأريخ الحرب أيضا ، واصبحا أكثر عمقا ، ولوفرّت على الهند بعض الضحايا الكبيرة التي فرضت عليها بنتيجة استخدام قوة في هذا الميدان الحربي ، كان تعدادها نحو نصف مليون ، ولتجنّبت ، في الاقل ، بعض العواقب السياسية غير المستحبّة المنبثقة عن استنزاف قوتها البشرية ومواردها •

وفي مثل هذه الظروف لا مندوحة عن تنحية ال (جنرال المر) عن القيادة ، من دون ان يمس ذلك خدماته الجليلة الباسلة فيما مضى • وعين مكانـه ال (جنرال كورنج) قائداً لفيلق دجلة ، ونيط به أمر انقاذ قوة الجنرال طاونسند ، عن سبيل محاولة أخيرة • وتراءى ، أول الامر ، ان الضغط الروسي على جناح الاتراك ، خلل فارس ، سيكون لنا عونا ، ذلك ان ١٠٠٠٠ روسي كانوا يحتلون (كرند) يوم ال ١٢ من اذار ، لكن مثل هذا الامل كان (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء) ، وسرعان ما تلاشى • وكان ان نجمت عقبات جديدة ثبت عدم امكان التغلب عليها • وكان يؤود ال (جنرال كورنج) ، غير فقدان وسائل النقل في البرّ والنهر الدائب ، ان دجلة أخذ يمد بمائه ، فطغى على ضفتيه وبغى ، وان العوّامات Pontoons كانت لديه قليلة ، وان له في الجو اليد السفلى ، فطائراتنا اقلّ من طائرات الاتراك اندفاعا ، وعلى غرار كل معدّات القتـال الاخرى ، كان عدد السفن النهرية التي عنده نكدا قليلا • ووقفت الاحوال الجوية السيئة دون تجمعّ القوة في الموقع الحاسم ، وأخّر وابل غيث ، صبيب منهلّ ، تساقط خلال الاسبوع الاول من نيسان ، وصولَ وسائط النقل الاضافية التي احتيج اليها كثيرا • ومهما تكن الحال ، كانت عنده فرقة بريطانية اضافية ، اعني الفرقة ال ١٣ التي كان يقودها (اللواء مود) وقد جاءت من الدردنيل(*) أخيرا : وكانت الفرقة هذه تتألف ، في الدرجة الاولى ، من ضباط شبان ، في

(*) يقول (روميل) القائد الالماني الذي لمع اسمه في الحرب العالمية الثانية في (مذكراته) : « وكقاعدة عامة يستطيع الانكليز ، دوما ، سحب قواتهم ، بحرا ، معجلين كثيرا ، وعندما يضطروا الى مثل ذلك قسرا » • [المترجم]

ميعة الصبا ، وجنود لم يحظوا بالتدريب العسكري اللازم الالماما ، ولم يخبروا القتال الحق الا قليلا . «لكن التجربة» ، على ماقال افلاطون « تأخذ أكثر مما تعطي ، فللشباب اراء أدنى من اراء من بلغوا من الكبر عتيا » . وسرعان ما أثبتوا أنهم ابناء بجدتها ، ولعبوا أدوارا مهمة في ميادين حمي فيها وطيس الحرب كثيرا . وبعد عمل جدّ دقيق ومستأن ، صبّه الضباط الاركان ، وعقدة تأجيل تكرّر بسبب من المطر والفيضان والوحل ، حشّد ال (جنرال كورنج) قوته المؤلفة من ٣٠٠٠٠ من المشاة و١٢٧ مدفعا ، في محاولة أخيرة للتغلّب على الاتراك الذين كانت عدّتهم نحو ٢٠٠٠٠ من المشاة ومعهم ٨٨ مدفعا ، فاشغل موضعا منيعا جدا فيه خنادق تعتمد على ضفتي نهر دجلة . وقبل انفجار صبح اليوم الخامس من نيسان تقدمت الفرقة ال ١٣ للهجوم ، على الضفة اليسرى ، واحتلّت الخطوط الاولى ، والثانية ، والثالثة من خنادق الاتراك ، كما حصل تقدم سريع على الضفة اليمنى ، أول الامر ، أيضا ، ولولا الطوفان الذي كان في سنة ١٩١٦ شاذا ، لأجبر الاتراك على اخلاء موضعهم الرئيس . ولكن النحس لازمنا كرة اخرى ، فاضطررنا على شنّ هجوم جبهوي . وعند المساء قامت الفرقة ال ١٣ بهجوم آخر ، فاستولت على (الفلاحية) ، بعد ان تكبدّت من جراء ذلك ١٨٠٠ من القتلى والجرحى . وكان قد جرى ترصين هذا الموقع خلال الليل .

وعند الفجر من اليوم التالي (٦ نيسان) عاودنا الهجوم ، وكان ذلك في ظروف أشدّ من ذي قبل سوأ . ذلك أن الريح الشمالية ـ الغربية الخلوج هبّت فقذفت بمياه هور شويجة نحو الجنوب ، فتقلّصت جبهة الاتراك واصبحت نحو ٤٠٠ ياردة . وكان الاتراك على اتمّ الاهبة للهجوم ، واصبح اللواءان ال ٢٨ ، وال ١٩ اللذان كانا في الطليعة عرضة لنار حامية . وفي التأريخ نفسه من سنة ١٨١٢ كانت (وحدة اوكسفورد) ، وهي من كانت تدعي ، عهدئذ ، بوحدة المشاة الخفيفة/٤٣ و٥٢ ـ قد انقضّت على (بادا جوز : Badajoz) بهجوم كأنه الاعصار ، وقد خلّد (نابيير Napier) بسالة هاتين الوحدتين في تلك المناسبة بنثره الخالد الحي . ولا معدى عن مثل قلمه السيّال ليسطّر صمود

هؤلاء الجنود على ضفتي دجلة ، وهم من أبقوا اسم اسلافهم عاليا • ولم يبق من بين الـ١٣ ضابطا و٢٦٦ من المراتب الا ٤٦ جنديا ، ولم يفلت أي ضابط من الضباط من ضر • اما بالنسبة لزملائهم في وحدتي (السيك الـ ٥١) ووحدة (لسترز) فلقد خسرتا اكثر من نصف موجودهما الحق • ودأب الماء على طغيانه ، وكان يلف عجلات المدافع ويدهم كل خندق ، وتراءى ان البقعة الكائنة بين النهر والبطيحة ستغمر بماء الطوفان كلها ، وكان لزاما على جنودنا ان يجبهوا هذا الخطر الجديد قبل ن يحاولوا ازاحة الاتراك عن خنادقهم •

ولما كان الـ (جنرال كورنج) يعلم ان قوة الـ (جنرال طاونسند) توشك ان تأتي على آخر ماعندها من قوت ، لذلك شعر ان من الحتم اللازم معاودة الهجوم في اليوم التالي • وجمع الجرحى (وكانت ثمة قلة من سيارات الاسعاف ميسورة لنقلهم) وكان كل واحد على استعداد لمحاولة جديدة ، وقبل ان يتبين الفجر من اليوم الـ ٩ من نيسان ، تمت • وفي الحرب خيبات أمل تبعث انفاسا حرى مصعدة ، وهي كثر وليست بقل :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

وكان الليل قرا ، والهواء مثقلا بضباب كثيف تصاعد من النهر والبطيحة • وكان الجنود يؤودون بوطأة الجهد الجهيد والمشقة الشاقة،والنوم يثقل اجفانهم، اذ ماعرفوه ابدا ، وماكانوا يعلمون انهم يقفون بازاء العدو وجها لوجه • وعلى حين غرة ، انطلقت من خنادق الاتراك ، التي لم تكن لتبعد الا ياردات قليلة ، نار حامية حمراء لاهبة ، ودل ذلك على انهم كانوا يرقبون هجومنا ، متربصين وواثقين من انهم سيصدونه على صدوه قبلا ، وانهم يجهزون على القوة الضاغطة المهاجمة فتهلك جميعا ، ومن دون ان تبقى لها باقية • وسار خطنا الاول بثبات، واضطرب حبل الخط الثاني لمديدة حسب، وان كانت هذه كافية لأن يلحق به الخط الثالث ، واخذ الاخير يتقدم على دفعات متتابعة حينا من الوقت ، ثم شرع يقدم رجلا ويؤخر أخرى حتى عاد القهقرى ، اما الخط الاول فلقد استطاع احتلال خنادق الاتراك ، لكن حال من وراءهم كانت مريجة فوضى ولا

سبيل الى اصلاحها ابدا • وكان الضباط يقفزون متقدّمين ، مرة تلو مرة ، يهيبون بجنودهم ليعاودوا المحاولة، كرة بعد كرّة ، لانهاض الهمة الناكصة والعزيمه الكالة ، وكانت تسير ، في اعقابهم ، احيانا ، كثرة من الجنود ، واحيانا ، قلة • وما كان يعوزنا قواد باسلون خلال تلك الساعات العصيبة ، لكن الجنود غير المجربين ، هنودا كانوا أم بريطانيين ، قد عضّهم البرد بانيابه ، وما كانوا بقادرين على تمييز ضباطهم ، اذ ان هؤلاء الضباط لم يلتحقوا بوحداتهم ، في كثير من الحالات ، الا قبل اسابيع معدودات ، كما ان الجنود لم يقووا على المثابرة على الهجوم بسبب من الظلام الدامس المطبق • وما ان تبين (الخيط الابيض من الخيط الاسود) من فجر اليوم التالي ، الاّ غدا التقدّم امرا مستحيلا • وقبيل ان يشير مقربا الساعة الى التاسعة صباحا تجلّى ان الهجوم كان مُخْفِقاً•

وكان لماء الفيضان دويّ ، وأصبح دجلة (بحرا خضمّا به الامواج تلتطم) ، يطغى على ضفتيه فيكتسح سدوده ، وتصبح الخنادق غير ذات جدوى ، وما ان تعالت الشمس عند الضحى ، الاّ جاء الذباب اسرابا اسرابا ، فازدادت الخيول من جرّائه خبالا واشتدت حال الجرحى شقاءا ، وبذلك غدت راحة قصيرة ، يحتاج اليها من لم يحن حينه ، بعد ، أمرا مستحيلا •

وتجلّى ان معاودة المشاغلة على الضفة اليسرى مستحيلة • ولما كان الـ (جنرال طاونسند) قد اعلم الـ (جنرال كورنج) بانه قادر على الصمود حتى يوم الـ ٢٩ من نيسان ، باعتداده حدّا أقصى ، فلقد اعدّت العدّة لمحاولة اخيرة ، وعلى ضفة النهر اليمنى ، هذه المرة • انه أمل يؤوس ، فماء الفيضان دائب على الارتفاع ، وكان الجنود الناصبون يعملون ، والطين جاوز منهم الركب، في سبيل اصلاح السداد القائمة ، وبناء سداد اخرى ، والعمل هذا يستغرق ساعات طوالا • وكانت مواد التموين نزرة شحيحة ، ولم تكن وسائل النقل ، في الغالب ، قد جرت تعبئتها • وخطط هجوم جعل ميقاته يوم الـ ١٢ من نيسان ، وما أن اعدت أوامر الحركات اللازمة له الا فتحت ابواب السماء بماء منهمر ، صحبته ريح صرصر عاتية جعلت الحركة مستحيلة متعذرّة • وهكذا مُنيت الخطط

البريطانية بالاخفاق التام ، كرّة اخرى ، والسبب هو : الطقس السيء . واخذ ماء الهور يتدافع على موجات هائلة فيصيب السدود الواقية ، ويغمر الخنادق ، فيضطر من فيها الى الخروج منها ، تحت وابل من رصاص، عساهم يجدون من غرق مأمنا . ولم تستطع الا قلة منهم ان تحتفظ بغير بندقياتها ، ومات كثير من الجنود الجرحى ، في الماء والطين ، غرقى . ولم تكن حال الترك باحسن من حالنا ، فلقد اجتاحهم الفيضان كما اجتاحنا ، وانهال عليهم الرصاص ، ابّان تراجعهم الى مواضع جديدة ، من بندقيات اعداء لهم ، وان كانوا نصف غرقى !

وكبداية للاستيلاء على (بيت عيسى) قرّر الـ (جنرال كورنج) أن يشغل معملا للعدو متقدّما ، ذا فوائد جمّة غير اعتيادية ، وباعتداده نقطة قفز للهجوم الرئيس ، ونقطة مراقبة لمدفعيتنا . وقبل ان يبزغ الفجر ، شُرع بالهجوم ، وصحبه برق ، ورعد ، واعصار فكان لذلك تأثير في البوصلات التي تهدي القطعات وأصبح السير على الارض معسورا . وعلى كل حال ، لقد تمّ الاستيلاء على الموقع المذكور وقبض على عدد من الاسارى(٢٦) .

وعند الفجر من يوم الـ ١٧ سار لواءان لشنّ هجوم تحت سد مدفعية : Artillery Barrage ، واخذ جنودنا يعملون الحراب في الاتراك ، الذين وجدوهم جالسين في الخنادق ، ويلقون القبض على غيرهم . وتقدّم جند (الكركة) على جناحنا،

(٢٦) بسبب من ابداء شجاعة فائقة متجلية في هذه المشاغلة منح (صليب فكتورية) الى (نيك شاه احمد خان) المنسوب الى وحدة (٨٩/البنجابية) . لقد نيط به فصيل رشاش في موضع مكشوف كائن الى قدام ويغطي فجوة في خطنا الجديد وضمن ١٥٠ ياردة من موقع العدو المخندق . لقد صد ثلاث هجمات مضادة وادار مدفعه وحيدا بعد ان اصبح جميع جنوده ، فيما خلا جنديين ، في عداد الضحايا .

« لقد امسك بالفجوة طوال ثلاث ساعات وذلك تحت وابل من نار حامية وعلى حين كان يجري جعلها آمنة . وما ان قضي على مدفعه بنار العدو الا صمد وجندياه في أمكنتهم وبايديهم بندقياتهم حتى امروا بالانسحاب » .

« وكان أن ارسل ثلاثة جنود لمساعدته وعندها عاد بمدفعه وعتاده وبجندي مصاب بجرح بليغ لا يقوى على السير . واخيرا عاد بنفسه ونقل جميع ما تبقى من سلاح وادوات فيما خلا مجرفتين » .

« ولولا شجاعته الفائقة وصموده لخرق خطنا من قبل العدو » .

لندن غازيت ٢٦ ايلول ١٩١٦ (المؤلف)

واستولوا على مدفعين ، لكنهم لم يستطيعوا الى سحبهما سبيلا • ولقد كانوا في معزل عن قطعاتنا الموجودة على جبهتهم اليمنى ، لذلك كان خطنا في هذه الجهة مكشوفا جدا •

لقد ادرك خليل باشا[٢٧] ، على ما نعلم اليوم ، ان استيلاءنا على (بيت عيسى) يطلق يدنا على ضفة النهر اليمنى ، لذلك عقد العزم العازم على استعادته • ونشب قتال دائب مرير خلال يومي ال ١٦ وال ١٧، بلغ القمة وأوفى على الذروة وبدت امارات دالّة على ان الاتراك يوشكون ان يشنّوا هجوما • وما ان توارت (الشمس) بالحجاب الا تم الاتصال بينهم وبين الخط البريطاني ، ثم كان ان غلبوا على فوجي الكركة اللذين كانا الى العتاد بحاجة ماسة ، وقبل ان تصل من اللواء التاسع النجدة • وما ان نفذ الاتراك ، وكانت عدّتهم ١٠٠٠٠ من المقاتلة ، من صفوف الكركة الا اتصّلوا بالبقية الباقية من اللواء التاسع فأخذت هذه تترنح وتتقهقر على حال فوضى ، وكان ان سارت في اعقابها جماعة من العدو ليست على حظ كبير من انتظام أيضا • ومهما تكن الحال ، فان الاتراك لم يوفّقوا الى ادراك ثمرة النصر ، ذلك ان (العقيد كامبل) الذي كان يقود اللواء ، جاهد وضباطه الاتراك لافراد شطر كبير من وحدة المشاة الخفيفة (هايلاند) لذلك ، ولاصلاء العدو ، فالحيلولة دون احراز تقدّم آخر • لكن الانسحاب استمرّ وشمل وحدات اخر ، وكان ان تم الاستيلاء على مقر اللواء السابع • واشتبك اللواء الثامن بقتال مرير ، لكن دفاعه المستميت كلّل بغار النصر • وقام (اللواء اكرتون) شخصيا بتنظيم هجوم مضاد ، فقُدّر له ان يستعيد (مقرّه) واستمرّ القتال ، طوال الليل ، وما ان ازفت الساعة الخامسة والنصف صباحا الا كان الاتراك يتراجعون تراجعا تاما ، وبلغت ضحاياهم نحو ٥٠٠٠ ، ما بين

(٢٧) كان المشير فون در غولج الالماني ، القائد العام للجيوش التركية في العراق، قد قضى نحبه ، في هذه الايام (١٩ نيسان) ، بالحمى المحرقة (تيفوئيد) ، فخلفه خليل باشا واليا على بغداد وقائدا عاما للجيش العثماني في العراق • (المترجم)

قنيل وجريح ، على حين بلغت ضحايانا : ١٦٠٠ ، لكننا فقدنا **(الكوت)** أيضا ، وان كنا على غير استعداد للاعتراف بذلك • وحاولت الفرقة ال ١٣ مرات عديدة ان تتقدم لكنها لم تصب نجحا ، وسرعان ما تجلّى اننا لن نستطيع ان نعمل على هذه الضفة شيئا •

تقرر أن تقوم الفرقة السابعة ، باسناد من اللواءين ال ٣٥ وال ٣٦ ، بمهاجمة (الصناعيات)[٢٨] يوم العشرين من نيسان • وتدخل الطقس في الامر كرة اخرى فتأجّل الهجوم الى يوم ال ٢٢ من الشهر • لم يقهر العـدو جنودنا بل قهرهم الطين اللازب ، وهو طبقات بعضها فوق بعض • وفي اللحظة الاخيرة تناهى من اللواء ال ٢١ (وكان بامرة اللواء نوري) خبر مفاده انه غير قادر على التقدّم بسبب من الماء والطين اللذين يغمران جبهته • لا سبيل الى توضيح هذا الفعل ، فلقد سفل ماء النهر ، خلل الليل ، لذا لم تكن الصعوبات التي كانت تجبهه باشد من صعوبات اليوم السابق ، يوم اتفق على الترتيبات جميعا • ومهما يكن من شيء فلقد اقتنع ال (جنرال ينكهزبند) ومقر الفيلق بقوة الاستمرار التـي يتحلّى بهـا ضباط اللـواء الاركان وأمروه بالتقدّم ، باسناد مـن اللواء ال ٢٨ ، فالهجوم منفردا • وكان ذلك في الساعة السابعة ، وبلغ سدّ المدفعية حد التمّام ، وشرع برفعه بطيئا ، وبالاستناد الى تقدير دقيق بُني على عمق الماء الذي كان على الجنود خوضه • لكن الماء كان قد انخفض بمقدار قدمين خلال الليل ، لذلك كان تقدم الجنود ابطأ مما كان يؤمل ، لذا كان سبب التأخير هـو سد المدفعية حقا • وجرى التقدّم تحت ستار من نار حامية ، وبلغ الطين والماء منهم الآباط في كثير من الاماكن • واستولت (وحدة هايلاندرز)[٢٩] و (وحدة البنجابيين/٩٢) على خط الاتراك الاول ثم كان ان بلغنا الخنادق : خطهم الثاني،

---

(٢٨) الصناعيات موضع دفاعي للاتراك كائن على ضفة دجلة اليسري وعلى مسافة ٦ أميال من (الحنة) •

(المترجم)

(٢٩) كان هذا الفوج مؤلفا من ال (بلاك ووچ) و (سيفورث) وقد تم تشكيله بعد ال ٢١ من كانون الثاني وبقي حتى ايار حين عاد الى (بلاك ووچ) لدى وصول النجدات الى اللواء/٢١ • (المؤلف)

وكانت هذه ، على غرار الخط الاول • كما ان القصف الشديد الذي شهدته المنطقة خلّف في ارضها حفرا عميقة ، مات فيها بعض الجنود ، من غير الجرحى ، غرقا ، ومن هـذه الحفر ما تخلّف من الماضي ، وكانت بالطين الرخو ممتلئة فاختنق فيها جنود ، جرحى وغير جرحى •

وقام الاتراك بهجوم مضاد وناؤوا بكلكلهم إعلى اللواء التاسع عشر • وتلقّت (وحدة هايلندرز) الثقل الثاقل في الهجوم ، شأنها كشأن (وحدة نابير/بندقيات ١٢٥) و (الوحدة/٩٢) • وكان رجال هذه الوحدات يصارعون الطين اللازب الذي سد سبطانات بندقياتهم ، فأصبحت الحراب ، والقنابر كل ما عندهم من سلاح وعتاد • واستضرى القتال واشتدّ وأصبح ، في جميع جوانبه ، على حظ كبير من الهول ، مما لا يدركه الا من ادرك سمو انكار الذات الذي لايرقى اليه بشر الا مرة أو مرتين في حياته ، وفي ساعة العسرة حين يدلهم الخطب ، ويستبهم الامر • وثبت رجال (وحدة هايلاندرز) في مكانهم ، وهم أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، يسود صفوفهم الضبط والربط وهم جدّ فخورين بهذه الفرصة الاخيرة التي أرادوا الاّ يمنوا فيها بالخسران المشين • وفاه ضابط كان على الجناح بكلمة التراجع ، وما كان مخوّلا بها • ان الماء ، على هذا الجناح لعميق ، بل أعمق من أي مكان آخر • ومات الضابط المشار اليه ، ابّان التراجع ، وما عـرف اسمه وما شاع • ورفضت (وحدة هايلاندرز) التراجع في بادىء الامر • وجمع ضابط فيها ، كان قد منح رتبة بترقيته من ضباط الصف ، جماعة من الجنود لا يقلّون عنه شجاعة ، وذكرّهم بانهم لا يزالون قادرين على استعمال الحراب ، وكان ان تقدم بهم فسقط صريعا ، وسقط معه كثيرون قبل ان يلحظ ان جناح (الوحدة) أصبح مكشوفا وان التراجع لا معدى عنـه • وكان تراجعهم وئيـدا منتظما ، وعلى غرار ما تراجع اخوة لهم في السلاح اعنى : الهنود في (وحدة/٩٢) و (وحدة ١٢٥) ، وبذلك دخلت فيهم روح الصلابة ، وثبت ان لا خَورَ يساور نفوسـهم ان رأوا اخوانهـم الصرعى والجرحى ، منظـرا يبعث عـلى الاسى • وبينا كانوا على مثل هذه الحال الحرجة ، قام الاتراك بهجوم مضاد فكانت له عقبى مروّعة • وما أن قامت (وحدة ١٢٥) بالهجوم الا أبيدت تقريبا ، ولم تنقذ

من الابادة كليا الا بسبب من وجودها داخل اسلاك من حديد ، لا تستطيع بسببها الى المضى قدما • وخاض ال (هافلدار جزوانت سنغ) وهو رياضي الكتيبة نابه الذكر ، في الماء مسافة عشرين ياردة ، قبل كل احد ، حتى سقط في شراك مغطى بسلك شائك ، واجهز عليه • وبموته ، لم يبق راجبوتي واحد في الفوج • لقد رفع لهؤلاء ذكر فابقوا اسم أسلافهم عاليا • وقبيل الظهيرة ، وعلى حين غرّة رفع الاتراك علم الهدنة ، فتقدم عدد من الضباط الاطباء من خطهم الثـالث ، ومعهم حملة النقالات • وانقطع الرمي ، وشغل الجانبان ، خلال بقية النهار ، بانجاد الجرحى وحمل القتلى وعدتهم الوف وكانوا مطروحين في الطين •

ولا يعلم ، على التحقيق لِمَ اراد الاتراك الهدنة ؟ ان من كان على الضفة اليمنى من دجلة أستطاع ان يرى النار الحامية التي كانت تصلى من مدافعنا الرشاشة ومدافعنا ، فاعتد ذلك اعترافا بالهزيمة وآمن بان لو رفض طلب الهدنة وجرى تقدم آخر على الضفة اليمنى ، بجنود جدد لامكن ادراك النصر • وبعض من كان على الضفة اليسرى ورأى رجال وحدتي (هايلاندرز) و (وحدة ٩٢) وقد تضرّجوا بدمائهم وابتلّوا وصاروا على حال تاعسة ، اعتدّ اي تقدّم آخر غير ذي جدوى ، وغير ذي أمل • وكان تفكير البعض الاخر مختلفا ، فهـم يعلمون بان قد كانت ، في الاحتياط ، اربعة الوية ، وبضمنهم (كتيبة الكركة ال ٨) التي كانت على حال جيدة وكاملة • وتلقوا الامر بالتراجع بالمرارة والخيبة• لقد كانت خسائرنا كبيرة حقا ، لكن عدتها أقل من عدة من شاركوا في المشاغلات الماضية • وكانت الاوضاع التي نشطنا فيها مدعاة الاسى ، لكنها لم تكن ، بالنسبة للجند ، شيئا جديدا • وما كان يعوزنا قادة ابطال او مقودون طائعون اصلاب • لقد برهنت ذلك ، لكل ذي عينين ، وقائع النهار • وكانت فكرة الضباط الاركان في (الالوية) و (الفرق) الموجودين في الميدان تناهض اية محاولة اخرى تجرى على الضفة اليسرى ، بعد (معركة الوادي) ، وكانت الفكرة العسكرية النضيجة هذه تفضل اجراء حركة ما على الضفة اليمنى •

ولعل الوقت لم يحن بعد لتخمين تبعة (قادة الفرق) و (امراء الجيوش) الفردية ، ممن قبرت في (بلاد ما بين النهرين) سمعتهم الشخصية • • فمن ينيط

الناس به الامور الجسام يرجون منه خيرا كبيرا ، لقد كانت لديهم صعوبات خاصة بهم ، وما استطاعوا ذكرها في رسائلهم • لقد ذكر ما فيه الكفاية عن الفيضان ، والطقس ، والنواقص المزمنـة في وسائط النقل برا ونهرا ، ومن الضروري ان نؤكد على النقص الملحوظ في عدد الضبـاط الاركان اللازمـين • وثمـة حقيقة يجب ان تُجلى ، واعني بها : ان قد سارت التشكيلات العسكرية الى سوح الحركات وضباطها الاركان غرباء عنها ، ولا يعرف بعضهم بعضا ، ولنضرب على ذلك مثـلا بارزا : انه مثـل (الدجيلة) ، ومن أمثـاله كثير • كما كان هناك ضباط عامون لا يعرفون اسماء مرؤوسيهم الا ّلماما • ولن نبالغ ان حمدنا تصرّف الوحدات ، بريطانية كانت أو هندية ، حمدا كبيرا • لقد قاتلت كل وحدة منها قتال الابطال وبروح من الضبط والربط ، وتجلّت هذه كلها في مناسبة أو أخرى • وكان تصرف الصنوف غير المحاربة حسنا • انهم جنـود النقليات والطبابة ، ممن كانت معاشاتهم شحيحة نزرة ، ويرتدون عتائق الثياب • كما كانت النظرة اليهم ، بسبب من عرف هندي سيء ، نظرة حقيرة • ومما يشين الا ّ يكون بجانبي احد منهم ابدا • لقد كان الجميع من قائد الجيش حتى الجندي ضحايا ظروف عسيرة اكتنفتهم ، فالقوة نيط بها تحقيق واجب لاتستطيع اليه سبيلا • وسواء أكان الذي اناط الواجب بها هو (وايتهول) أم (سملا) أو سرجـون نيكسون ، أو (الاخـير) بموافقـة (الاولين) ، فلن نبحـث في ذلك أبدا • ومنذ معركة سلمان باك كانت فرص النصر والهزيمة في كل مشاغله متوازية ، وكان النجح يتراءى لنا على قاب قوسين أو أدنى ، لكنه كان يفلت منا في آخر لحظة •

وارسلت الباخرة (جلنار) ، بصيص خاتمة آمالنا يوم الـ٢٤ من نيسان ، يوم جرت في النهر صعّدا ، وعلى ما فصلناه في (الفصل السابع) تفصيلا ، وحُملت عليها ذخيرة وما يصلح للحامية قوتا • وكانت (الاركان العامة) قد اقترحت هذا في شهر آذار مبكرا ، لكن (ضابط البحرية الاقدم) اعتبرها فكرة غير قابلة للتنفيذ حقا • لقد ابان هذا ، وكان فيما بينّه صادقا ، ان سير أية باخرة محمّلة بالاثقال يكون متمهّلا وئيدا ، وبذلك تصبح هدفا لمدفعية العدو سهلا لا حبا • وكان ان أصرّ على ذلك

ال (جنرال ليك) ابان زيارة (القائد العام لقوة الهند الشرقية الاميرال ويميس) ، لكن هذا أعلمه بأن الامل في نجاح مثل هذه العملية ضعيف ، لذلك فانه يرغب في أن يطمئن ، قبل أن يستدعي المتطوعون لها، من انها، على التحقيق، تضمن ما يؤدي الى الانقاذ • وقدم الضمان اللازم ، واعدت الباخرة (جلنار) في العمارة، في جو من الدعاية الهادئـة ، وان كانت ضخمة لا معدى عنهـا ، وحملت عليها ذخيرة تكفي لمدة ثلاثة اسابيع مددا • وكان أن اوقفت عند (المكاصيص) ، خارج مدى رمي مدافعنا ومدافع ال (جنرال طاونسند) أيضا ، ولعل في ذلك خيرا ، فثمة سبب ضعيف يحمل على الاعتقاد بان (نعمة) تدوم لثلاثة أسابيع كانت شيئا كافيا • وما كانت عندنا وسائط النقل اللازمة لقوة تتوارد على البلاد فتهجم على مواضع الاتراك هجمات محشدة متوالية • ومما لا شك فيه ان المحاولة كان مقـدرا لها ان تجري ، فتقـع بسببها ضـحايا ، والنتيجة هي النتيجة سـواء بســواء •

وبعد ان فقدنا (جلنار) سلّم (قائد الجيش) الى ما م يكن منه بد ، فاعلن يوم ال ٢٥ من نيسان انه لن يقع بعده هجوم جبهوي أبدا • فالقطعات كانت خائرة القوى ، وكنا قد فقدنا خلال ثلاثة أسابيع ١٠٠٠٠ من المقاتلين ، وهو رقم يؤلف ربع (قوتنا) كلها • وكانت النسبة في بعض التشكيلات أعلى من هذا ، اذ فقد اللواء ٢٨ : ١٠٠ بالمئة من آحاده و ١٩٠ بالمئة من ملاك ضباطه الانكليز ، فقائمة الضحايا لم تبتلع القوة الاصلية كلها حسب ، وانما ابتلعت نسبة كبيرة من النجدات التي تواردت عليها ، فيما بعد ، تباعا • لقد فقد (فيلق دجلة) من كانون الثاني حتى نيسان ٢٣٠٠٠ باعتدادهم ضحايا قتال ، ولا يدخل في هذا الرقم عدد الجرحى ، وكان عددا كبيرا •

ومنذ بداية هذه الحركات حتى نهايتها تكبدت الانبراطورية البريطانية ٤٠٠٠٠ من الضحايا ، وبضمن ذلك حامية الكوت ؛ وباستثناء المرضى ، وقـد أصبحت غالبية هؤلاء ، في حينه ، صالحة للخدمة الفعلية • وبلغ عدد الذين قتلوا

ابان الحركات أو ماتوا متأثرين بجروحهم نحو ٨٠٠٠ [٣٠] • وخمن مـن فقدهم الاتراك ، ابان الفترة الزمنية نفسها ، ب ١٠٠٠٠ ، لكنهم زادوا بذلك من صيتهم فطار كل مطار ، وارتفع رصيدهم ، في اقسام العالم التي انسابت اليهـا وكالات صحافة الدول المركزية ، فشاعت محاولتنا البليدة في ان نحصل بالذهب البريطاني على ما لم نستطع الحصول عليه بالشرف العسكرى البريطاني •

وتردّد صدى سقوط الكوت في الهند والشرق لكن تأثيره الظاهري في بلاد مابين النهرين كان قليلا ، فلقد صرف الناس النظر عنه منذ أمد طويل • وقليل من الناس ، حتى في صفوف الجيش في بلاد ما بين النهرين ، من كان يرى اننا في غضون اثني عشر شهرا نستطيع أن نثأر لانفسنا باحتلال بغـــداد أو أن يكون بين قواد الفرق غير الناجحين في ميدان دجلة (رجل) يستطيع ، في الساعة التي يقررّها هو ، ان يحمل الجيوش ، التي وقفت في وجهنا ، بنجاح وثبات مدة طويلة ، على التراجع •

---

(٣٠) « خلال مجرى حرب جنوبي افريقية ، التي دامت من سنة ١٨٩٩ حتى سنة ١٩٠١ ، بلغ المجموع الكلي لقتلى حركاتها ٥٧٧٤ ، على حين مات ٢٠١٨ متأثرين بجراحاتهم » •

انظر :

Amery, "The Times" History of the War in South Africa, Vol. VII

[المؤلف]



الفصل التاسع[1]

مصـــير الاســـرى

– « الاتراك هم السادة الاماجد الوحيدون في الشرق ، ومن عـداهم من الشعوب متردون خلقيا ، ولا يطمئن اليهم سياسيا » (بسمارك) .

– « ان الاتراك متوحشون ، فعلى أية أمة متمدينة نصرانية ان لا تعقـد معهم حلفا » (ادمند برك) .

« دع الاتراك يولون ببذاءاتهم على الوجه الممكن الفذ ، أعني ! بأن يذهبوا الى غير رجعة : يجب ان ترحل (ضبطيتهم) ، ومدراؤهم ، و « بكباشيتهم » و « يوزباشيتهم » ، وقائمقاموهم و (بواشيتهم : باشواتهم) ، مع متاعهم ، عن هذه البلاد التي خربوها وأساؤا اليها » غلادستون في (بلغارية) و (موري) في (تأريخ كلادستون) (٢ : ١٦٢) .

وعلى الرغم من أن حامية الكوت ، منذ ان سلّمت ، لم تقم بأي عمل آخر في (حملة الرافدين) ، الا ان من الضروري أن نبحث ، في هـذا (الكتاب) ، بشيء من التفصيل ، في الحوادث التي أحاطت بها . حقا ان قصتها ضُمِّنت في تقرير رفع الى (البرلمان) في شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٨ ، (قبل الهدنة) ، وان (التأريخ الرسمي) يخصص ست صفحات من صفحاته الالفين لموضوعها . ان داكرة الناس شديدة النسيان على كل حال ، واني لاعجب غالبا من هذا التعميم الذي يرد على لسان مواطنيّ الانكليز ، ولعله من رواسب حرب القرم ، القائل بأن الاتراك تصرّفوا خلال الحرب تصرّف المحاربين الشرفاء ، فما كان لهم شجار

---

(١) في كتابة هذا الفصل روجعت المصادر الرئيسة التالية :

التأريخ الرسمي جـ٢ : Official History Vol. ii

رسالة القيادة ٩٢٠٨ : Command Paper, 920

Bishop, Barber, Keeling, Mouslay, Sandes, Still Townshend.

[المؤلف]

معنا ، وان في الامكان الاعتماد عليهم في معاملة الاسرى معاملة انسانية ، بقدر ما تسمح به ظروفهم ، ومالديهم من وسائل راحة[٢] •

واني اذ اثبتّ في هذا (الكتاب) كيف عامل الاتراك ، ومن كان يلوذ بهم من اعراب ، أسراهم لا أريد ان أثير شعور الحقد والكراهية في الاجيال النابتة • لكني ، مع ذلك ، لا أريد ان يشتدّ عودُهم على جهل من هذ الاختلاف العميق بين موقفنا في هذه البلاد ، اليوم - بازاء الناس التاعسين البائسين وموقف اولئك القوم الذين حاربناهم ، وهم ممن لم يكونوا بأحسن من الشعوب التي لها الاعراف والتقاليد والظروف نفسها ولا أسوأ • ان مثل هذه الحوادث لا تلازم الحرب حسب، بل هي صنو الحال المدنية، وهي فوضى، وانها تسفر عن عواقب وخيمة وقد تكون أشدّ وخامة ، بالنسبة لعدد كبير من الافراد ، من الحرب نفسها •

تقول المادة السابعة من (اتفاق لاهاي ١٩٠٩) : (يعامل اسرى الحرب ••• معاملة جنود الحكومة التي تأسرهم ، سواء بسواء) • وقبل أربع سنوات من تقنين هذه المادة مات آلاف من جنود الروس - وزعم انهم كانوا يطعمون طبقا لمنطوق هذه المادة - وكان سبب موتهم الجوع • ومن الحق الجلي ان طعام أسرى الحرب ومعاملتهم يجب أن يكونا بشكل يحفظ لهم الصحة من دون أن تكون لذلك علاقة بنظام التغذية المتبع ، عند آسريهم ، عادة •ومع ذلك كان ، أسرى الحرب من الاتراك ، وهم ممن لم يروا اللحم الا مرة في الاسبوع او على الندرى ، يتسلّمون من لحم البقر والظأن جراية يومية • لقد كان الاسرى الانكليز والهنود يستحقون ذلك نظريا حسب ، أما في الواقع ، وعلى

---

(٢) يورد امتناعهم عن استخدام الغاز السام دعما لهذا الرأي • واني اعتقد ان مرد ذلك الامتناع الى الالمان الذين كانوا في شك من هل في الامكان الاعتماد على الاتراك في اصطناع المهارة اللازمة ، والحصافة ، في استخدامه والى ملاءمة الاحوال الجوية الخاصة في بلاد ما بين النهرين •

وبصدد هذه القضية ، عامة ، راجع : « المحارب التركي النظيف : The clean Fightung Turk لسر مارك سايكس في جريدة (التايمس : The Times : ٢٠ شباط ١٩١٧ •

[المؤلف]

ما سنرى ، فان ما كان يصرف لهم هو أقل من قليل ، لذلك هلكت منهم الوف مؤلّفة ، وعلى حال تاعسة •

كانت معاملة الاسرى ، في الحرب أو السلم ، وفي جميع عصور تأريـــخ العالم ، لا انسانية ، وانها وصمة في جبين البشرية[٣] في كثير من البلدان • لكن هذه الحقيقة لا تخلي من توجيه اللوم الى المسؤولين عن تعديل القانون الدولي ، وجعله أقوى بالنسبة لمعاملة الاسارى • ان اعتداد الحرب امرا غير مشـــروع ، شكليا ، يجب أن لا يحـــول دون قيام الانسانيين باقامة منظّمة تعمل في ظل (عصـبة الامم) ، أو أية منظمة أخرى ، تحول دون تكرر اهوال ، لم يـدون منها في هذا (الفصل) الا النزر القليل • وشهدت ميادين أخرى مشاهد لا تقـل عن هذه هولا ، الا ّ على الندرى •

أشرنا في (الفصل السابع) الى معاملة (الحامية)، بعد التسليم رأسا • لقد جرى تبادل نحو ١١٠٠ من المرضى ، وهم على اسوأ حالات المرض • انهم الوحيدون الذين سلموا من الحال التي ذكرناها وعلى حد قول أنور باشا في رسالة رقيقة صغيرة بعث بها الى (الجنرال طاونسند) اعني : «ضيوف الامة التركية الكرام» • ان الجنود ، على ما قال ، سيرسلون الى آسية الصغرى لحجزهم في أماكن ، قرب البحر ، تتسّم بالطقس الطيب •

لقد انذر الجنرال طاونسند (خليل باشا) بان الجنود منهوكو القوى لا يستطيعون السير ، فوعد خطيا بانه سيعنى بهم العناية اللازمة كلها وانهم سينقلون بالبواخر الى بغداد ، ومنها بالعربات •

وفي الحق لا معدى عن أن يكون قد أصدر الاوامر القاضية بـــان يمضي الجميع ، باستثناء الضباط ، وقلة من الجنود الذين لا يستطيعون الوقوف عـــلى

---

(٣) للوقوف على مناقشة ممتعة لهذا الموضوع راجع مقـــال الدكتور فتزجرالد لي في (مجلة الجيش الفصلية ١٩٢١ The Army Quarterly, 1921. اذ يبرز فيها في الدرجة الاولى مصير الاسرى البريطانيين والهنود في تركية خلال الحرب •

[المؤلف]

أرجلهم ، وليقطعوا الطريق ، ذلك ان جلّهم سير به ، خلال ذلك الليل والنهار الذي تلاه ، مسافة ثمانية أميال الى (شمران) صُعُدا • وكان ان اضطجعوا عندها في العراء معرّضين الى المطر والريح الهوجاء ، ويتحلّق حولهم الاحراس • واستغرقت الرحلة ثمانية ساعات ، اعطي الاسرى ، في نهايتها ، وبعد أيام من ذلك ، جراية نزرة من (بسكت) تركي ، لعله من النوع الذي رفض قبلا باعتداده لا يصلح للجنود قوتا • انه مختبز من شعير خشن غير مقشور ، وغير سالم من الاختلاط باديم الارض ، وهو صلب كالحديد ، وكثير منه مخضوضر بالطحلب• وعلى الرغم من ذلك ، كانت الباخرة (جلنار) بيد الاتراك ، عليها ٢٠٠ طن من الجرايات ، ولا تبعد الا قلّة من الاميال ، في النهر نزلا • والتهم الجنود الجياع هذا ال (بسكت) التهاما ، وكان قد قضى نحبه منهم ٣٠٠ وزيادة ، خلال الايام الاولى من ثوائهم في (شمران) بسبب من امراض المعدة والامعاء ، على حين كان الضباط الاطباء الاتراك ، على ما يروي الدكتور باربر ، المنسوب الى مصلحة الصحة الهندية ، « يناقلون الحديث بعضهم بعضا ويظهرون ابانه ادبا عاليا ، ويأسفون على ما تجرّه الحرب من ويلات أسفا شديدا ، وينوّهون بالطابع الانساني الذي تتّسم به مهنتنا التي مكنتنا واياهم من ان نلتقي ونعمل معا » • وكان ثمة ضابط الماني صغير ، التقى به المقدم باربر ، يعرف ما يخبئه القدر لاسرى الحرب ، اعني : لن يشهد اكثر من ١٠ بالمئة منهم أوطانهم كرة اخرى • لقد أسرّ ذلك الى الرائد باربر ، وحسبه الاخير في القول مبالغا ، مبالغة تهدّ الجبال هدّا ، وكان هذا رأي (هيأة الضباط الاركان في بلاد ما بين النهرين) أيضا ، وهي التي رفضت تصديق كل ما بلغها من انباء القسوة والوحشية اولا حتى تجلت حقيقتها لها فلم يعد ثمة سبيل الى انكارها أبدا[٤] • من كان يعرف تركية والاتراك

(٤) لم يصل الى مسمع (الحكومة البريطانية) عن معاملة الاتراك لجرحى الكوت الا القليل ، لذا قال ال (لورد ديزارت) في (مجلس اللوردين) يوم ال ١٦ من أيار ١٩١٦ : « علم اليوم ان المرضى والجرحى قد سلموا من قبل الاتراك الى السلطات البريطانية وهذا أمر يستوجب التقدير بمقارنته الى فعال اعدائنا الاخرين » •

[المؤلف]

لن يقع ضحية الوهم بشأنهما ، والشاهد ابيات مستر بلارد[٥] .

ولم يدفن من بين من قضى نحبه في (شمران) الا القليل ، لقد رموا بجثتهم في واد قريب . وفي تموز سنة ١٩١٧ عُثر على بعض جمجمات اولئك الهالكين . وبذل الـ (جنرال ميليس) الذي اصرّ على مغادرة المستشفى ومعايشة جنوده في المعسكر، ومعه العقيد جيتي، كل ما في وسعه لتحسين الوضع، لكن سرعان ما غلبه المرض ، كرة اخرى ، فسافر الى بغداد نهرا .

وأدرك مَن في (شمران) من الاتراك ، بعد أيام قليلة ، انه لن يصل بغداد (الا القليل) من الاسرى ، ما لم يرسل اليهم القوت اللازم سريعا ، وكان ان سمح لـ (جنرال كورنج) بارسال بعض المؤن فانقذت حياة كثيرين ، ولو الى حين . لكن كثيرا من الجنود باعوا احذيتهم وملابسهم الى الاعراب لقاء حفنات من تمر وخبز اسود ، وكان ذلك قبل وصول تلكم الجرايات .

في السادس من أيار غادر الجنود (شمران) وعليهم احراس من الخيالة العرب . وكان عليهم ان يحملوا على ظهورهم ما تضمّنه (حقيبة الجندي) من زمزميات واواني طبخ ودثارات وملابس اضافية ، فحيوانات الحمل كانت معدومه .

---

(٥) نشر مستر آر.دبليو. بلارد الابيات التالية في عدد جريدة (بصرة تايمس) الصادر يوم ٢٥ ايار ١٩١٦ :

حامية الكوت

لقد بقي الجهد وخلدت المعركة ، اهي يا ترى نهاية كل فعالكم السامية ؟ أتصبح الحصيلة التي جاء بها الموت ، وجاءت بها الصحراء ، اهزولة بنظر الجموع المتطلعة ؟ وليس في الحشد رجل صديق ؟

ايسقط من لم تكن لهم قناة بازاء هزة القتال الذي دار من (زين) الى (طيسفون) فريسة قطيع الجوع الهزيل . سترحلون عن الميدان ، واهواله السود . لكن الذين سيحملون المشعل ، في أي مكان يذكر فيه اسمكم ، سيدأبون على القتال ، وهم أشد بأسا . على حين ، ستحمل ، من دون خجل أو وجل ، رفقتكم وقد ادت واجبها ، الى الاسر ، وهي على حال من الشجاعة سيئة . ان الجسم لسجين لكن العقل لم يروض للهوان .

[المؤلف]

قلنا : واراد بـ (زين) كوت الزين في لواء البصرة وبـ (طيسفون) هذا الذي بقي منها اليوم اعني طاق كسرى .

[المترجم]

وغادر الجنود الانكليز المعسكر ، يئنون ، غير مقهورين ، ثم شوهدوا بعد ذلك عند (البغيله)[٦] وعندها ، على ما يقول الرائد (باربر) : « مررنا بالباخـرة الاخرى التي تقـل مرضى أيضا ، وكانت راسـية لتحمل على ظهرها مئـات من مرضانا الذين سقطوا ابان سيرهم تلقاء الكوت صعدا ، وهم ممن لا يطيقون الوقوف على أقدامهم أبدا • وسمعنا بعدها انها لم تستطع ان تحملهم جميعا ، لكنها امتلأت الى أقصى سعتها ، وحمدنا طالعنا الذى نجانا من أن نكون فوقها ، فلقد كانت المشقة ، والتعاسة ، والضيق فيها على أشدها ••• ومات عدد من مـن كانوا عليها •• ونـفـد القوت ، ومضت عليهم عشرة أيام شداد ازدادت كل يوم هولا » •

وكان المشهد في (البغيلة) ، وقد شهده باربر من بعد ، يدعو الى الاشفاق والاسى • ومن بقي من الجنود على الضفة لم يستطيع بعد ذلك الى المضي سبيلا ، فالنهار كان أشد ما يكون أوارا • وحاولوا ان يستقلوا باخرة الى بغداد ، لكن لم يكن فيها مكان الا لقلة منهم ، وقد نُحي الباقون عنها ، ضربا ولكما ، وهم (لايعرفون سوى الانين كلاما) !

و « المسيرة » ـ على ما ورد في (التأريخ الرسمي) ـ « كانت كابوسا ثقيلا • فلقد اعمل الاعراب العصي بامجنودوالهبوا ظهور المتخلفين عنالسيرمنهمبالسياط، دونما رادع او وازع • وعلى الرغم من انهم التزموا بالوعد الذى قطعوه الى الضباط البريطانيين بان يحمل من يسقط صريع المرض على غوارب الابل ، الا ان كثيرا من مثل هؤلاء سقط ومات على قارعة الطريق • ولم تبق عند كثير من الجنود لا زمزميات ماء ولا احذية ، واضطر الاتراك عند (العزيزية) الى ترك ٣٥٠ من الجنود ، وحشروهم في بناية لا تتوافر فيها الشروط الصحية ، على أن يسيروا في أثر زملائهم بعد ذلك » •

ويرسم لنا النقيب موزلي صورة اوضح من الصورة التي رسمها الرائد باربر وبشيء من اليسر والاسماح • انه يقول :

---

(٦) هي النعمانية الحالية الراكبة على ضفة نهر دجلة اليمنى بين بغداد والكوت •

[المترجم]

لقد حملنا عارا و (صدورنا من جحيم الغيظ في سُعر !) ، عندما شاهدنا على الضفة الاخرى رتلا بريطانيا يطبق عليه الشقاء والاسى ، ويسير من الكوت صعدا ، تسوقه كوكبة من الخيالة الاكراد بيدهم عصي تراءت اسواطا • وكانت عيون جنودنا تحدّق في وجوه بيض ، وتظهر عليها سيماء من يترقب الموت ، وهو عنه بعيد ، وأيديهم ممدودة الى باخرتنا ، ويصدق بيت الشاعر على حال كل منهم :

(ويظـل يرقب يومـه فزعـا من أن يكون، كأمسه، غده!)

وبينما كانوا يجرّون ارجلهم جرّا شوهد من بينهم من يهوى ، اما من كان منهم في المؤخّرة فلقد انهار بعد أن أشبع بالعصي ضربا • ورأيت كرديا يضرب جنديا بريطانيا ، كان يعرج في مشيته ، ثم رأيته ينحني تحت وقع الضربات ••• والظاهر ان نصف عددهم كان قد مضى مسافة اميال قليلة قُدُماً، أما الباقون فكانوا متناثرين على طريق الكوت • ومنهم من مات ، من الضرب ، سحقا ، ومنهم من قتل، ومنهم من لم يسلم على حقيبته ، فسرقت ثم خلّف تحت نقمة الاعراب • وقال لي عريف : انه رأى احد ملاحي الباخرة (سُمانه) وقد قتل حالا بضربات هوت على رأسه واستخدم فيها مهماز من حديد ، وكل ذلك لانه توقّف على الطريق، مديدة • وكان قاتله خيالا كرديا • وكان الجنود يموتون من الهيضة والزحار (ديزنتري) ، كما كانوا يسقطون ، في الغالب ، صرعى الاعياء ••• وكنا نقف ، بين حين وحين ، لنواري موتانا •• ودهم نوع من الهيضة يدعى (انتيرياتس : Enteritis) حامية الكوت كلها ، اثر سقوطها ، من دون شك • ان تغير الطعام هو الذي ساعد على ذلك ••• وكان المصاب يتلوّن باللون الاخضر ثم يمتلىء فمه بالزبد ، وتصاب عيناه بالعمى فلا تبصر ، وكان الانين المروّع يتناهى من جوفه •• لقد ماتوا ، جملة وتفاريق ، على حين غـرّة ••• وذات ليلة ، افتقد عدد من الهنود ••• ذلك انهم قفزوا من على ظهر السفينة ليضعوا حدا لما كانوا يعانونه من شقاء ••• ونبذ الرائد ••• بمجرد أن غادرنا السفينة ، ملقى دون غطاء يقيه اوار الشمس ، وعلى نقالة كانت تحوم حولها سحب من ذباب •• وكانت ترتفع ذراعه ، بين حين وحين قليلا ، لتذود الذباب عن جسمه ،

ولكنها سرعان ما كانت تسقط • ورأى احدهم جنودا بريطانيين على الحال نفسها يموتون من مرض (انتيريتس) المذكور ، ينضح من شفتي كل واحد منهم شيء أخضر ، والفم منه مفتوح • والذباب يختلف اليه داخلا وخارجا • ولن أكتب في تفصيلات الحالات المماثلة الاخرى ابدا » •

ومن بقوا على قيد الحياة ممن منوا بهذا العذاب الغليظ ، ومنه السير مسافة ١٠٠ ميل مدة ٨ر٥ من الايام في احرّ فصول السنة ، سير بهم في شوارع بغداد المزدحمة ساعات • وبينا كانوا يمرّون من (القلعة) رأوا ثلاثة من الانكليز ، هم : كرى وطود ، وديكستر ، الذين القي القبض عليهم في بغداد ، أثر اندلاع لهيب الحرب ، ثم سمح لهم بمغادرة تركية عن طريق مسينة[٧] • لقد حملتهم وطنيتهم على العودة الى (بلاد مابين النهرين) فالحقوا بقوة طاونسند • وعندما القي القبض عليهم وجهّت اليهم تهمة خرق ماتعهدوا به ، وهو تعهد زعم انهم قدموه ، خلال ايام الاسر الاول ، وكان الزعم هذا كذبا وبهتانا • وبعد قضاء اشهر في السجن اطلق سراحهم وعوملوا معاملة اسرى حرب •

وكان جنودنا في بغداد يأملون، كشأن من كانوا في أي مكان في آسية الصغرى، الحصول على القوت والمأوى ، ويرون في حالهم : (غماء تزلف خلفها سراء !) • وقليل منهم حظي بعناية العقيد هيجر وغيره من ضباط الطبابة البريطانيين ، تساعدهم الراهبات الفرنسيات المقيمات في بغداد[٨] والى حد ما، الضباط الاتراك، ممن كانوا جدّ مشغولين بجرحاهم وليس عندهم الادوية اللازمة والوسائط • وكان للقنصل الاميريكي مستر برزل ، وقد مات مريضا خلال السنة ، دور نبيل ، في هذا الباب • وما كان مركزه بيسير ، بل كان حساسا • فلو افرط في اسداء المعروف الى الاسارى لركب متن الخطر ولعمد الاتراك الى وضع العراقيل في سبيله • ومهما تكن الحال ، استطاع هذا (القنصل) ايجاد الوسائل ، فجاد بشيء

---

(٧) راجع : Debates, H.C., 4.2.15.

[المؤلف]

(٨) اثر احتلال بغداد قدمت الى صندوقهن منحة يسيرة جاد بها قائد الجيش ، اشادة باخلاصهن ، وهن قمينات بها وجديرات •

[المؤلف]

من (صندوق جمعية الصليب الاحمر الامريكية) • ودأب على زيارة المستشفيات والمعسكرات ، وكان يرسل الى الاخيرة عددا من رؤوس الظأن يوميا • لقد كانت الحال فوضى والشقاء كبيراً ، والى حد لم يستطع فيه القيام على خدمة الا قليل من الاسارى • وعندما وصل هؤلاء بغداد ، أول مرة ، حُشر من كان اسوأهم جراحا ومرضا في مكان غير مغطّى كائن على ضفة دجلة اليمنى ،وكان المكان على مسافة من النهر • ومن استطاع منهـم أن يسير ، بعثوا بـه الى الشمال سريعا • ومات من الباقين ، وعدتهم ٥٠٠ ، كثيرون • واثر احتجاجات متكرّرة قدّمها ضباط الطبابة البريطانيون نُقل المعسكر اخيرا الى ضفة النهر على مسافة ميل جنوبي المدينة ، حيث الاشجار تدرأ بظلها القليل أوار الشمس واشعتها اللاهبة • ومن حشروا في المحجر الكائن في حقل غير مستنبت ، قرب محطة السكة الحديد ، كانوا اسوأ حالا • لقد حُشر البريطانيون والهنود في مكان واحد لتشجيع نشوب شجار وعراك بينهم • ولم يجلب لهم ماء ، فكان أن تكأكأوا ، وهم شبه مخبولين من أثر العطش القاتل ، على غدير فسُد ماؤه ، وكان ان زحفت اليهم الامراض (واستنفدت من قواهم كل مدّخر) فسقطوا لا حراك بهم ، موتى •

وأرسل في اليوم الثامن من آب (٢٢) ضابطا و (٣٢٣) من الجنود المرضى من بغداد نُزُلا ، مبادلة عـن عدد مـن الاتراك ، كان مقـابلا • ووصل هؤلاء البصرة بعد ايام قليلة ، فارسلوا منها الى الهند سريعا • وفي خلال ثوائهم فيهـا منعوا من التحدّث عما لاقوه من شقاء ، وشهدوه ، بتاتا • واحاطت بهم الاستخبارات العسكرية والرقابة ، ولعل مردّ ذلك الى ان (القوة) أعلمت مرارا وتكرارا بشيء كان اولوا الامر يعرفون زيفه تماما ، واعني به ان الاتراك أحسنوا معاملة الاسرى ، وان نجمت بطبيعة الحال بعض صعوبات لا معدى عنها ••• وهلم جرا • لقـد نشر قائد واسع الافق (فيليبون) الحقائق الصحيحة المتصلة بالسجون البريطانية وعرضها على (بيكورينا : Picurina

(Napier, Peninsular War, Book XVI, Ch. 5).

وذكّر جنوده بان الموت كان أحلى من الوقوع في أسر الاتراك وسجونهم • لكن ثمة اعتقاد لدى الدوائر العسكرية الهندية ، ومحصله انه ليس من القمين اللائق

التكلم عن الاتراك ، أو عن حكومتهم التي قيل عنها انها كانت فريسة الدسائس الالمانية ، وضلالة التوجيه . لقد كان هذا المنتقد الخاطىء متأصلا .

بقي ان نتطرّق الى ما حدث للكثرة الرئيسة من الاسارى . لقد أخذت جماعات منهم ، خلال شهري حزيران وتموز ، تغادر بغداد ، اسبوعا اثر اسبوع . وكانوا يقتفون السبيل الذي اتخذه ضباطهم حصرا . ولقد استقلّوا القطار حتى (سامرا) التي تبعد عن بغداد ٧٠ ميلا ، وكانت المقطورات التي حشروا فيها مكشوفة ومخصّصة لنقل الماشية .ومن بعد سامرا مضوا على الاقدام سيرا . وفي الامكان ان يتصوّر المرء ، في ضوء ما وصفناه ، حالتهم واستعدادهم لمسيرة تستطيل الى ٥٠٠ ميل ، ينضاف الى ذلك ما عندهم من وسائل يتّقون بها ودبقة بلاد تعتبر من اشد بلاد الدنيا حرّا . ولا يمكن الوقوف على التفصيلات كلها ، ذلك ان من يستطيع ان يُفصح عن اسوأ حال شهدها ، قضى نحبه وودع الدنيا واهلها . ومن شباب وحدتي (همشاير) و (نورفوك) من قاسى ، مرارا وتكرارا ، على أيدي الجنود الاتراك ، كثيرا ، وكان ما قاسوه اسوأ ما يوقعه امرؤ في جسد امرء آخر[9] . لقد كانوا اضعف من ان يقاوموا آسريهم وفتك الامراض الخبيثة التي انتقلت منهم اليهم . لقد دفن بعض المرضى على قارعة الطريق حقا وهم لا يزالون أحياء .

وباستثناء هذه القضايا الفردية ، لدينا من المعلومات ما تصلح لتكوين فكرة عمّا عاناه مواطنونا ، واخوانهم الهنود ، (فصدّق الخُبر منهم شائع الخَبر) . حدث ان جماعة صغيرة من الضباط تخلّفت ، بسبب المرض ، فأُرسلت بعد مغادرة الوجبات الاولى من الجنود . وسار هؤلاء الضباط على الدرب نفسه ، ووردت من أحدهم رسالة الى بغداد ، على استعجال ، معنونة الى القائد التركي العام ، يطلب فيها بالحاح تأسيس مستشفى وارسال ضابط بريطاني الى سامرا حالا . وكانت التجهيزات كما كان الموظفون على استعداد للارسال توا ، على أن السلطات التركية لم تعدّ اذن الخروج من المدينة الا بعد خمسة أيام . وفي سامرا جُمع مئات من مرضى سقطوا ، ابّان السير صرعى ، خلال المراحل الاولى . لقد التُقطوا من على قارعة الطريق ، وهم يئنون من الم مرض الزحار ، وكانوا قد تركوا ،

(٩) راجع أيضا : Still, p. 201. [المؤلف]

حيث سقطوا ، وخلّفوا ظهريا • وامديت لهم كل عناية مستطاعة ، لكن حال الكثيرين منهم كانت يؤوسا • جلي" ما كان سيحدث لهم جميعا ، لولا الصدفة التي مكّنت من العثورعليهم حالا•لقد كانت فرصة لم يسمح لها بان تتكرّر مرة اخرى ، ولقد ارسلت بعناية جماعة أخرى من الضباط من بغداد ، عن طريق أخرى •

ولم يستطع الاتيان الى سامرا الا يمن سقط في مرحلة الطريق الاولى ، ذلك ان القسم الاعظم كان قد مضى وجاوز وتعدّى • ومضت جماعة الضباط نفسها تقتفي مسارهم ، وتسير قُدُما • ان ما شهدوه في القرى ، وعند أمكنة التوقّف ، لا سبيل الى ذكره أبدا • لقد كانت ثمة جماعات من الجند منهوكة القوى ، تضطجع تحت أي شيء تستطيع أن تتّخذه سترا ، وهي تعاني من شتّى مراحل مرض (الزحار : ديزنتريا) والموت جوعا • ومنهم من كان يعاني سكرات الموت ، ومنهم من كان ميتا حقا ، ولا يستر جسومهم الا" قليل من ثياب رثة دريس • انهم حفاة، اذ قدباعوا كل مايملكون لقاء أوشال من حليب • ولم يترك من يُعنى بهم الا" في بعض الامكنة ، اذ لم يكن هناك ، على العموم ، غير الاعراب القرويين الذين كانوا يسرقون ما عندهم دون رحمة أو شفقة • وكـــان ثمـــة ضابط صغير في مخفر الشرطة المحلي ، ينظر الى مايجري غير آبه ويحتج" بانه لا يملك السلطة للقيام بشيء أبدا • وكان الموتى منبوذين في العراء وقد سرق ما عندهم وخلعت عنهم ملابسهم • وكانت هذه المناظر غالبة في كثير من متاهات الصحراء المهلكة • بشر جائع يتضوّر جوعا أو يموت ، عدتهم الحشرات ، وقد اتخذوا أي دريئة ، ككوخ من طين ، أو آووا الى ظل ، يرقبون خاتمتهم المحتومة • وعثر بعد اسابيع عدة ، في قرية صحراء تبعد مسافة ثلاثة أيام عن حلب ، على جماعة فيها ستة ضباط انكليز ونحو١٢ هنديا وهم يضطجعون في محجر ذي سياج من طين ، ولا قوت عندهم الا فُضالة كانت تلقى اليهم من قبل الاعراب المجارين أو من القوافل •• السائرة •• وكان عدد الانكليز الاصلي : ١٤ ، مات منهم ثمانية . وممن بقوا كان واحد فقط يستطيع الزحف على بطنه مسافة ٢٠٠ أو ٣٠٠ ياردة حيث يوجد الماء • وهذا يفسر لِم لم يسمع شيء عن أكثر من ٣٠٠٠ بريطاني

أو هندي ممن سلّموا في الكوت . وأسوأ ما حمله الاسرى السائرون من عبء (تنوء به الكواهل والمتون) كان خلال المرحلة الاخيرة من مسيرتهم فوق سلسلة جبال (أمانوس) ، اذ مُثّلت خلالها أدوار أخرى من أدوار المأساة الثانية[١٠] .

وسمع الـ (جنرال ميليس) ابان وجوده في (بورصة) بهـــذه الحقائق ، فأرسل الى(أنور باشا) تقريرا مفصلا تاماء لقد رجاه فيه جاداً بأن يصدرالتعليمات اللازمة برقيا ، لتضمن لجنودنا المعاملة الصحيحة ، وتنقذ حيوات عديدة . واجاب انور باشا برفعة توائم المناسبة قائلا : انه ، وقد أصدر التعليمات اللازمة بصدد معاملة الاسرى المعاملة الصحيحة ، لا يعتقد أن ما أورد، الـ (جنرال ميليس) كان حقا .

ولم يعامل أهل تكريت (حيث ولد صلاح‌الدين) ، اسرانا الا معاملة المجتوي الكاره ، معاملة قاسية فظة (تبعث اليأس في قلوب الاسارى) . وعن هذه (البلدة) يقول‌النقيب (شيكشافت) ـ المنسوب الى‌وحدة نورفوكس/٢ ، في (دفتر اليومية):

---

(١٠) يحس (القارىء الكريم) بحرقة الاسى تعتلج في كبد (المؤلف) الحرى على ما نزل ببني جلدته ، ومن سار في ركابهم من ضباط وجنود هنود ، ابان الحملة البريطانية على العراق . وما نزل بهم : شقاء وامراض ومسغبة ، وثمة مخزاة خلقية ارتكبها جنود الاتراك مع الجنود الاحداث الانكليز ، يلمح اليها (المؤلف) ويسكت ولا يصرّح بتفصيلاتها و : (ان بعضا من السكوت كلام !) . ولنا ان نتساءل من هو المسبب الاصلي لهذه المآسي والمذلة والهوان (بضم الهاء) يا ترى ؟ اليسوا هم الذين خططوا لـ (حملة العراق) ونفذوها و (المؤلف) منهم ، وكل ذلك في سبيل (نفط عبدان) اولا ، وعلى ما قال الشاعر محمد الهاشمي (رحمه الله) :

واحرق اهل عبادان نفط   ومحترق به اهل العراق

ثم طريق الهند السوقي والمصالح التجارية . لسنا ، بطبيعة الحـــال ، في معرض الدفاع عما ارتكبه العثمانيون الدابرون ابان تلك الحرب ، لكننا نقول : (هي الحرب) والعدوانية منها لا رحمة فيها ولا رأفة ، بل هي اسوأ فوق اسوأ ما دام الهدف ان يجد العدو حتى يحل عزائم عدوه أو يبيده ، ولم تحض قوانين الحرب الانسانية ـ بما فيها معاملة الاسرى ، خلال امثال هذه الحروب ، الا بأقل من القليل من العناية .

[المترجم]

ان عددا من الجنود الانكليز والهنود التاعسين كانوا يقفون عند باب ساحة حقيرة حُشروا فيها حشرا • وكانت وجوههم كالحة ، في صفرة الاموات ••• ودأبت الاعراب على الاتيان بالحليب والبيض يبيعونهما لهم بأسعار فاحشة• انهم سيصبحون صفر اليدين ، وسيموتون من الجوع والاهمال • وما كان عليهم أحراس ، اذ قد نبذوا حيث كانوا نبذا تاما • وفي الاحيان كان يعمد بعض المرضى منهم الى الزحف ، من الاكواخ الحقيرة التي كانوا فيها ، خارجين ، وعندها كان يحصبهم الاعراب ويطاردونهم لارجاعهم الى الساحة •

وكتب عن (الشرقاط) بتأريخ ١٣ حزيران يقول : وجدنا عددا كبيرا من الجنود في بيوت نائية ، على حالة جدّ تاعسة •• وان كثيرا منهم بسبيل الموت من الزحار والاهمال ••• » وعن (الموصل) كتب بتأريخ (١٧ حزيران) قائلا : « تراءى أغلب الجنود وهم يتضوّرون جوعا وقد أثقلتهم العلل كثيرا • وكان (المحل) الذي جُعلوا فيه قذرا ، وتعجز الكلمات عن وصف الوسائل اللا صحية التي فيه » • وعن «رأس العين» كتب (في العشرين من حزيران) يقول : « عثرنا ببطء على ستة جنود انكليز على حال زرية مرعبة مضطجعين في اسطبل قذر » • وبطبيعة الحال ، لم يقم الاتراك بأي شيء لهم • وقد قال احدهم : « اننا كالفئران في مصيدة ، وهم يجهزون علينا » وعن (اصلاحية) ، الكائنة شمالي حلب ، كتب ، في الـ ٢٣ من حزيران ، يقول : « قال لي ضابط صف الماني • ان هناك عددا من الجنود الانكليز يعانون من مرض الزحار ، ويقيمون في بيوت شعر عربية قريبة ، واضاف : انهم يتضوّرون جوعا ، ويُراد لهم ان يموتوا منه • لقد ذهب لمشاهدتهم مرات عديدة ، لكن الاتراك حالوا دون ذلك • وفي (اليوم الـ ٢٤ من حزيران) كتب يقول : وردنا ينبوعا ووجدنا حوله ثلاثة من الجنود البريطانيين يضطجعون ••• لقد كانوا جميعا على حال اشدّ ما تكون هولا • لقد خلفهم رتل ظهريا ، وكان ذلك قبل يومين ، لانهم لم يكونوا قادرين على المضي قُدما •

---

(١١) راجع : Moberly II, p. 534. [المؤلف]

وزار (النقيب موزلي) ، الذي كان في الرفقة نفسها ، المستشفى الكائن في (نصيبين) وسجل ما رأى على الوجه التالي :

« رقعة قذرة من أرض جرداء يباب منحدرة الى النهر ، تبعد عنه نحو ٢٠٠ ياردة . وثمة جدار لاترى فوقه الا وريقات وحشائش ، تنفذ منها أشعة الشمس اللاهبة المحرقة . وشهدت بازائه مخلوقات آدمية ، لا يمكن للعين التي لم تشهد مثلها من قبل ان تميز كونها من الجند البريطاني ، فقد استحالوا الى جلود وعظام وكأنهم (أعجاز نخل خاوية) . وكانوا شبه عراة ليس على الواحد منهم الا (وزرة) ، ذلك انهم باعوا البستهم ليشتروا باثمانها طعاما وخبزا وحليبا ودواء . وعيونهم في بياض عيون الموتى ، ووجناتهم فاترة نبت عليها شعر لم يعرف الحلاقة لاسابيع . مات احدهم قريبا ، ونقلت جثتان ، او ثلاث جثث ، قبل حين أيضا . وما من شك في ان (المعين) التركي سمع ان رتل الضباط قد أصبح قريبا . لكن الجثث كانت مرمية هناك ، لايام . وكان بعض الجنود اضعف من ان يستطيعوا السير . وفي الامكان ان يتصور المرء النتيجة التي تنجم عن تجمع الاقذار ، والحالة اللاصحية التي يتسم بها المكان الذي رمي فيه اولئك الجند ، وفي مثل الطقس الراهن . وما كان الماء ليجهز لهم بانتظام ، ومن كان لا يستطيع المضي الى النهر كان يعمد الى الزحف على بطنه اليه ، (لعل أن تنقع له غلة أو يشفى له صدى) . وفي الامكان رؤية اثار زحفهم بين الاوساخ . وكان قرب جثث الموتى ثلاث قطع أو أربع من البسكويت الصلب الاسود وهي بلع من طعام لايكاد يمسك الرمق . وحسبت الاشباح الباقية ميتة أيضا ، لكنني شهدتها تتحرك لا شعوريا مرة أخرى .. وكنت ارى ملايين الذباب تدخل افواه الجنود الاحياء الفاغرة ، وكأنها النحل لا ينفك داخلا خليته وخارجا .

وعن مسيرة الى (رأس العين) كتب يقول : ان (الاب ايج . سبونر) ، رجل الدين العسكري ، احسن القيام على خدمة الجنود وبذل في سبيل ذلك جهدا كبيرا ، لكن الليل كان يقطع سكونه بعويل هندي متمال وكأنه (لي الطعين أصيب

في الاطال)[١٢] : (ماركايا ، صاحب ماركايا !) أي: (أنا ميت، ياصاحب، ولن أصبح حيا) • وبقي الجنود الانكليز أغلب الوقت مع زملائهم الى أن فارقوا هذه الدنياه وشهدت اروع الامثلة التاريخية في باب تضحية الجندي البريطاني واخلاصه لصاحبه • انها لحقيقة مرّة بالنسبة لمرضى الرتل • وان نسيتُ فلا انسى جنديا لم يكن ليقوى على المضي قُدما وهوى الى الارض ، وفي فمه عقب سيكارة ، وكان منهوك القوى بسبب مما قاساه طويلا • وكان ان وضع ذراعه على عينيه كيلا يرى الرتل راحلا ، ثم أخذ ينفث من عقب السيكارة دخانا • وكان الليل قد اطبق علينا ، ونار الاعراب تتلاهث قريبا • وكنا على مسافة نصف ميل ، خلف الرتل • وكانت قواي منهارة تماما ، وكان ثمة جندي مريض يمسك بقشاط حماري[١٣] ، وكان الجندي ، مراسلي ، يمسك بآخر • وكانت قدماه تتضرّجان بدم ، اذ قد سلب الحذاء منه • وذهب جندي الى حيث كان المريض لكنني لم اره بعد ذلك ، مرة اخرى • وبعدها بقليل ، وفي الليلة الليلاء نفسها ، شهدت رجلا آخر يمشي على اربع ، فوق اديم الصحراء ، يلفه ظلامها بشملته ، وحيدا • وقال انه يأمل الوصول الى الموقف التالي ، فيستطيع أن يسير ، على ما وعدوه ، راكبا ، لمدة نصف ساعة ، وعندها يستطيع أن يعاود الدأب على المشي الى المكان التالي • ورفعناه من الارض وناولته قشاطي • وقام (مراسل) مريض آخر بالامساك به

---

(١٢) الاطال جمل أيطـــل وهو (الخاصرة) ، والطعـن في الخاصـرة شديد الايلام • [المترجم]

قلنا وان الفقر الفاقر الذي كان ميسم الهند ابان الحكم البريطاني ، بحيث كان يضرب المثل بفقر القرية الهندية ، هو الذي حمـــل ابناءها على الانخراط في الجيش البريطاني ، ومن ثم ليساقوا الى حروب استعبادية كحملة العراق مثلا ، وعقبى ذلك ارتفاع مستوى معيشة الانكليز في بلادهم وقوامها الاستثمارات الانكليزية في الخارج واستغلال خيرات البلاد المحتلة • وما أصدق ما قال (الرصافي) في استثمار كد (الفقير) وعرقه في هذا الباب :

عرق الحيـــاة يسيل منه لالئا   فيزان منـــه للغنى وشاح

[المترجم]

(١٣) القشاط : سير من جلد •

واقامه . لقد استحال جلد وعظاما ، وما كان على المضي قادرا . واستطعنا ان نوصله الى الموقف ، وأعطيناه مكانا في عربة ، أخيرا .

وفي مكان آخر ، صادفنا جنديا بريطانيا كان يعاني كثيرا ويئن : (وانة الشاكي حديث مختصر !) ، لقد فقد ذاكرته وأصبح مخبولا ، وقد خلفّوه في كهف . وبيّن انه لم يأكل ، طوال أيام ، شيئا ، لكنه استطاع أن يمضي الى النهر زاحفا . لقد كان يهذي ويعتقد انه استحال كلبا . وحملناه على العربة الى المعسكر التالي » .

وكتب (النقيب يتس – براون) في كتابه المسمى (رماح البنغال : Bengal Lancer) الذي نشره سنة ١٩٣٠ ، وقد سبق ان أُسِّر هذا (النقيب) في تشرين الثاني سنة ١٩١٥ عندما كان يقوم بحركات جويـــــة بازاء خطوط المواصلات التركية :

« رأيت جماعة من الجنود الانكليز ، عدّتها ٢٠ ، يُسار بها من كركوك ، عبر الجبال . وكان ان بلغت الجماعة ميدان (نكنة الوصل) وهي لا تعدو هياكل آدمية حية ، ومعها ثلاثة هياكل آدمية ميتة أيضا . وكان احد الجنود الاحياء يشير الى فمه باشارات تدعو الى الاشفاق ، وعنده بقية ذراع تزحف عليها دويدات . وسرعان ما قضى نحبه وهو في غيبوبة .

وكانت هناك دعوة شاي تبعث على أشدّ الاسى ، ولقد اسديت فيها عونا . وكنا قد اعطينا ديدبانا رشوة ليسمح لنا بان نقدّم لهؤلاء الجنود طعاما من خبز وقيمر ، كنا قد اعددناه مما لدينا من موارد ، هي نزرة جدا . وقال لنا ضيوفنا انهم حشروا في سرداب لم يكن ليسعهم ان أرادوا اضطجاعا . وما كان من شيء يعطى لهم الا الماء والخبز . ولم يغتسلوا في يوم ما . وكان يسمح لهم بالذهاب الى المراحيض ثلاث مرات يوميا . وقد يحال دون ذلك بالنسبة لبعضهم ، اذ ما ان يعلم الديدبان أن أحدهم يملك شيئا الاّ يعمد الى منعه من الذهاب الى المراحض ما لم يسلّمه هذا الشيء عينه ، والاّ (خاب رجاءا وتردّى أملا) .

وعندما سُلِّم معاشنا لنا ، وسنحت فرصة ما لارشاء الديدبان ، كان مما يحزّ في نياط القلب أن يقرر مَنْ مِن اولئك التاعسين المنكوبين يجب أن تنقذ حياته .

ومنهم من لاجدوى من وراء اسداء العون له أبدا ، وآخرون يستطيعون ان يبقوا على قيد الحياة من دون قوتنا المهرّب . لكننا لم نستطع ، قبل أن نبلغ حلب ، أن نعمل الا قليلا .

ومن بقي من الجنود على قيد الحياة ساروا يقتفون الاثر . وكثير منهم لقي حتفه تحت وقع هراوات الحراس ، وجرّدوا من ملابسهم وخلّفوا عرايا . وآخرون ، وهم أسعد حظا ، عثر عليهم زملاؤهم بعد التوقف عن المسيرةالليلية، فاستقبلوا يوما اخر من أيام الشقاء والبلوى .

وكان ال (جنرال طاونسند) يعرف هذه القضايا العديدة ، ويعرف اشباهها ايضا ، لكن الصفح كان من طبعه . وفي تشرين الثاني سنة ١٩٢١ كتب الى مصطفى كمال باشا يقول : « اني مع قضيتكم قلبا وقالبا ، واني لفخور بعطف الاتراك عليّ ، لذا ليس بعجيب ان يهتف الجنود الاتراك[١٤] في (اطنة) « ان شاء الله » ويتعالى التهليل من صفوفهم مدوّيا . (راجع شيرسون Sherson ص : ٣٨٥ و٣٩٠) .

وعندما وصلت صفوف هؤلاء الجنود الاسارى المتخلخلة واصبحت على مرأى النظر من البحر المتوسط انتهت رحلتهم لحين ، لكن مرحلة شقاء جديدة فتحت لهم صفحتها الاولى (وجار الدهر عليهم واعتدى) . وعلى الرغم من ان كثيرا منهمضلّوا الطريق ، الا ان الباقين كانوا بدرجة من الكثرة بحيث يمكن تأليف جيش من العمال منهم . وكانت سكة حديد بغداد (*) لا تطلب لاتمامها الا أن تشق

---

(١٤) ادعى مستر لويد جورج ، رئيس وزراء بريطانية ، يومذاك ، ان حرب العراق كبدت بريطانية ١٠٠ الف ضحيـــة ، أما نفقات الحـــرب فقـــدرت بملايين الجنيهات .

[المترجم]

(*) كان الاتصال بين بغداد وحلب يتم عن طريق قوافل ، تقطعه الواحدةمنها في ٢٣ يوما ، ثم عليها أن تقطع مسافة أخرى بين حلب واسكندرون في ٤ أيام . وكان الوصول الى اصطنبول من بغداد يتطلب ٤٦ يوما ، ومد السكة الحديد اريد به تقصير وقت الرحيل وضمان راحته بطبيعة الحال .

[المترجم]

أنفاق قليلة ، وبذلك تتّصل اصطنبول بصحراء سورية ، وكان على الأسرى اتمام ذلك • والظاهر ان اغلب الهنود خلفوا في (رأس العين) ، ابان قطعهم الطريق، ومن هذه البلدة كان العمل يجري في مدّ السكة على سهل مسطّح الى الموصل • وجيء بسائرهم ، وبالانكليز جميعا ، الى صقع طوروس ، وأطنة ، في الزاوية الجنوبية الشرقية من آسية الصغرى ، وكان فيها مركز لحركات نسف الانفاق في سلسلتي جبال طوروس وامانوس • وكانت تقوم بمدّ (السكة) شركة المانية ، وقد اعطي لها الآن اسرى تتراوح عدتهم بين ٢٠٠٠ و٣٠٠٠ • لقد سمح لهم براحة لايام قليلة قبل ان يبدأوا العمل •

طبيعي الاّ يكونوا على العمل ، من أي نوع ، قادرين ، وبعد أن مرّ عليهم ذلك كله • ومهما يكن الامر لقد جرى توزيعهم على معسكرات العمل ، وهي شتى ، وسيقوا الى اداء واجبهم على وجه ما • وفي صقع (بليميدك) الكائن على جهة الشمال من جبال طوروس كان يجري ، على ما تراءى ، استخدام المئين القليلة من الاسارى البريطانيين الذين أخذوا في الدردنيل في الصيف الماضي • والظاهر أن حالهم كانت تحتمل ، لكن الامر جدّ مختلف بالنسبة للبقية الباقية من اسرى الكوت المرهقين • لقد انهار هؤلاء ، بطبيعة الحال ، تـوّا ، وسرعان ما تبين لمستخدميهم ان لافائدة من ورائهم ولا جدوى • وكانت المستشفيات قد امتلأت في مختلف الامكنة ، كما أن نسبة الوفيات اصبحت جدّ عالية • وكان ان قامت (شركة تأسيس السكة الحديد) في ايلول بمعـــاودة تسليمهم الى السلطات التركية ، اذ انها أقرت ان الحصول على عمل منهم ، في الوقت الحاضر ، لا يعدو ان يكون أملا خائبا •

فان لم يكن في الامكان الافادة منهم ، والترك غير راغبين في ابقائهم في تلكم المنطقة ، حيث كانت (على ما سنرى بعد مديدة) الشفقة والعناية السمحة مهياة لهم ، وجب ارسالهم الى معسكرات كائنة في داخل آسية الصغرى • وفي اوائل أيلول ارسلت اليها وجبة مؤلفة من انف أسير بريطاني • لقد وضعوا في شاحنات السكة الحديد فمضت بهم حتى كسرة الخط الكائنة في جبال طوروس ، ثم الزموا على

السير على الاقدام فوق هذه السلسلة المنحدرة العسيرة • واستغرقت الرحلة عدة أيام قبل بلوغ الامتداد الشمالي للسكة الحديد عند (بوزانطي) •

ان الطريقة التي يشوب سوء التصرّف بها عملية كهذه ، في تركية ، أمر لا سبيل الى تصديقه ابدا ، وانها معروفة عن سبيل التفصيلات المتكررة • وفي الحق لقد ابعد هؤلاء الجند من دون أن يكون ، عندهم ، في رحيلهم ، زاد ، كما لم يعدّ لهم شيء منه عند اية نقطة من نقاط الطريق • ولعلها تجربة اسوأ من تلك التي تراءت قبل اسابيع قليلة ، باعتدادها حدا لما يمكن أن يُعانى • لقد اجبر الجند من قبل الدرك على المضي قدُما ، واستخدموا في ذلك اخمص بندقياتهم دوما ، حتى خرّ كثير منهم ، بسبب من الاعياء ، صرعى • واستطاعت قلّة منهم اللجوء الى بعض المعسكرات الالمانية والنمساوية الكائنة في (طوروس) لكن جلّهم كان يضرب ويطرد عبر سلسلة الجبال • ان ذلك ليشبه شيئا واحدا حسب : مشهداً من مشاهد جحيم (دانتي) ، وهذا وصف ضابط نمساوي شهده شخصيا •

لكن اولئك المرضى والمرهقين الضالّين لم يكونوا الان بمنأى عن يد العون • لقد كان هناك محسنون امريكيون وهم ليسوا عنهم ببعيدين • لقد ابدى هؤلاء أشدّ ضرب من ضروب العطف على الاسارى عند مقدمهم من الشرق أول مرة ، والآن يضاعفون من جهودهم في هذا الباب • وبفضل جهود قنصل امريكة في (مرسينه) – وهو من تقدّم برجاءات الى السلطات التركية عاجلة – جيء بجميع من يستطاع جمعه من المرضى الى المستشفيات في اطنه ، والى كلية امريكية في (طرسوس) بخاصة • وكان ذلك ، بالنسبة للاغلبية ، متأخرا ، وقيل انه ، من بين المئات العديدة التي كانت طليعة من وصلوا ذينك المكانين ، لم يبق على قيد الحياة منهم الاّ أقل من نصفهم ، ومع ذلك لقد بُذل لهؤلاء الجند كل ما يستطاع بذله ، وباذلوه هم الاطباء والسيدات الامريكان ، وان خدماتهم لتذكر مقرونة بالحمد والشكران • ولعل افضل تلكم الخدمات لم تكن المنفعة المادية ، وان جاءت في ابّانها • انه العطف والعناية ، عناية الأخ بأخيه ، وقد اسبغا على جنود كان يُرقَب ما يعانون منه ، طوال أمد مديد ، باستهانة متسامحة • ان ذلكم العطف

وتلكم العناية لا يمكن قياس تأثيرهما الا على الاقل •

ان المعاملة التي عوملوا بها ، بعد ذلك، هي خارج نطاق هذا (الكتاب) ، لكن لا معدى عن ذكر معاملة آحاد الحامية الذين بلغوا (افيون قره حصار) • ان لهذا المكان سجلا مرعبا راعبا ، اذ اعتيد فيه على ضرب الاسارى بالعصا ، لاتفه المخالفات شأنا ، على حين كان المكان لسيطرة احد الضباط البحريين الاتراك خاضعاً • كان هذا الرجل ، بسير من جلد بقرة ، حاكما ، والمذنب يتلقى قدراً من الجلدات ، على ظهره العاري ، معلوما • وكثير من الوقائع المقيتة معروف ملحوظ ، ومن حسن الحظ شاع تصرف هذا الرجل العُتُل[15] وذاع ، وفي اوائل سنة ١٩١٧ اضطرت الحكومة التركية ، تحت ضغط ذلك الى نقله • ومهما يكن من أمر كانت لديه فضلة من وقت ليزيد من الوقر النازل على جند الكوت التاعسين •

ان منظرهم لدى وصولهم (افيون) ليذكره بجلاء من كان فيها من الاسارى • وكان بعضهم عاريا وكثير منهم مُني بذهاب نصف عقله من الاعياء ، وجلّهم مصاب بالزحار • لقد استقبلت بقية السيوف ، وآحادها مبلسون[16] ، بعطف عميق من قبل الآخرين الذين بذلوا كل ما في وسعهم لاعادة القوة اليهم ، وما كانت عندهم من الموارد التي تصطنع في هذا الباب الا القليل • وفي كثير من الحالات جاء ذلك متاخرا جداً • لقد وضع المرضى في مستشفى المعسكر ، لكن هذا لم يكن باكثر من مجرد اسم ، اذ على الرغم من وجود طبيب تركي يقوم عليه ، ومعه عدد من (المراسلين) غليظي الكبود ، الا ان الدواء الذي يستطب به كان معدوما • ان رجلا يبلغ به المرض حد العجز عن العناية بنفسه ، لن يظفر الا باوهن فرصة للبقاء • وكان الموت يحصد بالارواح حصدا ، وكان الموتى يقبرون من قبل زملائهم في مقبرة المدينة النصرانية • وكانت ثمة جماعة من الضباط البريطانيين طوال هذا الوقت ، سجينة في (افيون) ، بمقربة • وكان اثنان من اولئك الضباط ينتسبون الى الخدمة الطبية • « لكن جميع الاتصالات بين الضباط والجنود كانت

(١٥) العتل ـ الغليظ الجاف •

(١٦) مبلسون ـ شديدو اليأس •

ممنوعة منعـا باتا ، ومن يخالف يلق عقـابا غليظا ، واستدام ذلك خلال أيام في سنة ١٩١٦ ، أو حتى الى ما بعدها • لذلك كان على الضباط البريطانيين أن يبقوا مكتوفي الايدي ، وهم يعلمون ان الجنود يموتون كل يوم تقريبا لانهـم كانوا يفتقرون الى العناية اللازمة ، وانهم لا يبعدون عنهم الا ياردات قليلة • ان السجل الاحصائي ، بقدر تعلقه بأثر المعاملة التي وصفت آنفا في الاسارى ، يأتلف من قسوة ساطية لا نظير لها في الحروب المدنية ولا ندّ لها في سجل الحروب الوحشية • فمن الـ ٢٥٩٢ من آحـاد المرتبـات البريطانية الذين اقتيـدوا الى الكوت أسرى ، مات فيها اكثر من ١٧٠٠ ، أي ٧٠ بالمئـــة منهم تقريبا • والاحصائيات الدقيقة غير متيسِّرة ، لكن العدد الحق يحتمل أن يكون اكثر ، لا أقل • وفي حالات أخر ، كان مردّ الموت الى قسوة سكان البلاد الاعراب القاطنين بين الكوت ونصيبين ، وهم الذين سلبوا جنودنا وعاملوهم أسوأ معاملة ، وكل ذلك من دون أن يحاول الاتراك جادّين ، مجتمعين أو منتشرين ، الحد مما كانوا يفعلون • وكانت كلمات « البيان » الذي حرره سر مارك سايكس وأقرته (الوزارة البريطانية) والقاه الـ (جنرال مود) ـ راجع الفصل الرابع عشر ـ في آذان من بقي على قيد الحياة ، وبالنسبة لمن وقف على تلكم الحوادث ، ونظائرها من الوقائع التي جاءت باخرة •• جوفاء زائفة •

بقي أن نشـير ، بايجـاز ، الى وجهتـه فـي القضيـة العامـة بقـدر تعلّـق الامـر بمعـاملة اسـرانا فـي تركيـة ، اذ لعلها لم تحظ الا باقل ما تستأهل مـن عناية • اننـا لنعلم ان قنصل امريكة في بغداد كان جدّ متشائم بشأن المعاملة المرتقبة لهم وانه اعلن ان قد كان علينا ، مهما كلف الامر ، ان نشق طريقنا من الكوت خارجين • واننا لنعلم ان الحكومة التركية رفضت السماح لموظفي السفارة الامريكية في اصطنبول وللقناصـل الامريكيين برؤية الاسارى وكانت حجتها في ذلك أنهم يعاملون معاملة تتّفق مع (ميثاق لاهاي) ، وهذه ان صحت ، تكوّن افضل سبب يحمل على السـماح بالتفتيش (راجع : Keeling) • وكانت جهـود سـفيري الولايات المتحـدة

الأمريكية (مستر موركانتو وخلفه مستر ايلكس) لا تنقطع[١٧] • واثر دخول الولايات المتحدة الحرب اضطلع بعملهما ، دأبا ، مسيو ديلبوا ، وزيرهولندة • وكان لدى سفراء الولايات المتحدة مبالغ وافية كافية وما كانت حكومتهم من دون نفوذ في مجالس أوربة اذ كان لها ممثلون في كل مركز ذي خطر كما كانوا طرفا في (ميثاق لاهاي) • كانوا على صلة وثقى بالعنصر الالماني في تركية ، والالمان ، باستثناء قلة منهم ملحوظة ، ابدوا شعورا انسانيا بازاء اسرانا وروّعوا من مصيرهم • على انهم لم يعملوا الا قليلا ولعلهم لم يعملوا شيئا ، ولا يستبان ماعملوه الا على الندرى • لم يكونوا قادرين على ابقاء حكومتهم على اطلاع ، بقدر تعلق الامر بما كان يجري، لكن تقاريرهم على التحقيق لم تحظ بالذيوع • لم يتقدم رئيس الولايات المتحدة باحتجاج رسمي ، وهو من كان في هذا الاوان يرسل مذكرات تعليمية مالها من فواق الى بريطانية تتناول دقائق (قانون الامم) وذلك بقدر تعلقه بالمصالح التجارية لرعايا الولايات المتحدة الامريكية • ولم يكن، على غرار مشاور (ايوب) ، بطيئا ، في تقييم المشورة بالكلمات من دون علم • لقد كانت دعوى الانسانية على شعبيته دوما ، لكن المأساة العظمى التي كانت تمثل أمام ناظري ممثليه من كثب ، وما في الصفحات المواضي لا يعدو ان يكون سردا ناقصا لها ، لم تثر ، في ذلك الاوان، من الروع افصاحا عاما • وما ان شاع في امريكا ، خلال سنة ١٩١٥ ، انمليونا من الارمن ، الرجال منهم والنسوة والاطفال ، قد لقى حتفه في ظروف قاسية فظة ، لا يصطنعها حتى جنكيز خان ، الا تحرك رئيس الولايات المتحدة فعبرّ عن عطف ، ان وصف بـ (التقوى) و (الافلاطونية) كان ذلك لهاتين الكلمتين سبّة وتشهيرا[١٨]

(١٧) كان مستر سي• فان انكرت ، وهو سكرتير في سفارة الولايات المتحدة ، وبامرة مستر موركنتو ، نشطا على وجه خاص • وكثير من الاسرى البريطانيين والهنود مدينون بحيواتهم الى تدخله ، وعلى التخصيص ، استطاع (انكرت) نفسه ان ينقذ مستر كري من المستشفى التركي حيث كان يرقد معدوم العناية كليا ، وهو رجل في الدنيا ورجل في الآخرة •
[المؤلف]

(١٨) راجع : موركنتو Morgenthau ان اردت الوقوف على رواية مستقلة معاصرة تتصل بالموقف التركي الرسمي من مذبحة الارمن • لقد تجاهل طلعت باشا الاحتجاجات الخطية التي قدمها سفير الولايات المتحدة

صحيح أن جهاز الحضارة قد تعطّل في كل مكان ، لكنه في تركية لم يبدأ بالعمل ابدا ، وان حدث ، لا سمح الله ، مثل هذا للعالم كرة أخرى ، فهل ستكون المشاريع المتقنة الوضع ، والتي يكرّس لها الرجال الصالحون والنسوة الصالحات قدراً كبيرا من الوقت والتفكير أفضل ؟ قيل ان الاتراك ، منذ الحرب ، قد ابتُعثوا[١٩] ابتعاثا اصليا ، وروحيا مستداما ، وانه لا ينكر حدوث امثال هذه التغييرات في الماضي الا قلة من الناس ، لكن ليس من اليسير تبينّها الا على سبيل الرجمى ، ان كان ذلك محتملا حقا . ان بعد الزمن بنظر المؤرّخ حيوي ، شأنه كشأن المسافة بنظر (الفنيّ) .



= الامريكية ، وطالب في آب سنة ١٩١٥ من مستر موركنتو ان يحصل من شركات التأمين الامريكية على قائمة كاملة بأسماء من أمنوا على حيواتهم لديها ، ثم قال : « انهم اليوم على العموم ميتون ، وليس لديهم من وارث لمبلغ التأمين ، وهذا ، بطبيعة الحال ، يعود الى الدولة وهي وريثتهم في هذا الحين .

[المؤلف]

(١٩) راجع : Toynbee, Contemporary Review Oct. 1929.

وقارن ذلك بـ : The Murderous Tyranny of the Turks, 1917

[المؤلف]



الفصل العاشر [1]

١٩١٦

لو لم اتأمل في الموضوع جيداً لدلتني خبرتي المستخلصة من حــــرب البرتغال واسبانية ، على الافضلية التي يدركها جيش ما ، بازاء العدو ، عندما يكون الشعب واقفا الى جنبه • لكن انعام النظر والخبرة اظهرا لي المدى ألحق لمثل هذه الافضلية ، من جهة النظر العسكرية ، لذلك ارجو ممن ينــــاجز الفرنسيين العداء الا" يتلهى ••• بأية فكرة ذاهبة الى ان الشعب ، عندما يكون مسلحا وواقفا صفا صفا ، هو ذو نفع كبير لهم • ال (دوق ويلنكتن) ١١تشرين الاول ١٨٩٩ •

يجب ان لا نغادر ميدان القتال ومعسكرات الاسرى ، التي شهدنا فيها من كثب ، ما يبلغه الرجال الملهمون من سمو ، والمنحدر الذي تهوى اليه الانسانيه ، عندما تنسف الحرب أو (الفوضوية) مفاهيم المدنية ، وقيمها ، بل علينا ان نتجه بأفكارنا ، لحين من الوقت ، الى : كيف كانت تطبّق فنون السلم من وراء خطوط (الحملة الاستكشافية) ؟

وكانت المشكلة التى جبهتها (الادارة المدنية) في سنة ١٩١٦ ذات حدّين • فلقد كنا ، من جهة ، مسؤولين عن بعث الجهاز الحكومي وتشغيله في ولايــة البصرة ، كما كنا ، من الجهة الاخرى ، ملزمين بتلبية طلبات السلطات العسكرية المتزايدة للمواد المحلية والطعام والعمال • وكان موظفـــو (الضابط السياسي الرئيس) ، وهم من عرفوا بالضباطالسياسيين ومعاوني الضباطالسياسيين ، يعتدون،

(١) المراجع :
Robertson, Bell, Hall, Hansard, Herbert (2), Moberly; Shane Leslie, Philby.
[المؤلف]

رسميا في كل مكان ، الوسطاء بين الجيش والاهلين • ولقد شغل هؤلاء ، خلال ال ١٢ شهرا الاولى من شهور الحركات العسكرية في سوح الفرات ودجلة ، بقضايا محلية لا تعدّ ولا تحصى •

لقد نجمت هذه من تلكم الحركات عينها ، فصرفتهم عن قضايا أخرى ، أو كادت • وثبت ان في الامكان اقامة جهاز اداري ، خلال سنة ١٩١٦ وفق أحكام القانون الدولي ، وترضى به السلطات العسكرية • انه لواجب ناء بكلكله علينا جميعا ، لا سيما من كان منا ، نحن الضباط السياسيين ، في المناطق الريفية ، اذ كان على مثل هؤلاء احلال النظام محل الحال الفوضى الضاربة الاطناب ، منذ احقاب كثيرة • وكان عليهم ان يوضّحوا لكل مختار ، مهما صغر شأنه ، حقيقة الاوامر التي تصدرها السلطات العسكرية ويصرّوا على وجوب تنفيذها ، كما كان عليهم ان يسندوا الشيوخ ، ذوي النوايا الحسنة وان كانوا ضعافا ، وان يحد وا من غلواء الاقوياء ، لئلا ينجم عن ذلك تمرّد اتباعهم ، فتعود القلاقل والاضطرابات مجددا • ان كثير امن (الضباط السياسيين المساعدين) لم تكن عندهم ، في مقرّات أعمالهم حاميات تذكّر الناس بسلطاتهم التي يمارسونها ، وان وجدت حامية ما نجمت حوادث لا تعد ولا تحصى ، وهي ، وان كانت من التوافه ، الا انها تتطلّب التدخل حتما • وكانت سرقات المخازن العسكرية دائبة متتابعة وآخرها يمسك بأولها ، وعلى ذلك كان القادة المحليون يطلبون ايقاع العقاب الجماعي بكل من له صلة قريبة أو بعيدة بها • وما كانت اللصوصية ، وقطع الطرق ، غير شائعة ذائعة • لقد كانت تسفر عنها حركات تأديب عسكرية[2] فيطلب الى (الضابط السياسي) أن يشارك فيها ، لكي يضمن انزال العقاب بالجاني ، ما استطاع الى ذلك

---

(٢) لا معدى عن ان يتذكر (المؤلف) ، وهو يذكر هذا ، ان جموعا كبيرة من العشائر ، بزعامة الشيخ خيون العبيد تقدمت واشتبكت مع لواء بريطاني في (بطانية) بالسلاح الابيض ، فكبدته ١٤٨ قتيلا و ٣٠ مفقودا ، وبذلك تجلت مزايا القبائل العربية مما اضطر البريطانيون الى نبذ الحركات الهجومية بازائها ، فبقيت منطقة هذه القبائل (الشطرة) حرة لمدة ثلاث سنوات •

راجع : Bertram Thomas: Alarms & Ecursions in Arabia p. 78.

(المترجم)

سبيلا ، ولكي يقوم بواجب الترجمان للقادة العسكريين ولممثلي (الضابط السياسي الرئيس) • وكانت وجهة نظر الجيش نحو السكان العرب عموما شائنة ولا لبس في ذلك ولا غموض ، وهذا لن يندهش منه قراء الصفحات المواضي من هذا (الكتاب) ، لكن درجة العداء بالنسبة الى الجيش كانت أقل مما يؤمل • وثمة رغبة أصيلة عامة كانت تعتلج في نفوس الضباط الذين كانوا يشغلون مناصب كبيرة ، سداها الانصاف ولحمتها العدل ، وبقدر تعلق الامر بمعاملة السكان • وفي مرحلة متأخرة من مراحل (الحملة) أنعمت النظر في كثير من العرائض المقدمة من العرب الى السلطات التركية والالمانية ، ببغداد وغيرها ، كما انى رأيت عرائض اخرى موجهة الى موظفين فرنسيين وروس • ان هذه لتختلف عن العرائض المقدمة الى الضباط البريطانيين من ناحية واحدة • ففي كل ثلاث عرائض ، من اربع ، تجد الاخيرة موجهة «الى الاحساس بالعدل المعروف عن الشعب البريطاني» • ان هذا «الاحساس بالعدل» لحق ، ولقد وجدت افرادا من الجند ، نيطت بهم مراكز مهمة يهيمنون بها على الحرب ، وفي كثير من فروع الادارتين المدنية والعسكرية ، يتحلون بهذا (الاحساس) بدرجة لا تقل عما يتحلى به رؤساؤهم ، لذلك اطمأن الناس اليهم ووثقوا بهم كثيرا • ان قضية السكن ، التي غدت في السنوات المتأخرة سببا في نجوم المشكلات السياسية ، كانت تتطلب عملا ، ولغوبا[3] كبيرا ينوء به ، في الغالب ، الحكام السياسيون والضباط السياسيون ايضا •

وكانت طلبات السلطات العسكرية المتزايدة المنصبة على ايجاد ابنية للدوائر وللمستشفيات ، للضباط وللجنود ، وللمخازن ، عقبة لا تذلل • وكان الموسرون يقاسون الاكثر من ذلك ، لقد اعتادوا على أن يساكنوا نساءهم في بيوت مريحة ، فاخرجوا منها بانذار قصير الامد • ان التجار وابناء الطبقة الوسطى لا يستسيغون عموما مساكنة أسر اخر عديدة ، وعلى غرار ما نحن عليه في هذه البلاد • أما ان بدل الاجار يدفع على أساس حر معقول ، فانه لتعويض قليـــل • على أن الجيش لن يتمكن من السكن تحت الخيم ، في الاشهر الحارة ، او ان يخوض في

---

(٣) اللغوب أشد الاعياء والتعب •

[المترجم]

بحور من اللثق[٤] في الشتاء ، على حين كان السكان يعيشون في بيوت مريحة •

وكانت وسائل النقل، نهرا ، خلال صيف سنة ١٩١٦، شحيحة جدا، بحيث اضطرت الحال الى استخدام (المهيلات) ، وهي سفن من خشب ، ذوات غاطس معتدل ، حمولتها تتراوح بين ١٠ـ٥٠ طنا ، لنقل المؤن في النهر صعُدا • وكانت جماعات الاعراب تسحبها ، وبنسبة جماعة واحدة لكل عشرة أطنان • وكانت هذه السفن تستأجر ، في بادىء الامر ، وعندما ادبرت الامور على دجلة بالنسبة الينا ، صعب ايجاد الملاحين اللازمين ، باي شرط من الشروط • لقد قتل كثير منهم على أيدي (بني لام) ، ورمى الاتراك بالرصاص قليلا منهم ، أما الباقون فقد وقعوا في الكوت اسارى • وذات مرة تمّ الاستيلاء على قافلة من (المهيلات) عدتها : (٥٠) ، قرب (شيخ سعد) فاحرقت ، وكان ذلك أثر انسحابنا من (طيسفون) وعندها اختفت كل مهيلة في النهر واتخذت من الاهوار ملجأ أمينا • وعلى ذلك وجب وضع اليد عليها للخدمة العسكرية ، ولقد تطلب ذلك عمليات من التسجيل والتصنيف واصدار قرارات تتصل بملكيتها القانونية ، اضطلع بها جميعا الضباط السياسيون • وشمل ذلك نحو (٢٥٠٠) مهيلة من أنواع شتى • وبعد لأي نيط ببعض الجنود القيام بمساعدتهم في هذا الباب • وكان لزاما الأخذ بنظام اصدار اجازات لمنع الاستيلاء القسري من قبل (القادة) ولكي يوضع حد للاتصال بالعدو ، ونيط هذا (بالدائرة السياسية) أيضا• وبلغ العمل في هذا الميدان حدّا تطلّب في تشرين الاول ١٩١٦ احداث منصب خاص به ، دعي شاغله ب (مراقب السفن الاهلية) ، وباعتداده من مناصب (مديرية النقل المائي الداخلي) • وفي محل آخر[٥] من هذا (الكتاب) ذكر ما صار اليه (المنصب) المذكور تطورا ونماءا ، ويكفي أن نقول هنا ان اليد قد وضعت رسميا على جميع السفن الاهلية في كانون الثاني سنة ١٩١٧ واخضعت للسيطرة العسكرية ، ودفع لمالكيها وملاحيها الاجر بالاسعار الدارجة رأساً • وعندما فتحت بغداد كانت هناك ٢٠٠٠ سفينة بلدية

---

(٤) اللثق = الماء والطين المختلطان كالوحل •

(المترجم)

(٥) راجع : Hall (المؤلف)

عاملة بامرة الجهة العسكرية ، وعدّة ملاحيها نحو ١٠٠٠٠ ، وهي تنقل أكثر من ١٠٠٠ طن من البضاعة يوميا ، ومن البصرة في النهر صُعُدًا ٠

سرعان ما تجلّى ، اثر تسليم الكوت ، ان كميات من الطعام المستورد ، ولوازم اخرى ، تصل الاتراك من (الخليج الفارسي)[٦] وتتخذ لذلك سبلا شتى، أهمها ، على التوالي بالنسبة لذلك ، : البصرة ، والكويت والزبير والاهوار ٠ ونيط بـ (الادارة المدنية) واجب تنظيم «حصار بري» ٠ فعين «موظفو الحصار» في الأمكنة المذكورة ، وفي غيرها من النقاط كالناصرية والعمارة ، وجعلوا بامرة الضباط السياسيين المحليين ٠ وكان من شأنهم اصدار الاجازات بشراء مـواد الطعام ، على اختلاف انواعه ، ونقله في النهر او البر من مركز لاخر ، وبكميات محدودة ، معقولة على وفق الحاجات المحلية٠وكان تحقيق هذه أمرا ادّا ، ذلك ان احصائيات الاستهلاك لما قبل الحرب ، ان وجدت ، لن ترشد الا قليلا ، ولقـد ازداد طلب الدوائر العسكرية على العمال المحليين كما ارتفعت اجورهم غير المقيدة ارتفاعا كبيرا ، وليس من توافق بينها وبين مقدارالعملة المتداولة ، لذلك ازدادت المواد المستوردة الى حد لا يخطر على بال ، حتى على بال التجار في عهد (السندباد البحري) من ذوي الخيال المنسرح ٠ كانت كل سفينة تصل البصرة تحمل بضائع للسكان المدنيين في الاراضي المحتلة تقريبا ٠٠ وكان ان استوردت ولاية البصرة سنة ١٩١٦ ، من البضائع ما قيمتها أكثر من قيمة ما استوردته سنة ١٩١٢ ، وذلك سدا لحاجة ثلاث ولايات اعني : البصرة وبغداد والموصل ٠ وازدادت البضائع المستوردة الى المنطقة المحايدة ، اعني : الكويت والبحرين ، من الهند بنفس سرعة اسـتيراد الدول الاسكندينافية ، والدنمرك ، وهولنـدة من المملكة المتحـدة ، خلال المدة نفسها ٠ حمدا لوجود (سر برسي كوكس) في الخليج الفارسي بوصفه ضابطا سياسيا مقيما ، وقنصـلا بريطـانيا عاما في فارس ، وضابطاً سياسياً رئيساً في (الحملـة) وشكرانا ، اذ كان ذلك سـببا في وضع تقييدات صارمة عـلى هذا النقل ٠ وانه كان مصدر قلق عظيم خلال سنتي ١٩١٧ و ١٩١٨ ، كما انه

---

(٦) الصحيح ، جغرافيا وتأريخيا وبشريا ، هو : « الخليج العربي » (المترجم) ٠

ألقى على الجميع قدرا من أعمال الدائرة • وبوصفي (نائب الضابط السياسي الرئيس) نيط بي ، خلال سنة ١٩١٦ ، واغلب شهور سنة ١٩١٧ ، وضع قواعد عامة ترشد (ضباط الحصار) ، بالاضافة الى النظر في شكاوى التجار بازائهم ، وتنسيق اعمالهم ، وامساك نوع من السجلات الاحصائية التي ترينا مدى نجاحنا ، واين هي مواطن التسرّب المحتملة فيه • وكنا نحصل من مصادر شتى على الاسعار الجارية في بغداد ، وفي غيرها ، واعني ما اتصل منها بالرز و (الشخاط) والبضاعة ، وما اشبه ذلك ، فمكننا ذلك من ان نظهر على مقدار الكميات التي تصل السوق ، والباب المحتمل الذي تلج منه • لقد شغل بهذا رجال عديدون عاملون لا يكلّون ، دائبون لا يملّون ، واستنفد اوقاتهم كلها ، ولما كان عدد الضباط ونواب الضباط الميسورين نكدا قليلا لذلك لم نستطع ايجاد القائمين بمثل هذا العمل الا في القليل النادر ، لا في الكثير الغالب •

وغدت الحاجة ملحئة خلال الربيع والصيف ، ووجدت (وزارة البحريه) صعوبة في تلبية طلبات (القوة) من وسائل النقل البحرية كلها وأمرتنا (وزارة الحرب) بأن نقوم بأقصى ما في وسعنا ، وبأي ثمن كان ، كي نعتاش على خيرات البلاد حصراً • لقد كان الطلب يتمثل بكميات لا حد لها من المواد التالية :

التبن والشعير للحيوانات ، والحنطة والتمور للجنود الهنود ، ولحوم البقر والضأن والخضر والحليب والبيض للمستشفيات • وكان المهندسون يلحفون في طلب جلب القصب لكور الطابوق ، والباريات للملاجىء الوقتية ، والرمل لمقاصد البناء والحجارة لرصف الطرق •

ان هذا الوضع يشبه الوضع الذي قام في بلادنا في السنة التالية ، والذي أدّى الى فرض نظام من السيطرة شمل جميع وجوه الانتاج والفاعلية التجارية تقريباً • وفي خلال سنة ١٩١٦ كانت كل دائرة من دوائرنا على اتصال مباشر ب (الدائرة السياسية) ، بقدر تعلق الامر بما تحتاجه من المؤن البلدية • وكثيرا ما كانت دوائر عديدة تتسابق في سبيل الحصول على مادة واحدة ، أو على شحنة واحدة

---

(٧) راجع : Consett (المؤلف) •

مسها • وكان لدى كل دائرة متعهدون يختصون بحاجاتها ، فيجوبون البلاد في سبيل مواد التموين، ويتحلّقون، فيبيعون بعضهم بعضاء ويشترون • وكان هؤلاء المتعهدون يكتنزون المال على حسابنا ، وعلى غرار ما فعل المتعهدون ، ولا يزالون يفعلون ، مذ أصبحت الحرب تجارة منظمة • انهم في مثل هذه الامور لا يحتاجون الى أن يتعلّموا من الغرب شيئا • لقد صارعت المشكلة شهورا طوالا من دون انقطاع ، وكنت أعلم مظان هذه البضائع ، كما كنت أعلم كيف يجرى التصرف بها ، وما السعر الذي يجب أن يدفع لهـــا • وكانت لدي معلومات شخصية عن الاصقاع المجاورة الواقعة في فارس وعلى الخليج الفارسي بعامة • وكان عنـدي اصدقاء في كل ميناء ، سواء أكانوا من البريطانيين أم من الهنود ، أو من العرب أم من الفرس ، وكنت قادرا على توسيع منطقة التموين • وشرعنا نبحث عن « أكباد الارض[٨] ، اللازمة للطرق في جـــزيرة (خـارك) في الخليـج الفـارسي (العربي ـ المترجم) ، ثم أخذنا بنقلها الى البصرة في سفن أهلية ، كما كان يؤتى بالاصداف البحرية لاكساء المماشي ، وصنع الجير من (خور موسى) ، والرمل والحجارة الخشنة من الكويت ، والحصى من (خور عبد الله) • وعثر المقدم لويل ، الذي كان يشغل منصب (نائب المفوض المدني في البصرة) ، على عضو متمايز في (الجمعية الجيولوجية الهندية) هو الملازم بيلكرم ، (وهو من بلـي ســر اختصاصه وجهره) ، فوجّه جهوده وصبّها في سبيل البحث عن الحجر واقتلاعه من (جبل سنام) ، جنوبي الزبير ، فأصاب من جرّاء ذلك نُجْحا كبيرا[٩] • ومدّت سكة حديد سنة ١٩١٨ حتى قدم هذا التل فاقتلعت منه آلاف الاطنان من مواد بناء الطريق • واستطعنا أن نحصل على الطابوق من الاهواز ، والكلس اللازم للمونة من (ششتر) ، والقطن اللازم لحشو السروج ، وللقوارب ، من (دزفول) • ووكلّنا أمر جلب الاعمدة لرفـــع الاكواخ الى السفن ، تأتي بها من زنجبار ، والخشب اللازم لصنع السفن وتعميرها من مالابار •

(٨) ما في جوفها من معادن وصخور (معاجيم اللغة) • [المترجم]
(٩) راجع ما ورد عنه في (الفصل السادس عشر) من هذا (الكتاب) • (المؤلف)

وقدّمت (تنجستان) صخر الطرق الجيري ، كما قدمت (كلارنس ستريت) خشب الوقود • واتّخذنا ما يلزم لاستيراد الاغنام من أماكن قصية كبلاد العرب الوسطى و (خرمَ اباد) و (ملا مير) ، كما كنـــا نأتي بالماشية من كل ميناء على الخليج الفارسي تقريبا ، ولم تكن هذه لتجلب بكميات كبيرة وانما بكميات تكفي لتيسير الحال قليلا • وعيّن وكلاء في كل صقع ليشتروا البيض والدجاج ، لقاء عمولة ، وبسعر معيّن ، وكان توزيع ذلك يجرى ، بعدئذ ، مركزيا • وكانت كل صفقة تتطلب مراسلات كثيرة ، وكانت كلهـــا ، في الحالات القليلة الاولى ، تجريبية تجرى مع اناس عرفتهم رأساً ، أو بواسطة (المعتمدين السياسيين) أو (الموظفين القنصليين) •

لقد تجلّى ، عند نهاية السنة ، ان مثل هذا النظام ، أو قل عدم وجـــود نظام ، يجب أن يستبدل بمنظمة رسمية • واثر موافقة عاطفة من قبل (مفتش النقليات العام : سر جون ماكمن) ، وستسمع عنـــه أكثر من هذا فيما بعد ، قُمت ، بعون من (العقيد ديكسن) ، بتشكيل دائرة مرتبطة بمقر التموين العام في البصرة ، وبوضع خطة لتأسيس (دائرة الموارد المحلية) تضطلع بتبعة ابتعاث كامل لجميع المواد المحلية ، للمقاصد العسكرية ، مما تستطيع أيدينا الوصـــول اليها • وأبرقت الى (سر برسي كوكس) اعلمه بالمشروع ، وكان ، عهدئذ ، مع بقية الضباط الاركان في منطقة دجلة الشمالية ، وأضفت : ان (مفتش النقليات العام) يتفق معي ، على ان الدائرة المذكورة ، (ان تمّ تشكيلها) ، يجب أن تكون تابعة لـ (الادارة المدنية) • ولسبب يدعو للاسف لم نسلّم برقيتي الى (سر برسي) وانما سلّمت الى (نائب مدير الميرة اللواء نوكس) ، ومن دون أن يكون عليهـــا توقيعي • واحيلت « البرقية » من (اللواء نوكس) الى (سر برسي كوكس) مع مذكرة تقول ان (المقر العام) يوافق على المشروع باعتـــداده صادرا عن (مفتش النقليـــات العـــام) ، ويرى ان (الضـــابط السياسي الاول) يجب أن يتبنّاه • ولما كان (سر برسي) يجهل أصل الفكرة ، لذا اعتذر عن قبول هذا الحمل الجديد يلقى على عـــاتق (دائرته) ، ورفض أن يتبنّى «المشروع» ،

وكانت النتيجة ان (الدائرة) لم تولد الا بعد ثلاثة أشهر ، وليس باعتدادها فرعا من (الادارة المدنية) بل من فروع (مديرية تموين الجيش) • وأشرف على (المشروع) بأيد وقوة ال (جنرال مود) • وجاء في رسالة له مؤرخة بتأريخ ١٧ نيسان سنة ١٩١٧ وموجهة الى العقيد ربنكتن[١٠] : « لقد اسّست هنا دائرة موارد محلية جديدة •••• بغية أن نعتاش الى حد ما على ما تجود به البلاد • ان شخصا كبيرا يديرها الآن ، واني لأتطلّع الى نتائج كبيرة • • »

ومما يؤسف له ، وفي ضوء الحوادث التي جاءت بأخَرَة ، ان هذه الدائرة لم تؤسّس باعتدادها جزءا من (الادارة المدنية) ، ومما لا شك فيه ان ذلك ، لو جرى ، لأدّى الى رعاية المصالح الاقتصادية ورفع كفاية (الدائرة) كثيرا • وعندما اعلنت (الهدنة) كان هناك عدد من دوائر الموارد المحلية يقرب من عدد الدوائر السياسية ، كما حدث صدام كبير بين الاثنين ، وهذا مما أدى الى أن يغلق باب التعاون بين رؤساء دوائر الواردات في بغداد وال (جنرال ديكسن) ، بعد ما سما به سلم الرتب ، ولم يستطع أن يقوم بشيء كبير في سبيل تحقيقه • لا يختلف اثنان في فائدة (دائرة الموارد المحلية) ولا في رصانة المبدأ الذي قامت عليه ، والذي كان علينا أن نأخذ به ، منذ أول الأمر ، واريد به أن تضطلع دائرة خاصة بشؤون الموارد المحلية في جميع البلاد المحتلة وتعمل بالارتباط ، ان ، لم يكن بامرة ، الحكومة المدنية ، وتخضع ، في الوقت نفسه ، الى سيطرة (القائد العام) في أي موقع كان •

وصُيِّر « الحكام العسكريون » في : البصرة والناصرية والعمارة بإمرة (الضابط السياسي الرئيس) خلال سنة ١٩١٦ ، وبقوا ، على كل حال ، مستقلّين عن (الضباط السياسيين) في المناطق الادارية حتى سنة ١٩١٧ ، أما

---

(١٠) راجع : Repington, I, 599. (المؤلف)

(١١) راجع : Mesopotamia 1917-1920.

للاطلاع على الجهود المشتركة التي صبتها (دائرة الموارد المحلية) و (دائرة الواردات المدنية) في سبيل تشجيع انتاج الحبوب محليا •

(المؤلف)

(حاكم بغداد العسكري) فقد بقي عـلى هذه الحال أيضا حتى سنة ١٩١٩ .
وكانت لهذا النظام هنات، اذ ازدوجت ، في ظله الاحكام، وطغى بعضها على بعض كثيرا ، وما كان في الامكان تجنّب ذلك عمليا الا على الندرى . ومهما تكن الحال ، فعندما كان الحكام العسكريون مسؤولين بازاء (المقر العام) ، وليس بازاء (الضابط السياسي الرئيس) ، كان الصدام أمراً لا مفرّ منه ولا معدى عنه ، ذلك ان واجباتهم مدنيـة ، في الدرجة الاولى ، ومصروفاتهم كلهـا تتأتّى من الواردات المدنية ، وتخضع للادارة المدنية حصرا . وأُلغي منصب (الحاكم العسكري) بعد اعلان (الهـدنة) بقليل ، واستُثني من ذلك منصب الحاكم العسكري في بغداد ، فوزّعت واجبات شاغل المنصب هذا بين (الضابط السياسي) في المنطقة وبين (مجلس بلدي عربي) له رئيس ، ذو معاش ، يدعى : (رئيس البلدية) . وعيِّن في البصرة بريطاني بعنوان (مفوّض البلـدية) وبقي حتى سنة ١٩٢٠ ، وذلـك بسبب من سعة المناطق التي تهيمن عليهـا السلطات العسكرية .

وعمل (الحكام العسكريون) خلال سنة ١٩١٦ كثيرا ، وبذلوا جهدا في سـبيل تحسين حيـاة المـدن الثلاث ، وحذت حذوهـم السلطات البلـدية العربية في المناطق الصغيرة ، كسوق الشيوخ والقرنة وقلعة صالح ، وما أن فتر الزخم الاولي ، ووضع نظام رصين مالي ، تجبى بموجبه الرسوم البلدية، الا تجلّت حقيقة الاهلين العجيبة: فاذا بهاسمحة، طيّعة، سهلة القياد، ورغبتهم في اسناده، وتقديرهم للفوائد الناجمة عن شوارع نظيفة ووسائل حفظ الصحة المنتظمة ، ولم تكن ثمة انتكاسة في هذا الباب عند انتهاء عهد الادارة البريطانية المباشرة . لقد اختُطت كل من العمارة والناصرية على آساس من شوارع وسيعة متلاقية في زوايا قائمة ، وعلى قواعد تذكرك بأمريكة الاسبانية ، أو على غرار المدينة الرائعة ، الخربة اليوم ، التي أسِّست على ضفة دجلة اليسرى ، شمالي سامرا ، من قبل الخليفـة المعتصم في القرن التـاسع . وما كان أمر البصـرة أو ضاحيتها

(العشار)[١٢] الراكبتين ضفة شط العرب[١٣] بيسير ، ففي كل منهما دروب ضيقة ، لا تستطيع العربات أن تمر منها من دون أن تسحق المارة وترميهم على الجدران ، وكان لزاما أن تستملك أموال غير منقولة كثيرة وتهدم ، لتشق طرق جديدة ، خلل مستنقعات تتعالى فيها النخيل • وبذلك يمكن فتح طريق لمرور مدافع الميدان وقوافل العربات التي تجرها الثيران والبغال •

وكانت في خارج العشار مقبرة كبيرة ، تتعالى فيها أكداس من الفضلات ، وكان لزاما شق طريق يمر منها الى (معقل) أو مخترقا السوق المزدحمة ، فتكون كلفته عظيمة • وكان (الملا الأكبر) يعارض المشروع الاول بعناد شديد ، كما كان أصحاب الدكاكين ، الذين يبيعون اليوم في اسبوع واحد ما كانوا يبيعونه في سنة ، فزعين مروعين من المشروع الثاني ، لكنهم لم يكونوا قادرين على زحزحة (رجل الدين) الهرم عن عناده • ومنحني المهندسون مهلة ٤٨ ساعة لأحسم القضية • وفي تلك الليلة عينها زارني متقدم من أصحاب الدكاكين واقترح حلا يجري على عرق من « حكمة سليمان » ، وأعني به : تغيير استقامة

(١٢) على معنى : « المكان الذي يستوفى فيه العشر » أي (دار المكس : « الكمرك ») •

(المؤلف)

(١٣) كل هذه لاعداد (القاعدة ــ البصرة) لكي تقوم على امداد الحملة على بلاد ما بين النهرين وانجاحها بطبيعة الحال ، لا لتعميرها في الدرجة الاولى• ومبعث اهمية البصرة ــ العشار وقوعهما على شط العرب (طوله ١٢٠ ميلا تقريبا وعمقه يتراوح بين ٣٠ ــ ٦٠ قدما ومعدل عرضه ١٠٠٠ ياردة) وهو بهذه الصفة يعتد الشريان الاكبر الذي يصل (الحملة) بالهند: مصدر رجالها وعدتهم وعتادهم • ونستطرد فنقول : كان (العراق) في العهد العثماني ينقسم الى ثلاث ولايات : بغداد ، الموصل ، والبصرة وكانت هذه قليلة التواصل ، ضئيلة التعارف ، عديمة التماسك ، كل ولاية منها تخابر الوزارات المختصة في اصطنبول ، عاصمة السلطة العثمانية وتنفذ الاوامر التي تتلقاها منها ، وعندما استولت بريطانية على الولاية الجنوبية أي : البصرة ، في السنة الاولى من الحرب العالمية الاولى ، لم تستطع بسبب الحال التي شرحناها من الاستيلاء على الولايتين الوسطى (بغداد) والشمالية (الموصل) الا في السنة الاخيرة من الحرب لذلك سعت الى ما سعت اليه من تنظيم أورده (المؤلف) ببعض تفصيل •

(المترجم)

الشارع المقترح ليمر من السوق على بعد ياردات قليلة فيؤدّي ذلك الى هدم بيت رجل الدين ، وهو عجوز ليس فيه الا حطام عمر ، نفسه ، وأملاك جماعة من رجال الدين المتقدمين أيضا • انه لحلّ منصف ، على ما قال ، وان اذنك لتسرّ اذ تسمع صوتا جماعيا يهتف به رجال الدين أنفسهم : (الله يطوّل أيامهم !) (كذا : المترجم) ، وبذلك تتفادى امرار الطريق من المقبرة • وترددت في قبول هذه النصيحة ، بادىء الرأي • وفي اليوم التالي شرّفني بزيارة وفد قاصد منتاب من رجال الدين أكّد لي بأننا نستطيع أن نمرّ بالطريق من فوق الأجداث من دون أن يُمسّ الشعور الديني ، شريطة ألا يمسّ مزار أهلي صغير كائن على مقربة من المقبرة ، وأن يجرى تعميره من الاموال العامة •

وكان السجن المدني في البصرة ، وقد ورثناه عن الاتراك ، على حال لا يمكن تصوّرها من حيث القذارة ، وكان أن اعيدت عمارته جهد المستطاع ، ووسّع • وحصل على سجّانين مدربين من الهند ، فأصبحت ادارته انسانية الصبغة • لقد كانت الردهات فيه مزدحمة الى حدّ اضطرنا الى أن نشغلّ المساجين خلال النهار في مشاريع عامة ، رعاية لصحتهم • وسرعان ما كان مشهد المساجين وهم يرشّون الطريق بين البصرة والعشّار أو يعملون على اصلاحها ، تحت مراقبة أحراس مسلحين ، أمراً لا يلفت النظر كثيرا • وكانت لذلك هنات ، فلقد كان الضبط والربط عسيرين ، وكانت كلفة الحراسة كبيرة ، وسرعان ما عدا السجن ، في الوقت نفسه ، مزدحما • وما كان هناك من مساجين في أي مكان آخر في ولاية البصرة • ورفضت حكومة الهند ايجاد محل يستوعب فيض ما لدينا منهم • وحمدا للعقيد (لين) ـ المنسوب الى الطبابة الهندية ـ وشكرا ، فلقد وجد حلا اقتصاديا باقامة معسكر صحراوي ، تحيط به أسلاك شائكة . ويمكن أن يُحشر فيه جميع المساجين حشرا ، وفي الامكان ذهابهم من هذا (المعسكر) الى العمل الموكول اليهم ، على خط السكة الحديد ، وغيره من السداد ، وعودتهم منها ، من دون أن تسنح لهم فرصة الهروب في بسيط الأرض• وكان المقدّم نورمن سكوت، المنسوب الى الطبابة الهندية، يهيمن، بسمو ورفعة ،

على هذه الفاعليات ، وعلى التنظيمات الصحية المدنية ، عموما ، فيُصيب في مسعاه نُجْحا • وكان قد شرع بذلك ، منذ احتلال البصرة ، ودأب عليه حتى سنة١٩١٧ حين غادرها الى بغداد فحلّ محلّه الدكتور فوربس بورّى الذي كان يمارس الطب في البصرة فيما قبل الحرب • وكان المقدم سكوت يشغل ، قبل الحرب ، منصب جرائحي دار المقيم البريطاني ، ووكيل القنصل البريطاني العام في بغداد • كان يعرف العربية جيدا ، وكان سراة بغداد والبصرة ووجهاؤها يحبّونه حبا جمّا ، بالتبجيل مقرونا • لقد نيط به الواجب العسير ذو التبعة • أعني : سحب الباخرة الحربية الهندية الملكية : (كوميت) من بغداد الى المحمّرة عند اندلاع لهيب الحرب ، على أن يحمل على ظهرها من أبناء الناقلة (الجالية) البريطانية في بغداد من يستطيع حمله على مغادرتها • ورفض ثلاثون من أبنائها نصيحته فجوزوا على ذلك الجزاء الأوفى • وكان أن ارسل الرجال منهم الى (مرسينه) عن طريق (قيصرية)[١٤] ، ومنها اتخذوا السبيل الى خارج تركية أخيرا ، أما النساء فلقد احتجزهن الاتراك ببغداد في أمكنة مريحة نسبيا ، وحيث وجدهن الـ (جنرال مود) في آذار سنة ١٩١٧ ، على حال أسوأ بقليل مما يترقب في ضوء ما مرّ عليهن من شدائد (ودار حديث كله سخف وفهاهة سنة ١٩١٥ واتصل بانقاذهن[١٥] عن سبيل اندفاعة من قرب سلمان باك ، ولحسن حظ الجميع لم يسفر عنه شيء) •

وقام المستر وتكنس بتنظيم دائرة المكس (الكمارك) سنة ١٩١٦ تنظيما تاما • والرجل من موظفي الكمارك الهندية الانبراطورية ، وقد اعيرت خدماته لهذه الغايه في آب سنة ١٩١٥ ، وحتى هذا التأريخ ، كانت الدائرة المذكورة خاضعة للمشرف على دائرة الواردات • وشرع بجمع الموظفين ذوي الكفاية في دائرته تدريجيا ، وسرعان ما ظهر أثر ذلك في حصيلة الواردات المتزايدة دراكا •

---

(١٤) راجع : Debates, H.C., 4.2.15

(المؤلف)

(١٥) راجع : Townshend, p. 102

(المؤلف)

وما كانت جباية المال ، على كل حال ، تهمّه حصرا • ذلك ان هيأة من الموظفين ذوي الكفـــاية كانت لازمة لفرض (الحصار) ، كما ان الاشراف الدائب على الواردات والصادرات أمر يحفظ لنا مصالحنا ومصالح مدير الكمارك البلجيكي مسيو كوردونيه في المحمرة ، عبر الحدود الفارسية • ان التهريب ، عبر جبهـة نهرية ، لأمر يسير دوما ، وأسهل منه ما كان عَبْر الاهوار والصحراء ، على ان طول الحدود في بلاد ما بين النهرين يبلغ ٣٠٠ ميل وهي حدود اما من أنهار أو أهوار أو صحارى • وكان الفرس والعرب واليهود والنصارى يتسابقون في ايجاد الجديد من طرق التهريب وآصلها • ان أقل فرق في نسبة العائدات التي تجبى في البصرة والمحمّرة كان يحوّل الى منفعة • وكانت نسبة العائدات في الضريبة الكمركية المفروضة في البصرة أولا : ١١ بالمئة ، وذلك بالاستناد الى النظام التركي ، وكانت تحسب على أساس القيمة[١٦] ، وكانت هذه أعلى من النسبة المعمول بها في المحمرة والتي فرضتها معاهدة • وأساسها مبلغ معيّن يستوفى عن كل باون من أية بضاعة • وعندما أخذت الاسعار بالارتفاع انعكست الآية ، اذ أصبح حمل السكر الى المحمّرة ، مثلا ، ثم نقله عبر النهر سراً ، في الليل الأليل ، عملا مربحا • وكانت صلاتنا مع السلطات الكمركية الفارسية تقوم على الود الدائم والوفاء المقيـم دائما ، ولقد انجز شيء كثـير عن سبيل الزيارات الشخصية ، لكن الهيمنة الحصيفة السديدة على التهريب لم تتمّ الا سنة ١٩١٩ • واني لأتذكر حادثة تاجر كان يستورد « ورق اللعب » الى البصرة عندما كان الرسم عليها واطئا ، وكانت ثمة شحنة منها مفردة لتنقل الى فرس جليا ، فارسل نبأ ذلك الى المحمّرة ، لذلـــك القي القبض على صاحبها كما صودرت بضاعته الثمينة بعد ليال قليلة من ذلك •

ان هذه الفاعليات الكونية ، على انها مهمة ، بقدر تعلق الامر برعاية قوتنا ، وضرورية لتحقيق مصالحنا العليا ، الاّ انها لا تفجرّ في القارىء العام ولعا كافيا ، لذلك فلن أصفها بأكثر من هذا •

---

(١٦) جرى خفضها على يدنا الى ١٠ بالمئة أخيرا • (المؤلف)

ويكفي أن اسجّل ان موظفي الدائرة الذين كانوا على غرار رجال (داوث) في (بيصور) وعدتهم ٢٠٠ وهم ممن « ران عليهم زفت الامر » فاستحقوا ، حتى سواء ، التبجيل الذي تستحقه القوات المحاربة . لقد كان عملهم دائبا لا يريم ، وأصابهم ، من جراء ذلك، رهق نفسي ، فأودى بصحتهم كثيرا . لقد بقي النظام الذي شادوه ودبّروه ، فأحكموا تدبيره ، على الايام قائما لم يتبدّل ، منذ أيلولته الى الحكومة العربية في العراق ، خلال عشر سنوات ، الا قليلا .

وكانت للعقيد سر مارك سايكس في سنة ١٩١٥ زورة لبلاد ما بين النهرين قصيرة . لقد جاءت الزورة هذه في أعقاب زيارته لمصر وعدن والهند وأمضاها يحادث الجميع ويكتب الرسائل المونقة المثيرة للعاطفة ، الى من في بلادنا . وحلّ عليّ ، أياما قليلة ، ضيفا كريما ، وذلك قبل أن يمضي لرؤية سر برسي كوكس في النهر صُعُدا . وما تزال تراود خاطري صور واضحة جلية عنه ، اذ هو جذوة من نشاط ، وعن عبقريته في ميدان التعميم المسرّ ، وان لم يكن فيه على صوات دوما . كما اني لأذكر عنـايته واهتمامه بكل شيء كان يشهده . انه لا يشبه أمثاله ، اذ لم يكن معجبا بكفاية الادارة البريطانية في الهند ، فلقد كتب على النقيض من ذلك(١٧) :

« ومما يهزّ المرء هزّا أن نجد ان المدن الهندية ، من أمثال (دلهي) ، لم تتقدم ، على ما هو بيّن ظاهر ، وذلك خلال الثلاثين سنة الاخيرة ، الا أقل من تقدم المدن العثمانية من أمثال (قونية) و (قسطموني) ... انها لصدمة حقا ، تنزل بآرائي . ان (الدولة التركية) لشبيهة بدولة ، وأقلّ شرقية مما في الهند . ولا شك ان الهند تتسم بالفقر والخصاصة ، تزدحم بالسكان ، ويعورها الموظفون ، لكن السر الجذري في النفوذ التركي السائد بين الهنود المسلمين ، ممن اتخذ سبيله الى اصطنبول ، يكمن في ان مثل هؤلاء رأوا فيها أشياء أكثر كفاية مما يرونه في وطنهم حقا » .

لقد افضى اليّ ، عندما التقينا ، بكل هذا ، ولم تفق معه ، حينئذ ، ولا أتفق معه عليه الآن أيضا ، لكنه ، على التحقيق شجّع اقامة جهاز اداري ذي كفاية ،

---

(١٧) راجع : Shane Leslie, p. 247 (المؤلف)

وجعلني أؤمن بأننا ، على الشوط الطويل سنحيا أو نموت ، بقدر ما نقوم به في باب « منح الناس السُذّج حقوقهم ، وحماية أطفـــال الفقراء منهم وعقاب المسيئين فيهم » • لقد كان يجتوي الظلم كثيرا ، ويعطف على ذوي المتربة والطبقة الدنيا عطفا انكليزيا شاملا • لكنه لم يمكث في (بلاد الرافدين) الاّ قليلا ، فلم يستطع الوقوف الاّ على ما يكوّن انطباعات متناثرة • لقد جاء (البلاد) وقد فكّـــر وقدّر ، فشُغل بجمع حقائق نمالىء أفكاره التي تخمّرت مسبقا ، ولم يكن ساعيا وراء مسح للوضع المحلي بنظرة محايدة أبدا • وكان مقرّا أعمالنا وعاطفا على كل ما كنا نقوم به في باب استبدال الحكم التركي ، بقدر تعلق الامر بتحسين حال الاقليات من الارمن واليهود والصابئة ، ثم اعدل بالنسبة لمطـامح العرب ، والرضـــى لفرنسة ! وكان أن رجـــع الى فرنســة في كانون الاول سنة ١٩١٥ •

وفي الـ ٦ من أيار ، أي : بعد اسبوع من تسليم الكوت ، تبُودلت مذكرات بين (سر ادورد كرى) وبين السفير الفرنسي في لندن (مسيو بول كامبون) فخلقت ، بموجبها ، خمس مناطق في الشطر الجنوبي من (تركية الآسيوية) ، هي :

(١) منطقة لوّنت على الخارطة باللون « الأسمر » تضم فلسطين لتقام فيها ادارة دولية •

(٢) منطقة بريطانية تضم البصرة وبغداد وخانقين ، تطلق فيها يد بريطانية فتؤسس ادارة أو سيطرة ما ، على وفق ما تراه ملائما •

(٣) منطقة فرنسية تضمّ الساحل السوري (بيروت وانطاكية واسكندرون) وقليقية (مرسينة وأطنة) والاراضي الواقعة بين قليقية ودجلة العليا (مرعش وعينتاب واورفة وديار بكر) • وفيها تتمتع فرنسة بالحقوق التي تتمتع بهـــا انكلترة في منطقتها ، سواء بسواء •

(٤) و (٥) أما الارض التي تتوسط منطقتي النفوذ : البريطانية والفرنسية فان الحكومتين كانتا على استعداد للاعتراف بدولة عربية مستقلة ، أو تحالف دولة

عربية تقوم فيها ، وتحميها الدولتان المذكورتان •وقد قُسِّمت الارض هذه الى « منطقتي نفوذ » ، لكل من انكلترة وفرنسة الاسبقية فيها ، بقدر تعلق الامر بالقروض والمشاريع وتقديم المستشارين الاجانب والمستخدمين • ثم منطقة نفوذ فرنسة لتضمّ دمشق وحلب والموصل ، وكانت تتصل شرقا بالحد الفارسي • وتشمل منطقة النفوذ البريطانية الصحراء السورية وتكريت والاراضي الممتدة على الحدود الفارسية ، بين المنطقة الفرنسية وخانقين •

وبموجب هذه الوثيقة (التي عرفت باتفاق سايكس ـ بيكو) ، سُلخت منطقه الموصل ، على الورق ، من ولايتي البصرة وبغداد ، واعطيت الى فرنسة • ان محفوظات الحكومة الروسية اليصرية تبيّن ان روسية لم تكن لتميل الى ظهور فرنسة في مكان يجاور حدودها مباشرة (راجع مذكرة سازونوف المؤرخة بتأريخ ٢٩ شباط ١٩١٦) • لكن روسية وافقت[١٨] بموجب مذكرة مؤرخه بتأريخ ٢٦ نيسان ١٩١٦ على هذا المشروع شريطة أن تضم اليها منطقة كردستان الواقعة جنوبي وان وبدليس[١٩] •

ان الغاية الرئيسة من وراء هذه الاتفاقية هي خلق « دولة حاجبة Buffer State » تحميها فرنسة وتقع بين الاراضي الروسية ، في الشمال ، وبين (بلاد ما بين النهرين) المحمية من قبل انكلترة في الجنوب • انها من هذه القلة القليلة من الوثائق الدبلوماطيقية التي كثر نقدتها ، وتعرّضت لهجمات المتمزقين من الغيظ • انها لتناهض كل مبدأ قويم • ولو ساعفتها الفرصة فوضعت موضع التنفيذ لباءت بالفشل •

ان الصعوبات التي أرادت (الاتفاقية) أن تذلّلها كانت ، في الحق ، عسيرة لا سبيل الى حلّها • وعندما انسحبت روسية من الحرب سنة ١٩٢٧ ، صرفتها

---

(١٨) راجع : سازونوف Sazonov ص ٢٦٠

(المؤلف)

(١٩) عينت حدودها على الوجه الاتي : المنطقة الكائنة بين (موش) و (سعرت) و (دجلة) و (جزيرة بن عمر) وخط القمم المطلة على (العمادية) و (ماركاوار) ـ راجع مينورسكي Minorsky

[المؤلف]

عن فكرة الاستيلاء على الاناضول صارفات الاحوال يومذاك ، زال المبرر الأوحد لترتيباتها ، لذلك وضعت خطة جديدة في (سان ريمو) ، سنعرض لها في مكان آخر من هذا (الكتاب) • ولم يكن هناك من أحد في بلاد ما بين النهرين يعرف شيئا عن هذه (الاتفاقية) الى أن حلّت سنة ١٩١٧ ، لكن سر مارك سايكس غادرنا وليس فينا من يشك بما سيسود (بلادنا) من آراء تتصل بمصير ولاية البصرة في قابل الايام ،وكانت ، على ما علمنا تميل الى جعلها ، وبغداد ، تحت « الحماية البريطانية » • وكانت (التعليمات) التي تلقيناها ، اثر احتلال بغداد ، بعدما أجروا تكييفها ، لا تناهض هذه السياسة بأي وجه من الوجوه ، فهي ، في الحق ، مضمّنة في « اتفاقية سايكس بيكو » • وفي نحو هذا الوقت عينه كان يشار في (البرلمان) غالبا الى الرغبة في جعل (بلاد ما بين النهرين) : « مستعمرة هندية » (كذا : المترجم) • قال أحد أعضاء المجلس المـــذكور في ٢٢ من آذار ١٩١٦ « اني لأتطلّع الى بلاد ما بين النهرين باعتدادها الغنيمة التي يحارب في سبيلها الجيش الهنـــدي ••• (كـــذا : المترجم) ، واني لآمل أن أرى (بلاد ما بين النهرين) عامرة بمشاريع الري والقنوات تحت اشراف الحكومة البريطانية • وأرجو أن اشاهد الضفاف الكائنة على أنهارها آهلة ناشـــطة فيها مستعمرات هندية منقولة من ضفاف نهر السند • ولم يفـــه أحد من أعضاء الحكومة بكلمة تحبط أمثال هذه الاقوال(٢٠) •

وجاء النقيب (فالمقدّم بعدئذ) اوبري هربرت ، النائب في مجلس العموم

---

(٢٠) أنظر ــ في هذا الموضوع

C.F. Andrews, "India's Emigration Problem, Foreign Affairs, April, 1930.

[المؤلف]

قلنا : اين ، اذن ، ما صرح به ال (جنرال مود) ، اثر دخوله بغداد من ان الجيش البريطاني جاء العراق محررا لا فاتحا ؟! حقا ان تحريك اللسان في الفم شيء وتحريك اليد في العمل شيء آخر • هذا غيض من فيض ، وقليل من كثير من (تناقضات) المستعبدين ، المحتلين ، المستغلين ، وقيل ، بحق ، (لا ترج خيرا ممن لا يرجو خيرك) •

[المترجم]

الانبريطاني ، على ما ذكرنا ، الى بلاد ما بين النهرين تحت اشراف وزارة الحرب ، وكان ذلك في نيسان ١٩١٦ • لقد كان هذا شويعراً « نصف سياسي » ، يميل الى الاتراك قلبيا ، وبعكس ما كان عليه مارك سايكس • انه أكثر من الأحير في اللغة كفاية ، لكنه أوهن صحة • لقد كان يعرف (البانية) جيدا ، وقد رأى من الانبراطورية التركية القديمة كثيرا : من اليمن الى العُقير على الخليج الفارسي ، ومن سلانيك الى انقرة ، لقد كان كالأعمى واهن الصحة ، وعلى الرغم من ذلك كله أسبغ الله عليه نعمة الروح المرحة التي تجعل أي انعـــاش طيبا عبقا • لقد أعجبت به بقدر كرهي للسياسة التي سمح لنفسه أن يكون أداة تنفيذها ، فقدّم الى خليل باشا المال عسى أن يؤدي ذلك الى اطلاق حاميـة الكوت من أسرها[٢١] • لقد كان واثقا ، بخلاف سر مارك سايكس ، من ان الاتراك سيعودون الى العراق ، وان العرب لا يمكن أن يستقلّوا في امورهم ولقد أثّر حديثه فيّ ومحصله ان من الخطأ أن نحاول ربط العرب بالتزامات معنا ، لئلا يقعوا ، بعد ذلك ، تحت نقمة الثار التركي • وكان قد توصّل سكنة المدن من العرب الى هذه النتيجة نفسها في هذا الوقت نفسه • ولم يكُ من رؤساء الأعراب من يروم التعاون معنا الاّ القليل ، شريطة أن يكون ذلك موافقا لمصلحتهم ، وأن تكون مدافعنا قريبة منهم[٢٢] •

وصرّح اوبرى هربرت بآراء اخرى في السنوات التالية • ففي (مجلس العموم) في آب سنة ١٩٢٠ قال : « يجب ألاّ يكون هناك قيد ما على استقلال العرب » وان علينا سحب جيوشنا ، اذ ليس هناك ، « بقدر ما اتصل بعلمه » ،

---

(٢١) بقدر تعلق الامر بهذه (الرشوة) ـ التي يتراءى ان امرها الفظيع البشع ابهظ (المؤلف) فثقل عليه واتعبه ـ تحضرني أبيات لمعن بن زائدة الشيباني تصور حالها الطف تصوير :

ان الدراهم في المواطن كلها ... تكسو الرجال مهابة وكمالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة ... وهي السلاح لمن اراد سلاحا

[المترجم]

(٢٢) راجع : Debates, H.C. 23.8.1920

(المؤلف)

من جهة تروم مهاجمة هذا الشعب ، في الوقت الحاضر[٢٣] .

لقد بقي على ايمانه بتركية والاتراك حتى النهاية . ويمكن أن نقارن علاقاته العاطفية بـ (طلعب[٢٤] باشا) في المانية مع ما سجله مستر موركنتو عن حديث هذا السياسي واتجاهاته . وفي حزيران سنة ١٩٢٣ ذهب « هربرت » الى حد التصريح بهذا : « لقد شعرت تركية تماماً ، بأن ولاء الرعايا المسيحيين رصيد لهـا وضرورة من ضـرورات مصلحتها . » على ان ليس لانكلترة في الخارج أعظم من رصيدها الممثّل بشخص هربرت ، وأشباهه ممن يتلذذون بذكر الولاء القديم ، والصداقات التليدة ، وينسون الاحزان الطريفة ، وبموته، في ايلول سنة ١٩٢٣ ، انطوت صفحة فارس ، وسفير النية الخالصة والتفـاهم بين الشعوب الغربية والشعوب الشرقية .

وفي أيار جاء من مصر النقيب جورج (اللورد اليوم) لويد ، عضو مجلس العموم البريطاني ، بمهمة ارتباط . والتحق بهيأة موظفي سر برسي كوكس في البصرة ، وبقي معنا لأكثر من شهرين بقليل . انـه على غرار (سايكس) و (هربرت) متصل اتصالا وثيقا بماجريات الامور في مصر ، وقد سبق لـه السفر مع (بيكو) ، ولعله كان أعلم من كل أحد بالآمال والمخاوف الدائرة في مكاتب (الحلفاء) وغرف (داونك ستريت). وعلى النقيض من سايكس وهربرت، نظر الى مشكلات (بلاد ما بين النهرين) المحلية نظرة محايدة بعيـدة عن التحيّز ، ودون رغبة في الادلاء بآراء قاطعة ، غير مدروسة دراسة كافية[٢٥] .

---

(٢٣) كتابة هذا بكلمات حروفها مائلة Italics في الاصل ، من أمر المؤلف ، على ما ذكر هو نفسه .

[المترجم]

(٢٤) جرينا على كتـابة الاعلام التركية من امثال طلعت ، وبهجت ، وشوكت على ما كتبت به في اللغة التركية ، اذ (العلم) لا يغير عن اصله.
[المترجم]

(٢٥) راجع : Ben Kendim, p. 307.

وراجع أيضا : D'Abernon Vol. 1.

ففيه ملاحظة مفيدة تتصل بالموضوع .

[المؤلف]

« لقد أتى » ــ على ما تقول كرترود بيل « بجو سليم » • لديه عقل رائع يعني بالارقام وبالناحية التجارية من الامور ، وهي ناحية أخـــذنا نهتم بها • واعدّ عن ذلك (مذكرات) عديدة نافعة أسفر عن احداها ارسال حكومة الهند (بعثة تجارية) الى بلاد ما بين النهرين • ولم يكن الرجل غريبا عن مثل هذا العمل • فلقد زار (بلاد ما بين النهرين) سنة ١٩٠٧ مندوبا عن (وزارة التجارة البريطانية) ، لاعداد تقرير عن التطوّرات التجارية المحتملة التي قد تسفر عن السياسة الالمانية التي اتجهت وجهة جديدة • ان هذا التقرير(٢٦) ، على ما أعتقد ، كان ، ولا يزال ، سريا ، وانه لباق على اعتداده من الخوالد في نطاق حفنة من موظفي الحكومة المعنيين بهذه الشؤون • لقد تكونت عندي ، بواسطنه ، نظرة أوسع من النظرة التي كانت لديّ قبلا • وما كانت السياسة ، على كل حال،من شأني في هذا الوقت عينه ، ذلك ان عمل (الدائرة) كان ثقيلا والحاجة الى الاسراع شديدة ، ان اريد أن لا تسبقنا الحوادث • لذلك انصرفت بكليتي الى المعاملات ، وهي معاملات تركني (سر برسي كوكس) مطلق اليدين في تصريفها • ولم أعمد الى بحث القضايا السياسية معه الاّ نادرا وعرضا •

وعلى كل فاني لأنظر الى هذه الحقبة من الوقت نظـــرة ملؤها الغبطـــة والأنشراح وان لم تشغلني خلالها كبريات الحوادث وجسيمات الامور • لقد كنت على وفاق ووئام (مع رئيسي) حقا •

وعـلى الرغم مــن أني لم أسـهم في الاحتراب الذي دار ســـنة ١٩١٦ على ضفتي دجلة ، الاّ اني كنت على اتصال وثيق ، نوعمّا ، بضباط الكتائب ، من لداتي تقريبا ومرتبتي ، الموجودين في فروع المسلك جميعا • وأصبح (مطعم الدائرة المدنيـــة في البصرة) ، لا يختلف اليـــه موظفو الخدمة المدنيـــة حسب،بل كان يرتاده اناس شتّى ، كانوا على ثقة من الترحاب الذي سيلقونه

---

(٢٦) راجع :

Economic Situation in The Persian Gulf and Mesopotamian Markets, Basra, 1916.

[المؤلف]

فيه ، بالاضافة الى طعام ومنام ان احتيج اليهما • وعن هذا السبيل استطعت أن أوثق صداقات ، في جوّ من الود المقيم ، مع عدد كبير من الناس ذوي الخبرات العملية في مناشط الحياة كلها ، وأن احصـــل أيضا على المعرفة ، الوثيقـة في الغالب ، بكل بلد على البسيطة وجوها • وكان سر برسي كوكس قد أمضى أكثر من نصف السنة مع (المقرّ العام) على دجلة • وعلى حين كان يشرف على دائرته اشرافا حقا ، خوّل (مستر دوبسن) ، وخوّلني أيضا ، تبعات تتصل بمجال عملنا • واستطعت ان أصطفي ، بمرور الزمن ، ومن بين من اتّصلت بهم من الضباط وهم كُثْر ، وعلى وَفْق الحاجة الناجمة ، رجالا يتّسمون بالصفات اللازمة • وكانت عملية الانتقاء عسيرة بطيئة ، ذلك ان الشخص المثالي بنظري ، لمناصب معينة ، هو من لا يستطيع رؤساؤه العسكريون ، غالبا ، التخلّي عنه ، ومن كان يراد له ، في الاغلب ، أن يبقى في وحدته ما دامت الحركات الفعلية جارية • ومهما تكن الحال ، فلقـــد كان في هيأة الضباط الاحتياط في الجيش الهندي على وجه أخص عدد من « غير اللائقين » ، شأنهم كشأن نظرائهم في الافواج الاقليمية ، ومن مثل هؤلاء أستطيع الافادة الحسنة • لم يكن خيال (حكومة الهند) ، بقدر تعلّق الامر بتخصيص الضباط ، الاّ محدودا • فلقد كان زارعو الشاي ، ممن اعتادوا على تصريف شؤون العمال في (اسّام) ، يخدمون في كتـــائب الحدود ، على حين كان المحاسبون المختصـون يسيئون تصريف شؤون فيالق العمال • وكان موظفو الارواء ، ومهندســـو الاشغال ، يشغلون مناصب ثانوية في دوائر التموين ، على حين كان المدنيون الهنود الشبان يعملون في شؤون الشحن ويسعون الى الوقوف على طرائق التحميل على ظهور الجاريات ، عابرات المحيطات •

وتمّ ، خلال سنتي ١٩١٦ و ١٩١٧ ، شيء كثير في باب اختيار الصلحاء من الرجال لملء المناصب شبه الفنية الشاغرة • وبعون من سر جورج ماكمن

(٢٧) Report upon the Conditions and Prospects of British Trade in Mesopotamia, 1908.

[المؤلف]

(الذي كان بوصفه مفتش النقليات العـــام ممثلا عُرام القوة بالنسبة للادارة المـــدنية ، وبالنسبة للجيش أيضا) ، ومن العميد كمبل (مساعد مدير شئيره المولج بالجهاز المعقّد الموسوم بـ (القدمة الثالثة)[٢٨] ، اخذا (المقرّ العام)،يزن بالقسطاس المبين بالنسبة الى حاجتنا وحاجة الدوائر العسكرية • وكان يجرى تبادل المعلومات والآراء المتصلة بكفاية الضباط ولياقتهم على وجه دائب • ولعل الدهش كان يعقل لسان بعضهم ان ظهروا على ثروة من تفصيلات دوّنت على بطاقات الفهارس الدّالة على سجل خدمتهم السابقة وخدمتهم الحالية •

ولما كانت الاعمال المناطة بـ (الادارة المدنية) شتى كثيرة ، وازدادت كثرة باتّساع نطاق (الحملة) ، مسّتالحاجة الىالافادة من رجال ذوي كفاياتمختلفة، ومن جميع الاعمار • والرجال يختلفون طبعا ، وليسوا جميعا بذوي لياقة لما يراد اناطته بهم دوما • وبلغ مجموع من كان يعمل في (دائرتنا) في مختتم سنة ١٩١٧ مئـــة ضابط وزيادة ، وارتفع العدد هذا في سنة ١٩٢٠ الى ٤٠٠ وزيادة • وكانت خطتنا تنصبّ على أن تملأ المناصب الثانوية بمن هم أقل كفاية ، وأن نصطفي الرجال الذين تجلّت ، بالتجربة ، مزاياهم الغرّ لمعالجة المشكلات المستعصية التي يجب أن تجبه وتحلّ • وحمل (الضباط السياسيون) الامانة بروح مرحة ، لكنهم لم يكونوا غافلين عن ثقلها الا نادرا ، وكانت تنوء عليهم بكلكلها غالبا • وشقّ على بعضهم أن يعيشوا في معزل مدة طويلة ، وأخصّ بالذّكر منهم من لم يعتدْ على ذلك فيما مضى (ولكل امرىء من دهره ما تعوّدا) • ومنهم من كان يجد في ارسال البرقيات والكتب المطوّلة مُتَنَفسا ، ومنهم من كان يصادق الشيوخ الذين قدّر لهم أن يحلّوا بين ظهرانيهم حصرا ، فيخرجون معهم للبيزرة بالصقور وللصيد في جوف الفلا ، ويدرسون ، خلال ذلك كله ،

---

(٢٨) في الاصـــل Third Echelon والمراد به الدرجة في تصنيف الجند أو سفن الحرب وقال « المؤلف » في (الحاشية) :

« ان هذه العبارة استعملت ، أول مرة ، خلال الحرب العظمى لتدل على (التنظيم) في (القاعـدة) التي كانت تمســك بسجلات جميع الوحدات في الميدان » •

[المترجم]

عاداتهم وأعرافهم ، ويرسلون نتاج دراستهم الى (المقر العام) في (مذكرات) تلقى فيه تقديرا وترحابا ، وتحوّل المعلومات الطريفة الى شيء مفيد على يد (الآنسة كرترود بيل)[29] ، وقبل ذلك من قبل (مستردوبس) ، الذي كان يعنى عناية منهجية بجمع المعلومات اللازمة لمقاصد (الواردات) وغيرها .

واتصلت بكثير من الضباط البريطانيين والهنود في كتائب المشاة أيضا . وقدر لأغلبهم ألا يتنفس به العمر حتى نهاية الحملة الطحون . ومن عرفته منهم معرفة حقة كانوا قلة . لقد أفادوا ، في الظاهر ، من خبراتهم ، وحجبوا أحاسيسهم بأقنعة من عبارات تقليدية . ان ما ناؤوا تحت عبئه ، الى أبعد حد ، هو تلكم التبعة بازاء حياة جنودهم . لقد كان الضباط « النظاميون » في الجيش الهندي يحبّون جنودهم بخاصة ولا يأبهون لشيء آخر . كما كانوا يعرفون اسم كل جندي وقبيلته ومحل سكناه ، وكل ضحية تقع من بينهم كانوا يعتدونها ضربة موجهة اليهم ، وخسرانا مبينا : ان ضباط الجيش كانوا يسرّون عمّا في أنفسهم بورود قفلات من الجنود ممن سيتعرّفون عليهم وشيكا ، لكن ضباط الجيش الهنود كانوا يعلمون انهم بحاجة الى وقت أطول ان أرادوا معرفة

---

(٢٩) لا معدى عن أن نوضح أمر هذه المرأة الداهية التي لعبت دورا مهما في عهد الاحتلال البريطاني البغيض لبلادنا ، لذلك تردد اسمها كثيرا في صفحات هذا (الكتاب) ، وسنزيدك عنها في تعليقاتنا ، في الاماكن المناسبة ، تفصيلا :

عملت فيما سمي ب (المكتب العربي) في القاهرة ، باعتدادها خبيرة بشؤون القبائل العربية لتجوالها في الجزيرة العربية فيما قبل الحرب ثم استدعيت لتقوم بعمل مماثل في دائرة نائب الملك في الهند . ومن بعد ذلك اوفدت الى البصرة للافادة من خبرتها بالنسبة ل (الحملة الاستكشافية البريطانية في بلاد ما بين النهرين) فانضمت الى (شعبة الاستخبارات) ثم الى دائرة الضابط السياسي الرئيس: سربرسي كوكس . ولقد اعدت (مس بيل) مرجعا جغرافيا ، على الطريقة الالفبائية ، لقبائل الفرات لمصلحة الاحتلال البريطاني . كما اعدت ما يشبه الفهرست بتراجم جميع وجهاء العرب في البلاد وساعدها على ذلك (الحكام السياسيون) . وكانت (الادارة المدنية البريطانية) تركن اليه كما كان يركن اليه (المندوبون الساميون) الذين تعاقبوا في العراق خلال عهد (الانتداب) .

[المترجم]

القادمين الجدد ، وكسب ثقتهم • لقد كان الجنود يأتون من قرى نائية لم يسبق أن زارها انكليزي طوال سنوات ، ويتكلّمون بلهجات لا يفهمها حتى الضباط الهنود ، لذلك لم يكن صهرهم في بودقة الجيش أمرا يسيرا ، وعندما كانت تقع ضحايا كبيرة لم تكن البقية الباقية منهم بقادرة على أن تنشر بين القادمين الجدد الرصيد الثمين وأعني به : روح الجماعة •

ووصلت في آذار الآنسة كرترود بيل ، وكانت بسبيلها من زيارة الهند الى القاهرة ، حيث الحقت بشعبة الاستخبارات • لقد قُدّر لهـا أن تكرّس مواهبها الخارقة ونشاطها الذي لا ينفد ، منذ اللحظة التي وطئت فيهـا قدماها أرض العراق حتى يوم وفاتها ، أي بعـد عشر سنوات ، الى القيام على خدمة الادارات المتعاقبة في بلاد ما بين النهرين • ولم يمض وقت طويل حتى تجلّى لها وللمقر العام في البصرة ان أفضل مكان يمكن أن تستغل فيه مواهبهـا هو دائرة (سر برسي كوكس) وباعتدادها من هيأة موظفيها • وفي تموز الحقت رسميا بالدائرة السياسية • ومضت شهور ، وكنت لا ألقاها خلالها الا ّ قليلا ، ذلك انها كانت تعمل ، في أغلب الوقت ، في (المقر العام) ، حيث كانت تزور سر برسي كوكس ، بين الفينة والفينة ، فتبحث معه شؤون العرب •

وكانت تُعنى ، قبل كل شيء ، بتحليل كدس من التفصيلات المتعلقـة بالشخصيات العربية والعشائرية وتنظيمها ، وهي تفصيلات كانت تنثال على (الادارة المدنية) من كل جهة في العراق • لقد كانت تقوم بفَهرَسة ذلك ، بعد التدقيق المستأني ، واثر محادثات شخصية ، ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، وبذلك كانت تستفيد من نثار المعلومات المتيسِّرة ، « وتكسي العظام لحما طريا » ، وسـدى ذلك كله حماسها الدافق ولُحمته : اسلوبها الرائع (وينفث سحرا بابليـا يراعها) : واتّسمت « مذكراتها الرسمية » بالدّقة والوضوح ، بالاضافة الى روح انثوية • وكان اشفاقها على ضحايا الضرورات العسكرية الملجئة موزون

(٣٠) في الاصل Drafts وهو مصطلح عسكري يراد به جماعات من الجند المستجد •

(المترجم)

بالفطنة ، كما كان غضبها الحق يمزج بروح من المرح ، ولا يفارقها ذلك أبدا •
لقد وضعت في أثناء هذه السنوات أساس نفوذها القوي في المقامات العالية ، وقد نالته ، بعد هذا ، وما كان حديثا يفترى • ولقد مضت شهور ، بل سنوات ، منهكة من المصانعة والمداورة قبل أن تجد (حكومة صاحب الجلالة البريطانية) نفسها قادرة على التفكير في الامور ، فتنفيذ ما يتفق مع رغباتها ، ومنها ماكانت ترفضها (وزارة الحرب)• انها كانت تحتوي هذه الامور وسبّب ذلك لنا عسرا ، ولكنها قبلت به باعتدادها لا معدى عنها • اني لألتذ بذكرى مرحها وبشاشتها وأحمد لها ذلك واقدره • ولقد لازمها المرح والبشاشة ابان المرض وابان الصحة ، وحتى فيما بعد الحرب ، حين تراءى ان جهود سنين وآمال العرب والاصدقاء قد تجرف في تيار الاضطراب الديني والهياج العنصري ، فتذهب أيدي سبا !

ان الاجيال التي كانت في طراوة الشباب والتحقت بـ (الادارة المدنية) لتحمد لها استعدادها لمدّ يد العون لها دوما ، وانها كانت متهيّأة الى الانصات والتعلّم ، والتعليم أيضا ، ذلك ان لها من سعة العقل ما يجعلها تكيّف أفكارها في ضوء الخبرة • وسيذكر من كان منهم أعلى سنا ، وليسوا بأقل تحسّسا ، قلمها السيّال ، ومعلوماتها الثمينة الجمّة ، والعطف البشري الذي كان يغمر حياتها اليومية •

انآخر (مؤلَّف) لها عنبلاد مابين النهرينهوماجادت به على (دائرة المعارف البريطانية) في مجلداتها الاضافية (الطبعة الـ ١٢) ، لكنها اشتهرت عند العارفة الخبيرين بأنها محررة كتاب : (عرض للادارة المدنية في بلاد ما بين النهرين : (Review of Civil Administration in Mesopotamia) المشهور كـ(كتابأزرق) في سنة ١٩٢٠ رسميا • ففي هذا (الكتاب) اطلع الناس ، أول مرة ، على لمع من الجهود الجبارة المبذولة خلال (الهدنة) ، وفيما بعدها ، والتي استهدفت صهر العناصر المتنابذة في الولايات الثلاث لتتبلّور منها دولة منسجمة • انهـا محاولات أسفر نجاحها عن الانبعاث السياسي التالي • ان القراء يعرفونها جيدا

من خـلال (رسائلها : Letters) المنشورة سنة **١٩٢٧** ولقـــد نالت هذه (الرسائل) من الرواج والاعجاب ما تستحقه •

كانت (الآنسة بيل) تكره الاعلام ، كما كانت تجتوي المديح الذي نكثر الجرائد منه ، والذي كان يدور حول نفوذها ومهارتها • ان كل ما كانت تُعنى به هو : الانتاج الخلاّق ، في ميادين الادب ، والثقافة ، والسياسة • لقد تنفّس بها العمر فأدركت العهد الذي كان العراق خلاله يسير على الطريق المؤدي الى تحقيق ما كانت ترجوه له • لست أدري ان كانت أحلام ملائكة السيد المسيح قد راودتها وهي بين مواطنيهـــا في انكلترة ، أو حين كانت تسرح وتمرح في حدائق طهران الغنّ ، وكانت تحبهـا كثيرا[٣١] ، أو كانت تمضي على رمال الجزيرة العربية القفراء ، لكن الذي أدريه انها كانت على استعداد لأن تخدم وطنها والبلد الذي يحتضنها على حد سواء ، وبكفاية وحماس نادرين وثمينين دواما •

وفيما وراء حدود (ولاية البصرة) ، وفي نجد وبلاد فارس ، لم يتأثر مجرى الحوادث ، سنة ١٩١٦ ، بحظوظ المحاربين في (بلاد ما بين النهرين) المختلفة ، وعلى ما كان مأمولا مرتقبا •• ان النبوّءات السود التي سرت في الهند ، وفي (بلادنا) ، والقائلة ان سقوط الكوت سيبعث قلقا خطيرا ، أو ما هو أسوأ من ذلك شأنا ، سيسود العالم الاسلامي ، لم تتحقّق أبدا ، شأنها كشأن النبوءات التي شاعت في أعقـــاب اخـــلاء (غاليبولي) ، سواء بسواء • و لـ (سر ويليم روبرتسن) الحوظة مفحمة قاطعة مفادها : « ان الهيبة ••• في الحرب قد تصير الى روح خبيث ، وتصرف الضعيف عن القيام بما هو حقّ ، أو لعلها تؤدّي لى

---

(٣١) يحتوي كتابها الموسوم بـ (صور فارسية : Persian Pictures) على وصف مشاهد النهضة الفارسية • وان اردت الوقوف على قائمة تامة بما حررته ، فراجع :
(قصائد من ديوان حافظ : الطبعة الثانية سنة ١٩٢٨ •
Poems from the Diwan of Hafiz, 2nd edition, 1928.
[المؤلف]

أسوأ من ذلك ، وأعني به ان تخيفه فتبدّد مجهوده في محاولات خائبة ...
ان الهيبة المصون ، كانت ، في سنوات خلت ، ضرورة لا معدى عنهـا ، لـكن الشـــرقيين اليوم مرهفو الحس ذوو دراية بما يكتنفهم من أوضاع ، ويمكن الوثوق بتقديرهم السليم لأية نكسة ، على أساس قيمتها الحقة . »

ان هذا ، على وجه الدقة ، ما حدث في (بلاد ما بين النهرين) و (الخليج الفارسي) ، والى حدّ أقل ، في فارس . وتراءى ان الرأي العـام في البصرة والعمارة غير متأثر بشيء أبدا ، شأنهما كشأن شرقي الجزيرة العربية ، حيث خلف العقيد هملتن (الذي سما به سلم الرتب فغدا ، بعدئذ ، لورد بيلهافن وستتن) سلفـه : شكسبير ، فمكننا من أن نقف على مجرى الحوادث في نجد ، وفيما وراء نجد ، عن سبيل اقامة نظام استخبارات سياسية منتظمة بارعة كانت الكويت مركزها الحق . وكان (شيخ الكويت) يتمتّع بشيء مما تمتع به أبوه الراحل ، عاطر الذكر ، من شهرة ، وهيبة . كما ان عدم وجـــود القطعات العسكرية فيها ، والسيطرة الحربية ، حملا الاعراب على زيارتها ، وهم ممن كانوا يشفقون من الاختلاف الى الزبير دوما . لقد قصد ابن السعود (الكويت) في تشرين الثاني ١٩١٦ ، وما كانت زيارته هذه لأول مرة ، وكان يروم من ورائها لقاء سر برسي كوكس الذي عقد معه معاهدة (انظر ملحق الكتاب) . وسعى الشيخ خزعل من المحمّرة للسلام عليه ، وعلى غرار ما فعل كبار الشيوخ وذوي السراوة والنعمة في (ولاية البصرة) . ولم يكن من العسير أن يحمل على المضي في سفرته الى البصرة لزورة قصيرة وللتفتيش . ان سر برسي كوكس يسرد هذه الزورة التأريخية سردا موجزا جدا ، ويجعله (لَحَقا) للمجلد الثاني من كتاب المس بيل الموسوم بـ (رسائل) . ومن العجب ، نوعما ، انها لم تكتب عنها شخصيا ، وتسخر لها قلمها السيّال . وابن السعود رجل طَوَال ، مهيب الطلعة ، دقيق الملاحظة ، عظيم الجثة ، ولقد قام بدوره على أتمّ وجه ، فتقبّل التحايا وفتّش وحدات الاسطول وحرس الشرف ، وجال في المسافن . وتجلّت فطنته العاهلية العملية ، فأحدث انطباعات قوية في نفوس من قدم عليه

من أبناء جلدته للتحية ، وفي الضباط الانكليز الذين رافقوه • لقد بدا طوال تلكم الايام (كأسد في الحرب وحملا وديعا في السلم ، وملاكا في ميدان النصح والمشورة)، وعلى ماوجد أسلافه المحاربون اؤلئك الذين عرفتهم (صقلية) في القرن الحادي عشر وأخص منهم بالذكر (ويليم ذا الذراع الحديد)[٣٢]• ان سيرته الحربية لم تعكر بنكران الجميل ، أو الاستبداد والطغيان ، وما كان تَوْق أتباعه للاحتراب ليرين على مُثُل السلام العالية • ان ما أنجزه من سنة ١٩١٤ حتى سنة ١٩٣٠ يبشر بالديمومة والبقاء على حين كانت انجازات منافسيه (الشرفاء)[٣٣] ، عرضا منفضا ومتـاعا زائلا ، كما ان تصالحه مع الملك فيصل سنة ١٩٣٠ لدليل على تمسكه بالسياسة الحكيمة التي دأب عليها منذ تسلّم زمام الحكم •

لقد كانت زيارته البصرة سنة ١٩١٦ في الحق حدثا على حظ كبير من خطر[٣٤] • ولو كانت فاعلياتنا في بلاد العرب لا توجّه ، من مصر ، لافترصنا المناسبة لاحداث توجيه جديد في السياسة • وما كان (عبدالعزيز بن عبدالرحمن ابن فيصل السعود) بمستحدث النعمة ، أو ملكا يعتمد على السلاح البريطـاني لضمان ملكه ، أو الذهب البريطاني لدعم مقامه • لقد ذاق مرارة النفي في بواكير حياته وكان ذلك في الكويت • لقد استعاد ملك أبيه بشجاعته الذاتية وكان ذلك سنة ١٩٠١ • لقد تسلّق ، في هوادي الليل ، أسوار (الرياض) ، ومعه خمسة عشر تابعا مخلصا من أتباعه ، فاستولى على (القلعة) بمجرد أن فتحت أبوابها ، والفجـر ، يتنفّس • لقـد راقب ، خـلال مكوثه في الكويت ، كثـيرا من

---

(٣٢) راجع : Gibbon, Ch. I vi.

[المؤلف]

(٣٣) يريد الملك حسين ، وابناءه ، شرفاء مكة •

[المترجم]

(٣٤) ان وجهة نظـر الـ (جنرال مود) في هـذه وفي قضايا السياسة الاخرى لا تمثل على غير وجه الانصاف في اشارة مزدرية الى زيارة ابن مسعود ، وعلى ما طبعت في الصحيفة ٢٥١ من كتاب (حياته) لـ (كالويل Callwell)

[المؤلف]

أساليب الاتراك ، وسمع كثيرا عمّا كان يدور حول مشاريع السكك الحديد الالمانية[٣٥] ، فأدرك انه ما أن تصل سكة حديد بغداد (الخليج الفارسي) الا تصبح أيامه ، باعتداده عاهلا مستقلا ، معدودة •

وفي أوائل سنة ١٩١٤ انقضّ على (الاحساء) وطرد منها الحامية التركية ، وقبل أن تستطيع هذه الحاميـــة أن تثأر لنفسها وصلت البصرة (الحملـــه الاستكشافية الهندية) ، وكان سر برسي كوكس ، على ما ذكرنا حقا في (الفصل الثاني) من هذا (الكتاب) ، لم يبدد وقتا حين أرسل النقيب شكسبير الى ابن سعود يشجّعه على دعم حركاتنا المنصبّة على احتلال البصرة ، واسناد جنـاحنا الايسر • وكان أن وجده معبئا قواه لمهاجمة غريمه (ابن رشيد) ، وتكادالمعركة أن تنشب بينهما • ومن أسف ان الصدام كان محرجا ممضّا ، وانسحب ابن السعود منه مدحورا مقهورا • وقُتل شكسبير ، ولم يعيّن خلف له • « ولولا هذه الحادثة المؤسفة ، على ما يقول (فيلبي في كتابه ٢١/١) ، « ما استطاع العقيد لورنس أن يفترص المبادأة ويشنّ المعارك الرائعة التي أصبحت بينها وبين اسمه صلة شابكة » ، ولانتزعت من العالم (ملحمة) ، ولوُفّر على (الخزانة البريطانية) مبلغ كبير يعدّ بملايين الباونات الاسترلينية ، ولما نجم أمر (الاسرة الشريفية) ولمع اسمها في حندس الحجاز ، ولما انتزعت من ذراعي الترك ، ذلك ان هذه (الاسرة) كانت تتفاوض[٣٦] معهم بوجه ناشط حتى نيسان سنة ١٩١٦ ؛ ثم

---

(٣٥) نزيد القارىء الكريم علما عن هذه السكة الحديد ذات الخطر الى ما ذكرناه عنها آنفا فنقول : منح امتيازها في سنة ١٨٩٩ وهي السنة التي زار فيها قيصر المانية عاصمة الدولة العثمانية • وعندما نشبت الحرب العظمى الاولى وجد المهندسون القائمون بمدها في جبال طوروس عسرا ، وقد شق النفق الرئيس في هاته الجبال لمرور (السكة) في سنة ١٩١٥ ، وكانت المانية تروم الحصول على موطىء قدم في الكويت باعتدادها افضل نهاية لهذه السكة •

[المترجم]

(٣٦) راجع (جمال باشا) ص٢١٣ •

[المؤلف]

لبقيت (فلسطين) تركية والصهيونية حلما[٣٧] •

وقد نيط بالسلطات العسكرية في مصر ، في الوقت نفسه ، القيام بما يمكن أن تقوم به ، بالتعاون مع ابن سعود ، شـــريطة أن يكون الحظ حليفنا ، وأن تتسم الحكومة الهندية ، على وجه أخص ، بسعة الافق • ومهما يكن من أمر ، ان أبعاد السياسة العربيـــة ليست من شأن هذا (الكتاب) حصرا ، ونحيل (القارىء) ، للوقوف على تفصيلها التام ، الى ما كتبه مستر فيلبي عن سنوات ابن سعود المليئة بالحوادث ، فلقد دوّن صفحاتها على وجه الشمول وبأسلوب السهل الممتنع ، وجاء بعده الرائد جيزمن فدعمها بما هو أخف من ذلك شأنا عندما سرد قصة رحلاته في سبيل الحصول على نماذج من الحيوان •

ولا معدى عن أن نذكر شيئا عن فارس ، التي صيّرها الالمـــان نمطا من ميادين القتال المحايدة • ففي أواخر سنة **١٩١٥** جمعت قوة عدّتها **٨٠٠٠** من « غير النظاميين » و**٣٠٠٠** من الدرك الثائرين من قبل الضباط الالمان في همدان وزوّد آحادها ، بالبندقيات والرشاشات والعتاد الوفير[٣٨] • وزحفت عليها قوة من الروس عدتها **١١٠٠٠** ، بامرة الجنرال باراتوف ، فتمّ احتلالها في الـ **١٥**

---

(٣٧) قلنا : في سنة ١٩٢٢ زار (مستر رمزي مكدونالد) زعيم حزب العمال البريطاني ، عهد ذاك ، فلسطين ولدى وقوفه على أوضاعها المتهافتة كتب مقالا نجتزىء بالاقتباس منه هذه العبارات :

« لقد شجعنا العرب على الثورة بازاء الترك وذلك عن سبيل بذل الوعود لهم بتحقيق حلمهم في انشاء مملكة عربية تضم فلسطين ، وفي الوقت نفسه شجعنا الصهيونية على تقديم المساعدة لنا مقابل اقطاعها فلسطين ••• كما اننا وقعنا ،في الوقت ذاته ،على اتفاق (سايكس ـ بيكو) القاضي بتقسيم (التركة التركية) في الشرق الاوسط • ان من يشاهد منا تطور الحوادث في المنطقـة هذه لا يستطيع أن يقنع نفسه بان العرب سينسون ذلك اللؤم أو سيسامحون ذلك الغـــدر ••• ولو ان الجريمة الخلقية التي اقترفناها يمكن أن تـزول نتائجها على مرور الايام • لقد كان سلوكنا مع المسلمين سلوكا جنونيا » •

و (شهد شاهد من اهلها) فتأمل •

[المترجم]

(٣٨) راجع : Debates, H.C. 15.12.15

[المؤلف]

من كانون الاول • وبعد تأخير طويل ، مرده ، الى حد ما ، الى حال الجو ، ومقاومة الاتراك ، استطاع الجنرال باراتوف أن يحتل (كرند) يوم الـ ١٢ من آذار • وتراءى ان من المحتمل قيام الاتراك بنقل قوات كبيرة للوقوف بوجه هذه القوة الروسية • ولم يستطيعوا ذلك الا بعد سقوط الكوت ، ولم يشعر الجنرال باراتوف بأنه قادر على مهاجمة موضع الاتراك في (خانقين) الا يوم الاول من حزيران • وكان الموضع المذكور محصنا تحصينا قويا ، لذلك اضطر الجنرال باراتوف الى التراجع الى (كرند) ، حيث توقف عندها أياما ، وان بقي على رواندوز مسيطرا • وعلى غير ما كان يتوقع وصلت دورية من (القوزاف) عدتها مئة الى (علي الغربي) ، قادمة من كرمنشاه ، وقاطعة مسافة ٢٠٠ من الاراضي التي ليس فيها من السكان الا النزر القليل • ولم يكن معهم الا عشرة من جياد الحمل ، وعاشوا في البلاد ، يدفعون ثمن ما يحتاجون اليه بأنفسهم • انه لعمل طيب ، ومن أسف ان خيالتنا لم تظهر أقل المقدرة على مثله ، حتى أوشكت الحملة الطويلة على الانتهاء • وكان أن عادوا ، بعد شهر ، الى قطعتهم الرئيسة سالمين ، ومن الطريق ، نفسه ، وقلد سر برسي ليك ضباطهم (الصليب العسكري) • ونيط بالدائرة السياسية الاحتفاء بهم واقامة مأدبة على شرفهم ، مساء اليوم التالي لوصولهم ، وقد قمنا بما يجب علينا في هذه المناسبة • وقد اكتشف في البصرة ان ما لا يقل عن ١٥ ضابطا يتكلمون الروسية وبضمنهم ضابط كبير هو الجنرال اوفلي شور[٣٩] • وقدم كونوف ، وهو روسي على خلق رضي وتاجر صغير ، شرابا ممتازا من (الفودكا) واقترح أن تحوي قائمة الطعام طبخات روسية صرفة ، وأشرف على اعدادها شخصيا • واستعرنا من النقيب نويل ، وهو علامة ضليع في الروسية مجموعة من اسطوانات (الحاكي) سجلت عليها موسيقى قوزاقيه ، ولقد دعي ضيوفنا ، وقد داخلهم العجب واستخفهم الطرب وهم يسمعون أنغام السير (مارش) الخاصة بكتيبتهم • وقمنا بتقديم كل ما يحتاجه الضباط والجنود ، وما كان ذلك أمرا هينا يسيرا • لقد

---

(٣٩) توفي في تشرين الاول سنة ١٩٢٢ •

[المؤلف]

جاؤوا يرتدون ملابس الشتاء وهي من قماش (السرج) الثخين ، وعلى رؤوسهم قبعات من جلد الظأن ، وقد كرهوا نبذها ولبس القبعات الواقية من الشمس • واحتيج الى حصافة مفرزة كبيرة من جنود الانضباط العسكري للحيلولة دون وقوعهم في ورطات ، ابّان اختـــلافهم الى سوق العشّار • لكنهم من الرجال الفرسان الشجعان حقا ولم نمسك يدنا عن أي شيء أرادوه أبدا •

لم تجر أية محاولة ، بقدر ما اتّصل بعلمي ، في باب ، بحث أو ايضاح، العمل المتبادل بين القوات البريطانية والروسية في هذه الجبهة ، وهي ليست من اختصاص هذا (الكتاب) أصلا • ومهما يكن من شيء ، فمن الضروري أن نتبّه على خيبـة الروس في توقيت زحفهم على خانقين ، والتوفيق بينــه وبين ضرورات حركاتنا الجارية على ضفتي دجلة • كان باراتوف ، يوم الـ١٢ من آذار ، في (كرند) ، ولو قام بهجمة ايدة بعـد هذا التأريخ مباشرة ، لاستطاع الاستيلاء على بغداد ، وهي ، على ما علمنا ، كانت واهنة عسكريا • ينضاف الى ذلك ، ان قد كان يعوز الاتراك صنف الخيالة كثيرا • وفي الحق ان ضرر ما قام به الروس في هذه الجبهة كان أكثر من نفعـــه ، ان اخـــذ الأمر بالنظر الى « الشوط البعيد » • لقد نهب الروس في فارس ما تنتجه ؛ وكانوا لا يدفعون لقاء ما يأخذون الاّ نادرا • ولقــد اختــلّ نظـام الجند فيهـا ولا سيما في أواخر سنه ١٩١٦ وكانت تمرداتهم غالبة • لقد وجدنا السكان في أي محل حلّوا فيه صفر اليدين ، ذوي خصاصة ، وتغلي نفوسهم بمرجل الكره والعداء ، غليانا عنيفا • قاسى منهم أهلُ خانقين ، على وجه أخص ، الأمرين خلال سنتي ١٩١٦ و١٩١٧ ، على ان ما قاسوه كان أقل شدة نسبيا مما مُني به أهل القرى الفارسية الكائنة بين قزوين وقصر شيرين • لقد هجموا عليهم كسحب الجراد على النبت العميم (لا تذر من شيء أتت عليه الاّ جعلته كالرميم) • ونهبوا منهم كل قوت لديهم أو اخذ غصبا ، كما استلبت ما عندهم من حيوانات تجرّ الأفدنة وحيوانات النقل والماشية • ومات كثير منهم جوعا ، وعلى الرغم من اننا حاولنا أن ننجدهم في الشهور التي تلت (الهدنة) • وانك لتجد شرحا كاملا لهذه الناحية من نواحي

اجراءاتنا التي تلت عقد الهدنة في محل آخر من هذا (الكتاب) • ونجتزىء فنقول أن مردّ كثير من (كره الغريب : Xenophobia) ، ان لم يكن كله ، الذي ساد ايران في السنوات التي تلت الحرب ، الى المعاملة اللا انسانية المروّعة التي عومل بها الفرس من قبل : الاتراك والالمان والروس ، جميعا • ولم تصلنا الا شكاوى قليلة عن تصرفات جنودنا ، وهذه كانت ، في الغالب ، تافهة • لقد مثلت أدوار وأدوار ، على غرار وصف سر مارك سايكس وذلك بصدد احتلالنا الكوت سنة ١٩١٥ : « وصل جنودنا (البليدة) بمجرد مغادرة الاتراك لها • وكان القائد التركي خلال الاسبوع الاخير يفرض هيبته عن طريق شنق الناس يوميا • ودخل الفاتحون ، وفي غضون ساعة كانت النسوة تبيع في الاسواق الحليب والتمر ، والتجّار يعرضون التعهدات • وجاء الزراع العرب يشكون من ان فارسا جاس خلال حصيلة من الباقلاء • • »

وليست هذه الوجهة الفكرية خاصة بالعرب والفرس الذين جرف بلادهم هذا « التيار » من الحرب ، فالمدوّنات المعاصرة تظهر ان ذلك كان شأن السكان في المانية الشرقية ، وافريقية الجنوبية ــ الغربيــة ، وطوغولاند ، وسُورية وفلسطين ، وهي بلدان ، قلة من كثرة ، كانت تحت سيطرة هــذا الفاتح مرة وتحت فاتح آخر مرة اخرى ؛ وخلال مجرى الحرب كلها • انه لفضل يرد الى أبرز مزايا الانكليزي السوي ــ حب العدالة (كذا ! المترجم) ، ولقــد صور ذلك النقيب نويل ، اثر سماعه لمحادثة عابرة على الطــريق الممتدّة من خانقين الى كرمانشاه ، في لحظة ادلهمّت الامور خلالها بوجهنا في كل ميــدان رئيس من ميادين الحرب • ان هذا هو ما صوّره (النقيب) ودوّنه : « ان خسر الاتراك » ، قال أحد الزوّار ، فستولي الشجاعة من هذه الدنيا الى غير رجعة ، فان خسر الالمان ، ولّى العلم ، وان خسر الانكليز فلن تعرف الدنيا بعد ذلك عدلاً فان صحّ ذلك ، على ما قال (المؤلف) « فسيكون النصر حليف الانكليز ، فالله لن يسمح بذهاب العدل من هذه الدنيا • »

ولم تشهد فارس في سنة ١٩١٦ نصرا حاسما لأية جهة من الجهتــين

المحتربتين • وفي نهاية سنة ١٩١٥ سقطت عشرة فروع ، من بين سبعة عشر فرعا كانت للبانق الشاهنشاهي الايراني في فارس ، وضاع ما ثمنه ١٠٠٠٠٠ من الجنيهات ، وأصبحت كل من كرمانشاه وهمدان وسلطاناباد وأصفهان وشيراز ويزد وكرمان تحت النفوذ الالماني • وطرد القناصل البريطانيون منها ومن لم يؤسّر من الرعايا البريطانيين ، لاذ بالفرار • أما في الجهة الشمالية من ايران ، من الناحية الاخرى ، فقد كان وضع الحلفاء ، قويا ، والفضل في ذلك يرد الى القوات الروسية • وحصل ذلك على الرغم من انها كانت تثير ، على ما ذكرنا آنفا ، تذمّرا ، كان هذا من الجهة السياسية يعادل الفوائد العسكرية المتأتية منها • وما كان مركز الوزير البريطاني سر جارلس مارلنج المعين منذ ١٧ نيسان ١٩١٥ ليحسد عليه •

ان سر برسي سايكس الذي عمدت حكومة الهند عن جهل ، الى ارساله خلال سنة ١٩١٥ الى مسقط ، وصل بندر عباس على (الخليج الفارسي) في آذار سنة ١٩١٦ • لقد كان يرأس بعثة مكلّفة بأن تجند قوة من الفرس عدتها ١١٠٠٠ ، لتحل محل الدرك ، الذين انضم جلّهم ، بتأثير الضبّاط السويديين ، الى العدو لجميع المقاصد العملية ، كما ان البقية الباقية منهم تمزقت أباديد ، لانها لم تحصل على معاشها • وكانت الغاية من هذه القوة أن تحافظ على القانون والنظام بما يضمن مصلحتي الحكومتين : الفارسية والبريطانية • وكانت النية منصرفة الى تشكيل لواء من القوزاق ، بنفس العدد ، يكون مقره في الشمال • كما انه تقرّر الحفاظ على القوتين ، طوال الحرب ، من قبل البريطانيين والروس على التوالي[٤٠] • ويذكر سر برسي سايكس في تأريخه المتعلّق بفارس وبغيرها ابعاد بعثته ، وما أصابته من نجح في حينه على وجه التمام • ولم تصل البعثة عاجلا ، فلو استثنينا ما حقّقه العملاء الالمان في المدن الداخلية على ما أشرنا اليه قبلا ، لقد وقعت حوادث ذوات خطر في الموانيء الفارسية • لقد استطاع العملاء الالمان تحقيق مقتل المعتمد القنصلي البريطاني في (لنكه) وأخويه ، كما تخطّف

---

(٤٠) راجع : Sykes, ii, 452

[المؤلف]


Aliwayzi Abdulrahman
e-books library

و (الاهواز) • وعلى ذلك لم يبقَ جناحا (الحملة الاستكشافية في بلاد ما بين النهرين) ، في فارس وفي بلاد العرب ، مصدري قلق ما ، بتةً • لقد قام (سايكس) ، بما لديه من مصادر ، بالعجائب والاعاجيب ، وكان في مراحل الحملة الاولى يفتقد الجند والمواد ، لكنه ، ما أن أصبح ، في السنة التالية ، تحت سيطرة (القائد العام في الهند) ، بدلا من (دائرة الخارجية) في حكومة الهند ، الا جاء التحسن السريع(٤٢) • وليس معنى ذلك ان (دائرة الخارجية في حكومة الهند) كانت تهمل واجباتها ، لكن معنى ذلك ان (دائرة الجيش) كانت على استعداد ، على ما يحدث في الهند وفي غيرها ، الى مساعدة من يستظلّون بظلّها ، ولا تساعد من ينتمون الى دوائر اخرى •

وما دامت قواتنا تدرك النجح ، فان أوهام الرقابة لم تثر أكثر من قلق محلي • وكان المراقبون في البصرة ، في هذا الوقت عينه ، من الضباط الصغار باستثناء قلة منهم • وكان يعاونهم موظفون عيّنوا محليا • وكانت مخابرات الكتائب تراقب من قبل ضباطها بالطريقة المعتـــادة ، أما مخابرات الضّباط البريطانيين والهنود فكانت تفحص في دائرة (رئيس الرقابة) في البصرة • وكان هناك شعور سائد محصله : ان صغار المقاتلة الضباط يمكن الافادة منهم في غـــير المقرات الثابته ، وان من الضروري الافادة من كبار الموظفين المدنيين ممن ليس لهـم اتصال بأرباب الخطابات لهذه الغاية • لكن شـــعور عدم الرضى ، على ما كان قائما ، لم يكن بأشدّ من نظيره في سوح الحرب الاخرى ، وتحت وطأة الظروف نفسها • وأصبحت الرقابة ، بعد فاجعة الاندحار في (سلمان باك) أشدّ ، وسرعان ما تبيّن انها لم تستخدم للحيلولة دون وصول المعلومات الى العـــدو وانما لمنع وقوف الرأي العام ، في الهند وفي انكلترة على حال الشقاء المروّع التي كانت قطعاتنا تئن تحتها •

ووصل الراحل (ادمند كاندلر) البصرة بوصفه (شاهد عيان رسمي :

---

(٤٢) راجع : Cd 8610, p. 128

[المؤلف]

Official Eye-Witness) يوم الـ ٣١ من كانون الاول سنة ١٩١٥ ، وسرعان ما غدا على ما قال :

« عقيل اللسان بعقلـــة الحكمة البصيرة • فالغموض هو العرف الجاري والرقابة تراءت كمستنبت للمزاعم اليسيرة ، وليست تغطية ما كنا عليه ، لئـلا تقع عيون الاتراك عليه ، واستمرت الحال على هذا المنوال حتى عندما كان كل شيء يجري رخاءا • ان المؤسّسة التي كان اللعن ينثال عليها بشدة هي دائرة الرقابة في بلاد ما بين النهرين • فالضابط الذي يقدم البلد ، ويجد هذه الشبكة من التجسس حوله ، يشعر بأنه واقع في شراك • لقد كان من العسير أن يتّصل المرء بالعالم الخارجي • وكان كل شيء يسير على الوجه السيىء • ان هــذه الرقابة الصاخبة المتخبّطة ، وان هذا الاشفاق من اعلان أي شيء صحيح ، لم يؤديا الى زيادة ثقة المرء بالقيادة العليا • • »

ان (الرقابة) لم تكن تستخدم للحيلولة دون بلوغ الحقائق الى العـدو قدر استخدامها في احداث انطباعات في من في بلادنا ، انهـا لانطباعات مزيّفة حقا • وروقبت رسائل (شاهد العيان الرسمي) ثلاث مرات ـ في الميدان وفي البصرة وفي الهند ، قبل أن تصل (لندن) ، حيث جرى فحصها مجدّدا • ان تعبير (العربي الصديق) بعث تحذيرا يحدو على عدم استعماله مقلوبا وبحيث يتضمّن ان العرب جميعا ليسوا أصدقاء • وعندما قتل جرحانا ، ونُبشت قبور موتانا على يد العرب ، صُنّف ذلـك على انـه من صنيع (الـكرد وغيرهم) و (الغوّارة الذين تدفع لهم تركية عن ذلك أجـــرا » • وما كانت (الدائرة السياسية) مسؤولة عن تلطيف مثل هذه التعابير بأي وجه من الوجوه ، ولم يطلب أحد منا مشورة حولها • وكان العالم واقفا على الحقيقة بأكثر من وقوف الجرائد الانكليزية والهندية عليهـــا ، اذ ما كان يسمح بنشرها أو أن تقوم الجرائد المذكورة باستخلاص ما تراه منها • وكانت النتيجة الحتمية لذلك ان أخبار الحلفاء ، الواردة من جبهة القتال في فرنسة ، اعتبرت أفضل من مثيلاتها المتسرّبة من الدول المركزية ، على حين كان ما يرد من بلاد ما بين النهـرين

لا يصدّق بل يعتدّه السامع حديثا دبر اذنيه ، مفترى • وعلى ذلك شاعت الاشاعات وراجت •

وعلى الرغم من ان (مجلس الجيش) أقرّ في تموز سنة **١٩١٧** : « أن تحتوي النشرات الصحفية المتصلـــة بالحركات العسكرية ، ان أمكن ، أسماء الكتائب التي برزت في الحركات الفعلية ، الاّ ان ذلك لم يسمح به في (بلاد ما بين النهرين)[٤٣] • لقد رأى (شاهد العيان الرسمي) الشقاء المتزايد المسبب عن البرد والجوع ، والعطش ، والعراء والاهمال الذي ما وراءه من اهمال • لقد شهد جنودا وردوا العمارة ، غير مطعمين وغير معني بهم ، عليهم مسحة من شغوف الهم ، وشحوب الالم ، وعلى جسومهم قروح ، ومنهم من يوشك أن يلفظ النفس الاخير • ان ضمادات الميدان التي مضى على تضميدهم بها مدة ثمانية أيام لم تغيّر ، وان جراحهم متقيّحة والاوساخ التي عليها لا سبيل الى وصفها أو نشرها • لقد أبرق الى الهند وانكلترة يرجو ارسال وسائل « راحة صحية لا الضرورات الطبية اللازمة للقطعات • ووضعت (الرقابة) يدها على برقيتـــه فأرقدتها وعطلتها ، وما كان ذلك في الهند أو لندن ، على التحقيق ، وانما كان ذلك في البصرة • وقدّمت في (البرلمـــان)[٤٤] احتجاجات ، وطلب مستر جي لامبرت « تعيين التبعة وعلى من تقع » •

ما نوع المعلومات التي تردنا من بلاد ما بين النهرين ؟ اني لاقرأ هذا الصباح ما كتبه مراسل منها : « وثمة قارب ملائم لدجلة هو (قفّة بغداد) ، ولعله أقدم القوارب طرّا » •

---

(٤٣) عندما كان (صليب فيكتورية) ينال في فرنسة كان يذاع (المحل) ، وعندما كان ينال في (بلاد ما بين النهرين) في سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٧ كانت تغفل اية اشارة الى (المحل) عند نشر ذلك في (لندن غازيت) • ولم يكن ليمارس مثل هذا الخطل في أي ميدان آخر من ميادين الحرب •
[المؤلف]

(٤٤) راجع :
Debates, H.C., 14.3.16
[المؤلف]

ان هذا لهو نوع الموفدين الى هنا ، من هناك ، رسميا • اننا لا نريد أن نعلم شيئا عن وسائل النقل العتيقة هذه • نريد أن نعلم كيف هي صحة جرحانا ، وهل حالهم في تقدّم ؟• »

كانت الخطابات المرسلة الى أعضاء البرلمان خاضعة ، في هذا الوقت عينه ، للرقابة في البصرة خضوعا قاسيا(٤٥) بخاصة ، واستمر ذلك شهورا • وما كان الضباط العاملون في (المقرّ العام) ، على كل حال ، ليريدوا الاصغاء الى التمرمر الذي لم يكن شائعا مسموعا في بلاد ما بين النهرين ، بأقلّ من (بلادنا) • وكان كل من سرجون نيكسون و سر برسي ليـــك يقضيان أغلب الوقت في الشمال وما كانا ليستطيعان السيطرة على ما يجرى في (القاعدة) • وسُمعت بذاءات ، وأخذ (الرقباء) يضعون على هوامش الرسائل الشخصية عبارات هازلة ، تتصل بشؤون الافراد الوثيقة الشخصية • ومنذ أن تهاوت الحال الصحية منع ارسال الخطابات الى انكلترة ، الاّ اذ كتبت على بطاقات مطبوعة ، وما كان من هذه في الجبهة الاّ القليل ، ولعلها كانت مفقودة أيضا ، وذلك على الرغم من ان (المطبعة) الكائنة في البصرة تستطيع أن تطبع منها الملايين • وكان تأخير البريد يحزّ في قلوب الجنود الموجودين على ضفاف دجلة • وكانت شؤون البريد على العموم مصرّفه على الوجه الرائع ، لكن موظفيه المعارين من (دائرة البريد الهندية) وجدوا أنفسهم مُحْرَجين بسبب مئات من الوحدات الجديدة ، ثم دهمتهم ، بعد ذلك ، فقدان وسائل النقل في جميع الاوقات • وتكدّست حقائب البريد في (القاعدة) وعدّتها بالآلاف • ومن كان في المستشفيات أو يتخذ سبيله الى الهند من الجنود لم يكن ليحظى برسائله غالبا ، طَوال شهور • وأعتقد ان (المقر العام) لم يكن واقفا على حدة شعور هؤلاء الجنود ، لا سيما من كان منهم منتسبا الى الوحدات (الاقليمية) ، والاّ قاموا بأكثر مما كان يقوم به(٤٦) •

---

(٤٥) راجع : Debates, H.C., 18.7.16
[المؤلف]

(٤٦) راجع : Debates, H.C. 18.10.16. Sams, and Sen.
(المؤلف)

وبلغ الامر القمة وأوفى على الذروة عندما وجد (قائد الجيش) على منضدته صباح ذات يوم مقتطفات من سلسلة من الرسائل كتبها قواد الفرق الموجودون في الجبهة الى ذوي قرباهم وصدقانهم ممن هم في المناصب الرفيعة في انكلترة ، ويطلب منه أن يوبخ بعض الضباط الكبار جدا لانهم تجاسروا فتلصّصوا على حطاباتهم الشخصية التي انتقدوا فيها رؤساءهم . وكان هذا آخر الامر ، اذ اندلعت لهب التذمر الحارقة لئلا تتكرر مثل هذه الجريمة مرة اخرى . ومما لا شك فيه ان مثل هذه أثرت كثيرا في معنويات الجنود[٤٧] . وان آراء (الجنرال مود) التي ضمّنها خطاب أرسله الى انكلترة تستأهل الاقتباس مفصلا :

« ان الذي يجعل أنفسنا ترفض بالألم ويوقد في صدورنا الغضب ، هو وجود الرقابة العارمة هاهنا . اننا ممن جاء من فرنسة والدردنيل حيث الرقابة معقولة شديدة ، ومن دون سرف أو شطط . وعلى سبيل المثال ، قيل لنا قبل مدة قصيرة انه لا يسمح بأية اشارة الى حركات ما بين النهرين . لقد كتبت ابين ان هذا لهو الضلال المبين ، وان ذلك يجب أن يقصر على الحركات الجارية ، أو التي ستجرى في المستقبل ، لا الحركات التي جرت في الماضي ، لكن الجواب الذي وردني كان ينصبّ على منع ذكر الحركات السابقة أيضا . ان تعليمات (وزارة الحرب) في هذه النقطة واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ، وليس فيها ، شيء من هذا القبيل ... من الغريب أن يتراءى ان ضابطا قائدا لا يوثق به ، بقدر تعلق الامر بالافادة من حصافته في القول أو في الامتناع عن القول ... »[٤٨]

ان الدرس الذي يمكن أن يستنتج من مثل هذه الحقائق هو : ان (رقابة

---

(٤٧) راجع :

Mesopotamia Commission

(المؤلف)

(٤٨) راجع :

Callwell, p. 202.

(المؤلف)

قوة الميدان) يجب أن تنظّم على أساس كونها مستقلة ، وتحت اشراف الحكومة القائمة ، ولها وزير خاص مسؤول تجاه (البرلمان) • ان الأخذ بهذا المبـــدأ في بلادنا صيّر الرقابة أمرا يُطاق ويحتمل ، وكان من الواجب أن يوسع ذلك ليشمل جميع سوح القتال •

وساد السلام ، طوال السنة ، أرض (عربستان) الفارسية ، وهو صقع يتاخم ولاية البصرة • وكانت هناك حامية حسنة في الاهواز ، كما كان هنـاك (موقع ستر : Out-Post) في السوس (شوشان القصر) المذكور في (سفر أستير)• ولم يحدث في حقول النفط ما يبعث في القلب اضطرابا ومشغلة • ان المحادثات السياسية المتصلة بشؤون (شركة النفط الفارسية ـ الانكليزية المحدودة) كانت تدار بكفاية من قبل دكتور يونك الذي تعادلت شهرته كطبيب وجراح وشهرته كمشاور ذي ذهن متصرّف مرن ومفاوض عادل صبور ، فهما بمنزلة سواء • وكان يُخيل لخليل باشا ، وهو جالس ببغداد ، انه نابليون آخر ، فيضع خططا خيالية ترتكن الى الاتحاد الديني ـ السياسي الذي يؤمّل أن يضم البلدان الاسلاميـــة ، وارسال قوة الى فارس تستولي على آبار النفط وتهاجم البصرة و (بوشهر) ، وحتى الهند • لكنه لم يشجّع من قبل الحوادث التي جرت في الجنوب ـ الغـربي من فارس • وبقي (والي بشته كوه) المحارب القـــديم ، على الحياد وفوق ماجريات الامور ؛ يعطف على أهداف الطرفين كثيرا • وكان (اللر)[٤٩] يجدون الربح في العمل في (فيالق العمال الفرس) في البصرة ، وبأكثر من الربح المتأتي عن غزو جيرانهم • ولم يسمح (الخانات البختيارية) بأن تؤثر خلافاتهم الداخلية في سلامة آبار النفط ، وكان (النقيب نويل) يناهض فاعليات الجواسيس الالمان وغيرهم ممن كان مقرهم أصفهان • ان نشاط هــذا

(٤٩) (لر ـ لور) من الكرد ، وعلى ما يذهب اليه (سبايزر) كان اسما نوعا من الكاسيين ثم صار علما عليه كله • وينقسم الـ (لر) الى أربعة أقسام (١) الفيلي (٢) الماماساني (٣) الكوه كلوبي و (٤) البختياري • والفيليه يعترفون بكرديتهم من دون ريب •

(المترجم)

(ألنقيب) الذي لا ينفد ، وحركاته السريعة ، جعلت اسمه يطير كل مطـــار ، ويتردد صداه في وادي نهر كارون •

وفي مرة واحدة تراءى ان العنصر الممالىء للالمان من (الخانات البختيارية) قد تكون له اليد العليا • كان ذلك خلال شهر آب ، لذلك جرى تعزيز الحامية الموجودة في الاهواز • لكن التهديد لم يسفر عن شيء ذي بال وبقي السلام مستتبا • وكن في دزفول (سون . Soane) ، وهو من ألمع الشخصيات التي أسعفني الحظ بمعرفتها ، يقوم على حفظ الامن وقمع فاعليات العدو • لقد كتبت في سيرته وضمنتها (مقدمة الطبعة الثانية) من كتابه النابه الذكر الصـــادر سـنة ١٩١٢ والموســوم بـ (خلــل ما بين النهــرين وكردستان مقنّعـا : Through Mesopotamia and Kurdistan in Disguise) وقد سجل له سر برسي كوكس تقديرا عما قام به[٥١] • لقد كان لغويا ماهرا ذا كفاية خارقة ، وهو الشخص الوحيد الذي عرفته قادرا على أن يعيش بين الفرس ناجحا ومقنّعـا بقناع فارسي • لقد حل في بلاد فارس منذ سنة ١٩٠٢ ، وعمل في (بانك فارس) و (شركة النفط الانكليزية ـ الفارسية) ، وفي سنة ١٩٠٥ اعتنق الدين الاسلامي • جول في بلاد كردستان الجنوبية وطوف كثيرا وألّف في سنة ١٩٠٩ مرشـدا عنها ثبت انه دقيق وصحيح جدا • وعند اندلاع لهيب الحرب كان (سون) يعمل في شركة النفط الانكليزية ـ الفارسية في بغداد ، وقد نفاه الاتراك الى (مرسين) ، ومنها اتخذ سبيله مع غيره من الاوربيين الى مصر ؟ ثم عاد سريعا الى الخليج الفارسي ، وبعد فترة قصيرة من العمل في شعبة الاستخبارات والقيام بتحرير جريدة (بصرة تايمس) أرسل الى (البختيارية) « للوقوف على بعض

---

(٥٠) لـ (المؤلف) نفســه بحث عن (الخانات البختيــارية) نشـره في مجلة (جمعية اسيه الوسطى) سنة ١٩٢٦ فليرجع اليه من يريد عنهم تفصيلا (المترجم)

(٥١) راجع : Bell, 11, 512.

(المؤلف)

موفدي العدو واخفات أصواتهم » على ما ورد في تعبير رسمي • واستطاع أن ينجح في هذه المهمة بعون من ستة أحراس شداد فرس فعيّن سنة ١٩١٦ في منصب (نائب القنصل البريطاني في دزفول) • وبصدد ما قام به من عمل في هذه المدينة يكفي أن نقول انه بعد عشر سنوات بقي اسمه يتردد على الألسنة ويذكرها أهلها في أحاديثهم • ان شجاعته ومعرفته لغة القوم وعاداتهم وقابليته الادارية كل اوائك ترك انطباعا لا يُمحى خلال هذا الجيل ابدا •

ولدى زيارتي الاخيرة لوالي (دزفول) ، وهو من عرف المدينة قديما . قال لي : انه وان لم يعرف (سون) شخصيا الا انـــه يعتقد ان الرجل قام في سنة ما حاول جميع الولاة الفرس القيام به وصرفوا في سبيل ذلك السنين • لقد هدّ من قوة زعماء الكتل التي كانت تقسّم المدينة ، وضمن الاحترام اللازم لوكلاء المالية الفارسية ، وطبّق نظاما صحيحا سديدا وعمّر الجسر الساساني الخرب ـ كل ذلك دون أن تتكبّد الخزانتان : الفارسية والبريطانية شيئا • وكان عنده نظام رائع من أنظمة التجسس نفذت شبكته الى كرمانشاه وبغداد ، فاستفاد منه الجيش فائدة عظيمة • ان نشاطه التالي في خانقين والسليمانية مذكور في محل آخر من هذا (الكتاب) •

وليس ما قام به خلفه (النقيب ادموندس) بأقل من ذلك شأنا • انه اليوم (١٩٣٠) أحد مستشاري الحكومة العراقية ، وهو من الذين وسّعوا من نظام سون (وان لم يأخذ بطرائقه) حتى بلغ (شوشتر) ، وقد سعى الى فتح طريق تجاري من دزفول الى (بروجرد) • ان هذا المشروع في مثل ذلك الوقت من أهم الامور ، فطريق خانقين ـ كرمانشاه كان مزدحما بالنقليات العسكرية كما كانت فارس الوسطى بحاجة الى الواردات ، وفقدانها جعـــل النقود في بعض الاوقات غير ذات جدوى • وخلف ادموندس ضابط على حظ نادر من كفاية هو : النقيب كرين هاوس • حمدا لهما وشكرانا اذ لم تعد فارس الجنوبية ـ الغربية ، بعد نيسان ١٩١٥ ، مصدر قلق وخطر بالنسبة الينا ، أبدا •

الفصل الحادي عشر[1]

لجنـــة ما بين النهريـــن

يجب الا يتصور كم من خدمة تتبدد من نفوس مترعة بالفاعلية والايد ... نفوس من يصرون على العمل ويندفعون قدما تلقاء مشـاريع رئيسـة عظيمة ، عندما نضطرهم دوما على النظر الى وراء . وعلى حين نجدهم يدافعون عن خدمة ما ، تراهم يحتالون عليك في مئات . اهتفوا لنا حين نغذ السير وواسونا حين نهوى ، صفقوا لنا حين ننهض من كبوتنا ، لكن دعونا نمضي قدما ــ دعونا نسير ان كنتم تنشدون من الباري الرضى . » بيرك ، برستول ، سنة ١٧٨٠ (كتابه الموسوم ب : تواليف ١ : ص ٢٥٧) .

التزمت كل من (حكومة الهند) و (مقر الجيش العام في الهند) ، و (هيأة الاركان العامة في بلاد ما بين النهرين) ، والاخيرة الى أقل من الجهتين السابقتين حدا ، وحتى آخر اللحظات مددا ، «عقدة النعامة»[2] ، ولم تسفر جميع محاولاتها ، ومحاولات الرقابـة العسكريـة ، عن شيء يصمد بازاء عاصـف الغضب المجفال[3] الذي هب من بلادنا حين أخذت الحقيقة المرة تتجلى رويدا رويدا ، وما ان اقترح (سر ويليم روبرتسن)[4] ، رئيس أركان الانبراطوريه العامة ، نقل تبعة (الحملة الاستكشافية في بلاد ما بين النهرين) من (حكومة الهند) الى (الحكومة الانكليزية) الا وافقت (وزارة الحرب) على مقترحه ، وذلك اثر استشارة كل من (حكومة الهند) و (وزارة الهند) وموافقتهما . وحاولت حكومة الهند ان تصد سيل النقد الجارف الى حـد ما ، بتعيين « لجنة » ، يدعوها وزير الخارجية[5] بتأريخ اذار سنة ١٩١٦ ، مؤلفة من

---

(١) مراجع الفصل :

Official History, Critical Study. Official Medical History, Robertson. (المؤلف)

(٢) فى الاصل Ostrich complex ، **والمراد منه التغافل عن الخطر الدائم** والواقع (المترجم) .

(٣) المجفال من الريح هى السريعة التى تجفل السحب .

(٤) راجع : Robertson, p. 259. (المؤلف)

(٥) راجع : Debates, H.C. 30.5.16 (المؤلف)

عضو ممتاز جدا يُصطفى من الخدمة المدنية الهندية ـ وكان العضو هذا هو : سر ويليم فنسنت ـ ، ومن ضابط قائد ذي خبرة ادارية طويلة في مقرّات الجيش العامة في الهند ـ وكان (اللواء بنكلي) هو المختار ـ وكلاهما عُيّن من قبل القائد العام في الهند • ان مهمة اللجنة هي « التحقيق في الترتيبات الطبية في بلاد ما بين النهرين ، خلال شهر كانون الثاني سنة ١٩١٦ وما بعده ، وتقديم نتائج التحقيق الى رئيس أركان الجيش • •

بعد أن عمل عضوا للجنة في بلاد ما بين النهرين مدة أسابيع وانعما النظر في كثير من الشهادات المهمة ، وعز (وزير الهند) الى (الحكومة الهندية) بان يُجرى توسيع في التحقيق ، اذ شعر بان القيام به ، على وجه محدود ، لن يسفر عنه شيء ذو بال • لذلك دعي (مستر ردزديل)[٦] (سراورليان ردزديل فيما بعد) ، وهو مفوّض من (جمعية الصليب الاحمر) ، من قبل (نائب الملك في الهند) للانضمام الى (اللجنة) كما وسّعت صلاحياتها بحيث ضمّت جميع الترتيبات التي اتخذت في سبيل جمع المرضى والجرحى ومعالجتهم ونقلهم ، وذلك منذ بدء (الحملة) • على ان (اللجنة) احتفظت بطابعها المحلي ؛ وذلك على الرغم من الايعاز اليها بتقديم تقريرها الى (وزير الجيش) بدلا من تقديمه الى (رئيس أركان الجيش) • وفي نهاية حزيران كان تقرير (اللجنة) ، وهو وثيقة شامله متقنة ، بيد حكومة الهند ، لكنه لم ينشر حالا[٧] • وتتابعت الحوادث في انكلترة مسرعة ، وحز في نفس الرأي العام كثيرا ، لان النجاح لم يحالفنا ولاننا تكبدنا كثيرا من الضحايا سواء في (شبه جزيرة غاليبولى) أم في (بلاد مابين النهرين) ، فقررت حكومة (اسكويث) ان تجري ، على اساس من سابقة سنة ١٨٥٦ ، فتؤلف لجنة للتحقيق في امر الحركات التي جرت في الميدانين المذكورين ، وفي طريقة تزويدهما بالقفلات ، والنجدات ، والعتاد ، والتجهيزات سواء أكان ذلك الى الجيوش أم الى الاسطول ، وما اتخذ

---

(٦) قضى نحبه فى ايلول سنة ١٩٢٣ (المؤلف) •

(٧) **نشر اخيرا ك (ملحق) ل (تقرير لجنة ما بين النهرين:** Cd 8610 (المؤلف)

بحق المرضى والجرحى من اجراءات ، وفي تبعة الدوائر التي نيط بها تلبية طلبات القوات العاملة في ساحة الحرب هذه • وكان قرارا شجاعا مقداما ذلك انه كان يعتدّ بمصير الحكومات البريطانية السابقة التي وافقت ، في أثناء الحرب ، على تأليف لجان وتقديم تقارير تتصّل بالقضايا المتعلقة بالشؤون التنفيذية • واذا ما اخذ بنظر الاعتبار حال الشعور السائد الضاغط يومذاك ، داخل مجلس العموم وخارجه ، يتبيّن ان هذا هو النوع الميسور المباشر من أنواع التحقيق الذي يمكن اصطناعه لتهدئة الرأي العام (والضغط آخره انفجار) • وشرّع قانون اللجنة الخاصة بالدردنيل وبلاد ما بين النهرين لسنة ١٩١٦ في آب من السنة نفسها وعيّن اعضاؤها[٨] على الوجه التالي :

- لورد جورج هملتون (رئيسا) •
- ايرل دونومور - عضوا
- لورد هيوسيسيل (النائب في مجلس العموم البريطاني) - عضوا
- سر أ• ويليمسون (النائب في مجلس العموم البريطاني) - عضوا
- مستر جون هودج (النائب في مجلس العموم البريطاني) - عضوا
- الكوماندر جوشيا ودجوود (النائب في مجلس العموم البريطاني) - عضوا
- الاميرال سر سيبريان بردج (النائب في مجلس العموم البريطانى) - عضوا
- الجنرال سرنيفيل ليتلتون (النائب في مجلس العموم البريطاني) - عضوا

كانت (اللجنة) قوية ، وهي ، في كثير من الوجوه ، ملائمة للقصد المتوخّى من تأليفها • فال (لورد جورج هملتون) كان وزير دولة مولجا بشؤون الهند ، فيما مضى ، كما كان الاميرال (سر بريان بردج) مديرا

(٨) كان رشح ال (لورد كرومر) أصلا لكن صحته لم تسعفه للقيام بالخدمة • ومات ال (لورد جورج هملتون) فى ٧ ايلول سنة ١٩٢٧ ، و (سر سبريان بردج) فى آب سنة ١٩٢٤ (المؤلف) •

للاستخبارات البحرية فيما سلف من زمان ، اما ال (كوماندر جوشيا ودجوود) ، الذي ضُم الى (اللجنة) ، بتصويت مباشر جرى في مجلس العموم ، فلقد شهد قتالا ذا منايا رواعد عظيم القدر • وكان ال (جنرال سر نيفيل ليتلتون) أول رئيس للاركان العامة أيام حكم ارنولد ـ فورستر سنة ١٩٠٤ ، وبهذه الصفة سجلّ عدم موافقته على اجراء تغييرات كاسحة في تنظيم الجيش في الهند ، على ما اقترحه ال (لورد كجنر) • لقد سجلّ رأيه عن النكسات التي حدثت في (بلاد ما بين النهرين) وارجع حلهًا الى الهنــات التي تعتــور خطط ال (لورد) المذكور • ولم يكن ال (لورد كرزن) معارضها الوحيد ، وانما كان الرأي العسكري في انكلترة[٩] يعارضها أيضا • والنقد الوحيد المعقول الذي يمكن ان يوجّه الى اختيار اعضاء (اللجنة) هو انه لم يكن بينهم من له دربة قضائية أو خبرة ، كما لم يكن من بينهم من له معرفة عملية حديثــة بالشؤون الادارية والعسكرية في الهند • لقد كتب ال (لورد جورج هملتون) كتابا الى (جريدة التايمس) أخيرا ، موضّحا انه لم يقبل "لواجب الا" لان ذلك يتفادى ، على ما يعلم ، ازمة سياسية ، فنشرته الجريدة المذكورة في عددهـا الصادر بتأريخ ١٦ تموز سنة ١٩١٧ •

وعيّن سر جارلس مونرو[١٠] قائدا عاما في الهند ، خلفا ل (سر بيجم دف) الذي استدُعي للادلاء صوريا بشهادة •

لقد استمعت (اللجنة) الى مئة شهادة تمثّل كل وجهات القضية تقريبا ، ودرستها، لكنها لم تدرس أمر (مدير الميرة في الهند)، أو خصب أي ضابط في دائرته، ومردّ تبعة جميع ترتيبات النقل اليه ، واليهم • لقد استمعت (اللجنة) الى الشهادات ، بعد تحليف الشهود ، لكنها لم تتبع الاصول المرعيّة في تدوين الشهادات • ورغبة في تفادى الكلفة وتجنّبا للتأخير لم تزر (اللجنة) بلاد ما بين النهرين ، أو الهند • ولم تخوّل (اللجنة) ، وما كان في الامكان ان

---

(٩) : Lyttelton, pp. 275, 304. (المؤلف)

(١٠) توفى فى كانون الاول ١٩٢٩ (المؤلف) •

تخوّل ، اصدار حكم نهائي بصدد تصرّف الافراد ، سواء كانوا عسكريين أم مدنيين ، ذلك ان واجبها الرئيس هو أن تقضي في سلوك الجهات العليا . لذلك رأت (اللجنة) ارسال جميع ما يتصل بالضباط الذين هم أقل من قوّاد الفرق مرتبة الى (وزارة الحرب) ، وهذه لا تستطيع اتخاذ أيّ اجراء قبل أن تفرغ (اللجنة) من مهمتها . ولم يُمثّل أيُ شخص ممن عُنيت به (اللجنة) من قبل محام ، لقد طمئنوا ، بموجب القانون ، الى انهم لو ابرزوا مستندات تساعد التحقيق ، ويحتمل ان تدينهم ، أو اجابوا عن اسئلة تجرمهم ، فان هذه لن تتخذ (بيّنة) عليهم في أية مرافعة قابلة . وقُدّم (التقرير) يوم الـ ١٧ من ايار سنة ١٩١٧ موقّعا عليه من قبل أعضاء (اللجنة) جميعا ، فيما خلال الـ (كوماندر جوشيا وجوود) الذي جعل له لَحقًا خاصا .

واليك خلاصة عما توصلّت اليه اللجنة من نتائج :

١ ــ « ان تقسيم التبعة بين (وزارة الهند) و (الحكومة الهندية) على أساس اضطلاع الاولى بوضع الخطة والثانية بادارة شؤون الحملة كان امرا غير عملي في مثل تلك الظروف . ان وزير الدولة الذي كان يسيطر على وضع الخطة لم يكن ليثق بقدرة الحملة على تنفيذها . ان حكومة الهند التي كانت تصرّف شؤون الحملة لم تقرن تطوير الخطة بالاستعدادات اللازمة لها ، وحتى عندما كانت الحكومة نفسها تقترح اجراءا تطويريا . »

٢ ــ ان مدى هدف (الحملة) لم يعيّن بوضوح كاف مسبقا[11] ، لكي تكون كل حركة مقبلة جزءا من خطة حصيفة ناضجة . »

٣ ــ ان المحاولة التي جرت في الهند وانصبّت على تنظيم حاجات الحملة والسيطرة عليها من (سملا) كانت خطاءاً اداريا ، وكان من اللازم أن يستقرّ في بومبي ممثلو (المقر العام) بعد منحهم سلطات واسعة . ان بومبي هي ميناء

(١١) قلنا : كانت بريطانية تعتدّ (بلاد ما بين النهرين) امتدادا تجاريا لمصالحها في الخليج وقد قال الـ (لورد كرزن) في سنة ١٨٩٢ : « ان بغداد تقع في صنف موانىء الخليج » الا يعتدّ هذا من اهداف (الحملة) . (المترجم)

يساهر منها الى بلاد ما بين النهرين ، واليها •

٤ ـ كان على القائد العام أو ممثليه ، بوصفهم ضباط ارتباط ، ان يزوروا بلاد ما بين النهرين من حين وحين وذلك لكي يكون (المقر العام) مطلعا على حاجات (الحملة) متصلا بها • وكنتيجة لانعدام هذا الاتصال لم تكن السلطات العسكرية في (سملا) مدركة ، أو مقدّرة ، الصعوبات التي تكتنف القتال في بلاد ما بين النهرين ، وجهلها هو الذي سبّب عدم التغلّب على المصاعب ، وتفادي الاخفاق والخيبة •

٥ ـ كان الزحف على بغداد ، تحت وطأة الظروف القائمة في تشرين الاول سنة ١٩١٥ ، حركة هجوم مبنيّة على حساب خاطىء ، من الوجهتين السياسية والعسكرية • لقد جرى ذلك بجنـود متعبين غير كافين ، وكانت الاستعدادات غير وافية أيضا •

٦ ـ ان اثقل التبعات تقع على عاتق سر جون نيكسون ، ذلك ان تفاؤله المطمئن هو السبب الرئيس في اتخاذ قرار الزحف • اما الاشخاص المسؤولون الآخرون فهم : في الهند ، نائب الملك (لورد هاردنك) والقائد العام (سر بيجم دف) ، وفي انكلترة (السكرتير العسكري في وزارة الهند : سر ادموند بارو) ووزير الدولة المولج بشؤون الهنـد (مستر اوستن جمبرلن) ، و (اللجنة العسكرية في الوزارة) •

٧ ـ ان المستشارين الخبراء في الحكومة ، ممن استشيروا ، ايّدوا الزحف أيضا ، وعليهم تقع تبعة المشورة التي اصدرها • الا ان الاوراق التي قُدّمت الينا توحي بأن موافقة الخبراء البحريين والعسكريين كانت على مضض ، ولعلها مسبّبة ، الى حد ما ، عن الرغبة الطبيعية في عدم خذلان الامال التي كانت تعلقها الحكومة على الوضع العام • ومهما تكن الحال ، ان الخبراء العارفين ببواطن الامور ما كانوا يوقّعون نجوم صعوبات ، خلال الزحف على بغداد ، بل وعند الحفاظ عليها •

٨ ـ كان التسليح ، والتجهيز ، على العموم ، متّسقين مع حملة حدود هنديه ، وما كانا بكافيين لحملة ما بين النهرين ابدا • ان هذه الهنات هي نتيجـة

طبيعة لسياسة الخفض العفوية التي جرى عليها حكام الهند ، قبل الحرب ، وطوال سنوات • لقد كانت هذه السياسة موعز بها من قبل حكومة انكلترة ، ومحصلها : ان الجيش في الهند يجب ان يدرّب ، ويحتفظ بها ، لمقاصد الحدود والشؤون الداخلية •

٩ ـ أ ـ « ولم تدرك أهمية النقل المائي والسكة الحديد الا على وجه غير كاف : وهي بالغة الخطر ، من قبل السلطات العسكرية في الهند ، وكان ذلك منذ طالعة امر الحملة • »

ب ـ اعتور النقليات النهرية نقص منذ الوقت الذي ترك فيه الجيش مياه المد وشرع يمضي في النهر ، مغادرا القرنة ، قُدُماً •

ج ـ لقد بذلت ، حتى نهاية سنة ١٩١٥ ، جهود لاصلاح النقص في وسائط النقل المائية ، لكنها لم تكن على العموم بكافية •

د ـ ان سفن المستشفيات النهرية حاجة ملحة ، بالنسبة الى تجهيز الحملة على الوجه الصحيح ، ولم تطلب حتى وقت متأخر جدا •

هـ ـ « وجدنا ان السلطات العسكرية في الهند هي المسؤولة عن عدم الوقوف على وضع النقل بوجه عام شامل وضآلة بواخر النهر • ان التبعـــة الثقيلة تنوء تحت وقعها الرواسي •

و ـ ان ال (جنرال سرجون نيكسون) هو المسؤول عن تقديم الاقتراح بالزحف سنة ١٩١٥ وهو زحف كان يعوزه التجهيز ووسائط النقل • كما انه يعتبر مسؤولا عمّا اعقب ذلك ، وتسبب عن نقص في البواخر ابان هاتيك الظروف •••

ز ـ ان وسائل التفريغ والتصرف بالاحمال في البصرة ، وتهيئة المعامل اللازمة لبناء السفن النهرية واصلاحها ، كانت كلها غير كافية وافية ، وبشكل يدعو الى الاسى •

ح ـ وما كانت الاجراءات المتخذة في سبيل طلب البواخر النهرية من قبل (مدير البحرية الهندية الملكية) و (وزارة الهند) في لندن الا بعيدة عما

يدعو الى الطمأنينة والرضى .

ط – ان النظر الى الحقائق التي لا معدى عن أن تكون بيّنة واضحة لكل اداري عسكري أو مدني ممن يخصص دقائق معدودات للتأمل في خارطة بلاد ما بين النهرين واوضاعها ، ليدل على ان فقدان النظر البعيد وتلبية حاجة الحملة الاساسية هي من هنات السلطات المعنية وعدم قدرتها على التنظيم .

١٠ – لم تكن الوسائل الصحية لحملة ما بين النهرين بكافية ، منذ طالعه امرها ، وبسبب من الاستمرار على مثل هذه الحال السيئة نجم وضع يدعو الى الاسى ، وذلك بقدر تعلّق الامر بالمرضى والجرحى ، غبّ (معركة سلمان باك) واثر المعارك التي دارت في كانون الثاني سنة **١٩١٦** ايضا .

١١ – ان فقدان الوسائل الطبية سبب في شقاء المرضى والجرحى ، وكان في الامكان تلافيه . وخلال الانتكاسة التي حدثت سنة **١٩١٥** – **١٩١٦** اصبح هذا الشقاء مؤلما اشد ايلام . »

مما لا شك فيه ان (اللجنة) علمت (على وفق ما ورد في الفقرة **٨** المار ذكرها) ، وان اهملت الاشارة اليها ، ان اللورد مورلس وزير الدولة لشؤون الهند حال ، بوجه قاطع لا يخالجه شك مريب ، دون قيام الحكومة الهندية بوضع الخطط او الحصول على معلومات تتصل بارسال الحملات العسكرية من الهند الى بلاد ما بين النهرين . لقد كانت اوامره ، في هذا الصدد ، واضحة ، وقد أطيعت . لقد الم اليها في كتابه الموسوم بـ (خواطر : Recollections) : **(٢٤١:٢)** وعلى ما ورد في قبس من خطاب الى اللورد مينتو « ... ففي بلد ذي خصاصة كالهند ، يعتبر الاقتصاد عنصرا من عناصر الدفاع ، كالمدافع والحصون سواء بسواء ، ... وان تركيز قواك ونشاطك على كثير من القضايا القصية في (التبت) و (فارس) والخليج الفارسي الخ ، وهي قضايا ثانوية لا تهمك مباشرة وحتى باعتدادها متعلّقة بالحاميات ، كل اولئك ، على ما يتراءى ، على حظ من خطر كبير ، لانه يبعثر الجهود ويصرفها عن عظام الامور مما تضطلع به الحكومة الهندية . »

يصح ان نقول ان الجهاز العسكري الهندي اخذ بالتردي عندما عيّن الفريق (سر نيكولاس اومور كريك)[١٢] من قبل وزير الدولة لشؤون الحرب ، خلفـــا للورد كجنر . وكان المرشحون ، آنذاك ، ثلاثـــة [١٣] هم (سر لي . بارو) ، و (سر بي دف) ، و (سر امور كريك) . كما كانت هنالك معارضة شديدة بازاء سر (اي . بارو) ومبعثهـــا صلته الشابكة بالحال حين تشعّب الخلاف فتمادى وتقسّم الرأي فتعادى بـين (كرزن) و (كجنر) ، كما ان (سر بي . دف) كان يعتد من حواري كجنر المخلصين . وعلى ذلك لم يبق الا (سر نيكولاس اومور كريك) وقد سبق ان قام بأعمال جليلة في ظروف خاصة عرفتها (تينتسن) ، لكنه كان يعدم الكفاية الادارية . لقد منح في افغانستان (الصليب الحديد) وكان ذلك سنة ١٨٧٩[١٤] ، وان ترقيته السريعة لمن الامثلة العديدة الدالّة على قيمة هذا الوسام الذي يتوق اليه الناس كثيرا باعتداده « جواز سفر » للمناصب العسكريه الرفيعة . وما ان وصل الهند الا اعلن ان نبزه (ك) لن يكون عنوان خطته حقا . لقد ثبت عجزه بحيث رفضت السلطات المالية ان تلبي طلباته للمال ، وكانت في رفضها على حق . لقد ابانت هذه السلطات انها ، وقد لبت طلبات كجنر ، لن تعمد الى تلبية طلبات خلفه . ولم ينقص من عدة الجيش في الظاهر ، لكنه لم يجهز بالاجهـــزة الحديثة ، فاولوا الامر كانوا على ثقة من ان المال الذي سيخصّص لمثـل هـذا سيذهب ، على يد كريك ، بددا ، وبقدر تعلّق الامر بالتبعة الشخصية لضباط الطبابة ، لقد وضعتها (اللجنة) ، في اقسى عبارة واشدّها ، على عاتق طبيب كبير جدا ، من حيث تصرفه وكفايته ، وبشكل ، أقل قسوة ، على ضابطين آخرين . ان

---

(١٢) حان حينه في آب ١٩٢٣ ومات لورد مورلي بعده بشهر (المؤلف)

(١٣) بصدد هذه النقطة راجع :

Macmunn: Behind the Scenes in many Wars, 1930, p. 79."

(المؤلف)

(١٤) راجع : The London Gazette, 17.11.1879.

(المؤلف)

عمل اثنين من هؤلاء الضباط الثلاثة الذين كانوا في (بلاد ما بين النهرين) ليؤكد لي بأن (اللجنة) كانت أبعد ماتكون عن الشدة ، ولعلها كانت ، بالنظر الى تصرفهم ، متساهلة • ويصح القول نفسه على هنات بعض الضباط الآخرين الذين محصت (اللجنة) تصرفهم وسلوكهم • ان الاطلاع على (التأريخ الرسمي للخدمات الطبية Official History of Medical Services (١٥) يؤيد هذه النتيجة •

كان الضباط الكبار في (الخدمة الطبية العسكرية) ، باستثناء من كان منهم محترما لامعا ، أقل من ضباط الصنوف الاخرى قدرة على تكييف وجهة نظرهم الى الامور ، على وفق اوضاع الحرب واحوالها • لقد كانوا اميل الى ان يطلبوا ، لا شعوريا تقريبا ، ما كانوا يحسبونه ميسور الحصول ، لا ما يحتاجونه حقا • كما كانوا ينهالون بالاسئلة لمعرفة الاسباب من دون طائل ، بدلا من ان يدلوا بالحجج المؤيدة لطلباتهم • لقد خيل لهم ، خلال سنوات تلت اندلاع لهب الحرب ، أنهم خاضعون الى التدقيق ، بقدر تعلق الامر بالحسابات ، وهو ما اعتادوا عليه ابان السلم ، لذلك قبلوا ، بقنوط مميت ، باوضاع هب اخوانهم ، ممن جاء حديثا من انكلترة ، أو من غيرها من الجبهات ، بازائها وثاروا عليها فاصابوا في ذلك نجحا •

ووجدت (اللجنة) أيضا :

١ ـ « ان (حكومة انكلترة) اتفقت مع (الحكومة الهندية) على تحديد الاستعدادات العسكرية العامة في الهند ، قبل الحرب ، لمصلحة الاقتصاد ، لذلك لم يتخذ ما يلزم لتأمين الصرف على حملة كحملة بلاد ما بين النهرين • ان تحديد الاستعدادات الطبية ومستوى المعالجة الخفيض في الجيش الهندي ، لدى اندلاع الحرب ، نتيجتان طبيعيتان لهذه السياسة ، وقد اخذ بها لسنوات طوال ، وكان معمولا بها حتى يوم اعلان الحرب على الدقة •

---

(١٥) راجع : Macpherson and Mitchell

(المؤلف)

٢ ـ « والى اللورد هاردنك ، باعتداده (نائب الملك) مرد التبعة العامة المنبثقة عن كونه رئيس الحكومة الهندية التي اوكل اليها امر ادارة الحملة ، وبضمن ذلك تهيئة الخدمات الصحية • وبقدر تعلق الامر بالادارة الصحية الحقة يتراءى لنا انه ابدى دوما حسن النية ، ولو نُظر الى الامر ، باعتداد منصبه الخطير وسلطته ، لتبيّن ان فعله لم يتسم بالجهد الباذل الكافي •

٣ ـ وثمة لوم شديد يجب ان يوجّه الى (قائد الجيش العام في الهند) لا بسبب من عدم قيامه بالاشراف على تهيئة الوسائل الطبية في بلاد الرافدين حسب، بل بسبب احجامه عن ذلك ، حينا من الوقت طويلا ، والى ان الزمته ذلك (سلطة نائب الملك في الهند) ، وعلى أن يصدق الاشاعات التي ثبت انها حقة ، فحصص الحق ، كما انه لم يتخذ الأجراءات التي أثبتت التجارب التي تلت ان في مقدورها ان تنقذ الجرحى من برحاء الآلام وبأساء الشقاء •

٤ ـ لقد وجد سوء استعمال السلطة الرسمية بقدر تعلّق الامر بالنواقص الصحية ، وبما قاساه الجرحى والمرضى •

٥ ـ لا معدى عن لوم شديد يوجه الى الحكومة الهندية بسبب جهلها ، وقصر نظرها ، على ما اظهرته ضآلة استعداداتها وفقدان الهمة للاعتراف بالنواقص وازالتها • كان على هذه الحكومة ، بالاتصال الوثيق مع الحملة التي نعرفها جيدا ، ان تعلم حاجاتها ولوازمها أيضا • صحيح ان جهازها العسكري كان معتلا عاجزا ، لكن كلا من (نائب الملك في الهند) و (القائد العام) كانا قادرين على وضع أصول حقة وتأمين اتصال وثيق بـ (الحملة) •

وكان في مقدور (أعضاء اللجنة) ان يضيفوا حقا ، الى حكومة الهند والسلطات الطبية في الهند ، ان عدم الاستعداد الشامل للحرب كان شيئا مقدرا ، ومنذ زمان طويل ، معروفا • ومهما يكن الامر ، لقد رفض الـ (لور كجنر) ، ابان اشغاله منصب (القائد العام في الهند) ، عن قصد وبتكرار ، تخصيص المبالغ اللازمة للوازم الطبية الاحتياط ، أو حتى نسبة معينة من التجهيزات الحديثة • لقد كان يفضّل رصد ما يتيسر

من المبالغ لديه الى الطرق والثكنات والعتاد الحربي • وباعتداد وصفه الثنائي : (القائد العام) و (العضو العسكري) كان له ، على العموم ، القول الفصل في مثل هذه الامور •

وليس من النادر ان تنال تقارير الاقلية في (اللجنة) الرضى العام وباكثر من تقرير الاكثرية غبّ اكثر من عشر سنوات • وما التقرير المنفرد الذي قدّمه الـ (كوماندر ودجوود) الاّ مثال على ذلك •

لقد دأب هذا التقرير على الاقتباس من البينات التي قدّمت الى (اللجنة) وهذا سبب في اتسامه بالاقناع العظيم الذي يفوق ما اتسم به تقرير الاكثرية • ان تقريره لمسهب لا سبيل الى تلخيصه هنا ، لكن نتيجتين من النتائج التي توصّل اليها تستأهلان الاقتباس ، هما :

لايمكن ان اتمارى بصدد النتيجة السابقـة ، ومحصلها ان «البيّنة» الآنفة الذكر تدل على رغبة مفقودة كانت تعتور الحكومة الهندية • ــ اعني اللورد هاردنج وسر بيجم دف بقدر تعلق الامر باسداء المعونة • كان لفقدان هـذه الرغبة الاثر السيء في (حملة ما بين النهرين) ، لا لبس في هذا ولا غموض • ولو انصرفا ، قلبا وقالبا ، الى ما يحمل الهند على بذل ما يستطاع ، بقدر تعلّق الامر بالرجال والمواد ، لتبدّل مجرى الحرب كليا ، ولم يتّم هذا ، حتى في هذه البلاد اول الامر ، لكن اتجاه الحكومة الهندية حال دون بذل الجهد اللازم في ربيع سنة ١٩١٥ ، وعلى ما جرى هنا أيضا ، كما انها احبطت أي نجاح تصيبه حملتها في بلاد ما بين النهرين •

لا يمكن ان يبرّر ما احاق بالهند من خطر بفقدان النشاط الباذل فيها ، وعدم تعبئة الصناعة ، والانانية المالية ، والمعارضة في مدّ سكة حديد دجلة (ذات مقياس قدمين وستة انجات) ، والامتناع عن استخدام الجيش الاقليمي البريطاني ، وفقدان الاتصال بحملتها ، والضآلة التي أسديت الى الزحف على بغداد[١٦] • كما لا يمكن ان يبرر ذلك بالانهيار الصحي ، ذلك ان الحاجات

---

(١٦) زبدة القول في الامر : كان تدخل القوات البريطانية في امر العراق سنة ١٩١٤ امراغير مترقب عالميا • وكان الجيش الهندي قد عانى من تقليص • منذ

الحفنّة لاي جيش محارب في ميدان ، يجب أن تقوم ، على التحقيق ، على حاجات معقدّة ينشدها جيش مرابط على الحدود • ويتراءى ان ادارة الجيش في الهند ، كانت تحسد الجيش في انكلترة ، ما في ذلك شك • لقد كانت تنشد الحفاظ على هيبة قيادتها ، وكانت تشعر بانها مهملة كما « لا محل لها من الاعراب » فقررت ، وقد يكون قرارهـــا لا شعوريا ، ان تقف موقف المعارضـــة ، وبالمرصاد • »

كنا قد استولينا على بغداد، لكن الرأي العام لم تصرفه نعماء عن ضرآء مستّه، وان فرحة الناس في هذه المناسبة لم تسكت الرغبة في ايقاع القصاص • لقــد طلبت الـ (ديلي ميل) ، وهي من عُرفت بالتمسك الصادق بتقاليدها ، معاقبة (سر جون ديكسون) ، بعد ان كالت له الثناء وتغنّت به قبل حين يسير ، فحرّفت التقرير ، بوضاعة ، لغاياتها الخاصة(١٧) • ونشر كبلنج ، وقــد استفزته الحال حقا فاخرجته عن طوقه ، قصيدة في جريدة (مورننك بوست) ، في عددها الصادر يوم الـ ١١ من تموز ، بعنوان (بلاد ما بين النهرين) فارضت عاطفة فؤاده بأكثر من ان ترضي عقله المفكّر • لقد منع الرقيب نشرها في كل من جريدتي (بصرة نيوز) و (بغداد نيوز) •

عقدالاتفاقية الروسية ـ البريطانية سنة ١٩٠٧ وكان انفاذ (رتل ديلامين) الى شط العرب امرا غير مخطط على الوجه الجاد • كما ان ما كان في الامكان توفـــيره من القطعات الهندية ارسل الى فرنسة عند اندلاع لهب الحرب ، كما ان نجوم ألحرب مع تركية كان يخشى منه مس شعور الهنود المسلمين • ولم تكن الدوائر المسؤولة البريطانية لتعنى بالحصول على اراضى دجلة والفرات • وكان أن نجم موضـــوع حماية مصافي النفط في عبادان وتطمين الشيوخ ذوي الميول الانكليزية في الخليج • ولمــا رأى قواد الحملــة ان مقــاومة الاتراك كانت ذاهبــة لذا طمعــوا في الاستيلاء على بغداد • لكن الاقتراح الاول في هذا الصدد رفض ، ثم لعب أغرأء الاستيلاء على بغداد دوره على الرغم من الاعتبارات العسكرية الرشيدة ، ولعل ذلك كان الى حد ما للتعويض عن انسحاب غاليبولى والى ايقاف تقدم الروس المحتمل عليها • ولم يتم الاستيلاء على بغداد الا بعد تنظيم (القاعدة) ومد خطوط المواصلات وتوافر القطعات (المترجم) •

(١٧) راجع Captain Aubrey Herbert, Debates 13.7.17

وارتفع مستوى النقاش حول (التقرير) في مجلس العموم واستطال لمدة ثلاثة أيام ، فاجتُلي به كل وجه مهم من اوجه الموضوع • لقد اوضح القضية المدعي العام : سراف • اى • سميث ، (لورد بيركنهيد بعدئذ) ، وهو الذي فتح باب المناقشة حولها ، يوم الـ ١٢ من تموز ، قائلا ان اللجنة ليست بجهة قضائية ، وان ما اتبعته لم يكن ليجري على عرق من الاصول القضائية ، لذا لا يصحّ ان يتخذ تقريرها بينة يرتكن اليها في تجـــريم الافراد • واجمعت الصحف البريطانية ، وبعض أعضاء مجلس العموم البريطاني ، على وجوب قيام الحكومة باجراءات فورية قاسية بازاء الاشخاص الذين كان تصرّفهم مشكوكا فيه مريبا ، لكن الضباط كانوا يتمتعون بحماية قانونية بالنسبة الى مثل هــذا الاجراء[18] • ان ما اسند اليهم يقع تحت طائلة قانون الجيش ، فلا معدى عن ان يخضعوا له ، واعلنت الى الحكومة رغبتها في تأليف المحكمة الاصولية لهـــذه الغاية • وتبيّن ان مجلس العموم ، في يوم المناقشة الاول ، كان يميل الى الاخذ بهذا الاتجاه •

قال مستر ونستن جمبرلن : « اني لا اعارض القرار أبدا • ولا معدى عن أن يحمل اليّ مشروع قرار آخر • لا يمكن أن أبقى في منصبي بعد أن ورد اسمي في (التقرير) ، من دون أسماء زملائي ، بصدد قضايا قمت بها متضامنا معهم ، وتبعتهم لا يمكن أن تتجزأ عن تبعتي في قضايا اخر رأت (اللجنة) توجيه التوبيخ واللوم حولها • لا يمكن أن أبقى بعد أن أصبح سلوكي موضع الملامة ، وعلى حين قد يؤدي مثل هذا السلوك ، في أي وقت ، الى المثول أمام المحكمة العدلية التيستحال اليها تلكم القضايا • وعلى ذلك ••• فان استقالتي القطعية هي بيد رئيس الوزراء » •

---

(١٨) ان الاصول المرعية فى هذا الخصوص تنص على ما يلى : « لومس تحقيق ما ذات ضابط أو جنري أو ناموسه العسكري وجب أن تهيىء له الفرصة التامة ليحضر طوال امد التحقيق فيدلي بما عنده ويبرز اية بينة يريد ابرازها ، ويناقش أى شاهد تمس بياناته شخصه أو ناموسه العسكري أو يقدم أي شاهد دفاعا عن ذاته وناموسه » (المؤلف) •

لقد دافع مستر ونستن جمبرلن دفاعا حارا عن كل من : (سرجون ديكسن) و (سر بيجم دف) و (سر ويليم مير) وال (لورد هاردنغ) ، و (سر ادمون بارو) ، و (سرجون بايلز) المنسوب الى وزارة الهند • وكان أن شرح ، على وجه التمام وبشكل يرضي ، الاصول التي ارسل بموجبها برقيات معيّنة « خاصة » وليست ب « سرية » • وقد حذا حذوه في الدفاع عن الاشخاص المذكورين آخرون ، من بينهم : (سر مارك سايكس) ، و (سر جون جاردين) و (سر جي• دي رين)• ولم يدافع أحد عن سلوك الضباط الاطباء المريب • وتدخّل وزير الخارجية في المناقشة فدافع عن (لورد هاردنغ) الذي حل محله ، بعد انتهاء أمد تعيينه ، اللورد جيلمسفورد ، فعاد الى منصبه كوكيل دائم لوزارة الخارجية • وعلى الرغم من ان الـ (لورد هاردنغ) كان من موظفي الدولة فلقد دافع عن نفسه في مجلس اللوردين ، وبذلك وضع سابقة جديدة خطيرة ، لكن دفاعه كان ينصب على سلوكه في منصب سابق • وكان أن قدّم استقالته أيضا ، لكن مستر بلفور[19] لم يقبلها وأفصح عن عدم رغبته في ألاّ يعدم خدمات الرجل في وزارة الخارجية • وبيّن مستر بلفور ، بجلاء ، انه لا يقرّ اعتداد (قرار اللجنة) قطعيا ، بقدر تعلق الامر بالاشخاص (فيما خلا الضباط الاطباء) ، ثم اشار الى ان :

« الفاجعة التي تنزل بمن يتوغّل في أرض بدائية ، وحيث لا يستطيع ترك الجرحى ، عندما تتلقّى نكسة ما ، الى نقمة اناس قد يعمدون الى قطّ رقابهم بمجرد أن يصلوا اليهم • وقال : « انها ليست غلطة الـ (لورد هاردنغ) ، على التحقيق ، عندما دخلت الهند وهي على العموم ، غير متأهبة ومستعدّة ، كما انه لم يكن سببا في دخـول (بريطانية العظمى) الحرب ، وهي على غير استعداد أيضا • تذكّروا سياسة الحكومة الهندية ـ التي أقرّها هذا (المجلس) ـ وأعني بها أن يجرى خفض في النفقات العسكرية الى الحد الادنى وبشكل يتفق مع سلامة الهند من أي هجوم بري خارجي ومن الثورات الداخلية • تلك هي

(١٩) مات في الـ ١٩ من آذار سنة ١٩٣٠ (المؤلف) •

السياسة لا غير • انها سياسة بصيرة ، نُفِّذت بعد أن صودق عليها ، بوحي من لجنة عُيِّنت من قبل هذه البلاد ، ورأسها ال (مارشل) نفسه[٢٠] • رأت اللجنة المذكورة ان حاجة الهنـــد يمكن ان تسد بمقـــدار هو ، على ما اتظنّى ، ١٩ مليونا من الجنيهات ، يرصد في ميزانيتها العسكرية • ان ال (لورد هاردنغ) لم يقرّ ذلك في أية سنة من السنين • ولو كوّرنا الارقام ، فاني لاعتقد ان معدل الصرف ، منذ التزام اللجنة بمقترحات لورد نيكسون ، بلغ المليونين تقريبـا ، وعلى الرغم من ذلك كله ان الهند لم تكن مستعِدّة لما تم يطلب منها أن تأخذ له الاهبة • لقد وجدت نفسها في موضع يطلب فيه منها ان تهبّ لنجدة هـذه البلاد في حرب اوربيّة عظمى • فهل رفضت الهند ذلك ؟ وهل رفض ال (لورد هاردنغ) ذلك ؟ هل ظهر بمظهر المتمنّع على اعطاء الهند كل شيء يمكنّها من أن تجود به لادراك القصد العظيم ، وتساعد (الوطن الام) ؟ لقد حاولت الهند أن تقوم بما لم تقم به قبلئذ • لقد خاطرت الهند ، بامرة ال (لورد هاردنغ) ، بكل سيء يسفر عنه اعتداء خارجي ، وحرب حدود ، وانقسام داخلي •• لقـــد خفضّت الهند قطعاتها البيض ، في وقت ما ، الى حد ١٥٠٠٠ من المقاتلة • لقـد استنزف دم الهند قبل (حملة ما بين النهرين) ، وانكم لتنظرون اليها بعـــين الناقد ، المنعم النظر ، فتجدون انها ارسلت الجنود والمدافع والضباط واللوازم الطبية والبندقيات وهي ليست على اهبـــة تامة لمجابهة اوضـع في بلاد ما بين النهرين :

أردتك بلسماً لجراح قلبي فكنت الجرح أوجع ما يكون !

---

(٢٠) اقترحت لجنة مؤلفة من المشير ال (لورد نيكسون) و (سر ويليم ماير) و (سر روبرت سكاللون) و (سر برسى ليك) بالصوت المرجح ، وهو صوت ال (فيلد مارشال لورد نيكسون) : ان المعيار السوي للنفقات العسكرية في الهند هو (١٩ر٥) من ملايين (الجنيهات : المترجم) ، ولقد رفض ذلك ممثلا الجيش في الهند • وفي الحق لقد تجاوزت حكومة ال (لورد هاردنغ) هذا الرقم بمعدل مليونى جنيه سنويا • وليس من المعروف ان كان (سر دوكلاس هايك) قد كتب ، عندما كان (رئيس الاركان العامة في الهند) وقبل مغادرته منصبه ، مذكرة قوية بشأن عدم استعداد الجيش الهندى لحرب عصرية • ولم يتخذ أي اجراء بصدد ذلك ترقبا لورود تقرير (لجنة لورد نيكسون) (المؤلف) •

وختم (مستر بلفور) كلامه بهذه التنبُّؤية :

« عندما تنتهي الحرب هذه ، في سنين قليلة جدا ، ستجدون ان ما أسمته (اللجنة) بـ « جو اقتصادي » يزحف علينا كرة اخرى ، و (ان أصحاب المعالي الجالسين قبالتنا) لن يستطيعوا ، ايضا ، تصور الفاجعة الجديدة التي ستتطلب منهم بذل جهود كبيرة ، ومنهم من دافعي الضرائب الذين يمثلونهم أيضا .

وشارك (النقيب اوبري هربرت) في المناقشة التي جرت في اليوم التالي :

قال : « اننا نرحّب بكل تحقيق نرجو ، في الاول ، أن يسفر عن التخلّص من كل من (سر ويليم مير) و (سر بيجم دف) . واننــا نرحب بكل تحقيق يسفر عنه عقاب رئيس الجراحين : (هاثاوي) و (سر ويليم بابي) ، ان كان ما توصّلت اليه (اللجنة) حقا . اننا نرحب بكل تحقيق يسفر عنه اعادة وزير الدولة لشؤون الهند السابق الى منصبه ، ذلك ان الخطأ الوحيد الذي يُنسب اليه ، على ما يعلم هذا (المجلس) ، هو الولاء بازاء زملائه ومرؤوسيه ... ان ما أهدف اليه حقا هو : ان في هذا جميعا لمضيعة وقت ، فان كانت لديكم ثمة (حرب) ، فان اضاعة الوقت معناه ارواح مضاعة ، واني لاذهب الى أبعد من ذلك فأقول ان الاتجاه ، في هذا كله ، ينتهي الى شلل في التبعة ، واقلال في المبادأة ، فان تلتم لـ (قادتكم) : « ان ترددتم صحتكم ، أو أخطأتم فان ذلك يسبّب طردكم من الخدمة » فلن تكون عندكم حرب تستطيل ثلاثة أعوام ، عليكم أن تعدوا العدة لها ، بل ستكون حرب ثلاثين سنة . « وما الذي حدث فعلا ؟ انــه ، باختصار : عرف الرأي العــام ، في خاتمة المطاف ، المصاعب الجمّة الخطيرة التي كان على رجالنا التغلب عليهــا في (بلاد ما بين النهرين) . لقد شــهدوا التضحيات التي لا سبيل الى وصفها والتي طلب منهم ان يقدموهــا ، والجــزاء الذي لا يوصف والذي نالته بعض هاتيك القطعات . وكانت النتيجة ان الصدور حميت واحمرّت الحدق ، ونار الغضب هيج لهبها كالنار .. فتعالت صرخات تطالب بانزال العقاب . لكننا كنا شعبا يؤمن بالنصفة والعدل دوما . ليكن العقاب ، شريطة أن يكون بصيرا غير أعمى . ان النصفة درّة مكنونة ، وأعتقد

انا لا زلنا نحتفظ بها • واني لأتطنى أن تبعة ما حدث موزّعة توزيعا وسيعا •
لقد كانت لدينا،قبل هذه الحرب ، سياسة قوامها السلام والترصين والاصلاح •
كل هذه أشياء حسنة جدا ، لكنها ليست بذوات جدى ان اقدمنا على حرب
المانية • ان أدرك (سر جون نيكسون) نصرا فنصر ، واتال ال (بني Penny
على جريدة ال (ديلي ميل) ، وهي التي ارتفع ثمنها في الوقت نفسه أيضا • لقد
عاد (سر جون نيكسون) بعد أن ترددت صحته ، فزعمت ال (ديلي ميل) انه
مذنب وطلبت عقابه • أقول ان ذلك لغرض مشين جدا » •

وعبّ مناقشات ، دامت ثلاثة أيام ، لم يتّوصل الى اتخاذ قرار بتشكيل
محكمة قضائية للنظر في الاسنادات الواردة بازاء الأشخاص ، وفي اليوم الاول
من آب أعلن ان (مجلس الجيش) طلب من الضباط العسكريين تقديم ايضاحات
خطية بصّدد ما ورد عنهم في تقرير (اللجنة) ، وعند تسلّمها سينظر (المجلس)
في الاجراءات الاخرى الواجب اتخاذها ، في كل حالة على حدة • ولم يُسمع
أي شيء آخر حول هذه القضية ، وسرعان ما نُسي (التقرير) في خضمّ القضايا
التي لا تعدّ ولا تحصى والتي شغلت بال حكومتي الهند وانكلترة[٢١] • وعلى
كل حال هذه هي أهمية التقرير ، وان الدرس الحيوي في باب الصالح الوطني
ليستمد منه ، واني مضطر لاشقّ على القارىء بعرض تاريخي ذي علاقة مباشرة
بفقدان الاستعداد ، وهو شيء مزمن ، وانعدام بعد النظر وهو ما كشفت عنه
الفاجعة التي نزلت على (فيلق دجلة) ، وهما ما لم تعمد (اللجنة) الى أكثر من
تثبيتهما •

ان أول قرار اتخذه (مجلس العموم) بصدد جريان الحركات العسكرية
كان بصدد حملة (ولجرين Walcheren) سنة ١٨٠٩ ، وهي حملة شابهت

(٢١) قدم الفريق سر ويليم بايتي (١٩١٦) ايضاحاته الى (مجلس الجيش)
فوجده باعثا على الطمأنينة والرضا لذلك منح وسام .K.C.B في سنة ١٩١٩
وقد توفى في ايلول سنة ١٩٢٠ (راجع : (Debrates. H.C. 18.10.17
وقد برّئت ساحة (سر جون نيكسون) ايضا ومنح وسام (.G.C.M.G)
في سنة ١٩١٩ وحان حينه في كانون الاول سنة ١٩٢١ (المؤلف) •

شقاء ووقائع مرضية كثيرة ، وكان في الامكان تجنّبها • وقام (المجلس) كله بالتحقيق ، اذ عقد جلسات متّصلات ، من نهاية كانون الثاني الى ١٧ من آذار سنة ١٨١٠ ، «استغرقت» ـ على ما قال المؤرخ اليسون[٢٢] : Alison الوقت كله تقريبا ، وقت الحكومة ووقت البلاد معا ، وكان ذلك في زمن تطلّب تركيز الفكر القومي ، ومجهوده ، لينصبّ على تصريف الحملة العظيمة الجارية في القارة • • »

ان محاضر التحقيق[٢٣] تكشف عن شيء لا يختلف عمّا جرى على صفتي دجلة سنة ١٥-١٩١٦ •

از سر فرنسيس برديت ، وهو الذي أثار النقاش ، « رغب في أن يقدّم كلا من القائدين العامين الى محكمة عسكرية لقيامهما بمشروع اعترفا ، صراحة ، بأنهما لا يعلمان عنه شيئا •••• لقد ارسل اللورد كاسلريك الى (القائد العام) يطلب رأيه حول الاستيلاء على انتويرب انقضاضا • وكتبت الخطابات ، عهدئذ ، من قبل أربعة من القادة المختلفين ، وبطريقة شكلية ، ولم يفصح أحد منهم عن معلومات ، لكنهم حسبوا بعض الامور من المسلّمات ، (وقد كانت مزيّفة حقا) ، وبذلك زعموا ان المشروع عملي • لكن كلا منهم قال ان المشروع سيكون بالخطر العظيم محفوفا ، ولم يجسر أحد منهم على أن يفصح عن اعتقاده بأن (انتويرب) يمكن الاستيلاء عليها انقضاضا • وتراءى ، عهد ذاك ، ان القوّاد الاربعة هم ممن لم يكونوا عارفين عن الامر شيئا ، على انهم هم الذين أدلوا بتلكم الآراء جميعا ، وان الوزير عمل بموجبها •••• وعلى هذا فان جهل الوزراء المشين هو الذي عرّض الجيوش والبلاد لخطر مبين • ثم كان أن نزل الجيش هولندة ، وعندنا قصة تقدّمه المظفر فيها • وتناهى الينا نبأ الاستيلاء على

---

(٢٢) راجع : Aliosn. History of Europe, Chapter LX.
(المؤلف)

(٢٣) راجع : Gray, W., Walcheren: Proceedings on a motion for inquiry into the conduct and policy of the late expedition to the Scheldt.
(المؤلف)

مدن صيد الاسماك ، وما كنا قد سمعنا بأسمائها من قبل أبدا . وأخيرا ...
اوقفت القوة جميعا ، عند ميدلبرغ ، بسبب خندق امتلأ ماءا . . »

ضع اسم (انتويرب) محل اسم (بغداد) وضع اسم (هولنده) محلّ اسم (بلاد ما بين النهرين) وعند ذاك يصبح التناظر تاما !.

وما كان (تحقيق ونجرين) ذا ثمرة على الوجه التـــام ، واقتباسا من (كينكليك : Kinglake)[٢٤] عنه : « ان شعبنا ، وهو الى قصده يسعى ، لم يكن عنده المبدأ الواضح اللاحب ، ولم يفه بكلمات فصاح تبيّن ان على مبعث الشر أن يتوقف عن شره ، لكنــه كان على حال تفضل الحـال التي كان عليها في أيام جاثم Chatham العظيمة ، من حيث الايمان بأن شؤون الحرب ليست من أمر (الملك) شخصيا ، بل هي من أمر الدولة حصرا . بهذا التغيير السعيد بدأ « عهد ويلنكتن : Wellington) . »

وسرعان ما نُسي الدرس .

وبعد أربعين سنة ، عرفت الحال في شبه جزيرة القرم ، على الوجـــه الصحيح ، حين اختط مستر روبك Roebuck سابقة سنة ١٨١٠ ، فطلب لجنة تحقيق ، وكان أن بدأت جلساتها ودأبت عليها من نيسان الى تموز سنة ١٨٥٦ ، فسألت خلالها ٢١٤٢١ سؤالا . وبعد أن عالجت (اللجنة) بعض القضايا المتّصلة بشؤون الدائرة صرحت في تقريرها المرفوع الى (البرلمان) : ان الحكومة التي أمرت بتجريد (الحملة) ، آملة بظفر سريع ، غير آخذة بنظر الاعتبار ان القتال سيدوم طويلا ، « لم تتخذ الاهبة لحملة شتاء » ، وانها خُطّطت ونفذّت من دون عناية وسبق تفكير . » وأخيرا « ان تصرف الحكومة هذا هو أهم أسباب النوازل التي نزلت بجيشنا ، وأولها . » وأضافت اللجنة الى ذلك : « ان صبر الجيش وبسالتـــه هما مدعاة الاعجاب والاكبار تزجيهما الامة له عن رضـــا

---

(٢٤) راجع :
Kinglake, A.W., The Invasion of the Crimea, vol. VI, p. 466.
(المؤلف)

وتقدير • لقد حارب الجيش نيابة عن هذه الامة فسال دمه وعانى من الشقاء كثيرا • ان البسالة والصبر البطولي بازاء العناء والحرمان ، وقد تحلّى بهما الجيش ، جعلا له على الامة فضلا ستذكره طويلا ، وتشكره كثيرا • » •

ان لجنتكم لتختم تقريرها هذا آملـة بان يكون كل جيش بريطـاني في المستقبل قادرا على ابراز المزايا العظيمة التي أظهرها هذا الجيش الباسل ، وان أي جيش من جيوش هذه الامة لن يعرّض للبأساء والشقاء ، على ما وصفته هذه الصفحات[٢٥] » •

وأسفر التحقيق عن سـقوط الحكومة ، فاستقالة الحكومة الجديدة ، فعودة الوزراء ، الذين استقالوا أصلا ، اليها •

وفي معرض بيان ذلك الى (مجلس العموم)[٢٦] ، خلال مناقشته تعيـين اللجنة ، أفصح مستر اسكويث[٢٧] عن أمله بأن مثل هذه الاختلاطات تجيء في أعقاب ذلك كله • وما حدث حقا هو الذي خُشي من وقوعه تماما • لقد سقطت حكومته ، وعاد الى الحكم الوزير (مستر اوستن جمبرلن) وهو الذي قدّم استقالته ، بسبب من (تقرير اللجنة) ، وكانت عودة هذا الوزير قبل نهاية الحرب ، فأشغل كرسيا في (وزارة الحرب) •

ان نتائج التحقيق في شؤون (بلاد ما بين النهرين) هي صدى الهنات التي كشفت عنهـا الحروب في (ولجيرين) و (القرم) و (جنوب افريقية) ، وانه لصدى يحزّ في نياط القلب فيبعث كثيرا وكثيرا من الذكريات المرّة المستقرة في أعماق اللا شعور ، وأغوار نفوس العسـكريين • ليس ذلـك مما يوائم مشاعرهم الخاصة ولا مشاعر أسلافهم ، كما ان ذلك ليس مما يأخذ به ذوو التفكير السليم من رجال الدولة • انها ، على النقيض من ذلك كله ، لتعكس

---

(٢٥) راجع : Report of Commission of Inquiry into the Supplies for the British Army in the Crimea. 3 Vols., 717 pages, 1856.

(٢٦) راجع : Debates, H.C., 20.7.16

(٢٧) قضى نحبه يوم ال ١٥ من شباط سنة ١٩٢٨ (المؤلف) •

لنا ان هؤلاء القوم ، والشعب الذي هم منه وهو منهم • كانوا يميلون الى الاطمئنان الى الترتيبات المستعجلة ويتجاهلون الآراء الخبيرة ، ومضات الاذهان المفكّرة ، التي تضيء الطريق للامة ، والتحريات العلمية ، أو يقلّلون من قيمتها • لقد كانت لهذه الاعتبارات في أذهانهم المرتبة العليا ، لذلك كانوا يرحّبون بالتأكيد الشديد الذي يؤخذ به في يومنـــا هذا على الدراسات التقنية الوسيعة ، أيام السلم ، وعلى ما تكشف عنه هيئات الموظفين العلميين الذين تضمّهم الوزارات الموا‌جهة بشؤون الدفاع الوطني[٢٨] •

ان هذا الحديث الطويل الخارج عن السياق لن يختم بأفضل من (قبس) من حكم أصدره مؤرخ [٢٩] (حملة شبه الجزيرة) سنة ١٨٠٨–١٨١٤ • إنه لحكم يصدق اليوم على ما صدق عليه عندما حبّرت سطوره قبل قرن تقريبا

« ولِمَ هذا الكفاح ، ولِمَ تسكاب الدم هذا ، بازاء صعوبات ليس الى التغلّب عليها من سبيل ؟ لِمَ بعث الرجال الى تلكم المجازر ، على حين كان اصطناع العلم الحق يؤدي الى صيرورة الحركة تجرى في يسر واسماح نسبيا ؟ ذلك لأن الوزراء البريطانيين ، وهم ممن يندفعون الى الحرب سريعا ، كانوا على جهل مطبق بضروراتها ، ولأن الشعب البريطاني يريد الحرب من دون أن يكون عسكريا • وبحجة الحفاظ على الحرية التي يفتقدونها ، يعارضون ، أيام السلم ، جميع المؤسسات العسكرية المفيـــدة • انهـــم ليؤكّدون في مدارسهم وكلياتهم على الضبط والربط الرومانيين، وعلى البسالة الرومانية، وينسون المؤسسات الرومانية • انهم ، على غرار الجمهورية العتيقـة ، يرغبون في أن يكونوا في

---

(٢٨) وفي هذا المعنى ، أو قريب منه ، يحضرني بيت الشاعر :

ما علّم الله انسانا بصـــارمه
وانما علّم الانســـان بالقلم

وقلنا انال (تكنولوجيا : Technology) الحديثة ـ أي العلم المطبق ـ تحتل اليوم المقام الاسنى في اعداد العدّة للحرب الحديثة (لمترجم) •

(٢٩) راجع: Sir W.F.P. Napier, History of the War in the Peninsula, ed 1850, Book XVI, Chapter VII.

وطنهم أحرارا ، وفاتحين خارجه ، لكنهم يبدأوون من تحسين نظام عسكري باعتداده لا يلائم دستورا خلقه كل وزير تخبّط في حمأة الفســاد • ان انكلترة لتحصل ، في بدء كل حرب ، على المعرفة اللازمة لضمان النجـــاح عن طريق تسكاب الدم ، وان طريقها الى الظفر محفوف بالقلق والاضطـــراب دوما ، وعلى غرار ما اكتنف تقدم الـ (فيند : fiends) تلقـــاء (ايدن :Eden) . ان سبيل الغلبة ، عندهم ، يتخلّل الحال الفوضى التي يجيء في اعقابها الموت ! »•

الفصل الثاني عشر[1]

معاودة التنظيم في (القاعدة) وعلى خط المواصلات

هبة من الله اننا قادرون على الثبات بازاء الطوارىء بقوة ضخمة • ان نجعنا في رص صفوفنا جعل المراقبين الخارجيين يرون اننا ، في الغالب ، دأبنا على التطلع قدما الى الامام ، وذلك منذ وقت طويل ، ولكننا لا نعدم الا الكفاية حسب • »

(لورد هولدين في كتابه الموسوم : (ما قبل الحرب Before The War)

وما أن تجلى ان انقاذ الكوت أمر مستحيل ، الا قرر (وزير الدولة لشؤون الحرب) ، وعليه الآن تقع تبعة تصريف شؤون قواتنا السوقية في (بلاد ما بين النهرين) ، واثر مشاورة المعنيين بالامر كافة ، أن تتخذ قيادة ال (جنرال ليك) وجهة دفاعية ، وذلك بغية اسداء العون الى الروس[2] الذين كانوا بامرة ال (جنرال باراتوف) والحيلولة دون حدوث ارتكاسات غير مستحبة في فارس وافغانستان ، وفي ولاية البصرة أيضا ، وهي مما قد تجيء في اعقاب أي انسحاب •

وضمنت هذه (التعليمات) في برقية بعث بها (سر • دبليو روبرتسن) ، مؤرخة بتأريخ ال ٣٠ من نيسان ، وهي تستأهل الاقتباس :

---

(١) مراجع الفصل :
Official History, Critical Study, Official Medical History, Hall, Leland, F.O. Handbook.
[المؤلف]

(٢) كان ، في مثل هذا الوقت ، احتمال زحف الروس على بغداد من (كرند) ، وزحفهم من (اورمية) خلل رواندوز ، متواقتين ، قائما
[المؤلف]

قلنا :
بعد احتلال الكوت من قبل الجيش التركي بقيادة خليل باشا ارسل الفيلق/١٣ التركي الى فارس لمقابلة الروس ، وقد استطاع هذا الفيلق طرد الروس بعد ان احتلوا بقيادة ال (جنرال) باراتوف كرند واخذوا يهددون خانقين •
[المترجم]

ان سياستنا الراهنة في بلاد ما بين النهرين دفاعية ، واننا لا نعلّق على امتلاك الكوت أو احتلال بغداد أية أهمية • ومن الطبيعي ان وضع سياسة ما ، لأمد طويل قابل ، ليس بالامر العملي • ومن المحتمل أن يوعز الى (ليك) بالانسحاب الى العمارة ، أو حتى الى القرنة ، ان لم تكُ هناك اعتبارات اخر ، لكن الايهان من أمر سقوط الكوت والوقوف بازاء (نكسته) أمران مهمان ، وذلك كي يساعد الروس ويُشغل الاتراك الواقفون بازاء (فيلق دجلة) اليوم أيضا • ولهذه الاسباب، يجب على (لك) أن يحتفظ بأبعد موقع أمامي يستطاع الحفاظ عليه تعبويا ، وأن يكون على استعداد للافادة من أي وهن يُصيب الاتراك في جبهتهم ، شريطة أن ينجز هذا كله من دون أن تتكبّد خسائر فادحة ، سواء أكان سببها العدو أم الاوضاع غير الصحية • لن يطلب منه ، لا اليوم ولا غدا ، الاحتفاظ بموقع أمامي غير الموضع الذي يستطيع الحفاظ عليه بسلامة معقولة • »(٣) •

وسرعان ما تبيّن ان الاتراك على جبهة دجلة ليسوا قادرين على انتهاج سياسة هجوم ، ذلك ان عدّتهم انخفضت الى نحو ١٠٠٠٠ ، كما ان القوات البريطانية ، من الجهة الثانية ، كانت بحاجة ماسّة الى الراحة ومعاودة التنظيم والحصول على المؤن والتجهيزات من كل نوع • وما كانت في الجبهة وسائل راحة طيبة أو لوازم مخيم أو عتاد احتياط أو جرايات ، ذلك ان (القوة) كانت تعيش على قاعدة : (من اليد الى الفم) • وكانت المؤن والتجهيزات في (القاعدة) وفيرة ، لكن قلة وسائط النقل البرية والنهرية ، وازدحام السفن الناقلات البحرية في شط العرب ، والحاجة الى العمال ، كل ذلك صيّر تجهيز القطعات في الجبهة أمرا مستحيلا ، واستطالت الحال على هذا المنوال شهورا طوالا •

ومما زاد الامور اختلاطا كثرة الامراض المتفشّية ، خلال الصيف ، بين القطعات جميعا •

وكان (سر برسي ليك) قد قام ، على ما ذكر في (الفصل الثامن) ، باعداد

(٣) Official History iii. 3.

جهاز يجهز به على هذه النواقص والهنات[٤] • لقد أصبح الآن على حال يستطيع بهـــا أن يكرس جهوده الى هـــذا الواجب كله • انه لواجب كانت كل من (حكومة الهند) و (وزارة الحرب) شاعرة بضخامته ، لكن هـذا الشعور جاء متاخراً • وقد بُدّد وقت طويل ثمين في البصرة • وكان (سر جورج بيوكانن)، وهو مهندس ذو كفاية ادارية عظيمة ، يراوح فيها منذ اليوم الاول من كانون الثاني ، تحول المنافسات المصلحية دون قيامه بمعاودة التنظيم على آساس شاملة • واقتباسا من (التأريخ الرسمي) ـ (٣ : ٣٢) نورد .

. أوفد سر جورج بيوكانن من الهند ليكون المدير العام للموانئ واستصلاح الانهر ••• لكن خدماته كرّست ، في الدرجة الاولى ، الى الاستصلاح المذكور ، اما واجباته المتّصلة بادارة الميناء فلقـــد حدّدت ، محليا ، على انهـا استشارية محضة • لقد شعر الـ (جنرال ليك) بان الحاجة تمس الى تغيير في نظام ادارة الميناء ، آجلا كان ذلك أم عاجلا ، لكنه رأى ان اجراء ذلك لم يحن زمنه بعد ، سيما وان الضغط المتأتّي عن حركات انقاذ الكوت كان في أوجه ، وان سر جورج بيوكانن لم يفرغ، بعدُ ، من مشاريع الاستصلاح المذكورة أيضا• « لا يمكن أن تقوم هذه المشاريع على الوجه القويم قبل شهور عدة ، ولن يكون لمعاودة

---

(٤) شهدت الايام ، بين نيسان وكانون الاول ١٩١٦ ، تحولا تدريجيا في حال القوات البريطانية ، من الاين الى الراحة ومن النقص في التجهيزات والنقليـات والخدمات الى حال افضل عدة وتنظيما وعديدا • واخـذ السـلاح والعتـــاد والتجهيزات ومواد السكة الحديد والنقل البري والنهري ترد (القـــاعدة ــ البصرة) اسبوعيا • وقام سر جورج بيوكانن بخلق ميناء البصرة عـلى أسس عصرية وسيعه فبنى الارصفة والمسافن ، ووفر فيها التجهيزات، ونشطت الكراكات وبث الطوافات • كما شقت الطرق ومدت سكك حديد خفيفة لخدمة مصلحـة الميناء وبنيت سداد تقيه خطر الفيضان المحدق • وتم تأسيس (دائرة النقـل النهري الداخلي) وزيد من عدة سفن الاسطول النهري بنسبة خمسين مرة، وضم سفنا شتى جيىء بها من الارجاء طرّا • لقد غدا بهذا الاسطول فذاً في العـالم كله بالنسبة الى عدد السفن وحمولته • كما زيد من عدد الطائرات التى لم تك تزيـــد في أول الحملة ، على ٣ ، • وكانت من أنواع أفضـل فأصبحت على مستوى ما عند الاتراك اول مرة • كل ذلك استعداداً لمعاودة الزحف على بغداد، وقد آتت هذه الاستعدادات الثمرة المرجوة اخيرا •

[المترجم]

التنظيم أثر غير مستحب في الاجراءات المتخذة في الانقاد . لقد كانت هذه أعذار واهية حسب ، جادت بها شعبة من شعب الاركان في مقر الـ (جنرال ليك) رسميا . لقد كان (المقرُّ) يعارض في تعيين مدني من الهند للقيام بعمل تبيّن انه عاجز عن القيام به . وكان أن عاد (جورج بيوكانن) الى الهند على استعجال في يسار ، وفي الظاهر كانت الغاية من ذلك تسريع ارسال الكراكات ، لكن الحقيقة هي انه كان يرغب في أن يوضّح لحكومة الهند مقدار العراقيل الرسمية التي توضع في طريقه في البصرة ، والحصول على تعليمات من الهند الى (سر برسي ليك) تنصّ على أن يضطلع ، عند عودته ، بادارة الميناء والاستصلاح النهري . ومهما يكن من أمر ، كان (الجهاز الرسمي) قويا جدا ، بالنسبة اليه ، وبالنسبة الى حكومة الهند . وتألّفت في بلاد الرافدين لجنتان للنظر ، بعامة ، في قضية منظمة السفن النهرية وتقديم التقرير عنها . واجتمعت اللجنتان ، خلال شهري حزيران وتموز ، ولم تفرغ من اعداد تقاريرها الا في أول آب . ولم يُتّخذ أي اجراء بصدد التقارير هذه الا عند وصول العقيد كرى ، الذي عينته (وزارة الحرب) مستشارا لمفتش المواصلات العام ، وبصحبته عدد من الخبيرين من انكلترة . وبعد عشرة أيام اضطلعت وزارة الحرب بالامر كله ، وحجتها في ذلك ان السيطرة الثنائية على (القوة) ، وكانت ، بقدر تعلق الامر بالقضايا الادارية ، مناطة بالهند ، غير عملية . وكان أن وُعز الى (العقيد كرى) بتسلّم مهام الامور بالنسبة للنقل النهري كله ، وباشر في ذلك ، حقا ، يوم السابع من ايلول ، وبذلك انتهت فترة من التناحر المصلحي ، استطالت ثمانية شهور ، فأظهرت ما كان عليه (اولوا الامر) الذين فيها حقا .

ونيطت باللواء كرى ، اثر ترقيته الى هذه الرتبة توّاً ، التبعات التالية :

ا) تنظيم النقل النهري الداخلي والسيطرة عليه .

ب) ادارة شؤون تقليات الميناء وسفنها ، باستثناء البواخر الضاربة في عرض البحار ، وبضمن ذلك تفريغ شحنات البواخر عابرات المحيطات ،

ج) انشاء المسافن ، وأرصفة الميناء والترميم ووضع الطوّافات في النهر ، وتنويره فيما وراء الميناء البحري ،

د) والسيطرة على الملاحة النهرية ، وربابين[٥] السفن النهرية •

وكان مساعداه الرئيسان ، وهما على حظ من الكفاية عظيم ، المقدّم هيوز والنقيب راتسي • وبقي جلّ ضباط (البحرية الهندية الملكية) يعملون في امرته فأثبتوا ، في وقت ليس بطويل ، انهم قوام (المصلحة) حقا •

وكانت واجبات (سر جورج بيوكانن) ، مدير الميناء العام :

١) السيطرة على الميناء البحري وموظفي الميناء ،

٢) الاعمال الهندسية المتعلّقة بالميناء ، والنهر ، ومنظمة استصلاح الانهر ، وذلك باستثناء أرصفة السفن النهرية ،

٣) وبعض الاعمال الهندسية التي يطلب اليه القيام بها •

ومع عدم اغفالنا الهنات التي تساور الامور المصلحية عادة ، لقد جرى تحسين كبير خلال أشهر الصيف • وفي نهاية ايلول بلغت نسبة زيادة الاطنـــان التي تحمل على (دجلة) : ٤٦ بالمئة ، وفي نهاية السنة بلغت هذه النسبة : ١٠٠ بالمئة• وجرى تنظيم آلاف من الفرس والمصريين والعرب ، على نمط عسكري ، في (فيالق العمال) ، وحتى الهند لم تدخر وسعا في ارسال العمال ، وكانوا من نزلاء السجون في الدرجة الاولى •

وطـــرأ تحسّن ملحوظ في بعض النواحي الاخرى أيضا • ووصـــل (العميد ماكمن) يوم الرابع عشر من نيسان بناء على طلب من الـ (جنرال ليك) ليتبوّأ منصب (مفتش المواصلات العام) ، وهو منصب تتابع على اشغاله عدد من ضباط القادة ، ممن لم يك السبب في تعيينهم فيه ، غير كونهم في عداد الاشخاص غير مرغوب فيهم في أمكنة اخرى • وسرعان ما قام (سر جون ماكمن) ، على ما أصبح يدعى الآن ، باجراء تغييرات عميقة في جوهر القيادة وروحها • انه ذو

(٥) جـ • ربان • وهو الذي يجري السفينة وربان كل شيء ، لغة ، اوله [المترجم]

شخصية ملهمة ، وهو ذو قدرة تنظيمية عظيمة • وكان المرح يشعّ منه دوما فيغمر الناس جميعا • وكان يفضي بالكلمة المتواضعة لتسقط ، حلوة الجَرْس في اذن أصغر من يعمل في (القوة) فتأخذ باللب وتلتصق بجوانب النفس • كما كانت لديه معلومات تامة عن كل صنف من صنوف الجيش الهندي ، وكان يعتد من الثقات الاثبات في باب تشكيلاته[٦] • وعلى ذلك ، سرعان ما أصبح أشهر مَنْ في (القوة) ، وأحب من فيها الى قلوب الناس حقا • ولم يرتكب الخطأ الشائع الذي ارتكبه من في امرته ؛ لذلك أصبحت هيأة موظفيه أشد حولا وطولا وكفاية من هيأة (المقر العام) ، وأخذت ، بمرور الزمن ، تمتلك سلطة متزايدة • وكانت لديه طريقة خاصة يحصل بها على ما يريد من الهند • لقد كانت الطلبات ، فيما مضى ، تنثال من (المقر العام) على (سملا) وتضمّن في رسائل ، جافية الكلمة ، غالبا ، فاستبدلها بطلبات محرّرات بكلمات بيّنات لاحبات مغريات ، وضمّنها اقرار الصديق المقدّر لما يجبه الهند من صعوبات ومشكلات ، وقد يدعمها برسائل شخصية تتّسم بالمرح والانشراح • لقد كان يفهم (الادارة المدنية) ويعطف عليها ، وكان يعنيه أن يتعرّف على الشخصيات العربية البارزة • وكان يتردّد على المستشفيات ويزورها دوما فيلقى فيها ترحابا بالغا • وكان يصب الجهد الباذل ليجعل حياة الممرضات هينة مفرحه (وكانت عدتهن في بلاد ما بين النهرين خلال صيف ١٩١٦ : ١٥٠)، شأنها كشأن حياة الضباط والجنود في الوحدات كافة • ولم يكُ يطلب أحد عون (مفتش المواصلات العام) فيخيب أمله أو يرجع بخفّي حنين • وعنـــدما تولى الجنرال مود في آب سنة ١٩١٦ (قيادة الجبهة العامة) منح (مفتش المواصلات العام) سلطة أوسع ، وكان يتحدث

---

(٦) يعتد كتابه الموسوم ب (جيوش الهند The Armies of India الصادر سنة١٩٠٩ مرجعاً خالداً، وانه ليستأهل المطالعة ، اليوم ، على غرار ماكان يستأهلها عند صدوره اول مرة •

(المؤلف)

عنه بكلمات عاطفة حارة ، وكتب منوّها بقابلياته[7] أيضا • كان يحسن معاملة الهنود والفرس والعرب ، فلا يبسط لسانه بنكير ، وكان نفوذه ينصب على الخير والاحسان دوما • لكن واجبه كان شاقا عسيرا ، ذلك ان صيف سنة ١٩١٦ كان أشد أوارا وودیقة من صيف سنة١٩١٥، لذلك عانى آحاد (القوة) من المستجدّين ، وهم الذين يؤلّفون الآن جلها ، من قسوة الطقس كثيرا ، وبأشد مما عاناه زملاؤهم في الصيف المنصرم •

وكانت المستشفيات ، ومشروعات النقاهة ، في العمارة والبصرة ، مزدحمة ، ومن بين «القفلات» المستجدّة من الجند التي كانت تصل من انكلترة ، وقد أضناها السفر في البحار الاستوائية كثيرا ، لم يكُ يصل وحداتها الا أقلّ من النصف ، أما البقية الباقية فكانت تتّخذ السبيل الى المستشفيات ، حشرا على حشر • وبذلت كل محاولة لارسال أكبر عدد من المرضات الخطرة المستطاعة الى الهند ، لكن المصاعب الناجمة عن الجو كانت هنا جمّة • وحدثت على ظهر باخرة واحدة اعني : (دونكولا) ، وهي تنساب من البصرة الى بمبي في ايلول ، ١٣٠ اصابة من الاصابات بأوار الشمس ، كان منها ٢٣ اصابة في الاقل مميتة[8] • وكانت السلطات الصحية بطيئة للغاية في ادراك تبعتها بقدر تعلق الامر بالجرايات التي تزوّد بها القطعات ، فيتكون ، من حيث الجودة ، على وَفْق ما تسمح به الظروف • وعاد مرض الاسقربوط الى الظهور ، وانتشر بين الجنود الهنود ، فجاء بالشر المستطير •

وفضلا عن الضحايا العظيمة المسببّة عنه ، وعن مرض (بيرى - بيرى) اللذين انتشرا بين القطعات البريطانية والهندية (والاخير من أمراض تنجم عن نقص في التغذية) سنة ١٩١٥ ، وعلى الرغم من الجهود الجادّة التي بذلتها

---

(٧) راجع : (Callwell)
و (Bell) جـ ١ ص ٣٧٨ و ص ٣٨٢

[المؤلف]

(٨) راجع : Debates. H.C. 19.10.1

[المؤلف]

زورة الحرب) في تأمين حاجات (القوة) ، لم يستطع أحد التغلّب على مرض (الاسقربوط) والسيطرة عليه الا في نهاية سنة ١٩١٦ • وبلغ عدد من أقعدهم هذا المرض وحـــده عن العمل عشرة آلاف شخص وزيادة[٩] • وزُعم في (البرلمان)[١٠] ، ولم يعمد أحد الى نفي هذا الزعم ، ان ٩٠ بالمئة من المرضى الذين كانوا على ظهر احدى السفن النـــاقلات أصيبوا به • لكن الاسقربوط ليس ، الآن ، بمرض جديد • انه ، على ما يقول (كينكليك) ، المرض الاكيد الذي يغدو ، دوما ، رب الاتهام ، الذي لا يغلب ، يوجّه اتهامه الى من يضطلع ويفشل في تهيئة القوت اللازم لسلامة الجيش • ان سبب المرض واحد هو : الحاجة الى القوت الصحيح اللازم •

« ان أسباب تفشّي الاسقربوط هي ، على ما تشهده هذه الايام ، انعدام الخضراوات كليا••• » واليك ما كتبه (الضابط الطبيب الاول) في القطعات الفرنسيه التي حاربت في (القرم) قبل ستين سنة[١١] ، ونحن في سنة ١٩٣٠ ، لا يمكن أن نضيف الى قوله الا قليلا • لقد كان متوقعا أن يحصد هذا المرض عددا كبيرا من النفوس ، آحاد (القوة) سنة ١٩١٦ ، ما الى الشك في ذلك من سبيل • ذلك أن أبعاده غدت خطرة بالنسبة الى الجنود في سنة ١٩١٥ • ولكن لم يتّخذ ما يلزم لتزويد القطعات بحاجتها الماسة ، أي : الطعام المتوازن من حيث المواد الغذائية ، حتى مجيء (الدكتورة ف «سر» بعد ذاك ويليم ويلكوكس) ، والذي تخلّى عن عمل مربح في لندن بتعيينه طبيبا مشاورا (للقوة)[١٢] • لقد نجح ، بعون

---

(٩) راجع : (ويلكوكس : (Willcox)
[المؤلف]

(١٠) راجع : Debates. H.C. 9.11.16

(١١) راجع : Kinglake, vi, 182.

(١٢) لقد ارسل كل من الدكتور ويلكوكس وسر في هورسلي ،باعتدادهما مشاورين ، من قبل (وزارة الحرب) وكان ذلك في كانون الثاني سنة ١٩١٦ عندما أخذ الناس في انكلترة يقفون على قصة فقدان الكفاية والرعب الراعب على وجه التمام • لقد خولا الاتصال ب (وزارة الحرب) مباشرة ، وهذهصلاحية طيبة ضمنت ، على ما لايستطيع اي اجراء آخر ضمانه ، العناية بما يقدمانه •
[المؤلف]

نشط أيد من العقيد (فسر بعد ذاك) ناثيوفيل ، في الحصول على طعام للقوة منقح المواد موفورها ، وذلك على الرغم من اللامبالاة والمعارضة اللتين اتصف بهما بعض أعضاء الهرم الطبي الرسمي • وظهرت النتائج بسرعة ، وكانت المرضات النسبيّة عن نقص الفيتامينات تعالج بين اللاجئين والاسرى الاتراك أيضا ، عندما كان يؤتى بهم ، أول مرة ، لينالوا منا الرعاية والعناية • لكن ••• ها قد مضت علينا سنتان من سني الحرب لكي نتعلّم مجدّدا (درسا) ألقته علينا حرب القرم سابقا •

يجب ان لانفترض ان المرض كان نازلا بنزلاء المستشفيات الذين شخّصت اصابتهم به ، ذلك ان من الثابت المحققّ ان هناك آلافا مؤلّفة كانت تشكو من أشياء أخرى ، وكان المرض نازلا بها أيضا • ان آحادها يشكّلون نسبه كبيرة وكانت امراضهم اما ناجمة ، او انها تضاعفت حدة الى درجة لايستهان بها ، من (الاسقربوط) • لقد بلغ عدد من دخل المستشفيات ، خلال الاسبوع المنتهي باليوم الاول من تموز ، ومن المقاتلة حسب ، ٩٠٠٠ وهكذا يكون ١٠٠ بالمئة شهريا • وهبط العدد هذا ، خلال شهر تشرين الثاني ، الى ١٠ بالمئة • لقد نظّمت المستشفيات ، بمقياس كبير ، في كل من الـ (شيخ سعد) و (العمارة) وفي (البصرة) ، وبلغت أسرّتها الميسورة للمرضى ، في تموز : ١٨٤٥٠ ، بعد ان كانت في كانون الثاني ٥٠٠٠ ، او انقص من العدد هذا قليلا • ينضاف الى ذلك ان قد كان يرسل الى الهند ما معدله نحو ٧٠٠٠ من المقاتلة شهريا ، وذلك خلال المدة الواقعة بين ايار وآب مددا • وبلغت عدّة النجدات ، خلال المدة نفسها ، قدرا معدله ١٦٠٠٠ من المقاتلة و٢١٥٠ من الحيوانات • ان اخطر الامراض التي كانت تنزل بالقطعات وافتكها هو : ضربة الشمس • ان درجة حرارة الامان هي درجة ١١٠ فهرنهيت ، الحدّ الحراري في الظل ، فان بلغته الحرارة حدثت على التحقيق بعض المرضات الناجمة عن الاوار والوديقة •

وكل ارتفاع آخر على هذا الحدّ كان يسبب مرضات كثيرة العدد متزايدة• ان درجة ١٢٠ فهرنهيت كانت ، على القطع ، خطرة • وكانت الليالي باردة

نسبيا ، وحتى خلال اشدّ الاشهر حرارة • لكن الوفيات في يوم حار تكون أكثر • ان الارهاق ، خلال العمل ابّان النهار الحار ، من اسباب ضربة الشمس ، وقد كانت وفاة (سر فيكتور هورسلي) في تموز سنة ١٩١٦ مسبّبة عن مشيه مسافة طويلة تحت اشعة الشمس ، لا ابهام في ذلك ولاشك • كان ابان ذلك يؤدي واجبه بوصفه جراحا مشاورا[١٣] • وكانت نسبة الضحايا بين منتسبي الخدمة الطبية المسببة عن ضربة الشمس ، للسبب نفسه ، اعلى من نسبة الضحايا في الدوائر الاخرى • لقد وفدت خلال فصل الصيف جماعات من الاطباء الشبان المتخرجين في المدارس الطبية حديثا ، فهوى كثير منهم تحت وقع ضربات الشمس فمات أو اقعدتهم أمراضه أشهراً • لقد كانوا مثقلين بالعمل جميعا ، وقليل منهم الذي لم يتأثر بالاتصال الدائب بهذا العدد الكبير من البشر التاعسين ، اعني من استدعوا لمعالجتهم ، وان كان ما عندهم من أسباب لا يجدي فتيلا ، اذ (قبل الرمي يجب أن يراش السهم) •

ومن ابرز ضباط الطبابة الكبار في البصرة (العقيد ملفيل) ، المنسوب الى مصلحة الصحة الهندية ، والاستاذ بجامعة لاهور سابقا ، وعلى الرغم من ان السن العالية اوهنت عاتقه فلم يعد قادراً على الخدمة تحت وطأة الظروف التي كانت سائدة في البصرة ، وعلى الرغم من انه عانى كثيرا من اضطراب في القلب ، الا انه تطوّع للخدمة في (بلاد مابين النهرين) فاوفدته حكومة الهند بصفة « طبيب مشاور » • ان معلوماته الجمّة حول الاوضاع الصحية في البلدان الشرقية ، ونفسه الكريمة ، وروحه الفيّاضة الطيبة ، وسحر شخصيته ، كل اولئك صيّره مرشدا مثاليا ، يريض الامور ، وفيلسوفا ، ووليا حميما لمن قدم من الضباط الاطباء حديثا • لقد ضرب مثالا في الصبر والثبات بازاء المصاعب (وما على المرء الا الصبر مجتهدا) يحتذي به الشبان ، فكانت له القيمة التي لا تثمّن • وكان يثير حماسهم المهني ما تحلّى به هذا الرجل من خبرة حقة

---

١٣ ــ راجع : Willcox and Swayne

[المؤلف]

تكمل التجربة العلمية الراقية التي اتسمّ بها (سر ويليم ويلكوكس) • لقد كان لهذين الرجلين وللجرائحيين الشاورين العقيد هيوكو (المنسوب الى مصلحة الصحة الهندية) و (العقيد ليك) نفوذ في الممارسة المهنية الطبية في (بـــلاد مابين النهرين) ، الى حد جدّ كبير • وعلقت اوهاق المنية بـ (العقيد ملفيل) فمضى لسبيله في بغداد ، في كانون الاول سنة ١٩١٨ ، بالسكتة القلبية ، وقد كان ، على ما ذكرنا آنفا ، مفؤودا •

وفي آب سنة ١٩١٦ قررت وزارة الحرب ان يشمل بلاد مابين النهرين (وكان ذلك ، على ما علمنا في سنة ١٩٢٠ ، طوال الحرب ، حسب) النظام الذي كان يسود ميادين الحرب الاخرى ، والى حد ضيّق نوعمّا ، واعني بــــه : ان يعيّن الى منصب القيادة العالية في بلاد مابين النهرين رجال حديثو السن نسبيا وذلك بالنظر الى من كان يُصطفى تلقائيا تقريبا ، طبقا لقوانين القدم ، فيتولى مقاليد الامور الكبرى • وكان (سر ويليم روبرتسن) يعرف الجنرال مود جيدا ، وكان عمره يقل عن عمر الجنرال ليك بتسع سنوات ، فعيّن (الاول) في منصب (الثاني) : قائدا عاما وذلك على الرغم من انه من ذوي الرتب الدائمية الصغيرة ، ان قورن باي قائد من قواد الفرق العاملين في بلاد مابين النهرين ، ومن انه كان يفتقد الخبرة اللازمة عن الهند والقطعات الهندية • وحلّ محله في قيادة (فيلق دجلة)[١٤] الـ (جنرال كوب) الذي كان اصغر سنا حتى من

---

١٤ ـ راجع CD, 8206, p. 58.

[المؤلف]

قلنا : كان يطلق على الحملة البريطانية على العراق اسم [الفرقة الاستكشافية الهنـــــــدية : (I.E.F.D.)] ، ثم اعيد تنظيمها اعتبارا من ٨ نيســان ١٩١٥ فاصبحت فيلقا Corps واطلق عليهـــا اسم (فيلق الجيش الهندي الثاني) وأصبحت بأمرة الفريق سرجون نيكسون ، وقد خلف هذا ، بسبب تردي صحته، في الامرة سر جون ليك • ثم نقلت تبعة (الحملة) من (وزارة الهند) الى (وزارة الحرب) واطلق عليها اسم (قوة بلاد ما بين النهرين الاستكشافية) • ثم اعتلت صحة القائد سر برسي ليك ـ وهو من علت به السن ـ فحل محله قائد انشط واكفأ وأعني به الـ (الجنرال مود) • وقسم (فيلق دجلة) في هذا الاوان الى قسمين هما : الفيلق الاول والفيلق الثالث وقد حل الـ (جنرال كوب) محل الـ (جنرال

الجنرال مود نفسه ، وأقل رتبة من قواد الفرق في البلاد أيضا .

وكان بين ال (جنرال مود) و (سر برسي ليك) تعاطف يرجع الى امد بعيد ، وقد قوّى من شأنه ما جرى بين الرجلين من تبادل في الرأي ، واستمر ذلك أربعة أيام ، سبقت رحيل ال (سر برسي ليك) الى بومبي بحرا . (لا استطيع ان اعبرّ عن اسفي عليه) ـ ذلك ما كتبه الجنرال مود السمح الكريم في رسالة خاصة ـ (واني لمعجب به اعجابا كبيرا ، ذلك انه ثبت بشكل رائع ، وصحته تتردى ، طوال ايامه ها هنا) .

وشهدت سنة **١٩١٦** بدء مدّ السكك الحديد ، وهي فرع من فاعليات عسكرية ، اريد منه ان يتوسع سريعا ليكون له النفوذ المهم المرتجى من الابتعاث الذي سيأتي في اعقاب الحرب . وقبل أن نتناول منهج مدّ السكك الحديد الحق ، على ما أُقرّ نهائيا ، من الضروري ان نشير باختصار الى المساجلات التي تركّزت حول هذا المشروع خلال السنة المنصرمة .

اقترح ال (جنرال باريت) يوم ال **٢٨** من شباط سنة **١٩١٥** مدّ سكة حديد خفيفة الى الناصرية . «فان مدّت هذه » ـ على ما قال « فانها لا تحلّ مشكلتنا التموينية حسب ، وانما ستؤول الى نشر الوية السلام في ربوع البلاد ». ولم تتخذ حكومة الهند اي اجراء بصدد هذا الطلب في حينه ، لكنها سألت (سر جون نيكسون) ، بعد ذلك ان كان بحاجة الى **١٣٧** من الاميال من قضبان السكة الحديد الخفيفة ، وكانت يومذاك ، في الهند ، ميسورة . وكان جواب

كورنج) في امرة الفيلق الاول (المكون من الفرقتين ١٣ و١٤) ، على حين كان ال (جنرال بروكنك) يقود الفرقة ال ١٥ التي تحتل منطقة الفرات السفلية . لقد عزل القائدان (نيكسون) و (ليك) بسبب اخفاقهما في معارك [الحملة] وعين مود الذي قدر له ان يفتتح بغداد (وكذا الدهر اذا ما عز ناس ذل ناس) بعد سلسلةمن الاندحارات وكثرة من الضحايا في المال والرجال ، وهكذا الدهر (يعطي بعد مايمنع) ، فكان الاحتلال البريطاني البغيض لـ (عراقنا الغالي العزيز) .. وقد ذهب اليوم الى غير رجعة : [فذاك دهر مضت عنا ضلالته
وكل دهر له في سيره سنن]
[المترجم]

(سر جون نيكسون) سلبا (وقيل انها كانت من نوعية غير صالحة، ويعود عهدها الى أيام دربار دلهي سنة ١٩١١) • لكنه كان يصبو الى مد سكة حديد الناصرية حقا ، وعلى ذلك اكّد طلبه في اليوم الرابع عشر من آب مرتكنا الى حجج عسكرية وسياسية وتجارية • وبعد ثلاثة اشهر اجابت حكومة الهند بأنها : « قررت الاّ تمضي ، في الوقت الحاضر ، في المشروع بسبب الكلفة » • وقد انتقد (سر ويليم مير) ، العضو المالي على هذا القرار على الوجه الاوسع ، وما كان ذلك عادلا • لزاما علينا ان نعترف بان الحجج السياسية والتجارية التي كان يراد بها تبرير (المشروع) لم تكن قوية ، فلقد اثبتت التجارب التالية ان تجهيزات الحبوب والعلف التي كان يحصل عليها في الناصرية ، يستطاع ايصالها الى البصرة ، على ما هو اليوم بالنهر جاريا ، وان ذلك اقل كلفة من نقلها بالسكة الحديد ، دوما ، كما ان الامل في النقل المربح هو اقل من ذلك شأنا ، وان تأثير الخطر في مصالح القبائل قد بولغ فيه كثيرا • ولو اصرّ (سر جون نيكسون) على الحجة العسكرية المبرّرة لمدّ الخط ، لنجح ، ذلك ان (سر ويليم مير) اوضح بانه لن يعارض (المشروع) لو طمأنه (القائد العام في الهند) بانه ضرورة لازمة من وجهة النظر العسكرية • ينضاف الى ذلك كله ، ان لو زحف (سر جون نيكسون) على بغداد ، في كانون الاول سنة ١٩١٥ ، واصاب في ذلك توفيقا لما غدا مدّ سكة حديد الى الناصريـة أمراً ضرورياً لازماً •

ودرس الموضوع أكثر عند قدوم الجنرال ليك ، ووضع خط خفيف ، ابان الربيع في (معقل) ، حيث كان يجرى بناء الارصفة البحرية • وكانت مواد السكة الحديد المستخدمة هي التي رفضها سرجون نيكسون قبل سنة نفسها• وكان وزن الياردة الواحدة من السكة ٢١ ليبرة ، وكانت العوارض من فولاذ ، والمسافة ، بين عارضة واخرى ، قدمين و ٨ انجات • ان هذه المادة لا تصلح الا لخط ترام محلي خفيف ، وهي غير ذات جدوى في انشاء سكة حديد تمتد ، عبر الصحراء ، الى الناصرية • ونظر الـ (جنرال ليك) في امكانية مدّ سكة

حديد بمحاذاة دجلة صُعدا ، لكنه انتهى الى انه لا يمكن القيام بشيء من هذا ، في ذلك الوقت ، لما يتطلّبه انشاء جسور على الفرات ، عند (كرمة علي) والقرنة ، من زمان • وما كان وحي هذا القرار مدعاة سرور ابدا • وعلى الرغم من ان السفن ، ماخرات المحيطات ، لن تستطيع الوصول الى القرنة فانهـا تستطيع بلوغ نقطة لا تبعد عنها الا ١٢ ميلا جنوبا ، وذلك عند نهر عمر (حيث شيدت الارصفة أخيرا) • هذا ولا يمكن ان نتصوّر لِمَ لا يستطاع تشييد جسر ، عبر الفرات عند القرنة ، خلال شهر او شهرين ؟ لو هبّت الى أمره حكومة الهند ونهدت • ينضاف الى ذلك كله وجود العدد الوفير من العمـال العرب على دجلة • وكان في الامكان الشروع بذلك ، قبل موسم الفيضان ، على خط يمتد من القرنة الى العمارة ، ولو مدّ الى (المقر العام لفيلق دجلة) في (شيخ سعد) لا صبح شيئا ثمينا غاليا • وفي ال ٢٢ من نيسان ١٩١٦ ، أصدرت (وزارة الحرب) امرا بمدّ سكة حديد الناصرية ، على أن يتمّ ذلك بالمقياس المتري ، وسريعا • وعُيِّن (مستر وايت) المنســوب الى مصلحـــة السكك الحديد الهندية (مديرا للسكك) ، فوصل في حزيـران واستحثّ العمل فجرى باقصى سرعة • واكمل مدّ الخط يوم ال ٢٩ من كانون الاول ١٩١٦ • ولولا تأخرّ ورود السكك والعوارض والخشب لاكمل في تشرين الثاني • ولكن اكماله في عز الصيف شيء تُقدّر عليه (مديرية السكك الحديد)، وقد جاء موظفوها من الهند غالبا •

وفي تموز سنة ١٩١٦ قررت (وزارة الحرب) ان يكون (مدير السكك الحديد) ضابطا عسكريا ذا خبرة بالتنظيمات المتبعة في انكلترة ، وبادارة السكك في ظروف حربية ، وعلى ذلك وصل (العقيد لبوك) المسوب الى صنف الهندسة الملكية في نهاية ايلول سنة ١٩١٦ • لقد كان هذا مهندسا ذا كفاية عظيمة وقد ثبت ان ما اسداه الى العراق كان كبيرا ، ذا نفع مستدام على الدهر مدداً •

وفي أيار سنة ١٩١٦ صودق على مد خط من القرنة الى العمارة ، والمسافة بينهما : ٧٥ ميلا • وكان المقياس الذي اختير : قدمين وستة انجات ، والسبب

في ذلك هو الرغبة في سرعة انجاز مدّ الخط بشكل يفوق مدّ الخط ذي المقياس المتري، من جهة ، ولوجود قضبان سكة خفيفة من المقياس المذكور ، من الجهة الاخرى •
ولم يشرع ، على كل حال ، في مدّ الخط الا في شهر تموز ، حين هبطت مياه النهر الى الحد الذي يُمكّن من القيام بذلك • وكان ان اكمل يوم الـ ٢٨ من تشرين الثاني ١٩١٦ • وبلغت حمولته اليومية مقداراً يتراوح بين ٢٠٠–٣٠٠ من الاطنان • لقد وفرّ علينا ٩٥ ميلا من أميال النقل نهرا ، وليس هناك من شطر من أشطار دجلة تصعب فيه الملاحة ، ويتلوّى فيه ويدور ، كمثل الشطر الكائن بين العمارة والقرنة • ولقد ثبت ان من اليسر صيانة الخط وادامته ، وبأكثر مما كان يؤمل ، ذلك ان طغيان الماء عليه وحدوث الكسرات فيه يقلّ عما هو حادث في الصحراء الكائنة بين أور [١٥] والزبير • وتقرر في آب سنة ١٩١٦ ان يُمدّ الخط هذا الى الـ (شيخ سعد) ، وعلى ذلك اكملت التعلية الترابية لمسافة ١٥ ميلا •

وعلى كل حال أهمل المشروع ، لان شكّا كان يساور القائمين عليه من تزويد الهند بالمواد اللازمة له ، من جهة ، وللاشفاق من ان خطاً ، مقياسه قدمان وستة انجات ، بفرض تجهيزه على وجه التمام ، يسدّ حاجة (القوة) ، من الجهة الاخرى • لكن خطا من مقياس قدمين وستة انجات ، على كل حال ، قد مدّ من (الشيخ سعد) الى ضفة (السن) حيث تكدست اكداس من المؤن والموازم• ومن هذه النقطة عينها استطعنا ان نسيطر على الغراف ، وشط الحي ، الى الدرجة

---

١٥ ـ عندها مفرق خط سكة حـــديد يمتـــد الى الناصرية • وتاريخ اور يذهب الى ما قبل الطوفان المذكور في (التوراة) والاســـاطير الســـومرية والبابلية والآشورية ، وقد حدد زمنه في نحو ٣٢٠٠ ق م• ويتفق ذلك مع ما عثر عليه من (الترنوق : رواسب الطين) التي خلفها ذلك الطوفان المحلي وثخنها ٨٠ قدما • ووجدت، بعدها، آثار مستوطنات • ولاتزال في أور بقية زقورة، وهي زقورة واحدة من زقورات بلاد ما بين النهرين ، ومن فوائد الزقورات على ما كان يراه سـكان هذه البلاد القدامى : الوقاية من الطوفان •

[المترجم]

التي تمنع الاتراك من استخدامه كخط هجوم على حاميتنا في الناصرية • ووصل الخط المذكور (السن) يوم الـ ١٣ من ايلول ، وفي الـ ٢٠ من كانون الاول جرى مدّه الى (الامام منصور) • وبمدّ الخط شيدت معاقل موصولة باسلاك شائكة ، على غرار ما كان منها في جنوبي افريقية ، وذلك الى الجنوب منه • انها تستهدف ايقاف سرقات الاعراب • وفي الحق اننا نعرف اليوم ، ولو كانت معلوماتنا الجغرافية أفضل مما كانت لدينا في وقتها ، لعلمنا ، ان نهر الحي لم يكن ، بنظر الاتراك ، الا على حظ قليل من الخطر عسكريا •

ومهما كانت الظروف ، يتراءى اننا كنا نحسن صنعا لو ركّزنا الجهد على تشييد سكة حديد بمقياس متري[١٦] تمتد بمحاذاة دجلة صُعدا ، ما لم يكن هدفنا الاقصى هو : بغداد • وفي الحالة الاخيرة يبرر مدّ خط سكة حديد بمحاذاة الفرات ، وهو اقصر سبيل اليها ، ويمر بارصين خصبة لا يمكن الوصول اليها بغير السكة الحديد • ولقد انتهت الامور الى ان يصبح خط البصرة ـ الناصرية هو الخط الرئيس ، وقد اقتُلعت الخطوط الاخـرى بعد (الهدنة) جميعا •

وما ان تمّ مدّ خط سكة حديد القرنة ـ العمارة بمقياس : قدمين وستة انجات ، الا حوّل الى « المقياس المتري » ، وقد جرى ذلك خلال شهر نيسان سنة ١٩١٧ وتحت اشراف العقيد ازات ، ومن دون ان يتوقفَ النقل عـلى الخط يوما واحدا ـ (انه عمل لو تعلمون عظيم !) وكانت للخط فائدة عسكرية كبيرة ، لكن (دائرة النقل المائي الداخلي) لا تزال غير قادرة على تموين بغداد • وكان امامنا سبيلان : الاستمرار على مد الخط المترى من العمارة ، او دعم

---

١٦ ـ ان مرد اتخاذ قرار باصطناع المقياس (المتري) المذكور الى تعذر الحصول على قضبان من القياس الاساس الا من اوربة • كانت سكة حديد الهند اما من المقياس العريض (٥ اقدام و ٦ انجات) أو من (المقياس المتري) • ومهما يكن من أمر ، تم تجهيز العوارض من المقياس الاساس والقضبان من وزن ٧٥ ليبـرة بعدئذ ، ليتيسر تبديل المقياس المذكور •

[المؤلف]

الشطر العسير ملاحة ، الكائن بين الكوت وبغداد ، بسكة حديد • واختير البديل الثاني فبدأ العمل فيه في أيار سنة ١٩١٧ • لقد استطعنا به ان نبدّل ١٠٤ من أميال السكة الحديد بـ ٢٠٠ ميل من أميال نهر تتعسّر فيه الملاحة • وبقيت فجوتان بين البصرة وبغداد ، واعني بهما : فجوة البصرة ـ القرنة وفجوة العمارة ـ الكوت • وردمت الفجوة الاولى بعد سنة ، اما الاخيرة فلم يتخذ بشأنها شيء ، نظرا لقلة المواد والعمال •

وليس هناك من عامل يفوق (دائرة النقل المائي الداخلي ـ المهندسين الملكيين) في اسداء العون الذى اسفر عن الظفر وتحقيق اهدافنا في (بلاد ما بين النهرين) • لقد جرى تنظيم هذه (الدائرة) على يد اللواء كري وتحت اشراف (مفتش المواصلات العام) ، وليس هنـــاك من دائـرة تستأهل دراسة أكثر منها[١٧] • ان ابتعاث هذه (الدائرة) ملحمة لم تُقدّر حق قدرها ، من قبل عُني بأمرها • لقد بدأت (الدائرة) بست بواخر وثماني سفن جرّارة ، سنة ١٩١٥ ، فاصبحت لديها من السفن الجرّارة والقوارب البخارية سنة ١٩١٦ ما عدتها ٤٤٦ ، ينضاف الى ذلك ٧٧٤ من الجنائب و٤١٤ من المراكب البخارية • وبلغ ملاكها ، عند الهدنة ، ٤٣٠٠ بعد ان كان سنة ١٩١٦ : ٧٠٠٠ كما بلغ مقدار الاطنان التي نقلتها في تشرين الثاني سنة ١٩١٦ : ٨٥٠ بعد ان كانت في نيسان لا تزيد على ٣٥٠ طنـا يوميـا : ثم بلغت الاطنـان المنقولة من البصـرة الى الكوت قرابة ٩٠٠ طن يوميا ينضاف الى ذلك ٥٠٠ طن اخرى تنقل من البصرة الى بغداد ، وهذا يعادل أكثر من نصف « طن ـ ميل » يوميا • وبقي هذا الرقم على حاله الى ان تمّ مد خط سكة حديد بغداد ـ البصرة وبدأ العمل عليه • ان الخدمة المشاركة التي اسدتها (السكك الحديد) و (النقـل النهري) صيّرت مقدار ما يُتَسلم في بغداد نحو ٣٠٠٠ طن يوميا •

وللحفاظ على هذا الاسطول العظيم ، وهو اكبر اسطول من نوعه في

---

١٧ ـ ان اردت الوقوف على أمرها تماما فراجع : Hall

[المؤلف]

العالم ، وجب بناء منظمة عظيمة في أقرب وقت • وبنيت سفن كثيرة في البصرة ، وكان ذلك في احواض شُيِّدت لهذه الغاية خصيصا ، وجيء بالبناة من انكلترة والهند • وكانت تعرقل هذا البناء مصاعب جمة ، منها ما لا معدى عنها ومنها ما يُرد الى قصر النظر وسوء الادارة في بلادنا • وعلى سبيل المثال ، ما كانت المخططات وخطط البناء لترسل مع أول وجبة من وجبات المواد ، بل كانت ترد بعد مضي شهور عديدة • وبدلا من ارسالها صحبة ضابط مسؤول كانت توضع ، على ما وقع في حادث واحد في الاقل ، داخل صندوق من خشب فقد ما عليه من اوراق دالّة ، لذلك اتّخذ سبيله الى انكلترة وعاد منها الى البصرة ، وذلك قبل ان يتحقّق القوم من محتواه •

وكان لزاما ان تبنى (مقرّات) لهيأة البناء والاحواض على ارض تُستصلح لهذه الغاية ، كما كان من الضروري ان تشيّد المزالق وتقام المشاغل وتعد المكائن الضخمة اللازمة لتصليح كل صنف من أصناف السفن العاملة • ولنقل زيت الوقود كان من الضروري الحصول على جنائب [١٨] خاصة من الهند او انكلترة او بناؤها محليا ، كما كان لزاما ان تقام احواض كبيرة على النهر صُعدا • ومما كان يبعث الدهش في النفوس اختلاف اللوازم التي تبقي السفن عاملة ناشطة دائبة ، وكانت هذه تجمع من انحاء العالم المختلفة ولم يكن في الامكان اتخاذ مقياس خاص لذلك • كانت تضم كل نوع من ماكنة ، وكل نوع معروف من المحرّكات ، وكل طرز من طُرز الجاذفات واللوالب كان فيها ممثلا • ان فضيلة النظر البعيد قد يجهز عليها ضياع سفينة ، مرتقبة بفارغ الصبر ، او عندما تضرب احدى ماخرات المحيطات بالنسيفة (الطربيد) ، وعلى ظهر هذه او تلك كثير من المواد الاحتياط • ولاعداد الرجال العاملين لهذه السفن وهي شتى ، ارسلت كل من حكومتي الهند وانكلترة قفلات ينتمي آحادُها الى كل بلد من بلدان العالم • فكان فيها زنوج من (جامايكا) و (باربادوس) امتازوا في عملهم

---

١٨ — هي الـ (دوب) بلغة عامة العراق ، وجنيبتا الفرس او الدابه ما يحمل على جانبيها ، في اللغة ، أصلا •

[المترجم]

واحسنوا صنعا ، وكان فيها ٦٠٠٠ من النجّارين الصينيين والاليين جاؤوا من (هونكونغ) ، كما كان فيها الطارقون الصوماليون وارباب القوارب من أهل (زنجبار) والآليون من كل اقاليم من اقاليم الهند وبرما ، فزادوا في عدّة منتسبي الدائرة كثيرا • دأب هؤلاء على العمل تحت اشراف رؤساء عمال جيء بهم من مسافن انكليزية واسكتلندية وايرلندية • كان أهل الصنعة ، عربا وفرسا ، ممن يطمئنون الى حياة الدعة ، يرون ان هذا لشيء عجيب ، فقد رأوا كيف ان واضعات الطابوق الانكليزية كانت تفرش ٤٠٠ طابوقة يوميا ، وكيف ان سنّانو Riveters (كلايد سايد) كانوا يعملون مع زملائهم الهنود جنبا الى جنب ، واجرهم ضعف الاجر الهندي المعتاد ، فينجزون من العمل ثلاثة أضعاف أو أربعة •

وكانت الاعمال الكتابية التي يتطلّبها ذلك كله ضخمة ، لكنها كانت تصرف بيسر وبرخاء ، ولم يظهر ، في يوم ما ، ان عدد ما يحتاج اليه من الكتاب الهنود الاكفاء كان قليلا ، ولعل مردّ ذلك الى الرواتب العالية التي كانت تدفع اليهم ، الى حد ما ، لكن الروح الوطني الاصيل كان عاملا يحفّز الاغلبية ، وعلى ذلك عمل باخلاص وتضحية : البراهميون والغوانيون والنصارى والبُهرة والهنود والمصريون والمسلمون المدراسيون والمسيحيون البنغاليون والسيك والمهـراطا ، والبوذيون أيضا ، جنبا الى جنب ، ومن دون ان تظهر على أحد منهم امارة شكوى ، فكان عملهم منتجا متوافقا منسجما • لقد نبذت كثير من متواضعات «الطبقية» بسكينة ، من دون جلبة • واقيمت في البصرة وبغداد مزارع لتربية الخنازيـر تلبية لطلبات العمال الصينيين ، وللجندي البريطاني في الاحايين • واستشير رجال الدين والوجهاء البلديون في المدينتين المذكورتين اولا ، فلم يعارض منهم ذلك احد ، لكنهم اشترطوا ان تكون قطعان الخنازير في بقعة منعزلة • ولم يعارض ذلك في البصرة الا ملاّك واحد ، اذ تصوّر ان الخنازير ستكون من النوع الوحشي ، وهو النوع الوحيد الذي كان يعرفه ، وانها قد تنطلق فتأكل الاطفال ، وعلى غرار ما كان يشاع عن الخنازير الوحشية التي تعيش في الاهوار •

ولم تقتصر تبعة (دائرة النقل المائي الداخلي) على صيانة سفن النهـر بكفاءة ، حسب . ذلك ان دجلة سرعان ما ازدحم بها ، وللحيلولة دون حدوث تصادم بينها ، واستقرارها على اليبس (ان السفينة لا تجري على اليبس !) ، احتيج الى نظام متقن من السيطرة النهرية . وعلى ذلك وضعت في دجلة عوّامات امتدّ خطها بين البصرة وبغداد ، وكانت تحوّل ، من مكان لاخر ، طبقا لتغيير مجاريه . وفي سنة ١٩١٧ وضع نظام للتدريب على الاعمال النهرية ، ومما احتواه : بناء حواجز وقتية من وشائع (حواجز) لتوجيه جريان الماء ، ابّان الصيهود ، وجهة معينة ، وذلك بغية تضييق النهر وزيادة عمقه . وقد كان هذا النظام باهظ الكلفة ، وما كان ذا أثر حق دوما ، لكنه ، على غرار نظام العوّامات ، ثبتت فائدته بنتائجه (والامور بخواتيمها) . ان ارتفاع ستة انجات في الماء ، في نحو ستة امكنة عسيرة الملاحة ، خلال الخريف ، يعني زيادة مئة طن اضافية من الاحمال ، عند رأس النهر يوميا .

وعندما اندلعت لهب الحرب لم يكن (ميناء البصرة) مبتعثا ابدا . كما لم يكن عدد السفن الراسية فيه ليزيد على ثلاث سفن ، في أي وقت من الاوقات ، فيما خلا موسم تصدير التمور . وكانت (المهيلات) تقوم بالتحميل والتفريغ ، كما كان يؤتى بعمالهما من (ابوشهر) غالبا ، على ظهر كل سفينة قادمة ، ثم يعادون الى تلكم الميناء في سفرة السفينة الراجعة . وكان الحاجز الرمل ، عند مدخل شط العرب ، لا يسمح الا بغاطس لا يزيد على ١٩ قدما ، وذلك عندما يبلغ المدّ اقصاه . لذلك كانت السفن التي تتطلب غاطسا يزيد على ذلك مضطرة الى طرح جزء من حمولتها على ظهر سفن صغيرة ، وهي عملية كانت ترتبك غالبا ، ان هبّت ريح صرصر عاتيـــة ، وتستطيل أيامـــا . وكانـت الارضون الشجيرة بباسقات النخـل على ضفتي شط العرب ، وراء البصـرة وقدامها ، منخفضة عن أعلى منسوب للفيضان وتتخللّها القنوات ، وهذه لم تتّخذ لها الوقاية اللازمة ، وانما اقتصرت وقايتها على سداد من تراب تجنّبها اخطار الفيضان حسب . ولم تكن في الميناء ارصفة حقة ، وما كانت هناك ارض يابسة

لاقامة المخازن والمعسكرات • ولم تكن المواد اللازمة لرصف الطرق ميسورة الا في الكويت وغيرها من الاماكن على (الخليج) • وكانت (الحملة الاستكشافية) الاصلية مؤلفة من فرقة واحدة ، لذلك لم تقف في وجهها عراقيل حادة نابعة من هذه الحال العتيدة • لقد كُدّست اللوازم في أماكن شتى ، لا ترتبط الا بطرق نهرية ، او بمسارات تجرى عليها عربات تجرها البغال ، وكانت مواقع المعسكرات تختار اعتباطا ، وحيث توجد ارض يابسة • وفي نهاية سنة ١٩١٥ لم يحدث الا قليل من أصلاح تناول هذه الامور ، ان كان ذلك حدث حقا • لم يوضع مشروع شامل ، ولم تبذل محاولة ما في سبيل توسيع ميناء البصرة تلبية لحاجة (قوة) متنامية سريعا • وكان الـ (كوماندر هملتون) الضابط الاول للنقل البحري قد اقترح في اوائل سنة ١٩١٥ تنظيم الميناء وزيادة الاسطول النهري حقا ، لكن مقترحه لم يدعم بقوة من قبل ضباط (المقر العام) الاركان ، كما لم ينظر اليه نظرة الجد في الهند •

ويتراءى ان (حكومة الهند) كانت اول جهة رسمية ادركت ان التغيير الجذري أمر ضروري لا مفر منه ، ولهذه الغاية اوفدت (سر جورج بيوكانن) الى البصرة في مطلع سنة ١٩١٦ يحمل عنوانا رنانا هو : (المدير العام لادارة الميناء والاستصلاح النهري) ، على ماذكرنا قبلا ، لكن ذلك لم يصحب بتحديد واضح لواجباته ، او بتعليمات معينة الى الـ (الجنرال ليك) ، بقدر تعلق الامر بعلاقته مع هيأة الاركان • ووصل (سر جورج بيوكانن) والحال على اسوأ ما تكون : فالهند كانت تشتري البواخر بهوس عجيب ، منها ما كان صالحا ومنها ، وهو الاغلب ، ما لم يكن بصالح • واستنادا الى مشورة فجة جاءت كثير من السفن من بورما ، كما جاء قليل منها ، وهي بلا نفع عديمة الجدوى ، من (النيل) ، فكان نقلها باهظ التكاليف كثيرها • وكان ارسال كثير من هذه السفن على استعجال ، وفي غير الموسم الملائم ، وما كانت سطوحها متقنة ، لذلك ضلت طريقها في البحر وهي تجري فيه على غير هدى ، ووصلت غيرها لكنها كانت قليلة الفائدة ، ذلك انها حتى في سنة ١٩١٦ كانت تمثل اسوأ ما ارسل

من السفن البخارية ، لا افضلها[19] •

وكان ازدحام السفن الناقلات ، عابرات المحيطات ، في البصرة مهولا ، فبعث ذلك اليأس القاتل في نفس (مراقب التحميل في انكلترة) ، وفي العالم التجاري طرّا • ففي نيسان سنة ١٩١٦ كانت ثمة عشرون سـفينة محمّلة ، ملقية مراسيها في مجرى النهر ، جنوبي البصرة ، وبقيت على هذه الحال طوال ستة أسابيع ، قبل ان يمس بها فرد ما • وعلى الرغم من ذلك كله كانت الطلبـات بشأن اللوازم والمهمات تنهال ، (مالها من فَوَاق) ، فتُرسل من الهند • وفي آذار سنة ١٩١٧ كان مقدار ما بلغ (سلانيك) و (مصر) و (بلاد مابين النهرين) و (افريقية الشرقية) ٣٣٥ سفينة ، حمولة كل منها ١٦٠٠ من الاطنان القائمة وزيادة • كان عبء ذلك ثقيلا ، من حيث كمية الاطنان والحراسة ، والى الحد

١٩ ــ يلحظ القارىء ان جميع هذه الاستعدادات كان يراد منها توفـير المعدات لاستئناف(حرب الحركة) في الحملة البريطانية على العراق ،وان شابتها الشوائب الكثيرة على مايسرد (المؤلف)،وذلك بعد ان نكص البريطانيون في زحفهم الاول على بغداد مدبرين ورجعوا هربا • وخليق بنا أن نورد ، هنا ما يذكره في (مذكراته) القائد الالماني في الحرب العالمية الثانية ، نابه الذكر ، (روميل) الذي اطلق عليه اسم (ثعلب الصحراء) بهذا الصدد ، قال : « ان العنصر الاساسي في (حرب الحركة) هو المعدات باعتدادها تتم عمل الجندي من حيث الاساس • ذلك انه لا قيمة لافضل الجنود كفاية في (حرب الحركة) من دون الدبابات والمدافـع والعربات فاذا تمكنا من تدمير معدات اية قوة خفيفة الحركة إستطعنا منعهـا من القيام باية عملية ، وذلك على الرغم من ان هذا لن يؤثر في القوة البشـرية كثيرا • وليست مثل هذه الحال كثيرة التكاليف في (حرب المواضع) اذ لو فقـد جندي المشاة ، وهو في موضعه ، بندقية أو قنبرة يدوية فلن يسفر ذلك عن ايهان شأنه ، شريطة ان يحمى بواسطة المدافع والمدافع المضادة للدبابات • فقصـد (العدو) الاول هو قتل جندي المشاة العادي في موقعه ، ومن هنا نجد ان (حرب المواضع) لا تعدو صراعا للاجهاز على العسكر، وذلك على لنقيض من (حرب الحركة) التي هي تدمير المعدات •

[المترجم]

الذي بعث تفكيرا جدّيا [٢٠] في نبذ بعض هذه الحملات النائية ، او كلها •
وكانت ترتيبات تحميل اللوازم من (بمبي) و (كراجي) سيئة ، اذ لم يكن ثمة ارتباط بين هاتين الميناءين وبين البصرة ، كما لم يظهر اى تفهّم لدى مَن في الطرفين للجمع بين ضرورات التفريغ والتحميل والحاجات المباشرة ل (حملة مابين النهرين) • فمن الاصول المتبعة السديدة ان توضع الاحمال الثقيلة في جوف السفن ، وتوضع الخفيفة منها على ظهرها ، لكن هذه كانت تبعث الكوارث فتنزل بكفاية ميناء البصرة ، اذ قد تكون الاحمال التي على ظهور السفن من الخشب ، الذي لايحتاج اليه آنيا ، وعليه يجب ان يفرّغ عند رصيف معين كائن على ضفة النهر صُعدا ، وقد يكون علفا ، وله رصيف خاص كائن جنوبي البصرة ، على مسافة اميال قليلة ، على حين تكون الاحمال الثقيلة من الضرورات التي يحتاج اليها آنيا ، وهي في اجواف السفن مستقرة • وما كانت الزيادة العظيمة في المواد المستوردة متأتية عن توسع فجائي في الحاجات العسكرية ، لكنها كانت مسبّبة عن القرار الذي اتُّخذ ، قبل وصول (سرجي ماكمن) بقليل، ومحصله ان يكون في بلاد مابين النهرين احتياطي من اللوازم على اختلافها ، وبكمية تكفي حاجة (القوة) طوال اشهر ثلاثة • وطُلب الى كل دائرة من قبل (هيأة ضباط الميرة) ان تبيّن حاجتها لكي يصبح ما لديها من الاحتياط بالحد المخوّل به • ولم يفكر احد بما قد يعقب ذلك من ازدحام لا معدى عنه • لقد كانت الارصفة ، والخدمات المساعدة الاخرى ، قـــادرة على ان تنهض بعبء لوازم أسابيع خمسة ، او خلال شهر واحد ، لا اكثر • ولو نظّمت اللوازم على هذا الاساس ، لتجمعت المواد الاحتياط تدريجيا ، ولتجنبنا تبديد

---

٢٠ ــ راجع :
G.E. Fayle: "History of the Great War, Seaborne Trade, III, 162.
ان المسافة بين لندن والبصرة بحرا هي ٦٧٠٠ ميل تقريبـــا ، ومن بمبى الى البصرة ١٧٠٠ ميل • اما المسافة بين لندن و (كيب تاون : مدينة الكاب)فهي ٦٢٠٠ من الاميال •

[المؤلف]

قدرة السفن الطنية والقوة البشرية ، وكلاهما كان مهولا مرعبا • انهـا من حالات سوء التنظيم ، لا لبس في ذلك ولا غموض •

وكان الازدحام عظيما بحيث صعب علي (سر جورج بيوكانن) ان يحصل على المجال اللازم لشحن المواد الضخمة التي احتيج اليها لبناء الارصفة الجديدة، ولم يستطع الحصول على ذلك على حيويتها الا بعد مرور شهور •

وكانت أولى خطواته هي الحصول على ثلاث كراكات من الهند ، وقدر له ان يستصلح ، بواحدة منها ، ارضا وسيعة في (المعقل) ؛ سبق ان اتلعت منها النخيلات التي كانت تقوم عليها • وعلى ذلك ، تم بناء الارصفة واستخدم في ذلك الخشب المستورد ، كما اصطنعت لذلك مكائن قوية ، جيء اليها بكل جديد من تجهيزات الموانيء ، وفي نهاية سنة **١٩١٧** كانت في (معقل) من المراسي مايكفي حاجة **١٢** باخرة ، وكانت سكة حديد البصرة ـ الناصرية مرتبطة، كما كان هناك طريق مفروش بالسمنت يمتد الى البصرة والعشار ، وسكة حديد خفيفة تمتد خطوطها الى المعسكرات العديدة • وعلى الرغم من ذلك كله لم تكن تلكم الارصفة بكافية تسد حاجتنا كلها • وفي شتاء سنة **١٩١٧ـ١٩١٨** كان هناك ما لا يقل عن عشرين سفينة من عابرات المحيطات راسية في الميناء ، كما كانت ست سفن أو سبع تدخل الميناء وتخرج منها ، يوميا ، ومعدل الوقت اللازم لكل منها ثلاثة أيام • تلك حال النقل البحري شحا وضآلة ، وما استتبعها من أهمية بالغة كان يعلقها (مراقب النقل البحري)[٢١] على التفريغ السريع • لقد ادى ذلك كله الى اتخاذ مقررات بانشاء سلسلة جديدة من الارصفة على بعد **١٥** ميلا في النهر صعُدُا ، عند (نهر عمر) ، حيث توجد منطقة فيها ماء عميق ، قريبة من اليابسة • لقد ثبت انه صحي نظيف ، وعلى ذلك اقيمت

---

٢١ ـ ان السيطرة الثنائية المفروضة من قبل (مراقب الشحن في لندن) و (حكومة الهند) على الشحن عبر المحيطات كانت عقبة في سبيل الاقتصـــاد بالنقل الطني ، ذلك انه كانت تتدخل بتركيز الخدمات وتبادلها وهو ما كانت (الدائرة) هادفة اليه ، [راجع : .Fayle II, p. 212]

[المؤلف]

فيه للقطعات مستقرات تتلبّث فيها لحين مضيها في النهر صعدا • وقد استعمل بعد ذلك معسكرا للاجئين ، ثم للتسريح قُدما ، اخيرا •

ووضعت مشاريع الكري خلال سنة ١٩١٦ وسارت خلال سنتي ١٩١٧ و١٩١٨ قُدُما ، وعلى الرغم من وصول السكة الحديد الى الناصرية في نهاية سنة ١٩١٦ رؤي ان يُهيىء خط بديل عن المواصلات النهرية ، لذلك حُفر مجرى ، عبر بحيرة الحمار ، فامتد من (الجبايش) الى الفرات ، وكلّف نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات • انها لم تبرر القصد من وجودها أبدا ، ولم تهدد السكة الحديد ، في يوم ما ، تهديدا خطيرا » [٢٢] • كما لم يتم مدّها الا سنة ١٩١٩ ، حين بدأ استعمالها • لقد غُيّر خط سيرها ، بناء على (تعليمات) الـ (جنرال مود) ولكي تصل الفرات عن طريق (قناة المزلاك) ، بدلا من القناة المتّجهة بأكثر الى الشمال واعني : العكيكة • وقد يكون لهذا التغيير ، الذي استنفد كثيرا من المال والنفقات ، مبرر لو أريد من ورائه الحفاظ على المجرى ايام السلم ، ذلك ان مجرى العكيكة كان قد غلق بالسدود لسنوات ، فانتفت منه مقاصد الارواء كليا ، وبعد ان كانت تعتمد عليه ، في ذلك ، منطقة كبيرة يُستنبت فيها الرز دوما ، على حين كانت (قناة المزلاك) مطهّرة من أمثال هذه العوائق تماما • ومهما تكن الحال ، كان المزارعون يترقّبون ، فرحين ، تعويضا ، لقاء ما ضيّعوه من حاصل ، نقديا ، وقد يكون هذا تافه المقدار بالنظر الى ما انفق على تغيير السبيل • واني لأذكر هذه الحقيقة ، لان (الادارة المدنية) ، في وقت متأخر ، طُلب اليها بالحاح تقديم مبلغ كبير لقاء نفقات عمليات الكري التي جرت في بحيرة الحمّار ، وعندما رفضت ذلك اعتدّت بعض الجهات ذلكم الرفض غير معقول ، أو مشاكسة وعنادا ، تقريبا • لكنني استطعت ، بأخَرة ، ان ابيّن ان الحفاظ على القناة أمر" لا سبيل اليه البتة ، وانه حمل لا يطاق يقع على الواردات العامة ، وقد كانت ، في حينه ، تنوء بعجز ، بقدر تعلق الامر بالانفاق على تسيير السكة الحديد •

---

٢٢ ـ راجع : .Moberly, iii, 69 [المؤلف]

وفي النصف الاخير من سنة ١٩١٦ كانت عمليات التطهير ناشطة في جهات أخرى ، كما استمرّت طوال سنة ١٩١٧ كلها • وكانت المراسي في (معقل) بحاجة الى تعميق ، كما كان حاجز الترنوق ، الذي يتكوّن ، كل سنة ، جنوبي المحمّرة ، بحاجة الى عناية ، وقد بذلت محاولة ، لم تصب النجح تماما ، في باب تحسين الاوضاع في شط العرب وحاجزه الترنوق • واستعيرت (الكراكة كور موورانت) من (رانكوون) وعملت في « الحاجز » ، من تموز سنة ١٩١٦ حتى نيسان سنة ١٩١٧ فطهرّت مازنته ٤٠٠٠٠٠ من اطنان الرواسب ، كما زادت من عمق النهر بما يتراوح بين قدم و ١٨ انجا ، لكن هذا التحسين ، على كل حال ، لم تكتب له الديمومة ابدا •

ومما عُني به (سر جورج بيوكانن) أيضا احتمال زيادة عمق دجلة في شطره الكائن بين (علي الغربي) و (العزير) عن طريق انقاص ما ينساب من مائه في القنوات الكبيرة ، ذلك ان هذه كانت تغرف من مائه ما يقرب الثلثين فتجعل النهر ضيقا ، اشبه ما يكون باخدود ماء لا تستطيع سفينتان الجري فيه ، جنبا الى جنب ، أبدا • وما كانت في مثل هذا (المشروع) مشكلات تقنية خطيرة ، لكن الاعراب البلديين نظروا اليه نظرة شنآن مكشوفة • ذلك انهم دأبوا ، منذ اقدم الازمان، على الاعتماد على مياه الفيضان في اخصاب الرزّازات (حقول الرز) عن سبيل زيادة كمية الترسبات التي تستقرّ عليها ، وان أي نقص في كمية ما يردها من الماء ، خلال فصلي الصيف والشتاء ، يؤدي الى ان تبور مساحات من الارض كبيرة • وقام (مستر دوبس)[٢٣] بمعالجـــه المشكلة بما عرف عنه من نشاط وقوة • ذلك انه ، بوصفه المولج بالشؤون المالية كان يضطلع شخصيا بالتفتيش على المناطق التي قد يمسّها ، من جراء ذلك ،

---

٢٣ ــ هو الخبير المالي في حكومة الاحتلال البريطاني ، و قد سما به سلم الرتب ، بعد ذلك ، فأصبح : (المندوب السامي البريطاني في العراق) • ويلحظ انه وقف بجانب المرحوم عبدالمحسن السعدون ابان توليه رآسة الوزارة العراقية ، على حين كان يقف سلفه (سر برسي كوكس) بجانب السيد عبدالرحمن النقيب الذي اشغل قبل السعدون تلكم الرآسة •

[المترجم]

ضرر ، ولم يكن قد زارها الموظفون من قبل ، سواء اكانوا من الاتراك ام من الانكليز • وارضى (تقريره) مفتش المواصلات العام (وقائد الجيش) فاطمئنا الى ان (المشروع) لاجدوى من ورائه ولا طائل ، لذلك نبذ الى غير رجعة •

وبقي ان نذكر ان الفيضان كان في سنتي ١٩١٥ و ١٩١٦ عاليا على وجه شاذ غير مألوف ، ومردّ ذلك الى أسباب طبيعية هي : ذوبان ثلوج الاراضي التركية والى تهطال المطر في الربيع • وعزى بعض ادعياء العلم البلديون ذلك الى فيضان سنة ١٩١٦ ، وكان ما عزوه سبباً في صرف الحديث عن اقامة سدة في سنة ١٩١٥ تمتدّ من قرب (معقل) الى الاراضي المرتفعة الكائنة قرب (الشعبية) • لقد كان القصد من وراء هذه السدّة ان يكون الطريق ، وخط السكة الحديد، الممتدان الى الزبير والشعيبة والناصرية في منجاة من خطـــر الفيضان ، على ما كانت عليه الحال قبلا، ومنع فيض الفرات من التسرب ، قرب كرمة علي(٢٤) ، الى خور عبدالله (٢٥) • لقد دلّت التحريّات التي اجريت ، أخيرا ، على ان هذه النظرة لا تتّسم بالسداد ، فتشييد (السدة) ادى الى ان تصبح البصرة ارفع

---

٢٤ ـ عندما قام العقيدجسني برحلته،سنة١٨٣٧، كان الفرات يجري بين ضفتين محدودتين جدا ويلتقي بدجلة عند القرنة ، على بعد ٤٦ ميلا شمالي البصرة • ومنذ ذلك التاريخ خرق الفرات ضفته اليمنى وشق له مجرى الى شط العرب ، عند (كرمة علي) على بعد ٦ أميال ، شمالي البصرة • راجع : جسني : Chesney

[المؤلف]

قلنا : و (القرنة) موقع تعبوي ، اذ في شمالها (قناة الباشا) ، والدفـاع عنها برا سهل جدا • ويمكن عن طريق تحكيمها ووضع المدافع فيها سد شط العرب بوجه القوات التي تريد التوغل في العراق • وللزبير والشعيبة مثل هذه الاهمية ما دامتا مركز جميع الطرق المارة من الجنوب والغرب • والموقعان هذان يشكلان خط الدفاع عن البصرة بازاء الهجمات التي تشن عليها من الجهـات المذكورة •

[المترجم]

٢٥ ـ « خور » وليس ب « هور » على ما ورد في المجلة الجغرافية الملكيـة R.G.S. ـ قائمة الاسامي في العراق • اذ الهور ماء عذب ينساب من البطائح والخور ذراع من البحر • [المؤلف]

قلنا : وفي (المحكم في اللغة لابن سيده) « الخور مصب لماء البحر » •

[المترجم]

حرارة وأكثر جفافا نوعما ، ولعلها اوفر صحة ، لكنها لم تكُ ذات أثر محسوس ملموس في مستوى ماء النهر ، لذلك (لم يحقق الخُبْرُ منها الخَبَرَ) •

وعرقلت الفيضانات هذه تقدّم الاعمال في جميع الجهات ، اذ انها ادت الى تحويل العمال من اعمال مستدامة ، ذوات خطر ، الى القيام بسداد وقتية • ولم نستطع التركيز على المشاريع الكبيرة(٤٧) الا بعد ان اخذ مستوى المـــاء بالهبوط في اواسط حزيران •

ومن القضايا الاخرى التي عُنيت بها (دائرة الاستصلاح النهري) خلال سنة ١٩١٦ ، أضاءة شط العرب وتزويده بالعوّامات ، شأنه كشأن (حاجز الترنوق) ، وتوسيع نظامه كثيرا • وكانت (حكومة الهند) تقوم باضاءة (الخليج) وبأمر عوّاماته عموما ، وهي تتعاون مع الحكومة البريطانية ، وقد باشرنا بذلك قبيل الحرب • ومهما تكن الحال ، لا يشرع باتخاذ الخطوات اللازمة لتحسين اضاءة النهر وشؤون عواماته الا في كانون الاول سنة ١٩١٦ ، شأنه كشأن حال (الحاجز) ، سواء بســواء ، لذلك لم تستطع السـفن ان تلج النهر ليـلا الا بعد اقامة عوامات مضيئة فيه خلال سنة ١٩١٦ ، وكان ذلك سببا في تأخـير كبير ، واستتبع ، بالاضافة الى ذلك التأخير ، ان يجري التفريغ ابان النهار

---

٢٦ ـ يحدث في البصرة فيضان عظيم بين الفينة والفينة ، وما لم تتخـذ الاحتياطات المبكرة قد يجر ذلك الى اضرار جسيمة • ويشير تقرير قدمه القنصل البريطاني في البصرة الى وزارة خارجية حكومة صاحب الجلالة البريطانيـــة الى فيضان وقع في سنة ١٨٩٦ فجرفت المياه بساتين النخل وبقيت مستقرة فدمرت ما خمن بمليوني شجرة • وان اردت الوقوف على حديث في اســـباب الفيضانات راجع : Wilson, Georg. Journal, March 1925.

[المؤلف]

قلنا : وهو ما كان يحدث بالنسبة الى كثير من ارجاء العراق قبل تنظيـم (مشروع الثرثـار) و (الـورار) و (دوكـان) و (سـدة الهنـدية) و (سدة الكوت) وغيرها فلقد كان يبدد الفيضان من (لمال العـام) و (المـال الخاص) ما لا يحصى كثرة ولا يستقصى وفرة ويغدو الماء الذي قال عنه جل وعلا (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وسيلة تدمير وهلاك وفناء لا واسطة بركة وخير وارواء •

[المترجم]

الضاحي بدلا من ساعات الصباح الاولى • وفي نهاية سنة ١٩١٦ وضع نظام هيّن فعّال لهذه الغاية •

ان لنظام مصلحة الربانة Pilotage Service في شط العرب جذورا ممتدة في الماضي البعيد ، وكان الربابنة من الفرس ، من أهل جزيرة خارك ، وممن حصلوا على حق الانخراط في هذا (المسلك) واحتكروه منذ اقدم الازمان • وكانت سفن الاسطول الهندي و (شركة الهند الشرقية) تستخدمهم بانتظام ، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر • وفي اثناء الحرب الانكليزية الفارسية سنة ١٨٥٦ لم يرفض الربابنة هؤلاء العمل ، بل دأبوا عليه غير وانين او متردّدين • وتقديرا لثباتهم وافقت (شركة الملاحة البخارية البريطانية ــ الهندية) على استخدامهم قصرا وحصرا ، وقد حذا حذوها آخرون أيضا • وكان الربابنة يَصْعَدون الى البواخر عند ميناء (بوشهر) ثم ينزلون منها عندما تعود اليها في رحلاتها الراجعة • وما كان عددهم ليزيد على اثنى عشر ربّانا ، وهو عدد لايكفي ، وحالة الحرب قائمة ، تماما • وكانت الخطوة الاولى وضع سفينة ربانة عند (الحاجز الترنوق) باشراف ربان رئيس اوربي ، ثم القيام بمسح الحاجز المذكور ، والطلب الى الربابنة بأن يلتزموا بخط سير معين ، وقد طرأ عليه التحسين بالاستعمال • ثم كان ان استخدم ربابنة اضافيون ، (وكلهم من خارك)، وأخيرا جيىء باوربيين وبرجال ماهرين من (كلكتا) و (رانكوون) للعمل باعتدادهم رؤساء ميناء ، وارساء السفن الى الارصفة ، وتسييرها من مراسيها في المجرى الرئيس ، واليها •

وكان نتاج هذه التغييرات المتراكمة ثوريا ، اذ اسرعت السفن في جريها وانخفضت تكاليفها • ومضى زمان طويل حتى اخذت الطائفة التجارية البلدية تكيّف حالها طبقا للطرائق المستحدثة ، وفي زمن متأخر ، سنة ١٩٢٤ ، ابديت رغبة في البصرة محصلها الغاء استخدام الارصفة قسرا والعودة الى النظام القديم واعني به : الصندلة Lighterage • ومضى زمان مديد على العالم التجاري قبل ان يُدرك ان لا معدى عن ان يحوّل النقل بالسكة الحديد الى النقل بالنهر ••

انا شعب محافظون ، وليس الجنود والبحارة والاداريون وحدهم هم الذين يبطئون في تكييف انفسهم طبقا للاوضاع المستجدة •

ومن نتائج نقل تبعة (حملة بلاد مابين النهرين) الى (وزارة الحرب) اكتشاف جاء متأخرا عن ابانه ، ومحصله ان في الامكان الاستفادة من النقل الآلي (الميكانيكي) بمقياس كبير ، ليحقق الغاية المرجوة منه • وكانت الاوضاع في بعض الوجهات ، مثالية ، اذ امكن الحصول في (القاعدة) على البترول بالصفيحات ، أو بغيرها ، وبأية كمية تراد من عبادان ، على حين كان يؤتى بالعلف اللازم للبغال من الهند فيكلف كثيرا • ان مدى الاستفادة من النقل الآلي يزيد ، في الاقل ، بعشرة اضعاف الاستفادة من وسائط النقل التي تجرها البغال ، كما ان الاقتصاد ، في القوة البشرية يبلغ النسبة نفسها • ولعل الاخذ بالنقل الآلي ، بمقياس كبير ، هو أهم العوامل التي مكنت الـ (جنرال مود) من التخطيط لاحتلال بغداد • حقا ، اننا كنا قادرين على الاستيلاء على بغداد بدونه ، لكن من الثابت اننا ما كنا لنستطيع المضي فيما بعدها ، ودجلة وراء بغداد غير صالح للملاحة عمليا • وكل ما تم في هذا الباب هو ارسال نحو ١٠٠ سيارة حمل من (مصر) الى (البصرة) (٢٧) ، وكانت هـذه اثقل من ان تستعمل في جبهة دجلة ، خلال اشهر الشتاء ، لكنها اصبحت لا تثمن عندما تم انشاء الطرق في (القاعدة) • وكانت وسائط النقل الالي في الهند ، في هذا الوقت عينه ، قليلة جدا ، ذلك ان امكان الاستفادة منها لم يدرس قبل الحرب ، كما ان (هيأة الاركان العامة) في البصرة لم تفكر في الافادة منها بمقياس كبير ، على مايظهر • فالصعوبات المباشرة كانت ضخمة ، اذ يجب ان تمد الطرق اولا ، اذ وفيها كنا نعاني من الاصطراع المستدام مع الطين والطوفان • لقد اثبتت تجارب سنة ١٩١٦ التي اكتسبها (فيلق دجلة) خلال صيفها ان البلاد

---

٢٧ ــ راجع :

Official History, 100n. No. 596 Company A.S.C. (3-ton Peerless Lorries) :

وانظر : Leland :

[المؤلف]

قابلة التجوال والتطواف بالسيارة في جميع الجهات • ولم يكن الدرس هذا غائبا عن اذهان (هيأة الاركان) ، وقد شرع ال (جنرال ليك) في مفتتح سنة ١٩١٦ بتنظيم النقل الآلي باعتداده جزءا من (القوة) لا يتجزأ • ووصل في حزيران مستودع للنقل الميكانيكي الآلي يختص بقاعدة ، وشيدت مشاغل ومخازن • ووردت عجلات نارية قليلة في نهاية ايلول حين وصل الرائد ليلاند اتناط به تبعة النقل الآلي في البلاد كلها • لقد حرر تقريرا ثمينا يتعلّق بنماء هــذا الفرع المهم من فروع المسلك ، لكن القارىء السوي لن يستطيع ان يدرك من سرده مدى اعتماد (القوة) و (الادارة المدنية) عليه ، على الوجه الصحيح، ولا الكفاية الخارقة التي وسمته ، وكيف ثبت بامرة المقدم ليلاند بازاء الصعاب الثقال ، ثقل الجبال الراسيات • لقد بثّ ، ومرؤسوه ، في كل وحدة كانت بامرتهم روح المساعدة والثبات لكي يستفاد من (منظمتهم) على الوجه الافضل ، من دون ان تستعبدهم الاساليب الرتيبة (الروتين) • وكانت لهذه الدائرة هناك لا سيما فيما بعد الحرب ، فالضبط والربط في سرايا النقل الآلي عسيران ، ذلك ان جنودها ينتشرون على خطوط المواصلات وتحتها في اغلب الوقت • وكان يؤتى بالسواق ، على العموم ، من الهند ، وفيهم رجال من كل مقاطعة فيها ، فاللغة مشكلة كبيرة ، واستطاعوا التغلّب عليها الى حد ما بتعلم الانكليزية • وعلى غرار ماهو كائن في (دائرة النقل المائي الداخلي) كان لكل سائق ذوقه الخاص بالنسبة للطعام ، وعقلية خاصة متميّزة • وقليل منهم من كان ، يوم وصوله ، على حظ من كفاية ، وعلى ذلك وجب تدريبهم • ومنهم من كان يجنح الى التعلم ومنهم من كان ينأى عنه ، لكن ضابط النقل الآلي السوي كان يزدان بميعة رائعة ، ولكن ميله الى الشرّ كان أقل من ميله الى عمل الاحسان او الحث عليه • وفي اليوم الاول من كانون الثاني سنة ١٩١٩ كان في البلاد نحو ٧٠٠٠ عجلة آلية ، وبضمنها نحو ١٠٠ سيارة مسلحة ، وملاك النقل الالي كان يتألف من ٤٠٠ ضابط و ١٢٠٠٠ من المراتب ، كان البريطانيون من بينهم يبلغون ثلاثة ارباع المجموع الكلي •

وخلّفت (الدائــرة) أثــرا خالــدا في البــلاد ، وبُعيد الهدنــة شكّلت (دائرة النقل الآلي) ، تابعة ل (الادارة المدنية) ، فقامت بتدريب مئات من العراقيين على سياقة السيارات وتصليحها • وسرعان ما ادرك التجّار البلديون ان هذا النوع من النقل يصلح للمقاصد المدنية ، لذلك جيء بعدد كبير من سيارات الحمل والركوب ، ابّان جريان التسريح ، لاستخدامها على الطرق الممتدة في جميع الجهات ، بين بغداد والبصرة • ولم يجأر احد بالشــكوى مما كان يصرف على الطرق من مال ، وسرعان مــا ازداد نقل الزوّار من (خانقين) الى (كربلاء) و (النجف) زيادة كبيرة • وكان ان استُبدلت العجلات التي تجرّها الجياد بالسيارات التي تسلك السبيل بين بغداد وحلب • وفي سنة ١٩١٩ عبرت اولُ سيارة الصحراء : من الفرات الى سورية •

كانت مشكلات (صنف الميرة العسكرية) في (بلاد مابين النهرين) في الدرجة الرئيسة هي ، مشكلة (القوة) نفسها بعامة • والى حين تسلّم (وزارة الحرب) تبعة (الحملة) كان عدد من يعمل في هذا (الصنف) أقل مما يجب ، وللاسباب التي ذكرت في (الفصل الحادي عشر) لم يُسمح له بتكديس احتياط الحرب ، وعلى غرار ماكان يحدث في انكلترة دوما • لقد كانت القطعات الهندية لا تجهز الا بالحد الادنى مما هو ضروري للقتال ، وتُترك لتدبر هي حاجاتها الخاصة ، وحتى في أيام السلم ، كان آحادها يقومون باكساء انفسهم وتدبير قوتهم • وعند اندلاع لهيب الحرب ، وغبّ سنتين من ذلك ، اعتادت (حكومة الهند) و (مقر الجيش العام) ، وكل منهما في ميدان اختصاصه ، على الايهان من شأن مشكلاتنا تنظيم شؤون التموين على وفق السوابق السلمية •

ان الصيحات المحقّة التي تعالت ، بازاء الهند واساليبها ، كانت اكثر جدية وشدة • فلقد كان من البين الجلي ، ولا سيما في نظر خبراء دوائر الميرة ، انه لم تُجْر أية محاولة جدّية في سبيل تعبئة موارد الهند الضخمة او تجهيز كثير من موادها المحلية الفائضة التي كانت ضرورية للقطعات العاملة في ميادين الحرب والمعتمدة على الهند • ان ضباط صنف الميرة الهندية ومراقبه قاموا بالاعاجيب •

لقد كان جودهم ضافيا وما لديهم الا قليل من ارغفة الخبز والاسماك ، لكن مثل هذا النهج ذو حدود ، لذلك كانوا يرون ان هيمنة (وزارة الحرب) على هذه الشؤون جاءت في الوقت اللازم .

وفي خلال سنتي **١٩١٦** و**١٩١٧** جرت معاودة تنظيم (مستودع القاعدة) ، وكان قد اختير وصُمِّم ليلبيّ حاجات فرقة واحدة فاصبح يلبيّ حاجات فرق خمس ، كما جرى نقله الى مكان في (معقل) سبق ان ازيل منه مشبك النخيل ، وجففّ ماؤه . وكانت حال العتاد في سنة **١٩١٦** مبعث مشكلة ذات خطر . ذلك ان (مدافع القوس) ، ذوات الفتائل ، والقذائف ذوات الانفجار الشديد ، كانت ملقاة في العراء ومعرّضة ، طوال شهور ، الى حرارة درجتها **١٦٠** مئوية ، فأخذ ما فيها يسيل طليقا . وأصبحت (قنابر ميلز) عاطلة لا سبيل الى الافادة منها ، ذلك ان حشوها تبلوّر في كثير من الحالات فأصبح هامدا ، كما كانت قنابر مدافع القوس الخندقية مبعث ريبة .

وقد كان يزوّد مثل هذا العتاد المريب الى فرقة واحدة ، في الاقل ، لمقاصد التدريب ! وقد سببّ هذا ميتات عدة وضحايا عديدة الى ان تدخلّت في الامر (دائرة الميرة) . وكان ان شُيدِّ مستودع للعتاد كبير صمّم على أساس من مقاومة الحرارة وجعل في معزل في الصحراء الممتدة بين (معقل) و (الزبير) ، وقد كان القصد منه ان يحتفظ بالمؤن والذخيرة .

وساد الاضطراب ، وكانت الحال فوضى زمنا طويلا ، ومبعث ذلك وجود مديريات شتى كانت تطلب ، بواسطة مقراتها العامة في الهند ، طلبات مستقلة دوما . وعلى ذلك ، وعلى مثل ما حدث في حرب القرم ، أُصبح ثمة فيض لدى دائرة ، على حين كانت اخرى تحتاج بشدة اليها[٢٨] .

٢٨ ــ كتب الراحل اللواء أ . موزيس في (مؤلفه) الموسوم بـ (تأريخ صنف الميرة / ١٩٢٠ جـ ٣ ، ص ٢٧٧) : « ان (مدير الميرة العام في الهند) بعث الى (المهندسين الملكيين) في البصرة بقائمة طويلة تحتوي على الالات والادوات الفائضة عن حاجة الهند ، وفي البريد الذي حملها ، نفسه ، أرسل كتابا يرفض فيه طلب (دائرة الميرة في البصرة) لالات وأدوات مماثلة ، قائلا ان ليس هناك ما هو متيسر منها ! » [المؤلف]

ثم ان تبعة التموين كله نيطت بدائرة الميرة ، لكن ذلك لم يتم حقا الا في اواسط سنة ١٩١٨ •

ومن وسائل الترفيه الملحوظة التي أُسديت الى القطات العاملة في بلاد مابين النهرين ما جاد بها احد الافراد واعني به : (راي بهادور بهوتاسنغ) ، من أهل سيالكوت ، لاينبي الناس في الهند في ذكره باعتداده صانع لوازم الالعاب الرياضية والمعسكرات • وبترتيب خاص ، جرى بينه وبين (مقر الجيش العام) في سملا ، كوّن وحدات لاصلاح الخيم[٢٩] وأوفدها الى (بلاد ما بين النهرين) لتصبح من ملاك صنف الميرة فيها • وكان ضباط الوحدات من ابنائه واقربائه وقد منحوا رتبا وقتية ، كما كان مستخدموه ممن يعمل فيها • وقد كان عمل هذه الوحدات رائعا ، ولم تحدث أية شكلة ، ذلك ان رجالها كانوا ماهرين في صنعتهم كما كان اغلب ضباطها من الخبراء • لقد كانوا جميعا متحسّسين بالواجب الملقى على عواتقهم بازاء (بهو تاسنغ) وبازاء الدولة ، سواء بسواء • ان المنظمة كانت جد موائمة لاوضاع الهند الخاصة ، ولصناعة الخيم بعامة • ومما يستأهل النظر امكان توسيعها لتشمل صناعات اخر في حملات قابلات •

وكان وجود نوعين من البندقيات ، وعتاد كل منهما مختلف عن عتاد الآخر ، مبعث تعقيدات استطالت من الزمان امدا • على ان هذه الحال لم تك الا أقل سوأ من وجود انماط قياسية للوازم العسكرية المصنوعة في الهند ، والمختلفة عمّا تصفها وزارة الحرب • وكان نتاج ذلك كله ان يصبح في (بلاد الرافدين) ازدواج في النوع والمقياس ، بقدر تعلّق الامر بالتجهيزات واللوازم • ان مثل هذا لا معدى عنه الى حد ما ، وقد يكون مستحبّا ، ذلك ان من الخطل ان يشار الى استعمال مواد في الهند من نوع لا سبيل الى صنعها محليا ،على حين يمكن ان يصنع ما ماثل ذلك فيها فتبعث الطمأنينة والرضى •• لقد كانت هناك دلائل تثبت ان التوحيد شيء غير عملي ، كما كانت ثمة حالات

---

٢٩ ـ راجع : Forbes, iii, 278

[المؤلف]

عديدة تحول دون الانحراف عن النمط الملتزم به ، وهذه زادت من صعوبات ايصاله كثيرا •

لقد حاولت ، فيما مضى ، اعطاء فكرة عامة تتصل ببعض الفاعليات الرئيسة التي شغلت افكار ضباط الميرة في (المقر العام) واستنزفت قواهم ، شأنهم في ذلك كشأن (مفتش المواصلات العام) • وفي الامكان اطالة (قائمتها) حتى اللانهاية تقريبا ، ذلك ان قلّة من الامور كانت خارجة عمّا يُعني به ويهتم له حقا ، لقد كان يُسدي ، لكل منها ، شيء ذو قيمة ونفاسة • وعلى هذا يستأهل ال (الجنرال ماكمن) ان يوضع في المرتبة الثانية بالنسبة لل (جنرال مود) ، باعتدادهما منظمي الفوز ، واني لن اتردد في القول بانــه لو بقي في (بــلاد الرافدين) كقائد عـــام لما وقعت حوادث سنة ١٩٢٠ • اني امتنع الآن عن استباق الامور فاورد ، فصلا من فصول التأريخ سيضمه (الجزء التالي) من كتابي هـــذا •

أشير في الفصول السابقة غالبا الى ندرة طائراتنا[٣٠] • فعندما اصــدر ال (جنرال نيكسن) أوامر الزحف على بغداد لم تكن لديه الا ثلاث طائرات ، تضاف اليها طائرتان بحريتان محوّلتان • وقبيل الزحف ، وصلته نجدة مؤلفة من أربع طائرات من طراز (بي• اي ٢سي) ، فقدت احداها بعد ايام قليلة • كانت البقية الباقية منها عزيزة غالية الى حد منع بسببه القيام بطيران استكشافي بعيد المدى ، وذلك في وقت يمكن الافادة منها لمثل هذا القصد كثيرا • وطوال شهر شباط ، لم يكن لدى ال (جنرال المر) الا طائرة واحدة للطيران صالحة• وكانت الطائرات التركية أكثر عددا واسرع اندفاعا وأكثر ، لمقاصد القتال ، صلاحا• لقد كانت تلكم الطائرات قادرة على قصف الكوت ومعسكر ال (جنرال المر)

---

٣٠ ـ يلحظ ان الطائرات الحربية بدأت في اواخر الحرب العالمية الاولى باعتدادها اداة للاستطلاع ، ثم سلحت عندما اخذت تتعرض للنيران في القتال الجوي ، وقد استخدمت في القصف ايضا •

[المترجم]

حسبما تريد وتهوى • وبلغ عدد الطائرات البريطانية العاملة على دجلة ، يوم السابع من آذار ، تسعا ، ومنها ما كان بحاجة الى اصلاح حتما • وفي نهاية نيسان ، ازداد هذا العدد فبلغ احدى عشرة طائرة ، كان من بينها ثلاث طائرات بحرية ،كما كانت هناك حضيرة بالون لاتستطيع القيام بشيء ، الا عندما تكون الحال ملائمة • واحسنت الطائرات عملا وهي ترمي الى من في الكوت طعاما • لقد كانت تحمل ما زنته ١٦٨٠٠ ليبرة تقريبا ، لكن السيطرة على الجو بقيت للاتراك ، وخلال شهري ايار وحزيران غدت امرا ماحقا ساحقا • ووصل في آب (العقيد تينت) ، ومعه طائرات حديثة ، وافضل بنية • وكان ان اخذت تصلي المطارات التركية ومعسكرات الاتراك نارا • كما اخذت تطارد طائراتهم التي يقودها طيارون المان وتقاتلها في قتال مفرد • وكان النجح الذي اصابته مختلفا متفاوتا ، لكن الاثر الذي احدثته هجماتها كان بعيدا عميقـا • وقُدِّر لي ، في السنوات التالية لذلك ، ان اتعرّف على كثير ممن بقي من آحـاد السرب الثلاثين الاصلي حيا ، وان نسيت من ذكرياتي في حرب بلاد مابين النهرين فلا انسى ما اتّسم به الطيارون الذين عملوا فيها من مرح وميعة تندّان عن الوصف والرصف • وكنت ، خلال سنتي ١٩١٨-١٩٢٠ ، اختلف الى مطاعم القوة الجوية البريطانية ، واخص بالذكر منها مطعم الطيران (سي) ، السرب الـ ٧٢ ، حيث كانت تسحرني المزايا الغرّ التي تتحلّى بها وحدات القوة الجوية العسكرية ، الا لماما ، وذلك بقدر تعلق الامر بالضبط والربط أو أسلوب المخاطبة أو السلوك الذي تلتزم به نظائرها في وحدات المشاة تزمتا ، وما كان احد ليفرّط في هذا بأكثر من الضباط الذين رقوا سلّم الرتب في صفـوف المراتب كلها • لكن آحاد القوة كانوا باسلين مليئين بالتشبث ، وقد يشوبهم طيش غالبا • ومهما تكن الحال فلن استبق هنا الامور فاذكر انطباعي عمّا حدث في السنين المتأخرة • كما لن احاول ، هاهنا أو في أي مكان آخر ، وصف انجازات طيارينا في (حملة مابين النهرين) • لقد سرد ذلك احسن سرد (العقيـد

تينت) لذا تجتزي فنقول : ان طيارينا كانوا أقل من آحاد الوحدات الاخرى تعرضا للركود الفكري وللأسى المطبق اللذين غلبا على كثير من جنودنا ، ابان اشهر الصيف المرعب الراعب التي امضوها في خمود ولافاعلية ، على ضفتي دجلة • وجاء مشروع يقضي بمعاودة التنظيم لينفذ في ايلول ، وكان وروده متواقتا مع تعيين الـ (الجنرال مود) ، وان كان عنه مستقلا • لقد اصبحت (القوة الجوية) في بلاد مابين النهرين جزءا من (لواء الشرق الاوسط) الجديد ، ومقره العام في القاهرة ، بامرة الجنرال ساموند • واصاب المشروع في تنفيذه نجحا — وعلى ما يقول تينت : « لقد كان شيء يبلغ مبلغه مباشرة ، وما من حاجة الى تأخير أو احالة الى آخرين ، لقد كنا قادرين على أن نعمل تواً » •

وزارنا في تشرين الاول عضو آخر من (اعضاء البرلمان) هو الرائد (السر ، الآن) كودفري كولنز • وما كان هذا باقل من صحبه الاولين منزلة وقدرا • لقد جاء بمهمة رسمية اذ طلب منه (مجلس الجيش) ان يقدم تقريرا عن خدمات (مدير الميرة) في بلاد مابين النهرين • وكان ان امضى في البلاد هذه ما يقرب من ثلاثة اشهر ، وغادرها في كانون الاول وقد غمره شعور من طمأنينة ورضى وحب ، وعلى ما قال هو نصاً : « ومهما حدث فيما مضى ، لقد بذل كل ما في وسع النظر الانساني ان يبذل وما يمكن حبّه من مال وجهد في سبيل رعاية القطعات[31] وخيرها • ولقد اشار ، وهو يخطب في مجلس العموم ، خطابا بليغا مؤثرا[32] ، الى :

« ان الوضع في بلاد مابين النهرين اليوم دليل قاطع على الخير الذي يسفر عن استخدام رجال جدد يتسمون بالفكر الفعال والنشاط الدائب ••• ان تطبيق مثل هذا المبدأ وروح الجنود المقاتلين في سهول ما بين النهـــرين ظهرا اليوم » •

---

٣١ — راجع : Official History, iii, 69n.

[المؤلف]

٣٢ — راجع Debates, H.C. 12.2.17.

[المؤلف]

ونالت اراؤه ما تستحق من عناية لانه كان عضوا في لجنة التموين في وزارة الحرب سنة ١٩١٢-١٩١٣ ، كما دأب على تبوّأ مناصب مماثلة حتى نهاية الحرب. ولقد سنحت لي الفرصة أكثر من مرة فقابلته ، واسدت لي زيارته الخير كله ، واني لاعتقد ان كل من لقيه ، ولقي زملاءه ، اصبح يجلّ مجلس العموم اجلالا متزايدا . وكنت ، في السنين المتأخرة ، اتوق غالبا الى ان يزورنا امثاله ، لكن من جاءنا حقا كان غيرهم ... وواسفا .

الفصل الثالث عشر[1]

الزحف الثاني على بغـداد

ان ارتكبت اخطاء ، فاننا ، كأمة ، نعرف كيف نصححها ، وهذا ما حدث في (بلاد ما بين النهرين) حقا · من خطاب (مستر بونار لو ، وزير المالية ، في مجلس العموم ، يوم السابع من شباط سنة ١٩١٧) ·

يتبيّن من الفصل السابق ان قد كانت لدى الجيش ، بحلول خريف سنة **١٩١٦** ، فرصة مواتية لاستئناف القتال وبأفضل مما كان الأمر عليه في السنة الماضية • وكانت معنوية قطعات الـ (جنرال مود) ممتازة ّكشأن نوعيتها ، وأخص بالذكر منها القطعات التي قدمت من مصر ، وأغلب الفيلق الهندي الذي جاء من فرنسة ، وكانت الاخـيرة (تشكيلا) من فرقتين سبق أن دخلتـــا في قتـال مرير ، وتخبّطتا في طين لازب في الـ (فلارندرز) ، قبل أن تصلا بلاد ما بين النهرين ، حيث شهدتا ، في أوائل السنة قتالا أشدّ مرارة ، وطينا أشد سوءا •وعلى الرغم من أن ضحايا الفرقتين في فرنسة كانت جـدّ عظيمة ، وفي بلاد ما بين النهرين كرة اخرى ، الاّ ان تشكيل الفرقتين تفجّر عن تقاليد «روح فريق» متضامن ، كما نجمت في بعض الألوية روح اخـــاء ، بين صفوف البريطانيين والهنود مما لم يُشهد لها مثيل في التأريخ منذ سنة **١٨٤٢** حين قامت وحـدة المشاة الاهليـــة الافغانية الـ **٣٥** بمباراة العساكر الهنود الـذين كانوا في امرة

---

(١) مراجع الفصل :

Official History, Critical Study Callwell, Marshall

[المؤلف]

(كلايف) في (اركوت) ، فجادت بجراياتها على الجنود الاوربيين في وحدة المشاة ال ١٣ ، وأقامت لهـــم ، عنـــدما ازف يوم الافتراق مأدبـــة • ليطمئن قلب ال (جنرال مود) في صدره ، الى حد السداد ، بأنه لن تحدث ، وراء الخطوط ، أية نكسة يستطاع أن يحال ، دونها ، بجهد بشري ، ولن ينجم أمر طارىء يمكن أن يحجبه ببعد النظر الانساني :

عليه أن لا يشفق من تهديد خطير لخطوط مواصلاته من قبل العـــدو • لقد كان ما ارتكبه الاعراب من قتول شنيعة وسرقات ، خلال الشطر الاول من سنة ١٩١٦ ، ذا أثر غير متناسب في المعركة • ان قلة وسائط النقل ، وفقـدان الخيالة السيّارة ، وانعدام القيادة في الصنف الراكب ، قبل كل شيء ، هو الذي حال دون الاجهاز على هذا الشرّ ، بهجوم قوى أيد ، كما ان أي اجراء تأديبي لم يكن ليسفر عنه أكثر من تأثير عابر ، ولعلـــه كان يضيف اسـتفزازا الى استفزازات •

هذا وانا لنعلم علم اليقين ان الاجراءات التأديبية التي تكررت في السنوات ١٩١٥ و ١٩١٦ و ١٩١٧ في (جبهة الناصرية) لم تسفر عن نتائج عملية أبدا • ان الاعراب لا تعوزهم الشجاعة ولا يفتقدون الاقـــدام ، كما انهم لا يعدمون القادة ، ولا ينقصهم المجنّدون المستجدون ، ان نساءهم كن يسخرن ممن يولّي منهم الادبار ، وكان في حافز النهب والسلب الكفاية • ومنذ (يوم الشعيبة) لم يعمدوا الى عقد الخناصر مع الاتراك أو أن يشنوا هجوما جماعيا • لقد أثبتت جميع التجارب اننا يجب ألاّ نشفق منهم اشفاقا حقا ، لكنهم غدوا اليوم أكثر شجاعة ، وازدادت بسالتهم بازدياد الاوار والوديقة دواما ، فكان أن أخـــذوا يعرقلون ، جادّين ، سير القوافل بين (شيخ سعد) و (السن الابتر) ، منذ يوم ال ٢٩ من أيار ، حين تقدّمت (الفرقة الثـــالثة) الى احتـــلال خط يمتد من (المكاصيص) فالامام منصور الى الدجيلة • ورفض ال (جنرال مود) أن يُصرف نظره عن هدفه الرئيس على يدهم ، وما كان قصدهُ الرئيس الاّ دحر الاتراك • لكن مما لا شك فيه انه ، قبيل وفاته ، تأثرت وجهة نظره الى مشكلات (الادارة المدنية) العديدة بالذكريات التي كان يرددها صدى ما قاساه جنوده على أيدي

ال

- ٣٦٢ -

الاعراب • انه ليس بالقائد العام الوحيد الذي ارتكنت نظرته في مشكلات السلم الى معلومات كانت حصيلة آراء حصيفة منبثقة عن الماضي القريب •

وحلّ محل ال (جنرال مود) باعتداده (آمر فيلق دجلة)، اللواء كوب، (حامل وسام صليب فكتورية الحديد) • ان هذين الرجلين هما أصغر لواءين في (القوة) سنا - (ليست العبرة بالسن العالية انما العبرة بالهمة العاملة المنتجة) - وآخر الضباط الذين التحقوا بها من حاملي هذه الرتبة هو ال (لواء ماكمن) مفتش المواصلات العام •

وفي تشرين الاول غادر ال (جنرال مود) البصرة الى غير رجعة • لقد جعل مقره من الجبهة قريبا، وما كان ليترك هذا (المقر) الا للسير قُدُما [٢] • ولقد قابل قبل رحيله عن البصرة سر جارلس مونرو الذي زار (بلاد ما بين النهرين) في طريقه لتقلّد منصب (القائد العام في الهند) •

وبنتيجة مناقشات كثيرة دارت في انكلترة والهند أبرق (رئيس الاركان الانبراطوري : سر ويليم روبرتسن)[٣] الى (سر جارلس مونرو) برقية بتأريخ

---

(٢) من المبادىء العسكرية المقررة : ان القائد هو لولب المعركة، ومن اول واجباته ان يجعل قطعاته تشعر باحتمال ظهوره بينها في أي وقت، وقيادته المعركة شخصيا • والنجح دوما من نصيب (القائد) الذى لاتتحجر اراؤه وتتجه خططه اتجاها رتيبا، بل هو على اتم استعداد لتطويرها وتكييفها لمواجهة أي ظرف ينجم وأية حال تقوم • وعليه ان يكون قوي الصلة بجنده لا تضرب بينه وبينهم حجب صفاق واستار كثاف مشاركا حياتهم متعاطفا معهم • ان مكانه المفضل ليس في وسط هيئة ضباطه الاركان الى وراء وانما في الامام، في خط النار • هذا ما فعله حقا (رئيس هيئة اركان القوات المسلحة في الجمهورية العربية المتحدة الشهيد عبدالمنعم رياض، اذار ١٩٦٩)، فتبوأ مكانه الرفيع بين الشهداء الابرار :

تردى ثياب الموت حمرا فما دجا
لها الليل الا وهي من سندس خضر

لقد اثبتت التجارب ان ال (الجنرال مود) كان يتحلى بكثير من المزايا القيادية هذه وهي السبب فيما اصاب من نجح عسكري • [المترجم]

(٣) سما سلم الرتب بهذا الضابط البريطاني حتى بلغ رتبة ال (مهيب) وعين في سنة ١٩١٥ رئيسا ل (هيأة اركان القوات البريطانية المسلحة)، فقائدا للقيادة الشرقية، فقائدا للقوات المسلحة البريطانية في فرنسة (١٩١٩-١٩٢١) [المترجم]

٣٠ ايلول يقول فيها :

ان تعليمات حكومة صاحب الجلالة تقضي بأن تكون مهمة (قوة بلاد ما بين النهرين) هي الحفاظ على حقول النفط وخطوطه الكائنة على مقربة من نهر كارون، والابقاء على احتلالنا لولاية البصرة والسيطرة عليها والحيلولة دون وصول العدو الى الخليج الفارسي (بالاحرى العربي : المترجم) وجنوبي ايران • يجب أن لا تجرى أية محاولة جديدة للزحف على بغداد ، في الوقت الحاضر ، لكن الحكومة البريطانية ترغب ، عندما يكون ذلك مستطاعا ، في بسط النفوذ البريطاني على ولاية بغداد • يجب أن لا يجرى زحف على بغداد ما لم يصدر أمر به ، لكن على (الآمر) أن يسعى الى تحسين وسائل النقل النهرية ، وبالسكة الحديد[٤] ، وأن يحتفظ بموقع متقدّم على وفق ما تسمح به وسائط مواصلاته ، شريطة أن تضمن له السلامة من دون أن يضحي في سبيلها بخسائر فادحة ، سواء أكانت هذه على يد العدو أم بنتيجة الاحوال الجوية • ان الاعتبارات السياسية والعسكرية المتعلّقة بالناصرية ، وقبائل (المنتفق) و (بني لام) ، وبختيارية بشت ـي ـكوه ، أوحت بالحفاظ على أوضاعنا الراهنة ، ان استطعنا الى مثل هذا سبيلا ، ومن دون أن نتكبّد من جرائه ضحايا ، لكننا نروم الوقوف على آرائكم، ان كان مثل هذا الاتجاه سديداء لاشك في نكم ستشاورون الـ (سر برسي كوكس) حول الاثر الذي يحدثه في العرب أي اسحاب • ومما لا مراء

(٤) اتضح للجيش البريطاني الذى غزا العراق في الحرب العالمية الاولى ان تأسيس سكة حديد واعدادمواصلات نهرية امر انضروريان لنقلياته، وذلك بالنظر لانعدام الطرق البرية المبلطة فيه والنقل الجوي ـ بطبيعة الحال ـ انذاك، وقدمدت السكك الحديد بتقدم القوات ، اذ مد اولا خط البصرة ـ الناصرية في جبهة الفرات وخط البصرة ـ العمارة على جبهة دجلة • ثم اوصل خط الفرات الى السماوة واوصل خط دجلة الى الكوت فبغداد ، ومن بغداد الى خانقين (الحدود الايرانية) • وكان خط بغداد ـ سامراء قد انشأه الالمان كجزء من مشروع خط برلين ـ اصطنبول ـ بغداد ـ البصرة ، فعاود الانكليز مده حتى الشرقاط سنة ١٩١٧ • كانت جميع الخطوط المذكورة « بالعرض المتري » فيما خلا خط الشرقاط الذي كان بالمقياس العريض • كما نشطت لبواخر في نقل الجنود واللوازم والمؤن والعتاد واستخدمت في ذلك ايضا السفن البلدية (المهيلات) التي كانت تنساب محملة في الانهر صعدا حابسة في شراعاتها طلق الهواء !
[المترجم]

فيه ان (الحملة الاستكشافية في بلاد ما بين النهرين) يجب أن تضمن عدم نشاط الجماعات في الجنوب ، عبر خط ششتر ـ أصفهان • يجب ألا يؤمّل ارسال نجدات أخر الى (القوة) • اذ على النقيض من ذلك قد يُضطر الى سحب الفرقة الـ ١٣ التي اوفدت الى (بلاد ما بين النهرين) عند محاولة انقاذ كوت الامارة • انتهى • »

« يجب أن يلحظ ان رغبة (حكومة صاحب الجلالة البريطانية) تنصب على ابقاء (القوة) في موضع متقدّم ، على ما يقرره الرأي السديد ، واني لراغب في أن تدركوا انني ، بقدر تعلّق الأمر بي شخصيا ، أترك أمر توزيع القطعات الى تقديركم كليا •

« كما يجب أن يلحظ اِن تبعة (القوة) يجب أن تتسع حتى تبلغ اتجـاه خط ششتر ـ أصفهان ، وليس من المحتمل أن يشقّ هذا على (القوة) ماديا على الوجه الملموس •

يجب أن ينظر في أمر استبدال بعض القطعات البيض بقطعات من الهند أيضا •

وبصدد سداد أمر الزحف على بغداد ، في اِبانه ، أعلمت (لجنة الحرب) عمّا تراه فيه ، وهو :

(أ) ليس لدينا ، لحين من الدهر ، وليس من المحتمل أن يكون لدينا أيضا ، العدد اللازم للاستيلاء على بغداد ،

(ب) واننا لن نستطيع الابقاء على هذه القطعات هناك ، ان كانت لدينا حقا ، وذلك بسبب من طول المواصلات وصعوبتها ،

(ج) تنضاف الى ذلك كله وجهات نظر اخر ، قد تكون غير مستحبّة من الوجهة العسكرية ، ولن يكون لها أثر حاسم في مجرى الحرب •

يجب أن ينعم النظر في الحال ، من قبلكم ومن قبل كوكس ومود ، بعامة ومن جوانبه كافة ، ويجب أن يشفع مقترحكم بأية اشارة ترونهـا سـديدة ضرورية بصدد توزيع القوة العسكرية •

يجب أن لا يغرب عن البال ان من الضروري أن نبقى أقوياء ، خلال الربيع القادم ، على وجه أخص •

لقد بحث الجنرال (سر سي• مونرو) هذه (البرقية) بحثا تاما مع الـ(جنرال مود) ومع (سر برسي كوكس) ، وقد أسفر البحث هذا ، بعد شهر ، عن ارسال البرقية التالية وضمّت جواب (سرسي مونرو) :

« بقدر تعلّق الأمر بالواجب المناط بـ (القوة) : ان موقفا سلبيا محضا ذو اثر غير منتج أو مفيد في القطعات ، على ما أرى • اني لأدرك ان بغداد عنا بمنأى ، وان ليس ثمة خير من ورائها • ولو خلفنا مثل هذا الأمر ظهريا فان عندنا شيئا كثيرا نستطيع القيام به لتعزيز هيبتنا ، الى حد كبير جدا ، يسّروا التموين ، ولتكن قواتنا أشدّ ما تكون ايمانا وثباتا •

« ان مود سيقطع المؤن التي ترد الى الاتراك من جوار نهر الحي ، ان قام بدفع جناحه الأيسر مساحلاً له ، ومن المحتمل أيضا أن تقوم قواته بمناورة خارجة عن موضعها الكائن على جانب دجلة الأيمن • وعندما يختم على قلب (الحي) يمكن القيام بتقدّم نحو السماوة من الناصرية ، من دون التعرّض الى الخطر الاّ قليلا • ومن السماوة نستطيع أن نهيمن هيمنة عظيمة على العشائر ، وبذلك تزداد الثقة ببقائنا وتعظم هيبتنا كثيرا • يمكن ادراك هذا كله ، على ما أرى ، ولن نتكبّد من الضحايا الاّ قليلا • وعلى كل حال ، فان (مود) ليدرك تماما ان من اللازم أن نتجنّب التضحيات الكبيرة دوما •

وفي ضوء ما حدث ، بعد ستة أشهر ، ليس من اليسير ادراك كنه هذه البرقيات[٥] ، كما ليس من السهل اليسير ، بالرجوع الى وراء ، أن نتبيّن لِمَ

---

(٥) يقول القائد الالماني (روميل) الذى طار له ذكر في الحرب العالمية الثانية كل مطار في (مذكراته) :

« لعل من اسباب اندحار البريطانيين في الاحيان هو اسلوبهم الجامد ، عديم المرونة في (القيادة) واصدارهم الاوامر المفصلة التي يطلب من المرؤوسين تنفيذها بتزمت ، مثل هذا يؤدي الى عدم ترك أية حرية في التصرف للقائد المرؤوس فتراه يسعى سعي المقيد في الوحل ، وعدم اطلاق روح المبادأة فيهم وتحملهم لظروف المعركة المتبصرة دوما » •

قلنا : بمثل هذا يصبح القادة المرؤوسون معنيين بصغائر الامور والاهداف

الزمت[٦] وزارة الحرب الـ (جنرال مود) باتخاذ دور دفاعي محض ولـــديه ١٥٠٠٠٠ من المقاتلة ، وعنـــده منظمة رائعـــة ، صرف في سبيل اعدادها مبلغ ضخم • لقد صبّت الحكومة البريطانية الى احتلال (بغداد) سنة ١٩١٦ ، وعلى غرار ما كانت تصبو اليه سنة ١٩١٥ (ذلك ان كلمات « تعزيز النفوذ البريطاني في ولاية بغداد » لا تحتمل معنى آخر أبدا) ، شريطة أن يتمّ ذلك من دون ضحايا كبيرة وقطعات اضافية • واعل تعليماتها ، التي صدرت عن قصد ، جعلت الـ (جنرال مود) ، فيما يتخذه من اجراءات طلقا يدا • ليس من المأمول أن يترك عسكري مثله (حامية الكوت) من دون أن يثأر لها ، أو أن يترك اندحارنا على ضفتي دجلة من دون أن يداوى ، وهو القائد الذي لعب دورا رائعـــا في جبهات الحركات العسكرية الاخرى • وعلى الرغم من ذلك كله لم يكن هنالك من اشارة ، في أية وثيقة خلّفها ، تدلّ على انه كان يرى ان (بغداد) هي غايته القصوى • ان مناوراته الاولية على الضفة اليمنى لتـــدلّ على انه كان يريد ازاحة العدو عن مواضعه في الخنادق لا الاحاطة به والاجهاز عليه • لقد كانت غايته الاولى : نهر الحي • وهكذا بدأت الحركات يوم الـ ١٢ من كانون الاول وختمت بنصر مؤزّر يوم الـ ١٥ منه • لقد كان الجو رائقا ومدى الرؤية حسنا ،

الضيقة مصروفين عن عظائمها والاهداف الكبيرة ، ومما لا شك فيه ان القرارات الجريئة المتخذة عن تأمل وبصيرة هي التي تؤدي الى احسن احتمالات النصر شريطة ان يميز القائد بين الجرأة (التعبوية والسوقية) و (المغامرة العسكرية)• ان (العملية الجريئة) هي التي لايكون نجاحها مضمونا، لكنها ان باءت بالخيبة تركت للقائد قوات كافية يواجه بها اي موقف يترتب على ذلك • اما (المغامرة العسكرية) فقد تؤدي الى النصر او الاندحار الكامل • وقد تنجم مواقف تبرر اللجوء الى (المغامرة العسكرية) ايضا ، اذ ما ان يتوثق القائد من ان الهزيمة في ضوء الحركات الجارية اصبحت أمرا واقعا لا مفر منه ، وان المسألة مسألـة وقت ، وان كسب الوقت غدا امرا غير ذي موضوع فلا معدى عن لجوئه الى تلكم (المغامرة العسكرية) ايضا والتي تنطوي على تقويض (الموقف اليائس) ، وفي هذا ، ان حالفها الحظ ، الخير كله ، ان هذا هو ماقام به الاقلون من القادة عددا فادركوا نجحا خالدا ، لاسمائهم في التاريخ مخلدا •

[المترجم]

(٦) راجع : Dewing

[المؤلف]

وحمدا للمطر الذي هتن مؤخرا وشكرا • وكان مستوى الماء في شط الحي منخفضا ، والى الحد الذي لم يجعله عائقا لنا شديدا • وتم نصب جسرين عليه ، في مكانين اثنين ، وبذلك استطعنا أن نحصل على مواضع للخنادق على الضفتين • ونشطت طائراتنا في الاستكشاف وأدركت نُجحا ، ولا سيما في الليالي القمراء ، فاستطاعت أن تجهز على الجسر التركي العائم في شمالي شمران • وغزونا البغيلة (النعمانية اليوم : المترجم) فقضينا على نقليات العدو بالسفن النهرية ، وعلى مؤنه وميرته •

يتبيّن من « أوامر الحركات » التي أصدرها الـ (جنرال مود) ، انه لم يرغب ، لسبب ليس من شيء مدوّن لدينا عنه ، في أن يستخدم قواته ذوات الفَوَق ، في مثل هذه (المرحلة) ، فيحيط بالاتراك ، منطلقا من ضفة النهر اليمنى • كان يكفيه أن يؤمّن انسحابا ما ، ولقد التزم جانب الصدق والولاء بقدر ما اتّصل بـ (تعليمات رئيس أركان الحرب الامبراطوري) كيلا تتكبد قواته ضحايا كبيرة ، ولم يحاول استخدام الخيالة كقوة ضاربة • وكان ثمة لواء تركي ، واهن الشأن ، يقف على ضفة نهر دجلة اليمنى أو جنوبا ، وعلى بعد قليل من مقرنه بـ (نهر الحي) • وكانت تقف ، بازائه ، فرقة خيالة وفيلق كامل • وليس من اليسير أن يُفْهم لِمَ لم يجهز على هذه القوة المعادية الصغيرة رأسا ، فتطهّر الضفة اليمنى قبل ورود النجدات تباعا • ان عقلية الـ (جنرال مود) النمطية هي الضمان للسير على وفق خطة حصيفة ، وان سارت لمثل ما ذكرناه معاكسة ، ولعل ما كان يُعنى به ، قبل كل شيء ، هو تجنّب التضحية ، وعلى وفق (التعليمات) التي تلقّاها •

ثم انه حاول ، بعد ذلك ، أن ينصب على دجلة جسرا ، وقد حسب ، أولا ، ان ذلك مستطاع بين (الصناعيات) وبين (المكاصيص) ، لكن الـ (جنرال كوب) عارض في ذلك • لذلك جرت محاولة في محل كائن على النهر صُعُدا ، عند دورة (الحسيني) ، يوم الـ ٢٠ من كانون الاول ، لكنها لم تصب نُجْحا • وكان أن شُرع ببناء أول جسر عائم ، لكن حَمَلَتَه سرعان ما قُتلوا أو جُرحوا ، لذلك لم يجد الـ (جنرال مود) مبررًا للاستمرار على نصبه ، وذلك بالنظر الى ما لديه من (تعليمات) تتّصل بالضحايا ، وكان أن سُحب الرتل • انه ، الآن ،

على التحقيق ، يسعى الى ، وبكلماته نصا ، « قطع خطوط مر، سلات عـــدوه ، وليس تهديدها ، حسب » ، وعلى ما كان يحدث قبلا • لكن من الحق أن نشك في محاولة الـ٢٠ كانون الاول[٦] التي جرت بامرة الـ (جنرال كروكر) ، وهل قصد بها أن تصيب نُجُحا ؟ لقد أشار (الرائد ديونك)[٦] بوضوح الى انه لم يكن هناك استكشاف تقني ، أو تصوير فتوغرافي جوي ، كما ان القطـــار الموصل لم يستخدم ما لديه من نقليات وردت حديثا • وكانت المعلومات الوحيدة المتعلّقة بعرض النهر لا تعـدو تخمينات عربيـة وقف عليه بواسـطة (المقـدم ليجمن) • والشخصان الوحيدان اللذان اعتراهما الدّهش هما : آمر الفرقة الخيالة ، وآمر القطار الجسّار • ان المحاولة الفاشلة جعلت الاتراك يعتقدون بأن العبور أمر مستحيل ، ولعل ذلك كان قصد الـ (جنرال مود) حقا •

وبعد أن منيت حركات ، يوم الـ ٢٠ من كانون الاول ، بالخيبة ، أعلم (سر وليم روبرتسن) الـ (جنرال مود) ان في مقدوره أن يتكبّد من الضحايا ما لا يزيد على ٢٥ بالمئة • وساءت حال الجو ، في الوقت نفسه ، وعلى الرغم من ان السكة الحديد الخفيفة كانت تُمد قُدُما وسريعا تلقاء نهر الحي ، الا انه وجد ان من العسير تموين القطعات الموجودة على جناحه الايسر • وكبداية ، صدر أمر الى الخيالة بالقيام بحركات بازاء (قلعة قصّاب) • انها تقع على مسافة من النهر ، على الضفة اليمنى ، وكانت (المقر العام) للاعداء العرب منذ زمن طويل ، وهم من كانت فاعلياتهم مصدر ازعاج مستدام ، خلال الحركات كلها ، وتطلّبت ايفاد قوات عديدة للقيام بواجبات وقائية محضة • ولم تحاول (فرقة الخيالة) تطويق المكان ، لكنها عمدت الى قصفه على مدى ٣٠٠٠ ياردة ، فهرب الاعراب

---

(٧) لا سبيل الى ادراك الاثر الفعال لهذا القصف وتجلية شجاعة الاتراك في صدده ، الا عن سبيل (برقية) عثر عليها في الخنادق، قبل أيام قليلة ، كان ارسلها اسماعيل حقي ، الذى كان يقود الفرقة التركية/٤٥ ، اذ ورد فيها : (ان ثبات القطعات•• التي وقفت على ارضها••على الرغم من الخسار الدموي الذي منيت به خلال القصف الذي جرى في يومنا هذا ، وقد لفها الضبـاب بشملته، يند عن الثناء • ان قلب (آمر الفيلق) يثب الى شفتيه ليقبل نواظر العسكر ويزجي اليهم شكرا • هذا واني لأقبل هذه النواظر واشكر العسكر ايضا) •
[المؤلف]

تلقاء الجنوب من دون أن يمسّهم ضرّ أو أذى تاركين ٣٠٠٠ رأس من الضأن، جيء بها الى المعسكر ، كما استحوذ على شيء من الحبوب أيضا • وبعد هذا الحادث انسحبت (الخيالة) للاستجمام في (قرية عرب) ودام ذلك حتى اليوم السادس من كانون الثاني ، ذلك انه لم يكن تموينهم على شط الحي أمرا مستطاعا •

وانثنى ال (جنرال مود) ، بعد ذلك ، الى تطهير الضفة اليمنى ، ذلك انه لم يعدّ مغلول اليد بتعليمات تتصل بتجنّب تقديم الضحايا ، لكن الأمر المهم اليوم ، وبأكثر من ذي قبل ، هو تجنّب النكسات الاخرى • لقد قاست القوات البريطانية من الاندحار على نهر دجلة ، بمقياس غير مسبوق أو معروف في ميادين آسية ، منذ حرب الافغان سنة ١٨٤٢ • ان أي اخفاق ثان قد يكون ، بحد ذاته ، كارثة • كانت الطرائق التي اصطنعتها (الفرقة الثالثة) ، وكانت بامرة ال (جنرال كيري) ، منسقة مدبّرة مرتكنة الى تجربة حُصل عليها في الجبهة الغربية • لقد كان الهدف الاول هو موقع (محمد عبدالحسن) الكائن عند (دورة الخضيري) ، في دجلة • وقد تمّ الاستيلاء بتقدم حصاري معجل ، وذلك في غضون اسبوعين وزيادة ، وكانت تعزّز كلُ خطوة منخطواته علىاساس عملية التتابع • واستغرقت الحركات الاولية اسبوعين ، وجرى تقدّم يزيد مداه على ٢٥٠٠ ياردة ، وعلى جبهة طولها ميلان ، وبلغ مجموع الضحايا ٣٥٠ • وفي ال ٧ من كانون الثاني أصبحت القطعات على مسافة تستطيع الانقضاض منها • وجرت الحركات الرئيسة يوم ال ٩ من الشهر فتوّجت بالنصر التام المبين • وكان قد سبقها قصف شديد انصبّ على (موقع الصناعيات) ثم انقضّت عليه الفرقة السابقة مرارا ، وقامت مظاهرات بازاء رؤوس الجسور القائمة على شط الحي و (دورة شمران) • لقد كان القصد من هذه الزحوف ، وهجمة شنّت على البغيلة (النعمانية اليوم : المترجم) من قبل الفرقة الخيالة هو صرف فكر العدو • وكان أن مُنيت هذه بالخيبة ، بسبب وجود الضباب الكثيف ، لكن هذا حال دون قيام (القوة الجوية التركية) بمراقبة حركاتنا أيضا • وفي الساعة التاسعة ، واثر قصف

شديد الحق بعدونا خسائر فادحة ، شُنَّ الهجوم الحاسم ، وتمَّ الاستيلاء على الهدف الاول بقليل من الخسار ، لكن حالت دون التقدم التالي ، لحين من الوقت ، شجاعةُ المشاة الاتراك وثباتُهم ، وهم من شنَّ هجوما مضادا بشيء كبير من البسالة والثبات . وأعقب ذلك كله قتال مرير ضار ، ابيدت خلالـه سرية من سرايا (وحدة المانجسترز) الاولى على بكرة أبيها تقريبا . وعلى الرغم من ان قوات العدو كانت تتفوق عليها كثيرا وان مدافع (لويس) التي كانت عندها أقعدها الطين اللازب عن العمل ، وانها لم تستطع الحصول على اسناد المدفعية، فان احادها لم يتزحزحوا عن مكانهم ولم يتحلحلوا أبدا . وفقدت (الوحدة) هذه خلال اليوم ١٢ ضابطا و٢٣٥ جنديا ، لكن تضحيتهم لم تذهب سدى . هـذا وان الافواج الهندية لم تكن أوهن من جنود وحدة لانكشير شأنا ولا أقلَّ منهم شجاعة وثباتا . وتقدمت ، خلَلَ الضباب ، حضيرتان من حضائر الهندسة (نصارى مدراس) وسرية من (وحدة باينيرز/٣٤) مؤلَّفة من (السيك المازبيين) وسرية واحدة من (وحدة ٥٩/بندقيات) ، وقد أخذت هذه القطعات على غرَّة ، أيضا . ان قلة من آحادها اعتادت على القتال ، ولم يكن أحد منهم قد استعمل قنبرة فيما مضى ، أو كانت له في الحرب ، خارج الخنادق ، تجربة ما . لكنهم ثبتوا في مواقعهم واشتبكوا في قتال بالايدي أوقف الاتراك عند حدهم ، حتى جاءت سرية احتياط من (وحدة مانجسترز) فأجبرت الاتراك على التراجع . وكان التجنيد في (لانكشير) في هذا الوقت كشأن التجنيد في أي مكان آخر ، مصدر قلق واضطراب ، وكانت (المحاكم المحلية) تعاني مصاعب جمة في تطبيق أحكام (قانون الخدمة العسكرية) ، وقد أمضى (مجلس العموم) ساعات طوالا في بحث قضـايا فردية تتّسم بهـذه المصاعب ، والتنفيس عن ضغطها . لـكن (الرقيب) لم يسمح بذكر اسم هذه (الكتيبة) ، ، أعني (لانكشير) ، بصـدد ما أبدته من بسالة في هذه المعركة ، أو معركة نهر ديالى ، وهي معركة ستبقى ذكراها في الاذهان عالقة . ان أقوى الموارد التي تُستمدُّ منها القوة المعنوية في الحرب هو : الشـرف العسكري ، وهو ، في الجيوش الحديثة ، ليس بأقل شأنا مما هو عليه في الافواج النظامية :

ونفسك اكرمها فانك ان تهن　　　عليك فلن تلقى لها الدهر مكرما

لكن هذا لم يلق الا تشجيعا قليلا في ذلك الوقت ، وفي خلال الشهور القادمة ، سواء أكان ذلك في انكلترة أم في الهند .

ان العقبة التي وضعت في سبيل ارسال المفرزات التي تألفت من (وحدة مانجسترز) ومن الوحدات الهندية ، والتي جاء لانجادها ، استمرت حينا من الوقت . وقام الـ (جنرال كيري) بتسليط مدافعه تسليطا فعّالا على النقطة المهددة ، وكان أن تقدمت (وحدة مانجسترز) ، بعد قصف مدفعي استطال أمده ١٥ دقيقة ، فاستولت على الموقع الذي ازيحت عنه مؤقتا . وتقدم (اللواء التاسع) الذي يضم (وحدة الكركة ١/١) و (وحدة المهراتا/١٠٥) و (وحدة المشاة/٩٣) على قسم آخر من الخط فلقي مقاومة شديدة . وما كان في الامكان القيام بأمر ما في ذلكم الوقت ، وتحت جناح من العتمة انسحبت (وحدة مانجسترز) و (الوحدة/٥٩) . وقد تكبّدت خسائر فادحة ، شأنها كشأن وحدتي (الكركة ١/١) و (المهراتا/١٠٥) فحلّت محلها (وحدة المشاة البلوجين ١٢٤/٢) . وبرزت (وحدة السيك ٤٧) في الميدان أيضا ، وان كنت خسائرها أقل شأنا . وهكذا تعاونت القوات الهندية المسلمة ، في الدرجة الأولى ، مع وحدات جاءت من المدن الصناعية المزدحمة في شمالي انكلترة ، فدحرت ، على أرض تركية ، أقوى قطعات ساقها (خليفة المسلمين) الى ميدان حرب .

واستمر الاقتتال ، دون هوادة ، من الـ ١١ كانون الثاني حتى الـ ٢٨ منه ، وامتاز بزحوف قصيرة متعاقبة ، وقتال شديد مرير ، أسهمت فيها قوات صغيرة يقودها صغار الضباط ، كانت المبادأة ، عندهم ، أوسع مدى مما تقدمه الحرب الحديثة غالبا . وتراجع الترك الى وراء ، خطوة فخطوة ، وقد غلبت ثباتهم عزمات امتازت بها الهجمات المتعاقبة[٨] . وفي ليلة الـ ٩ من الشهر

---

(٨) شد ما يمكن تقرير مصير معركة ما عن سبيل نقل (مركز الثقل) فيها ، وعلى حين غرة ، شريطة ان يودي ذلك بتوازن العدو . ولبلوغ الحد الكافي الوافي من القوة وصبه في (مركز الثقل) يجب تركيز جميع الامكانات فيه . هذا ما تقرره المبادىء التعبوية ، وظاهر ان هذا ما حدث في هذه المعركة حقا . .

[المترجم]

أخلى (اسماعيل حقي) آخر موطىء قدم لديـــه ، وانسحب عابرا النهر ، تاركا ل (الجنرال مود) الاستيلاء على (دورة الخضيري) • وبلغت خسائرنا خلال القتال الذي استطال مدة ١١ يوما أكثر من ١٥٠٠ جندي ، ولعل خسائر الاتراك كانت أكثر من هذا ، ذلك انهم خلفوا في الخنادق بضع عشرة مئة من الموتى • لقد كانت هذه بالنسبة اليهم انتكاسة باهظة الكلفة حاسمة ، وثبت انها كانت نقطة انعطاف في (الحملة) •

وعلى حين كانت هذه الحركات جارية تقدّمت (فرقة الخيالة) على بليدة الحي ، الواقعة على بعد ما يقرب من ٢٠ ميلا جنوبي الكوت ، على النهر المسمّى باسمها • لم تسنح فرصة مواتية ، خلال أيام الحملة كلها وتفترص في القيام باجراءات تأديبية (كذا : المترجم) بازاء مجموعة العشائر التي دأبت على ذبح جرحانا ذبح النعاج ونهب أسلاب الموتى ، وعرقلة أرتال سير التموين العائدة لنا • حقا لقد جرى تفريط في الحركات التأديبية بازاء (قلعة قصاب) ، ولقـد آن أوان القاء درس على العشائر •

وكانت (الغرامة) قد فات ابانها المضروب ، وكان من الاحرى أن يُنصح ال (جنرال مود) بأن يخلف ، أثرا ما ، في المدينة الرئيسة المجاورة وهي ذات سجل كله شرور وآثام • ولم يحدث شيء من هذا القبيل أبدا • لقد ارسلت (فرقة الخيالة) الى (الحي) حقا ، لكنها لم ترسل الا للتوثّق من نوع المؤن التي يمكن الحصول عليها بلديا •وبعد أن لقيت من الاعراب مقاومة خفيفة يوم الـ١٠ من الشهر ، احتلت (البليدة) صباح اليوم الـ١١ ، ان من فيها هم ،جميعا،من الخبثاء (كذا : المترجم) • وعلى ما ورد في التأريخ الرسمي :

« أقبل فحيّا ، وتقدم يسعى ويرحب ترحيبا وديا ويقدم لها ما طلبت ، فورا، من مؤن وذلك اثر دفع أثمانها ، ولقد تبيّن ان كمياتها وفيرة جدا • وصودرت في احدى البنايات الحكومية بعض الاسلحة والاعتدة التركية ، وجرى اتفـــاق مع السكان بصدد تجهيز قوات ال (جنرال) بالخراف والخضراوات في قابل الايام ، وان خامرنا الشك في التزام العرب بهذا : (فالحزم سوء الظن بالناس)• وبعد ظهر اليوم الثالث عشر من الشهر أرسل ال (جنرال مود) الى ال (جنرال

كروكر) أوامر يطلب اليه فيها أن يعود ، وأن يجلب معـــه من الحبوب كل ما تستطيع نقلياته جلبه • وفي صباح اليوم الرابع عشر من الشهر تجمّع النـاس ليشاهدوا الخيالة تشرع بالعودة ، وكانوا على ولائهم السابق ، وما أن غادرت مؤخرتها (المدينة) وأصبحت على بعد نحو ميل منها الآ شرع الاعراب بالسير في أعقابها ومهاجمتها • وانضمّ اليهم أعراب آخرون من قرى محصّنة ، كائنة على الجانبين ، ودأبوا على التعقيب لساعات • وجرى قتال مفرّق كثير ، لـــكن البريطانيين اكتفوا بقتال مؤخّرة تعبوي ، على ان رعيلا من رعائلهم (لانسرز ١٤) استفاد من فرجة فهجم على جموع الاعراب وألحق بهم أضرارا جسيمة) •

وكان (آمر فرقة الخيالة) التي تتألف من كتيبتين بريطانيتين ، واربع كتائب هندية ، كاملة العدد والعدة ، وعندهـــا مدفعان رشاشان ، ومدفعان غيرهما ، والقطعات التي توجد عادة في اية فرقة ، قد « اطمأن » بيسر ، لكن الخيالـة المقاتلة استشاطت غضبا لانها لم تُمكَّن من ان ترد الصاع بصاع ، وقُتل ضابط بريطاني ابّان القتال ، فعرّاه الاعراب من ملابسه ، وهم ينظرون ، ثم غادروه لتسلّم جثته ضاحيا • وبلغت ضحايا فرقة الخيالة ، ما بين قتيل وجريح : ٢٤ لكنها أدّعت انها الحقت بالعدو خمسة اضعاف هذا العدد •

وكان المأمول ان يستخدم الـ (جنرال مود) ، بعد ان استطار شرر العداء ، وحمي وطيس الحرب ، على هذا الوجه البيّن الاني ، قوة الخيالة الايدة التي

(٩) قلنا : ان لجنة الحرب في الوزارة البريطانية في هذا الاوان أخـذت تميل الى الاخذ بخطة شبه هجومية • لذلك وعز الى الـ (جنرال مود) بتقوية مواقعه الامامية وتركت له حرية النظر في امكان التقدم بوجه متوافقت مع مـا يبذله الروس من جهود اكبر في فارس وكردستان • لقد كانت عدة البريطانيين وعددهم بالنسبة الى اعدائهم الاتراك الواقفين بازائهم الان اكثر وازيد • وكان ان رسم (مود) خطة ذات وجهات محدودة متتابعة يريد من ورائها قهر قوات عدوه من دون الاعتداد بأمر بغداد او يحسب للاعتبارات السياسية حسابا • وكان ان اتخذ خطواته في سبيل تنفيذ خطوته بصبر واناة ، فازاح الاتراك من ضفة دجلة اليمنى حتى نهر الغراف في الـ ٤ من شباط ، واستولى على دورة (دهره) في اواسط شباط ، وعلى موقع الصناعيات في الـ ٢٤ • وفي اليـوم نفسه ستطاع ان يعبر نهر دجلةعند هذا (الموقع) ، ومن بعده اخذ الاتراك بالتراجع مهزومين بمحاذاة ضفة دجلة اليسرى تلقاء بغداد •

[المترجم]

في امرته فثار رهج سنابك جيادها في معركة طاحنة ، اذ لم تكن لها ضرورة ملحئة في هذا الوقت ، في جهات اخرى ، وعلى ما فعل كدين : gideon في ظروف مماثلة تماما فلقن العدو درسا لاينساه في مقبل الايام • حقـا لقد كانت لاجـــراءات التأديب ما يبررهـــا ، ومبرراتها كثـيرة ، وليس ، عـلى مايتراءى ، مما ذكر عنها رسميا • لقد اخبرني لجمن ، وهو من بين من دخل الحي ، أول مرة ، انه شاهد كثيرا من أهلها ، ومعهم التجهيزات البريطانيـــة ويحملون بندقياتنا وعتادنا • لقد وجد في كل بيت دخله ، وكل دكان ولجه ، شيئا من مخلّفات ميادين قتال سنة ١٩١٥–١٩١٦ • لقد كان ال (جنرال مود) يصبّ كل عنايته على الاتراك ، الا ان ثمة غارة جوية شُنّت على الحي ، باعتدادها كيل صاع بصاع ، وما كانت فعّالة حقا • لكن (قطعات الميديين) لم تقهر ، اذ سرعان ما رفعوا الرؤوس عاليا • لقد كانت النتائج العسكرية لاحجـــام ال (جنرال مود) عن اخذ العرب ، اخذ عزيز مقتدر ، اخطر مما يستبان من المدونّات الرسمية • وفي الامكان ان يستشفّ ذلك من وجود قطعات كبيرة على ضفتي دجلة ، ومن خط مواصلاته ، وذلك حتى وقت طويل لاحق انقضى بعد (الهدنة) ،كما يستشفّ ذلك من السرعة التي مازت تحوّل هذه البلاد وصيرورتها خارجة عن يد المهيمن المسيطر سنة ١٩٢٠ • وفي خلال الحركات التي وصفت في هذا (الفصل) كان العرب هم المسؤولون عن تعذّر تعبئة لواء كامل ، اذ كان خطرهم بينا ، ذلك الى خطرهم الذي احاق بقطعات افردت للدفاع عن خطوط مواصلاتنا على مايجري عادة • وازداد احتقارهم لنا بمضي حركاتنا قدما • « اذ كلما كانت الارضون تزدحم بقطعاتنا » ، على مايقرر (كاندلر) نصا ، « كلما ازدادت غارات العرب وسلبهم ليلا ، ودأبهم على تقطيع الاسلاك الممتدة بين المعاقل تقطيعا ، منجنّبين ، خلل ذلك كله ، شراك القنابر التي كنا ننصبها ، هاربين ببندقياتنا وجيادنا وعتادنا من دون ان يمسهم احد بسوء غالبا » •

وكانت خطوة ال (جنرال مود) التالية هي : تطهير الحي ، أو بالاحرى المثلث الكائن شرقيها ، وجنوبي دجلة • لقد جرى ذلك على الوجه المنسّق المدبرّ الذي اتسمت به الحركات بازاء (دورة الخضيري) • وما ان حلّ اليوم السادس

من شباط ، الا تكلل ذلك بالنجح المبين ، والفضل فيه يرد الى الفيلق الذي قاده ال (جنرال مارشل) والمؤلف من الفرقة ال ١٣ بامرة ال (جنرال كايلي) والفرقة ١٤ بامرة ال (جنرال ايكرتن) ، واصبح الجو، الذي عرقل الحركات خلال الوقت المقابل لهذا الوقت من سنة ١٩١٦ ، اليوم رائقا ملائما ، وكانت الرؤية ، على العموم ، حسنة • وكان عندنا القوق الاعظم في الاسلحة كافة ، ولا سيما في عـــدد المدافع • كمـــا بلغ مجموع مقاتلتنا نحـــو ٣٥٠٠ من حملة السيوف (الخيالة) و ٤٥٠٠٠ من حملة البندقيات وبلغت عدة مدافعنا : ١٧٤ مدفعا ، يقابل ذلك كله ، ٣٠٠٠ من حملة البندقيات الاتراك ، ومعهم ٩١ مدفعا • ولم يدرك النصر ، على كل حال ، من دون ضحايا بلغت عدتها جميعا ٣٧٠٠ ، وبذلك بلغ مجموع خسائرنا ، منذ ال ٢١ من كانون الاول الى حين ذلك : ٢٥٤ ، بضمنهم ٢٠٧٩ من القتلى والمفقودين • وقد دفنا من قتلى الاتراك أكثر من ٢٠٠٠ ، واخذنا منهم ٥٧٠ أسارى ، ولعل عدة خسائرهم بلغت في هذا الجوار ١٠٠٠٠ •

ليس من وكد هذا (الكتاب) ذكر الخطوات التي خطاها ال (جنرال مود) فادرك اهدافه ، لقد امتازت الحركات ببسالة رائعة ابدتها وحدتا (السيك ٣٦ و ٤٥) وكتيبتان من (اللواء ٣٧) يوم الاول من شباط • سارت الكتيبتان الى ميدان النحر كاملتي العدد ليحصدها الموت الوحي السريع ، فابيدتا تقريبا • ولم يبق من الفوجين الاولين الا ١٩٠ جنديا لم يمنو بجراح ، وبضمن هذا العدد ضابط بريطاني وضابطان هنديان • لقد كتب آمر فوج (دفن ١-٤) الى آمر (فوج السيك ٣٦) يقول : ان هذا الفوج والفوج ال ٤٥ « ضربا مثلا عاليا للّواء بحيث لن تستطيع الافواج الاخرى التي فيه ان ترقى اليه الا بشق الانفس » • (ان التعبير الصارم الوارد في استعراض هذه العبارة غير مقصود لذاته ، دونما شك) • بعد نحو ثلاثة اسابيع استعرض ال (جنرال مود) « بقية » الحرب الطحون ، وكانت في طريقها الى العمارة لمعاودة تنظيم ، فعبّر عما خالج نفسه من تقدير بالغ لما ابدته القطعات من مزايا حربية رائعة • لقد اثبت اولئك المقاتلون المنحدرون من عنصر (جات) المزارع انهم ، عند الاشتباك يدا

بيد ، أكثر من ان يكونوا لمزارعي الاناضول ، جنود الاتراك ، ندا . وابدى الضباط الاتراك خلال الهجوم المضاد شجاعة واقداما ، وتنافس الضباط الهنود مع الضباط الانكليز في ميدان القيادة الحكيمة وبازاء موت محتوم محقق . ولنا ان نذكر الفعال التي اسدتها القطعات الهندية ونحمدها مرارا وتكرارا . انها من الذكريات التي غاصت في لجج الماضي . انها معتمة وان كانت في اذهان (بقايا السيوف) مستقرة ، هذا وان عدد من في الخدمة الحقة اليوم ، منهم قليل ، وانك لتجد هذه الفعال في التواريخ صحيحة لكل جبهة ، بتأمل وروية ، ومنها ما دون في تأريخ الكتائب تفصيلا ، ومنها ما ترجم الى لغة الكتيبة المختصـــة ايضـــا .

لكن ، ليس ثمة سجل يدون فعال الجيش الهندي ، بعامة ، على أن (المقدم يت Yate) حصل على وعد من (وزارة الهند) سنة ٩١٥ ، مؤداه انمن المحتمل القيام بدراسة وضع مثل هذا (التأريخ) ، ولمن يُعنى بمستقبل الهند ، في الصميم ، وابتعاث الثقة المتبادلة بين الشعبين البريطاني والهندي ، ان يفكر ، اليوم ، في امكانية القيام بما ذكر . لقد نفد ، منذ امد ، كتاب (ماكمن) الموسوم بـ (جيوش الهند The Armies of India) ولم يؤلَّف كتاب يحل محله . ان تدوين انجازات الهند العسكرية خلال السنوات العصيبة ، الملمع اليها ، يعين على تركيز انتباه الرأي العام في أحدى وجهات السياسة الهندية التي قد يعفو عليها النسيان في خضم المناقشات السياسية . ولو نظرنا الى هذه الانجازات ، باعتدادها دليلا على الامكانات القابلة ، لوجب عدم اغفالها .

وليعرض (القارىء) عن مثل هذا الحيود عن السرد الذي لا يحملني على أن أنأى عن التأمل في المستندات المعاصرة التي يرتكن اليها ، حسب ، بل ذكريات خمس سنوات قُضيت في كتيبة سيك (١٩٠٣-١٩٠٧) ، هي (وحدة باينيرز ٣٢) ، على قرابة واشجة مع جنودها ، بامرة العقيد باندر ، وهو من أشد من تشرفت بمعرفتهم الهاما ، ومن يزدان بقلب مشوق تواق . لقد كانت الرابطة التي تربط آحاد الكتيبة قوية الى حد ما بعده من حد ، يدلك على ذلك ان قفلة من قفلات (وحدة باينيرز ٣٢) قُدر لها ان تتوقف في البصرة ،

تحت (مكتبي) ، وسرعان ما عرفت نبرات كلام رفاقي الاقدمين ، وان كان حديثهم مضطربا مريحا ، فوثب له قلبي ، وهو بالسرور ينضح ، واندفعت اليهم احييهم ولا الوي على شيء . لقد كانت لحظة فذّة عظيمة من لحظات العمر ، فلهجة تلكم الكتيبة ، التي لم اتحدّث بها ، في يوم من الايام ، أو اسمعها ، طوال عشر سنوات ، تناهت الى مسمعي حلوة ، وهي تحمل اليّ أسم كل ضابط في الكتيبة وضابط صف وجندي ، ممن خدم معي فيها تقريبا . وحدّثتهم لدقائق معدودات بلسانهم فتعالى هتاف من صفوفهم ، هو (صرخة الحرب) التي يردّدها السيك ، وجاءت ، في اعقابها ، تقول : عُدّ الينا ، ياصاح ، وقدنا الى النصر ! وهنا انهمرت الدموع من مقلتي فهربت منهم لحين من الوقت ، ثم اني رجوت رئيسي ان يأذني لي بالعودة الى الخدمة العسكرية فانا ، اليوم ، اليق بها ، لكنه ابى ذلك ، ومضى زمن مديد قبل ان انسى تلكم اللحظات ، لحظات النشوة والرغبة في العودة الى حيث كنت ، وحيث نجحت .

وفي اليوم الذي اعقب تطهير (مثلث الحي) بنجاح تام ، اعلم (سر ويليم روبرتسن) ال (جنرال مود) ان الروس الذين كانوا بامرة ال (جنرال باراتوف) وال (جنرال جيرنوزوبوف) ، وكانت حشودهم في ايران كبيرة ، يقومون بمحاولة جريئة فيتقدّمون ، ولو قُدّر لهم النجح في ذلك ، لوصلوا الموصل وسامرا وبغداد . ان الطقس ليحول دون مثل هذا قبل منتصف نيسان . وما كانت الانباء هذه غير مرتقبة ، ذلك ان ال (جنرال مود) كان على صلة تامة بال (جنرال باراتوف) ، خلال فصلي الخريف والشتاء ، لكن الامر غدا محددا قاطعا ، لاول مرة ، ومصحوبا بانتصارات روسية مهمة . ان احتمال احتلال القوات الروسية لبغداد ، وحتى الموصل ، لم يكن بأي وجه مستحبّا ، ذلك انه يلغي ما اتفق عليه في (معاهدة سايكس - بيكو) ويجتويه العرب الذين يقوم (المقر العام) في القاهرة بالاتصال بهم في مثل هذا الوقت . وما كانت لهذه الاعتبارات أهمية في خطة ال (جنرال مود) السوقية لكنها قد تكون عونا ل (حكومة صاحب الجلالة البريطانية) في باب الوصول الى قرار ، اتخذ بعد شهر ، وخوّل بموجبه ال (جنرال مود) ان يجعل بغداد قبلة عينيه .

وكانت الخطوة الاولى هي مهاجمة الموقع التركي الكائن على ضفة دجلة اليمنى عند (دورة دهره) فوق الكوت ، ذلك ان عدة العدو فيه كانت نحو ٦٥٠٠ من المقاتلة ، ومعهم ١٤ مدفعا • ونيطت الحركات بالفيلق الثالث ، وكان بامرة ال (جنرال مارشل) ، الذي أوفد (الفرقة ال ١٣) ، بامرة ال (جنرال كيلي) ، لتكون في المقدمة تساندها قطعات من (الفرقة ال ١٤) ، على الجهة اليمنى ، وهي بامرة ال (جنرال ايكرين) • واستعر لظى المعركة يوم ال ٩ من شباط والجو رائق ، وكان ان تقدمت كتيبة (لنكستر ادن) ، خارجة من خنادقها ، والقذائف تنهال عليها بشدة ، فاستولت على اجزاء من خط الجبهة التركية ، وثبتت عنده ، وذلك على الرغم من هجمات مضادة مصممة ، وخسائر فادحة • وادركت (وحدة وركستر) التي كانت على ميسرتها الظفر نفسه ، دون ان تتكبد خسارة ما تقريبا ، واستطاعت ان تقتل من العدو كثيرا وتستولي على اسرى ومؤن أيضا • وكانت الخيالة تقوم بحركات في الجهة الغربية ، بازاء موقع شمران ، لكنها لم تستطع ان تتقدم بازاء الخنادق التركية ، فالارضون هنالك لم تكن صالحة لحركات تقوم بها الخيالة المترجلة • انها تفقد « الغطاء » بالنسبة الى الجنود والحيوانات • وشُنّت هجمات أخر ، خلال اليومين التاليين ، وثبت الاتراك على الرغم من ضحاياهم ، وخسائرهم ، وصدّ هجماتهم في قطاعات مختلفة في أيام متعاقبة ، لكن الحظ الذي حالفهم ، قبل سنة ، خذلهم اليوم ، فتجهم وجهه • فالمطر الذي كانوا يتوقون اليه لم يهتن ، ولم تصد القوة المهاجمة من قبل الطين ، على غرار ما حدث في سنة ١٩١٦ •

وفي ال ١٢ من الشهر شُنّ هجوم جديد ايد ، وكانت تقوده سرية من (وحدة كريناديير ١٠٢) ، لكن الخطة المستأنية التي وضعت لاحكام التعاون بين المدفعية والمشاة لم تطبق ، وجرى التقدم من دون اسناد من المدفعية •

ولم يتلكأ جند (وحدة ١٠٢) ولم يتراخوا ، لكنهم دأبوا على المضي قُدما حتى أصيب آخر جندي في (السرية) كلها تقريبا • واستطاع خمسة منهم بلوغ الغاية ، لكن اثنين منهم ، فقط ، تنفس بهما العمر فاستطاعا ان يرويا (قصة المعركة) • ولم يسلم أحد من ضباط السرية ، وعدتهم سبعة ، وهم

من البريطانيين والهنود ، اذ اثخنوا رجال المعركة بالجراح جميعا ، ومن بين جنودها ، وعدتهم ١٣٦ ، لم يسلم الا ١٣٧ ، وسقط الباقون في ميدان الهيجاء صرعى . اما بقية الفوج الذي تنتمي اليه (السرية) فقد كانت خسائره اقل من خسائرها نوعما . لم يحد من عزمهم ما لاقاه زملاؤهم من نوازل ابدا ، لذلك انقضوا على موقع الاتراك واستولوا عليه . وكان ان انجدوا بسرية من وحدة (دوكرا ٣٧ Dogras) [١٠] ، فاندفعت هذه بعزمة جبارة ، وفقدت ، ابان ذلك ، خمسة من ضباطها و١٠٤ من جنودها .

وفي ال ١٥ من الشهر ، وفي آخر لحظة من تأجيل استطال مدة اربع وعشرين ساعة ، وبايعاز من ال (جنرال مود) نفسه ، وبغية اعداد خنادق التجمّع اعدادا متقنا ، بدأ الهجوم النهائي اخيرا ، وجرى التقدم الاول من قبل سرية من سرايا (وحدة لويل نورث لانكشر ٦) واعقبه ، في اقسام من الخط أخرى ، تقدّم قامت به (وحـــدة رويل ويلـح فيو زيليرز ٨) ، و (وحدة ساوث ويلز بوردررز ٦) ، وباسناد من (وحدة چيشايرز ٨) . لقد احتفظت هذه الافواج ، لاول مرة في تأريخها ، وفي ميدان القتال ، بالتماس الذي يدل عليه اسم كل منها الاقليمي . وبعيد الظهيرة قامت قطعات (الفرقة ال ١٤) ، وبضمنها (وحدة الكركة ٣ و٤) و (وحدة بفس ١ـ٥) و (وحدة دوكرا ٣٧) ، بهجوم ، وقبيل ان تشرف الدنيا على الغروب ، وعين الشمس الشاحبة في حاشية الافق ، هتَن المطر ، لكنه جاء متأخرا فلم يستطع الى انقاذ الاتراك سبيلا . وبلغت عدّة ضحايانا التي تكبدناها خلل النهار ٥٠٠ ، على حين كانت خسارة الاتراك ساحقة ماحقة ، لقد خلّفوا من قتلاهم في ميدان المعركة ٢٥٠ قتيلا ، واسرنا منهم ٢٠٠٠ ، وغنمنا ٢٥٠٠ بندقية ، وكميات من المؤن

---

(١٠) الاسم هذا جغرافي وليس برسي حقا . قال (دوكرا) شعب ينحدر من التلال الكائنة بين ال (بنجاب) و (كشمير) ومن الهنود الاريان القدامى والارساس المتصلة بهم ممن كانوا يسكنون جبل الهند . انهم من البرهميين والهندوس والجات ومن شابههم وهم الذين لم يرضوا القرآن (الكريم : المترجم) كتابا والنبي (صلعم : المترجم) رسولا ، على حين قبل به كثير من الراجبوتيين الاخرين (ماكمن) .

[المؤلف]

الحربية • وهكذا انهارت ، على التحقيق ، قوة العدو على الثبات والمقاومة ، واصبحت ضفة النهر اليمنى بيدنا كلها • وحال بيننا وبين البقية الباقية من قوة الاتراك مجرى ماء لا سبيل الى خوضه • كانت سرعة تياره ٦ أميال في الساعة ، وماؤه قد طمّ وعلا • وكانت قوة الاتراك هذه موزّعة بين (شمران) الكائنة على بعد ٨ أميال ، غربي الكوت ، وبين (الصناعيات) ، وكان يطبق عليهمـا (الفيلق الاول) بامرة الـ (جنرال كوب) •

وكان لدى الـ (جنرال مود) مبرّرات رصينة تحمله على الاطمئنان الى تصرف جنوده ، فاصدر (أمرا يوميا) حمّله لهم بالتهانيء الحارة وشكره على فعالهم وحمده ، وقد جاء فيه بالنص : « الى ضباط الكتائب وضباط الصف والجنود على ما أبدوه من شجاعة منقطعة القرين وعلى الروح الحربية ، عديمة النظير » ، ثم مضى يقول : « ان النهاية لم يحن حينها ، بعدُ ، لكن هذا التعاون المطلق والنشاط الذي يسود الجميع هما ضمانا الفوز المبين » •

وأصبحت القوة التركية التي بامرة (قره بكر بك) الآن مؤلّفة من نحو ١٠٠٠٠ مقاتل ، يقابلها ما يقرب من سبعة اضعاف هذا العدد من المقاتلين بامرة الـ (جنرال مود) • وكان يعوز الاتراك عتاد المدافع وكانت بعض فتائله رديئة • وكثر بينهم الفرار • وادرك (خليل باشا) الخطر الذي يتعرّض له (الفيلق) المحارب على ضفتي دجلة ، لكن ادراكه جاء متأخرا • وتمسّك بخطته الرامية الى ارسال قوة ، خلل فارس ، لتقطع خط مواصلات الانكليز فيها ، لكنه لم يستطع الحصول على النجدات ، في ابانها ، من مكان آخر • هذا على انه لم يُعدّ مواقع دفاعي الكوت وبغداد ، وعلى ما فعل سلفه الحصيف نورالدين بك ، (ومن سلك الجدد أمن العثار) •

ان المشكلة التي كانت تجابه الـ (جنرال مود) على التحديد تلخص بـ : كيف السبيل الى عبور دجلة ؟ واين ؟ ومتى ؟ لقد كان الفوز مرتكنا الى أخذ العدو على غرّة ، وعلى الاستعداد اللازم من قبل الوحدات التي سيوكل اليهـا أمر تلكم الحركات العسكرية العسيرة • ولم يدّخر وسع في سبيل القيـام

بالتدريب [11] المطلوب ، وحشر ٨٠٠ من الجذافين ود'ربوا في نهر الحي ، كما نظر في جميع التفصيلات نظرة شاملة متعمقة وجرى التأمل فيها مليا ، مسبقا ، وكأن ذلك من الفاعليات الدقيقة التي كانت تجري في سهول اولمبيا • واحتيج ، على كل حال ، الى متطوعين آخرين ، بالنظر الى ما تكبدناه من ضحايا ، فحصلنا عليهم من (الفرقة ال ١٣) • وضمن عنصر المباغتة بقصف يومي ، وبهجوم مساند على (موقع الصناعيات) ، جرى يوم ال ١٢ من شباط من قبل (الفرقة السابعة) ، وقد اشرنا اليه في محل آخر من هذا (الكتاب) • وشُن هجوم على (المكاصيص) ، والليل قد أرخى على الدنيا سجوفه ، وذلك في الامسية التي سبقت يوم الامر الحق المدبّر • وعبرت النهر جماعة من وحدة البنجابيين ٢٧ ، وعدتها ١٠٠ ، وكانت بامرة النقيب بيتمن ، ومعها جذافون من (القطار الجسّار رقم ١) ، فلم يلحظها احد • كما عبرته جماعة من (وحدة سيك باينيرز ٣٤) ، وبالعدد نفسه من (المهندسين/٢١) ، وعلى عوّامات فيها جذّافون ، فانقضّت على خنادق الاتراك وعادت ومعها اسرى ورشاشات ، من دون أن تتكبد خسارة ما تقريبا •

ودُبّرت [12] خدعة أخرى في أعالي دجلة ، قُبالة لكوت • وكانت لهذه الحركات نتيجتها المرتقبة ، واستنتج الاتراك أن أمر (المكاصيص) لا يعدو ان تكون لعبة وهُزْأة ، وان قرقعة الالواح ونقل عربات الحمل وتحرّكها ، قبالة الكوت ، (قرب مكينة السوس) هو الذي كشف عن موطن الخطر الحق • وقبل ان (يتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود) ، من صبح ال٢٣ ، عبرت مفرزات من (وحدة نور فكس ١) ، يقودها الملازم الثاني هورنور [13] ، وكان عبورها على عوّامات ، فلم يلحظها احد ، فاستولت على قسم من ضفة

---

(١١) ان اردت الوقوف على التفصيلات المتعلقة بالمنظومة ، فراجع : Dewing, Wilts

(١٢) راجع ايضا : Tennant, Candler

[المؤلف]

(١٣) لما قام به في هذا اليوم عينه منح (نوط الخدمة الممتازة : D.S.O

[المؤلف]

النهر . وعبرته ، على مسافة قليلة نُزلا ، مفرزة من وحدة الـ (كركة ٢ـ٩) أيضا . ومن بين العوّامات ، وعدتها ١٣ ، وفّقت ٢٠ منها فقط الى بلوغ الجانب الثاني ، لكن اربعة منها اغرقت أو عطّلت خلال عودتها . وقامت بقية العوّامات الست بمحاولة العبور ثانية فقتل كل من كان عليها أو جرح قبل بلوغ منتصف النهر . ولقيت وحدة الـ (كركة ١ـ٢) المصير نفسه عندما طُلب اليها القيام بالعبرة الثالثة . حمدا الى النجح الاول الذي اصابته المفرزة الرائدة، فالعبّارة الاولى لم تنلها نار الاتراك الا قليلا ، وما ان كان عقربا الساعة يشيران الى التاسعة والنصف صباحا الا استطاع الفوج كله ان يعبر النهر . ولم تكن الشجاعة التي ابدتها المفرزة الرائدة (لوحدة الكركة ٢ـ٩) ، والتي كانت بامرة المقدم ويلر[١٤] ، بأقل من ذلك شأنا ، شأنها كشأن المباغتة التي اتّسمت بها حركتها أيضا . لقد استولت على خندق تركي كائن على مسافة ١٥٠ داخلا ، ثـم ثبتت في مكانها لاتتململ ولاتتزحزح . وتمكنت العبّارات الكائنة عند المعبر الثالث، وعدتها ١٣ ، من عبور النهر بنجاح ، لمرة واحدة ، وكان الجاذفون من (وحدة همشير ١ـ٤) وقد جادت بضحايا بلغت عدتها ٩٨ من أصل ٢٠٠ ، فنالت ستة أنواط من أنواط الشجاعة البارزة مباشرة . واثر التحام مع ربيئة تركية ، استطاعت الزمر الاولى من وحدة الـ (كركة ١ـ٢) ، التي كانت بامرة الملازم تو كوود ، الحصول على موطىء قدم ، لكنها اضطرت الى ان تبقى عنده امدا طويلا ، قبل ان تردها النجدة . ووصل القطار الجسّار بامرة النقيب وتس في الساعة السادسة والنصف صباحا ، فبدأ تشييد الجسر . وبعد ساعتين أُنزل الى النهر قاربان بخاريان ، واستمرّ العمل في نصب الجسر ، ولكن ذلك لم يكن من دون ضحايا كبيرة ، حتى اشار عقربا الساعة الى نحو الساعة الحادية عشرة والنصف حين طُهِّرت الضفة اليسرى على يد القطعات التي عبرت النهر بالعبّارة الاولى : (لا يمتطي المجد مَنْ لم يركب الخطرا) . وكانت قطعات اخرى، في الوقت

---

(١٤) منح ، بسبب من البسالة المشهودة التي ابداها في هذه الحركة ، (وسام الصليب الحديد : .V.C) ولا يتضمن اعلان النبأ ، على ما ورد في (لندن غازيت : London Gazette) ـ ٨ تموز ١٩١٨ ـ ان صنيعه قد تم في بلاد مابين النهرين . ولم يعامل اى ميدان حرب آخر بمثل هذا .
(المؤلف)

نفسه ، دائبة على عبور النهر محملة بمعدل ٢٠٠رجل في الساعة . وماان حلت الساعة الثانية من بعد الظهر الا كانت وحدتا الـ (كركة ٢-٩ ، ١-٢) قد عبرتا النهر والتحقتا بوحدة (نور فكس) في سعيها لارجاع الاتراك الى وراء ، وكان هؤلاء قد بداؤوا يسلمون أنفسهم باعداد كبيرة . وعبرت (وحدة البنجابيين ٦٧)، بعد ساعة . وفي الساعة الرابعة والنصف من بعد الظهر تم تشييد الجسر وطوله ٣٠٠ يارة . لقد استغرق ذلك ٨ ساعات وهو عمل ، لو تعلمون ، عظيم ، وبلغت عدة الضحايا من العابرين ٣٥٠ ، منهم ٢٠٠ من الجاذفين المتطوعة . ولا يعرف عدد ضحايا الاتراك ، لكنهم خلفوا بايدينا ٥٤٠ من الاسارى وخمس رشاشات أيضا .

بقي علينا ان نذكر الحركات في (الصناعيات) ، حيث كانت القوة التركية الرئيسة متجمعة ، ومرد ذلك الى خطط الـ (جنرال مود) السوقية فله حمد دائم ولها شكر : كان الفيلق الاول على الضفة اليسرى من النهر ، قبالة (الصناعيات) قد قام يوم الـ ١٧ من شباط بهجوم فلم يحالفه التوفيق فيه . لقد انصب على الموضع التركي الذي كان فيه ٣٠٠٠ من الاتراك ومعهم ١٩ مدفعا . وايد هذا الاخفاق معتقد خليل باشا ، ومحصله ان جبهة دجلة رصينة مكينة ، وحمل (قره بكر بك) على تعزيز جناحه الايسر في (الصناعيات) .

واعقب هذه الحركة ، يوم الـ ٢٢ من شباط ، هجوم آخر بدأته محاولة عبور النهر عند (شمران) . وجرى ذلك بايد وميعة ، وما بعدهما من ايد وميعة ، وكانت وحدتا (سيفورث) و (البنجابيين ٩٢) في المقدمة ، وهما الوحدتان اللتان قادتا الهجوم على الموقع نفسه ، قبل شهرين ، ولم تخفقا فيه الا بسبب من انعدام الاسناد اللازم لهما . وقام الاتراك بهجمات مضادة ، ايدة باسلة ، لا تقل عدتها عن سبع ، فزحزحوا (وحدة البنجابيين ٩٢) من الخنادق التي حلت فيها ، لكن (وحدة سيفورث) ثبتت في مكانها ثم عاودت احتلال الخنادق التي اخلتها (وحدة البنجابيين ٩٢) ، وقد عاونتها على ذلك (وحدة بلاك ووج). وقامت (وحدتا السيك ٥٣ و ٥١) بهجوم جديد ، خلل الظهيرة ، تحت ستار من قصف شديد ، فتكبدتا من جراء ذلك خسائر فدحــــة ، لكن وحدتي

(ليسترز ٢) و (رايفلز ٥٦) هبتا لنجدتهما ، وبعون من (سيفورث) عادتا الى السير ، وما ان كانت العتمة الا أصبح الوضع مطمئنا آمنا . وتكبدت (الفرقة الثالثة) من جراء حركات ذلك اليوم ١٣٠٠ من الضحايا وزيادة ، لكن القطعات التي شاركت فيها ابرزت روحا عظيما عاليا (فلم تستيئس وما كان لها أن تستلين) . كانت تمتلىء نشوة وحبورا عندما تغادر خنادقها ، وتمضي الى مابعدها. انها الخنادق التي احتلتها (الفرقة السابعة) منذ نيسان سنة ١٩١٦ عينها . واعقبت النجح هذا غزوة د'بّرت بليل ، وكانت متقنة مستأنية شنها ١٠٠ من المقاتلة ممن استطاعوا عبور النهر . كان هؤلاء من وحدة البنجابيين ٢٧ وقد اشرنا اليها فيما مضى . وكانت الليلة قرة ، وامتنع النوم كذلك على افواج (الفرقة السابعة) المتعبة ، وقد لفها الليل الاليل بشملته ، ذلك ان اغلبها كن ناشطا في حفر الخنادق او في القيام بواجب الدورية .

وما ان تم عبور النهر بنجح ، بعيد الفجر من يوم ال ٢٣ شباط على ماذكرنا آنفا ، الا ظهر ان ثمة قسما حيويا من خطة ال (جنرال مود) يجب ان يناط بالفيلق الاول ، وكان بامرة ال (جنرال كوب) ويتألف من الفرقة الثالثة (بامرة الجنرال فيري) والفرقة السابعة (بامرة الجنرال فين) ، لينصب على استغلال الفوز الذي ادرك ، الى ابعد مدى [١٥] . ونيط التقدم بالفرقة السابعة مرة أخرى ، وهي الفرقة التي عززت الارض التي احتلتها في اليوم السابق ، تعزيزا حقا . لكن الخاتمة كانت مدعاة اسى ، وذلك على الرغم من حركة التقدم التي بدأت الفرقة بها قبل فجر ال ٢٤ فأوصلتها الى خط العدو السادس ، من

---

(١٥) من المبادىء السوقية المقررة : ان اخفاء النية في الهجوم أو التراجع أو الالتفاف أمر على حظ كبير من خطر ، بقدر تعلق الامر بعنصر المباغتة . وان من الضروري استغلال الوقت اللازم لاتخاذ اجراءات مضادة ، واصطناع جميع وسائل الخداع والمراوغة بغية ارباك العدو لئلا يتصرف على استعجال . واذا ما انزلت الضربات الساحقة الماحقة بالعدو فلا معدى عن استغلال ذلك في سبيل تدمير تشكيلاته المفككة ، لذلك كانت السرعة في هذا الباب تعني كل شيء : السرعة في عدم اعطاء العدو اية فرصة لمعاودة تنظيم قواته ، السرعة في معاودة التجمع لمطاردته ، السرعة في تنظيم الشؤون الادارية للقوات المطاردة .. وهذا ما ادركه الجنرال مود على ما يظهر من الحركات التالية ونفذه . (المترجم)

دون ان تصادف مقاومة ما .

واستنادا الى تقرير جوى مفاده ان العدو يسير بحركة عظيمة غربا ، أمر ال (جنرال مود) في الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم المذكور الفيلق الاول بالمضي « بقوة » . وابلغ الامر هذا الى ال (جنرال فين) فدأب على التقدم بحذر شديد وتدبير . وبعيد الساعة الثامنة والنصف صباحا استولى (الفيلق الثالث) على سلسلة تلال (دهره) ، فاصدر ال (جنرال مود) أمره الى (الفيلق الاول) ، بالزحف ، « بقوة مابعدها من قوة » اذ لايمكن ان تكون للعدو قطعات كبيرة امام موقع (الصناعيات) ، بتة .

لقد كان تقدما عظيما ، لكنه سرعان ما صد . واقتبسنا مما ورد في (التأريخ الرسمي) نصا : « شعر قائد الفرقة السابعة بان تقدما منظما هو أمر ضروري يضمن اتصال فيالقه بعضها ببعض ، ويغطي الارضين الكائنة امامه ، وبين كل خط يتم الاستيلاء عليه والخط الاخر ، بالدورية التي يجب ان تسير قدما قبل أن يبدأ الهجوم الرئيس نفسه » .

وفي الساعة الثالثة صباحا الح ال (جنرال مود) على (الفيلق الاول) بأن يزحف باسرع ما يستطيع ، لكن ذلك لم يتحقق . وفي الساعة الخامسة من بعد الظهر زار ال(جنرال مود) ال (جنرال كوب) ، وعلى ماورد في (التأريخ الرسمي) نصا : « بحثا الموقف » . ولم يبق من النهار الا ساعة وتضيف الشمس للغروب ، ولم يتبين ان في الامكان القيام بهجوم كبير . ومن العسير ان يدرك المرء لم تباطأت (الفرقة السابعة) في المضي قدما ؟ لقد كان عند قائد الفرقة (لواءان) جديدان هما : (اللواء/٢١) و (اللواء/٨) المنسوبان الى الفرقة (الفرقة السابعة) وعلى الخطين الثالث والرابع . وعلى الرغم من انه لم يبق من خطوط العدو الا خط واحد كائن امامها ، وان (الفرقة الـ ١٤) كانت تقوم بعبور النهر عند (شمران) من دون ان يتدخل أحد في ذلك ، لم يحتل الخط الخامس الا بعد ان اخلاه الاتراك انفسهم . وبلغت ضحايا (الفرقة السابعة) لذلك اليوم ٢٩ وقبض على ٦٣ اسيرا . ولا يمكن تفسير ما فعلته (فرقة

الخيالة) ، خلال الاشتباك ، والمطاردة التي جرت في اعقابه أيضا • ذلك انها شرعت بعبور النهر ، بعد الساعة التاسعة من ال ٢٤ ، لكنها لم تبدأ باختراق ميلي الفرقة ال ١٤ ، شمالي الجسر ، الا بعد الساعة الحادية عشرة صباحا • لذلك كان الاتراك يمرّون عبر جبهتهم ، على بعد ميلين او ثلاثة اميال ، على مرأى العين في الاحيان ، لكن قطعاتنا لم تحاول الالتفاف حول جناح الاتراك الايسر • وما ان تخلّصوا من المشاة الا ّ جنح (اللواءان) الى اليسار وترجّل آحادهما وبقوا على مثل هذه الحال حتى نهاية اليوم وهم جد مشغولين ، على ما تروى (يوميات الحرب) المتّصلة بحركاتهما حرفيا ، بمؤخّرة العدو • وذكر ان ضحاياهما خلال اليوم بلغت قتيلين وستة من الجرحى • ولو جرت حركاتهما بقوة وشجاعة لكانت حاسمة • ان تعليمات ال (جنرال مود) القاضية بان يتصل الامراء به لاسلكيا ، كل ساعة ، تدل ّ على انه كان يروم الحركة السريعة وينشد التقدم الشجاع ، ان فسّرت هذه (التعليمات) حرفيا • ذلك ان نصب جهاز لاسلكي وخلعه عملية تتطلّب ٢٥ دقيقة • ومهما يكن من أمر ، لم يحاول ذلك أحد ، على ما يظهر ، وحمل ال (جنرال مود) على تكييف هذه (الاوامر) • لقد اعتدّت ، في (الدجيلة) في السنة السابقة ، اطاعة الاوامر حرفيا امرا ذا خطر جـــدا ، وبصرف النظر عما يستجد ّ من ظروف ، وباغفال احكام (اوامر الخدمة في الميدان) أيضا •

ان اخفاق كل من (فرقة الخيالة) في (شمران) و (الفرقة السابعة) في (الصناعيات) وعدم قيامهما بما يجب ، وباقصى ما يستطاع من قوة ونشاط ، كل اولئك كان ذا عقبى بعيدة المدى ، لكن الحال الفوضى التي صـــار اليها الاتراك ، اثر عبورنا النهر بنجاح عند (شمران) ، والضحايا الكثـــيرة التي تكبدوها ، جعلت النصر مضمونا ، وان لم يُدْرَك تماما • وأسّر (الفيلق الاول) في (الصناعيات) ٧٠ وأحصى من القتلى ٦٤٠ ، أما خسائر العدو على الجبهـــة فلا يمكن أن تقل عن ١٤٠٠ • وقتل الفيلق الثالث أو أسّر نحو ١٦٠٠ عند شمران ، وبذلك بلغ المجموع : ٣٠٠٠ • وكان العدو قد خسر عند (دورة الدهره) ٢٢٥٠ ، و ٤٠٠ في (الصناعيات) ، يوم الـ١٧ من شباط • ومن بين مقاتلة (الفيلق

التركي الـ ١٨) ، وعدتهم ٩٢٠٠ ، ليس محتملا أن يزيد عدد من واصل منهم السير تلقاء بغداد على ٦٢٠٠ . ولو كانت قيادة (فرقة الخيالة) و (الفرقة السابعة) حسنة لاستطعنا أن نصيّر (الفيلق الثامن عشر) المذكور رفاتا وعظاما ، وعلى غرار ما فعل الـ (جنرال اللنبي)[١٦] في تحطيمه الجيش التركي في فلسطين ، قبل ١٨ شهرا . وبلغت عدّة خسائرنا : ٢٧٥٠ ، كان ينسب ١٣٥٠ منهم الى الفيلق الاول و١٤٠٠ الى الفيلق الثالث . وحمدا لورود النجدات علينا وشكرا اذ بلغت قوتنا نحو ٤٦٠٠٠ من حملة البندقيات وحملة السيوف معا ، و١٧٤مدفعا . ومرّ الاسطول النهري ، بامرة (نقيب الماء نن) من الجسر ، خلال النهار ، وفي مساء يوم الـ ٢٤ رست بواخره : (مانتس) ، (تار نتولا) و (موث) و (بتر فلاي) و (غاد فلاي) ، و (سنيكفلاي) ، قبالة الكوت . ووجدت البليدة خالية من السكان ، صباح اليوم التالي ، وبعد ان رفع العلم البريطاني على انقاضها ، في جوّ من الانشراح العاطفي ، مخر الاسطول الى مسافة في النهر صُعُدا . ولم ترده ، على كل حال ، اوامر قاطعة بالتعقيب الأيد القوى الاّ يوم الـ ٢٦ من الشهر . لقد جاء يومه الموعود ، فكان يوما مشهودا . وفيما وراء (البغيلة)[١٧] بقليل تعرّض الاسطول الى نار مدافع من عيار ٤ انجات كانت على ظهر الباخرة الحربية البريطانية (فاير فلاي) التي استولى عليها الاتراك في كانون الاول سنة ١٩١٦ وكذلك من الزورق المسلّح المسمّى : باينير . وقادت الاسطول الباخرة الحربية (تارنتولا) ، وكان على ظهرها نقيب الماء نن ،

---

(١٦) قاد الجنرال ادمند هنري هين اللنبي(١٨٦٠ـ١٩٣٦) فرقة خيالة في الحملة البريطانية الموفدة الى فرنسة في أيام الحرب العالمية الاولى . ولقد الفتت حركاته الممتازة في ستر الانسحاب من (مونس) والتقدم نحو (نهر الراين) والقتال جنوبي (ايبر) . في حزيران سنة ١٩١٧ عين قائدا اعلى للقوات البريطانية في فلسطين . احتل (بئر السبع) في ٣٦ تشرين الاول واخترق خط دفاع الاتراك (وكانوا بقيادة الجنرال الالماني فالكنهاين) واندفع يطارد الاتراك بقوة حتى احتل (يافا) وشطر الجيش التركي . وفي ٩ كانون الاول احتل القدس ، واتخذ القوة الجوية لقصف القوات التركية المنسحبة وطرق مواصلاتها . فتسح له الطريق الى دمشق فحلب . سما به سلم الرتب الى رتبة(مهيب) عام ١٩١٩، ثم عين (مندوبا ساميا في مصر) حتى سنة ١٩٢٩ . (المترجم)

(١٧) هي (النعمانية) حاليا (المترجم) .

وعند (نهر الكلك) كان التماس بمؤخرة الاتراك ، وقد خندقوا على قمة تشرف على دورة النهر ، عنده • وكان مجرى النهر مجهولا لدى رجال الاسطول وضيقا ، لذلك قد تصبح كل سفينة فيه تحت نقمة نار مستدامة تطلق من مدفع أو رشاش أو بندقية ، ومن مدى ١٠٠ـ٥٠٠ ياردة ، على جهات ثلاث ، ولمسافة خمسة أميال • وكان خطر استقرار السفن على الطين في النهر كبيرا ، كما كان ثمة احتمال بسد مجراه • ولم يتردد (النقيب نن) ولم يتوان ، بل سار بسفنه قدما ، فتعرض الى نار حامية استطاعت ان ترد عليها كل سفينة في امرته بنار انطلقت من اسلحتها جميعا • واذا ما نظر الى ذلك ، باعتداده مشاغلة بحرية ، صح ان يعتبر تعرضا منقطع القرين معدوم النظير في (قصة الحرب) • وعلى الرغم من ان له شبها بالمشاغلة البحرية التي سبقت الاستيلاء على المحمرة سنة ١٨٥٦[١٨] • ومني الاسطول بخسائر فادحة في رجاله ، وكانت (الباخرة موث) ، آخر سفن الاسطول في خط سيره ، قد خرقت تحت مستوى الماء وتعرضت الى ٨ قذائف ، اخترقت واحدة منها مراجلها ، لكن (آمرها : العقيد كار ترايت) استطاع ان يمضي بها قدما وان لقي خمسة من ضباطها حتفهم وغدا نصف رجالها الباقين ما بين قتيل وبين جريح [١٩]• وما ان جاوزت السفن مؤخرة الاتراك الا أدركت قوة العدو الرئيسة ، ففتحت عليها نارا حامية موصدة سريعة ، مستخدمة في ذلك كل ما لديها من سلاح ميسور • قال محمد أمين : « ان الهجوم الباسل الذي شنته القوات البريطانية البحرية الحق الدمار مؤخرة الفيلق » • وهكذا كان انهيار الروح المعنوي لدى الاتراك ، لذا لم يحاولوا رد الصاع بصاع الا نادرا • وتقدم الاسطول الى الامام فسلمت له الباخرة المسلحة (سمانه) التي ابقاها ال (جنرال طاونسند) في الكوت مصونة ، وكان اجراؤه هذا خطلا وضلة • ودأبت الباخرة (فاير فلاي) على اطلاق القذائف من مدافعها ، وكانت نارها حامية ، الى ان شبت فيها النيران وجنحت الى الساحل • وسرعان ما اوفد اليها بحارة ليطفئوا نارها قبل ان تبلغ مخزن

---

(١٨) راجع Hunt (المؤلف) •

(١٩) راجع Corbett (المؤلف) •

الوقود فيها ، وجرى رفع الراية البيضاء ، وكان ذلك في موضع لا يبعد الا قلة من أميال ، شمالي النقطة التي فقدت عندها قبل ١٥ شهرا • وبعد قليل تولّى امرتها الملازم البحري اديس الذي كان مولجا بها في طيسفون ، في تشرين الثـاني سنة ١٩١٥ •

ثم كان الاستيلاء على الباخرة (البصرة) وكان على ظهرها بضع مئين من ضحايا العدو ، وقلة من جرحانا ممن اُسِّروا في القتال الذي جرى مؤخَّرا • وعلى لسان « تنانت » كانت الباخرة تعجّ بجرحى الاتراك بحيث كان كل انسان يشمّ رائحتها وهي مقبلة • لقـد نغلت جروحهم جميعـا فاصيبوا بداء العطبة ال (غنغرينا Gangrene)[٢٠] • وجاوز الاسطول الباخرة (باينير) ، وجنائب عديدة محمّلة بالعتاد • واسدل الليل سدوله على (نقيب الماء نن) ، لذلك رست بواخره للمبيت ، والاسطول امام قطعاتنا بمسافة بعيدة ، وعلى مدى مرمى من قوات الاتراك الرئيسة • واستحال انسحاب الاتراك المنظّم الى هزيمة نكراء ، وشاهدت الطائرات ، في اليوم التالي ، على ما يروي تنانت نصا: « منظرا راعبا عجيبا ، جثث جنود موتى وبغالا نافقة ، ومدافع منبوذة ، وعربات حمل وذخيرة على الطريق مرمية مبعثرة وكثيرا من العربات ، وقد رفعت الرايات البيض ، وجنوداً وحيوانات مرهقة توشك ان تنفق من جوع ومسغبة ، على الأرض الخلاء منتشرة • لم تسلم من هؤلاء الا قلة فلقد انقضّ عليهم الاعراب انقضاض الذئاب ••• لذلك وجهت وجهي شطر بيتي كمن دهمه وصب من الاوصاب • »

وكان ما قام به الطيارون في باب تحطيم الجيش المنسحب عظيما • لقد كانوا يطيرون فوقه خفيضين ، فيحصدون من رجاله برشاشاتهم جماعة اثر جماعة • ولم تقمْ الخيالة الا بقليل مما يرتجى منها ، ذلك انها كانت تعدم المؤن ، وما كانت حركاتها باسرع من حركات المُشاة الا قليلا • وان مؤرِّخ (التأريـخ الحربي التركي) (محمد أمين) لينتقد بشدة فقدان عنصر المبادأة في المطاردة •

(٢٠) آثرنا أن نكتب ما يقابل g في الانكليزية بـ (غ) ، على ما فعل علماؤنا الاقدمون جميعا (المترجم) •

ويتجلّى ان الـ (جنرال مود) هو المسؤول الاول عن وصفها هذا ، بغير ما شك ولا ريب ، ذلك انه لم يشجع المغامرة حسب ، بل منعها منعا باتا • ولم يسحب الاتراك من مدافعهم الـ ٩١ الا ٢٨ مدفعا فقط ، وكان ان نبذوا في العراء البقية الباقية منها • واسرنا خلال الحركات ، ٧٠٠٠ من الاسرى ، ولم يبقَ من قوة الاتراك ، على دجلة ، أكثر من ٥٠٠٠ • ولعلّ الـ (جنرال مود) شعر بان التعرّض لأخطار أُخر أمر لا لزوم له ولا جدوى أبدا •

وعلينا الآن ان نعود ادراجنا لنعقّب سير القوة النرسسة ، وهي الآن ثابتة منفرجة على جانبي دجلة • وعُلم يوم الـ ٢٥ من شباط ان العدو يتراجع الى (الامام مهدى) الواقع على بعد عشرين ميلا من الكوت ، وعلى الضفة اليسرى من النهر صُعُدا • وصدر الامر بالتعقيب ، فقادت التقدّم (الفرقة الـ ١٣) ، بعد ان جاوزت الفرقة الـ ١٤ ذلك ، وكان مسيرها على الضفة اليسرى ، فاستطاعت ان تمس الاتراك مسّاً غير فعّال خلال النهار • وكانت عدة الاتراك نحو ٢٠٠٠ ، ومعهم ٢٣ مدفعـــا ، قاتلوا « قتـــال مؤخرة » أيدا مصابرا ، فخلّفوا ، من جرائه ٣٠٠ من القتلى و٣٤٠ من الأسارى ، على حين كبدّونا ، على التقريب ، ٤٥٠ من الضحايا [٢١] • وفي اليوم الـ ٢٦ من الشهر أُصبح (الفيلق الثالث) قُبالة (البغيلة) ، وكانت (الفرقة الـ ١٣) وراء (الفرقة الـ ١٤) ، على حين جاء الفيلق الاول بالمؤخرة ، وطهّر ميدان المعركة • وبلغت (فرقة الخيالة) (دورة نهر الكلك) الكائنة على مسافة ١٨ ميلا من البغيلة تقريبا ، في النهر صُعُدا ، وكان خط سيرها مستقيما ، لكنها عدمت الاتصال بالعدو ليلا ، كرة أخرى ، ويوم الـ ٢٧ زحفت على العزيزية فوجدت قوة من العدو تحلّ فيها ، عدتها ٢٠٠٠ من المشاة المقاتلة ، ومعهم عشرة مدافع ، لذلك انسحبت منها • وعندما عادت اليها في اليوم التالي وجدتها خالية خاوية • وأصبحت حال التموين في هذه الآونة سيئة • لقد استنفدت (الفرقة السابعة) ما كان لديها من « جراية طوارىء » ، وما كان هناك شعير أو تبن يُتّخذان للحيوانات علفا ، ولعـــلّ

(٢١) بصدد هذا الموضوع ، راجع : Marshall
(المؤلف)

الاتراك فرّغو ما في العزيزية من مؤن تماما . ومهما تكن الحال ، استطاعت (فرقة الخيالة) ان تحتلّ (البُليدة) المذكورة يوم الاول من آذار ، ثم جاءت القوارب المسلّحة فكان توقّفا استطال أياما اربعة .

وكان على ال (جنرال مود) ان ينظـر الآن في استثمار الفـوز الذي ادركه ، وكان فوزا مبينا ، وعلى ما لم يكن مأمولا مرتقبا . لقد اخبره (سر ويليم روبرتسن) خفية ، وكان من المنتظر أن يفعل ذلك جهارا . ولو زحف حالا ، على ما كان يصبو اليه حقا ، لشلّ ذلك من استمرار صنوف التموين التي بامرته ، اذ كان الرهق قد اصابها أو كاد . وكانت (القاعدة المتقدّمة) ، في ذلك التأريخ ، لا تزال في ال (شيخ سعد) التي تبعد عن (العزيزية) مسافة ١٤٤ ميلا ، نهرا ، وعن بغداد ٢٥٥ ميلا . وكانت المستودعات الكبيرة الكائنة على (شط الحي) عديمة الفـائدة ، وكان لزاما ارسـالها محمولة على السكة الحديد الخفيفة الى ال (شيخ سعد) ان اريد المضي بها قُدُما . وكان (مفتش النقليات العام) ، وهو من لم يخْطر بامر الزحف على بغداد ، يصرّ على التلبثّ ، لمدة أسبوع ، اصرارا كبيرا ، اذ يستطيع ، خلاله ، ان يجري في البواخر تنظيما . وكان ان وافق الجنرال مود على هذا ، وما ان جعـل (مقره المتقدّم) عند العزيزية الا اخذ يضع خططه لتكون اكثر احكاما ونضجا ، فيستطيع ان يحرز بها تقدّما .

وفي لندن اخذت (وزارة الحرب) الآن تدرس الوضع الناجم عمّا ادركه ال (جنرال مود) من نجح . وفي ال ٢٨ من شباط خُـوّل (سر ويليم روبرتسن) ان يعلن ان سياسة الحكومة البريطانيا تنصبّ على اشاعة النفـوذ البريطاني في (ولاية بغداد) ، وان ال (جنرال مود) ملزم بان يستثمر فوزه الى ابعد مدى ، شريطة ان يضمن سلامة قواته ويأخذ بنظر الاعتبار قدرة مواصلاته ، وان لا يضع نفسه في موضع ، يُضْطر ، بسببه ، الى الانسحاب أخيرا . ونُصح بأن تجرى حركات مشتركة مع القوات الروسية في فارس ، واقتُرح تأجيل أي تقدّم الى « ان نتبين ما يستطيع الروس فعلـه » . لكن طلب الى ال (جنرال مود) بألا يذهب عن باله ان ليس من المرغوب فيه بلوغ الروس

(بغداد قبلنا)[٢٢] • وتوافقت هذه (التعليمات) مع برقية أرسلها (سر جارلس مونرو) ، القائد العام في الهند ، اثر اجتماع خاص عقده (المجلس التنفيذي لحاكم الهند العام) ، وتؤكد خطر الاستيلاء على بغداد لأسباب سياسية وعسكرية ، وتقترح ، انه ، في حالة سقوطها بأيدينا ، ستفكر الهند ، في ضوء وضعها العسكري ، بانفاذ بعض قطعاتها العاملة في امكنة أخرى • واقترح الـ (جنرال مونرو) ان من الافضل ارسال القطعات ، ولوازم السكة الحديد ، والموارد الاخرى الى العراق ، بدلا من ارسالها الى مصر ، على ما كان ، آنئذ ، جاريا • ان هذا يجعلنا نعقد الخناصر مع الروس خلال الصيف •

وفي الـ ٣ من اذار ارسل (سر ويليم روبرتسن) برقية الى الـ (جنرال مود) يقول فيها نصا : « ان البرقيات التي ارسلتها تبيّن ان دحر الاتراك كان أتم مما كنت متوقّعا • وعلى ذلك فان سداد احتلال بغداد حالا أصبح اليوم أكثر مما كنت اراه شخصيا • آمل انك تدرك ان برقيتي المرسلة اليك يوم الـ ٢٨ من شباط تترك الامور الى حكمتك لتتصرف ، وعلى وفق ما تمليه عليك شخصيا ••• »

لم يكن البيان الصادر يوم الـ ٢٨ من شباط ، الذي ينص على ان سياسة الحكومة البريطانية تنصب على اشاعة نفوذها في ولاية بغداد ، وبالنسبة الى الـ (جنرال مود) ، امرا غير مرتقب ، شأنه كشأن (الضابط السياسي الاول) أيضا• لقد تراءى لمن كان في الميدان ان من الخطل الا نقطف مثل تلك الثمرة اليانعة ، ونستغل السمعة الكبيرة في الشرق كله • ويتراءى من برقية (سر ويليم روبرتسن) انه ، في زمن اتخاذ (القرار) المذكور ، كانت ثمة أهمية عظيمة معلّقة على التعاون مع القوات الروسية الموجودة في فارس • وما كان أحد

---

(٢٢) يتبين من ذلك حقيقة مطامع البريطانيين في بلادنا ويكشف عن جوهر التعاون العسكري بينهم وبين الروس، اوانئذ، اذ هو ينصب على انهاك قوة الاتراك، على أن يحتكر البريطانيون ثمرة النصر لهم • ولا يغفل عن البال أن السياسة الروسية كانت ترى أن فارس هي منطقة نفوذ لها وخطت في هذا السبيل الى انشاء بانك طهران (١٨٩١) وضاعفت تجارتها معها، كما أرسلت في عام ١٩١١ قوات لحمايتها، كل هذا مما لم تكن بريطانية لترضاه الا الى حين (المترجم) •

ليخامره شيء بصدد الانهيار الذي حدث في تلكم الجهة مؤخرا • كما كان من الواضح الجلي أيضا ان الآمال الدائرة حول الاستيلاء على بغداد ، والتي كانت تعتلج في نفس الحكومة ، واثره المعنوي قد بولغ فيه كثيرا ، وعلى ما ثبت بنتيجة الوقائع التي حدثت حقا • ويلتزم (سر ويليم روبرسن) جانب الصمت في (كتابه) ، فلا يذكر الاعتبارات التي حملته على الايصاء بالزحف ، كما ان (دائرة معارف ريبنكتون : Repington) ، ذات الصلة بالاشاعات الدائرة ، لا تنير جوانب الموضوع أبدا • وكنا قد أتممنا مدّ سكة الحديد على جبهة قناة السويس ، حتى بلغت (العريش) وطهّرنا منطقة سيناء من القوات التركية • وما كانت قواتنا في تلكم الارجاء معرّضة الى خطر كبير ، وما كان ثمة هدف سوقي يرتجى من أي زحف آخر فيها •

هذا ، ومن الجهة الاخرى ، تجلّى لد (جنرال مود) انه ، لكي يمسك بقبضته على (بغداد) ، لا معدى له عن احتلال مواقع حصينة على نهر ديالى ودجلة والفرات ، وكل منها يبعد عن المدينة بنحو ٦٠ ميلا • ومعنى هذا امتداد خطوط مواصلاته امتدادا بعيدا ، واستخدام قطعات تزيد على ما لديه منها كثيرا •

ان ذلك ينطوي على نضوب في قدرتنا على النقل البحري أيضا • ان تلكم القدرة كانت مطلوبة في امكنة اخرى ، واننا كنا نحمل الى البصرة من المواد ما تبلغ زنته ١٠٠٠٠٠ طن شهريا • كما ان ذلك ينطوي أيضا على زيادة في مقدار ما ينقل نهرا ، وفي كميـــات لوازم السكة الحديد أيضا • وان اغلب ما يدخل في باب النقل النهري يجب ان يستورد من انكلترة ، على حين تستورد اللوازم الاخيرة من الهند ، حيث يجب قلع السكك لحديد الموجودة لتحقيق الغاية المذكورة • ان الاساس الوحيد الذي كان يرتكن اليه (فرار الزحف) هو انه يؤدي الى ان يقوم الاتراك بتركيز قوات كبيرة بازائنا على حين كان الاساس الاداري الفذّ الذي يرتكن اليه هو ان الجنود الذين يحتاج اليهم سيأتون من الهند ، في الغالب ، وانهم سيكونون من صنف لا يمكن ان يستفاد منه في جبهات اخر • وفي الحق لم تكـــن للزحف نتيجة سوقية كهذه • ذلك ان

الاتراك لم يحشّدوا أكثر من ٥٠٠٠٠ من الجنود بازائنا ، على حين كانت قوة الجراية ، عندنا ، في تشرين الثاني من سنة ١٩١٨ ، عشرة أضعاف هذا العدد . وكان للضغط الاداري على (حكومة الهند) لايفاد القفلات اللازمة للقطعات المحاربة والصنوف المساعدة ارتكاسات سياسية على جانب كبير من الخطورة ، وسببت ، الى حد ما ، القلاقل والاضطرابات في البنجاب وما احاق بالقيـــام بالحرب الافغانية سنة ١٩٦٩ من عسر ومشقة .

ويتراءى ان من الجلي البيّن ، ونحن بصدد اشاعة النفوذ البريطاني فيولاية بغداد ، انه لم تكن الوزارة لترغب الا بادراك هدف هــو أكبر من مجــرد الاستيلاء على المدينة ، فلقد كانت تروم ادراك نجح باهر ، وكسب الارضين الوسيعة أيضا . ان ما يسفر عن القرار المذكور يومذاك هو ضمّ مساحة لا تقل عن ٧٠٠٠٠ميل مربع ، وباضافة ولاية البصرة ، تزيد (المحصلة) على١٠٠٠٠ ميل مربع [٢٣] ، وجعلها خاضعة للنفوذ البريطاني في آسية . ولا يغرب عن البال ان قد كان سكان (ولاية بغداد) نحو مليون ونصف مليون نسمة ، وولاية البصرة أكثر من ثلاثة أرباع المليون . ان الاضطلاع بتبعة ارضين وسيعة ، وبعيدة كهذه ، اضطلاعا تلقائيا أمر غريب عن عرف الحكومة البريطانيه ، ولا يقرّه . وما كان ذلك جزءا من أهدافنا الحربية أصلا . ولا معدى عنان يكون بيّنا ، يومذاك، ان دقّ اسفين من المحميات البريطانية في الشرق الاوسط لا يعدو ان يكون غرما كبيرا . ولا يمكن ان يستنتج المرء من ذلك الا ان أعضاء الوزارة ، وهم ينظرون الى الامر بابعاده الواسعة ، شعروا بوجوب القيام بافضل ما في وسعهم لدعم

---

(٢٣) حول مساحة العراق : لا يمكن تحقيق مساحة الولايات الثلاث ، ذلك انها لغايات ادارية انقرضت . واذا ما تعقبنا الحدود السابقة لوجدنا أن مساحاتها على وجه التقريب هي كمايلي : البصرة٥٤٢ر٢٥ منالاميالالمربعة، ولاية بغداد ٢٩٢ر٧٧ من الاميال المربعة وولاية الموصل ٣٧٠ر٢٩ من الاميال المربعة فالمجموع الكلي : ٩٤٣ر١٧٣ من الاميال المربعة .

وذكر في تقرير الواردات الصادر سنة ١٩١٩ ان مساحة العراق هي : ٥١١ر١١٦ من الاميال المربعة ، وأعيد هذا الذكربالاشارة الى مصدره في التقرير المرفوع الى عصبة الامم سنة ١٩٢٣ . ان طبعة سنة١٩٢٤ من (دائرة المعارف البريطانية) تذكر هذه المساحة ، ٢٥٠ر١٤٣ من الاميال المربعة (المؤلف) .

المشاريع الطامحة التي انطوت عليها (اتفاقية سايكس بيكو) . ولعلهم شعروا ان احتلال الروس لبغداد ينطـوي على خطـر كبير يحيق باستقرار الممتلكات البريطانية في اسية والسلام العالمي . وليس عندنا من سبب ، ونحن في سـنة ١٩٣٠ ، يناهض مثل هذا الشعور . اني لواثق شخصيا من ان احتلال (ولاية بغداد) لم يكن امرا صائبا حسب ، لكنه كان ، على كل الاحوال والظروف ، القرار العادل الوحيد الذي يمكن اتخاذه لصالح حلفائنا ولصالحنا أيضا .

ومهما تكن الاسباب التي حملت على اتّخاذه ، فان القرار المحتوم ، بمجرد اعلانه ، أصبح امرا ملزما لا سبيل للتراجع عنه أبدا .

وبعد أقل من أسبوعين كانت بغداد في قبضتنا ...

المؤلف في سطور

— عمل في الخليج العربي بوصفه (المقيم السياسي البريطاني) فيه ثم أشغل منصب (القنصل البريطاني العام) في فارس وخوزستان • وطوّف كثيرا في عربستان ولورستان • وكان مسلحا تسليحا تاما بمعلومات تتصل بالاوضاع المحلية فيها •



— كان عضوا في لجنة رباعية الفت لتثبيت الحدود بين فارس وتركية ١٩١٣ – ١٩١٤ وقد أتمت (اللجنة) مسح الحدود ونصبت ٢٢٣ عمودا في أقل من سنة • أشغل في (اللجنة) وظيفة رئيس جماعة المسح ثم غدا (نائب الرئيس) فيها ثم (الرئيس) وكان أعضاؤها من الانكليز والروس والايرانيين والاتراك •

— جاء مع الحملة البريطانية على العراق في أثناء الحرب العالمية ألاولى بوصفه مساعد الضابط السياسي الاول فيها (أي : سر برسي كوكس) ثم رقي الى منصب (نائبه) •

— عند احتلال بغداد أصبح سر برسي كوكس يدعى ب (الحاكم الملكي العام) في العراق ، وعندما اقتضت ظروف الحرب ان يغادر ال (سر برسي كوكس) بغداد الى طهران أصبح المؤلف (وكيله) •

— اندلعت ثورة العراق سنة (١٩٢٠) والمؤلف يشغل منصب (وكيل الحاكم الملكي العام) وكان في نحو ال ٣٦ من عمره •

— وعندما أراد قادة بريطانية العسكريون والسياسيون تبديل سياستهم في العراق واقامة حكومة « وطنية » استدعي ال (سر برسي كوكس) الى العراق

فكان ايذانا برحيل (المؤلف) وتمّ ذلك بمجـــرد وصول الـ (سر برسي كوكس) الى البصرة في ١١ تشرين الاول ١٩٢٠ .

- عمل بعد ذلك في مناصب شركة النفط الانكليزية الفارسية العاملة على الخليج العربي . وليس من قبيل المصادفة ان يصبح قطبا من أقطابها بعد أن خبر العراق وايران قبل الحرب العالمية الاولى ثم جاء في حملة العراق وتبوأ المناصب الخطيرة فيه بعد احتلاله .
- انتخب بعدها نائبا في البرلمان الانكليزي ، وكان عضوا في حزب المحافظين .
- تطوّع خلال الحرب العالمية الثانية جنديا في سلاح الطـــيران البريطاني وقدّر له ان يسقط من حالق طائرة كانت محلّقة في سماء لندن .
- بقيت كثير من القوانين والانظمة التي صـــدرت بتوقيعه نافذة المفعول في العراق حتى تم الغاؤها في العهد الملكي الدابر والعهد الجمهوري الزاهر .
- من مؤلفاته :

  - الخليج الفارسي : The Persian Gulf
  - فهارس فارسية A Bibliography of Persia
  - بلاد ما بين النهرين ١٩١٤ - ١٩١٧

Loyallies Mesopotamia Vols. 1 & 2, 1914-17, 1917-1920

وقد اعاد طبعه فسمّاه « بلاد ما بين النهرين بن ولاءين » .

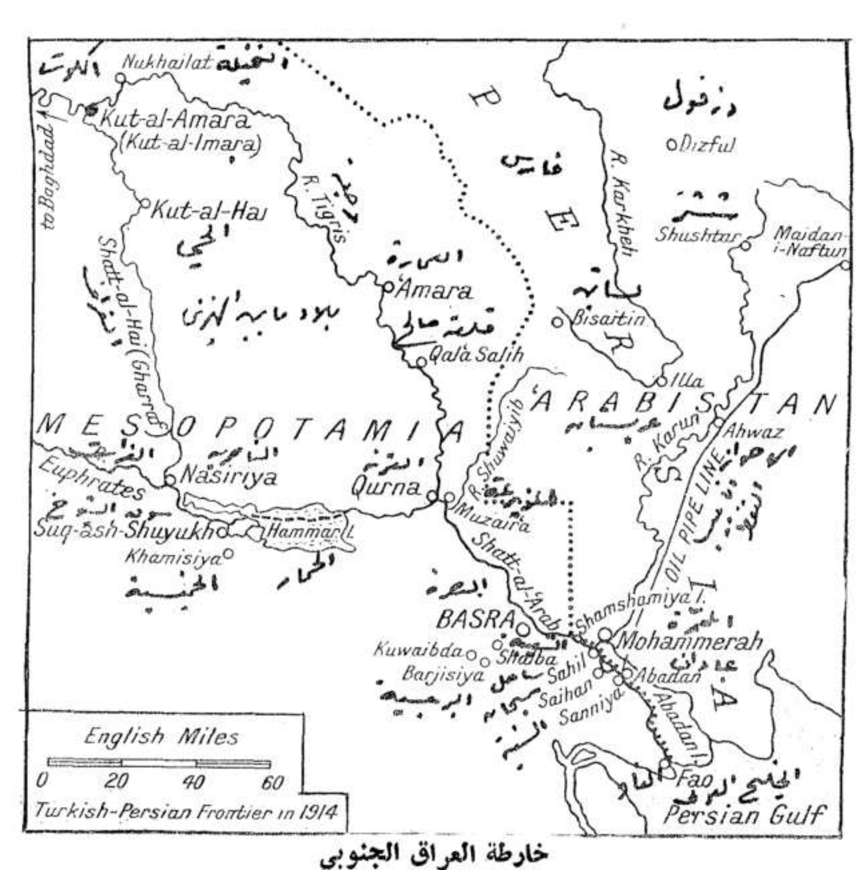
Mesopotamia Clash of Loyalities

وهو أصل (كتابنا المترجم) بأجزائه الثلاثة

ملحق

صور .. وخواطر

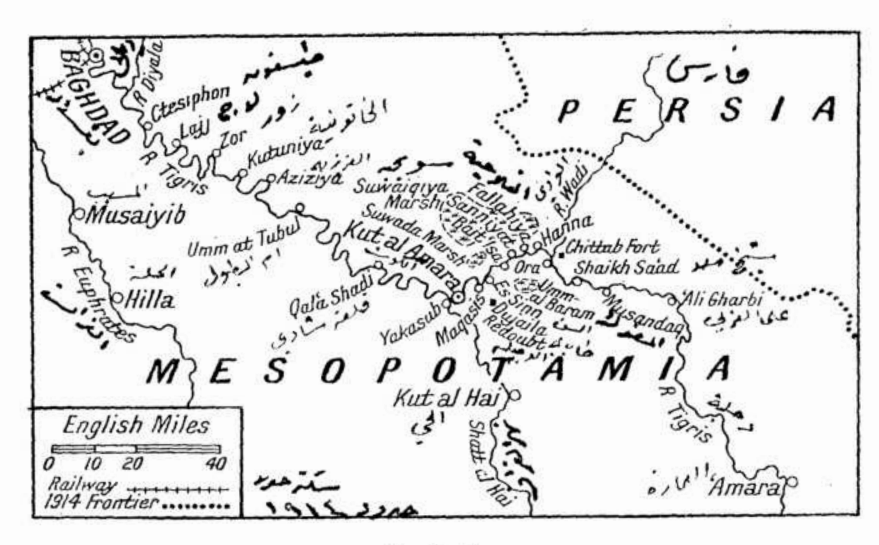
الحوظة : ثبتنا ما في أصل (الكتاب) من صور وأضفنا اليهـا (خوارط وصوراً) توضح تعليقاتنا عليه ، ارادة الفائدة التامة ،



خارطة العراق الجنوبي

حين دهمته الحملة البريطانية ـ أواخر سنة ١٩١٤





خارطـــة

المنطقة الكائنة على ضفتي دجلة
بين العمارة وبغداد
وهي التي حاربت فيها قوات ال (جنرال طاونسند)
وزحفت عليها (قوة انقاذ الكوت) ـ أوائل سنة ١٩١٦

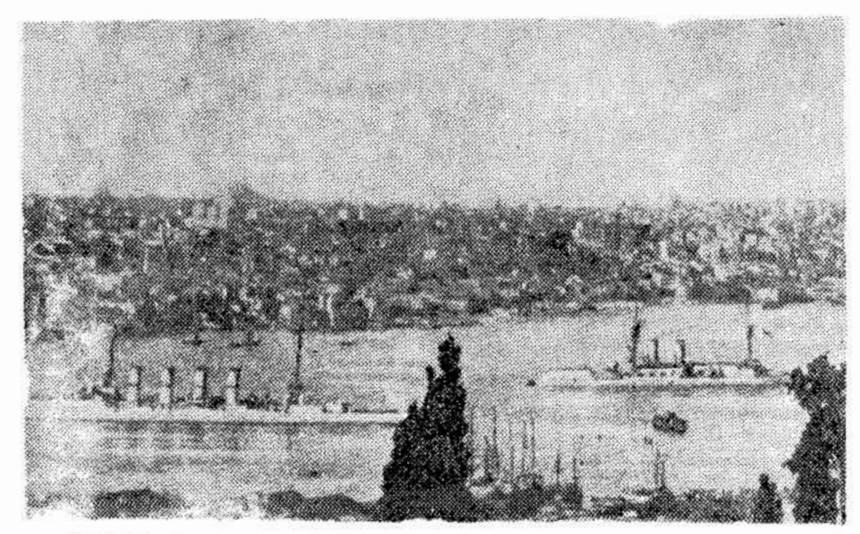




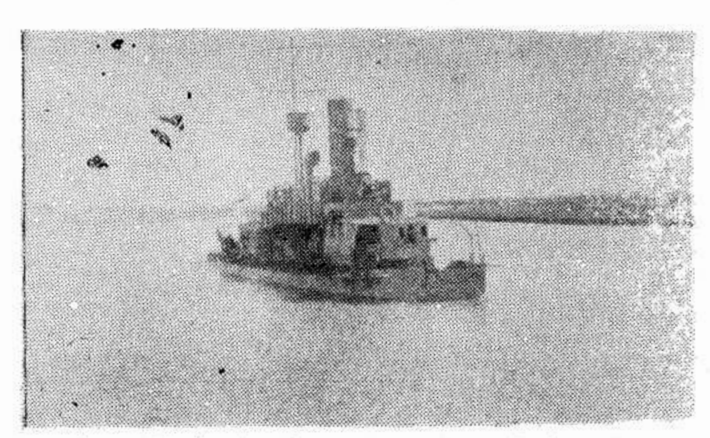
خارطـــة

تبيّن مواضع الاتراك ، إبان (حركة الالتفاف) البريطانية
في سبيل الاستيلاء على الكوت
ايلول سنة ١٩١٥





كان هروب البارجتين الالمانيتين (بريسلاو) و (غوبن) الى (القسطنطينية) في مطلع الحرب العالمية الاولى ذا أثر في انضمام تركية الى الدول المركزية ٠ البارجة (بريسلاو) عند (القرن الذهبي) في اصطنبول ٠



باخرة حربية بريطانية من طراز (فلاي) ـ أبو السلة بلغة هاتيك الايام ـ تقوم بحركات في دجلة ـ الحملة البريطانية على العراق (الحرب العالمية الاولى)



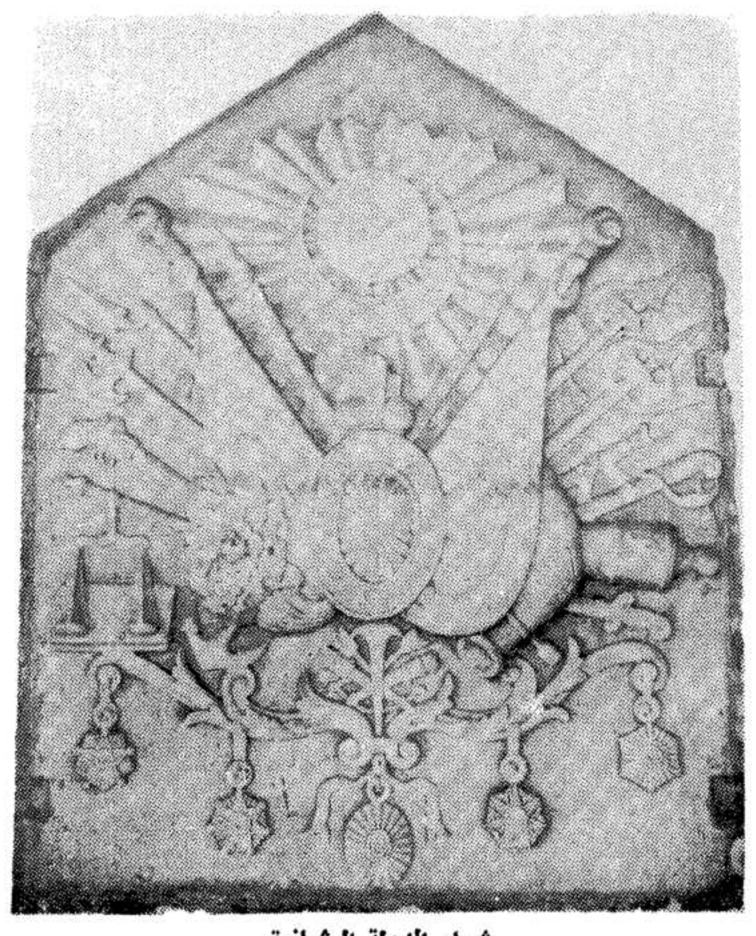


مبارك الصباح (شيخ الكويت) وابن سعود (عاهل نجد) وآخرون
ـ أوائل الحرب العالمية الاولى ـ



سر پرسي زكريا كوكس
(الضابط السياسي الرئيس) لـ (الحملة البريطانية على العراق)
فـ (الحاكم الملكي العام) فيه ابان الاحتلال





شعار الدولة العثمانية

انتزع من (دار المكس - الگمرك) في البصرة ونصب في ساحة دار الحكومة في (بمبي - الهند) باعتداده تذكارا ل (الفرقة السادسة الهندية) التي شاركت في الحملة على العراق - الحرب العالمية الاولى





نوري السعيد (وقد هدف الى ال ٢٥ من عمره)
نزل ضيفاً على البريطـانيين المحتلين في (مستشفى الارسـالية الامريكية في البصرة) سنة ١٩١٤ باعتداده أسير حرب عثماني ، فبدأت صلته بهم ٠



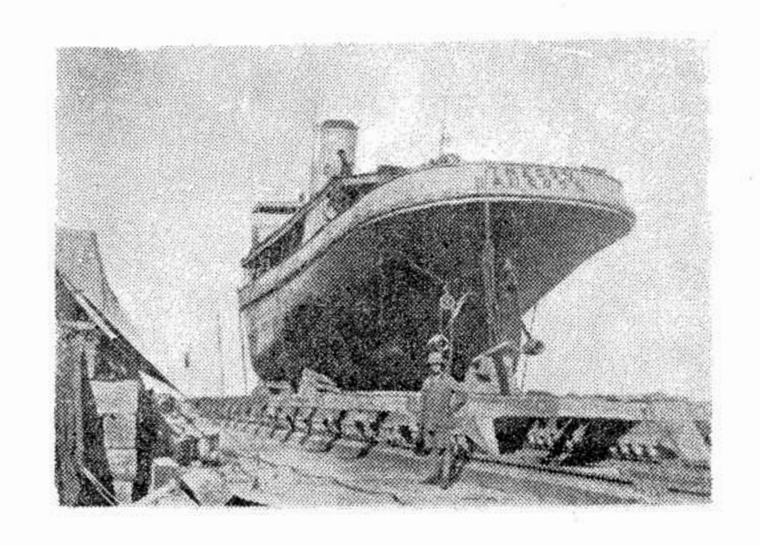
تي٠ اي٠ لورنس
الجاسوس البريطاني الاشهر ومن أطلق عليه
ـ ويا لسخرية القدرا ـ اسم : « ملك العرب غير المتوّج ! »
عبرة لمن اعتبر !



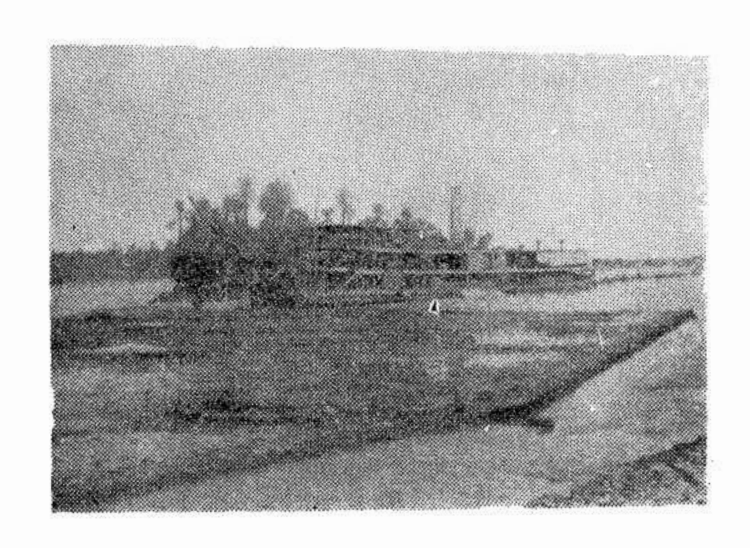


كرترود بيل

الجاسوسة البريطانية التي التحقت بالحملة البريطانية على العراق (الحرب العالمية الاولى) ثم غدت (الكتوم الشرقية لدار الاعتماد البريطاني) فيه توفيت في ١٢ تموز ١٩٢٦



احدى (ماخرات المحيطات) على المزلق رقم/١
في مسفن البصرة ـ الحرب العالمية الاولى

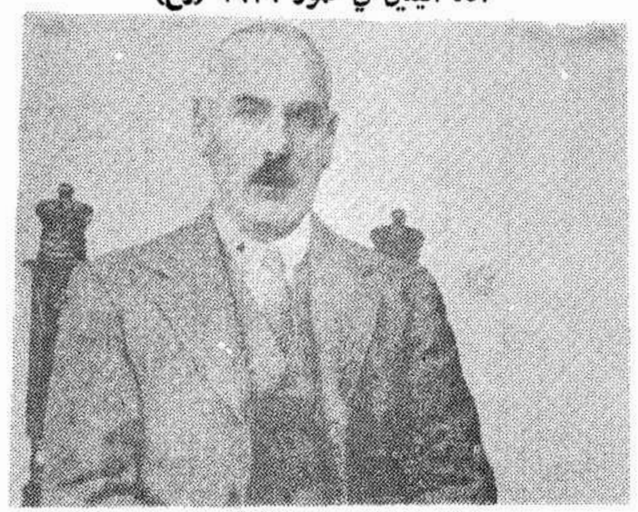


مشروع كري بحيرة الحمار ـ الكراكة تشق مخلطا بين
(فرع المزلاك) والفرات عند بني سعيد





السيد طالب (پاشا) النقيب
أتاه اليقين في تموز ١٩٢٩ (رح)



سر هنري دوبس
خبير الاحتلال البريطاني المالي فالمفوض السامي البريطاني
في العراق أيام الانتداب الدابر



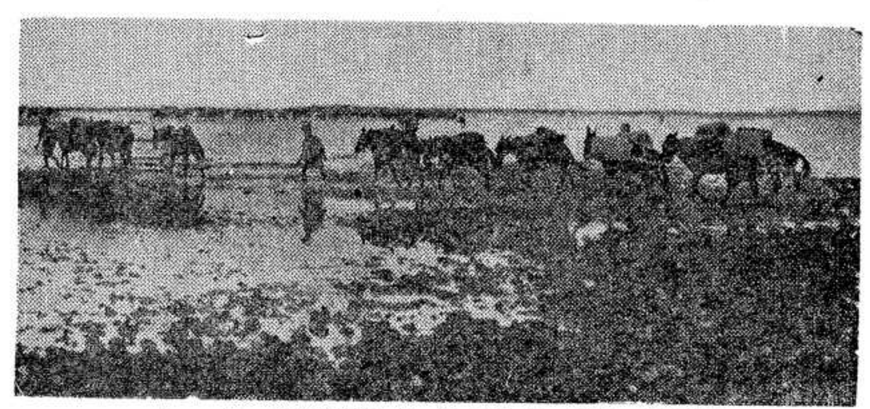


الشيخ خزعل بن الشيخ جابر (رح)
(أمير المحمرة) ـ أيام الحرب العالمية الاولى



العمارة ـ جبهة النهر ـ أيام الاحتلال البريطاني الدابر

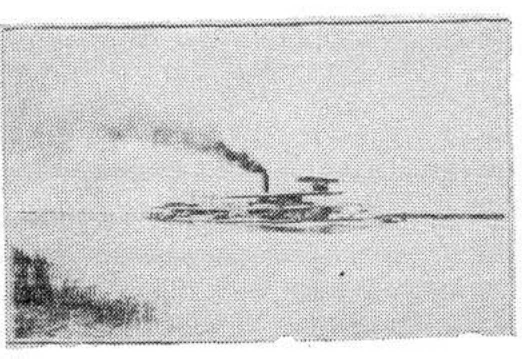




كان الطين اللازب في طرق العراق العقبة الكؤود في سبيل
(الحملة البريطانية) عليه ـ الحرب العالمية الاولى

مستوى (الطوفان التوراتي) في (اور ـ الناصرية) على ما ذهب اليه المنقّب الاثاري
البريطاني ـ سر لينارد وولي





الباخرة البريطانية (جلنار)
جارية بالمؤن الى الكوت المحاصرة

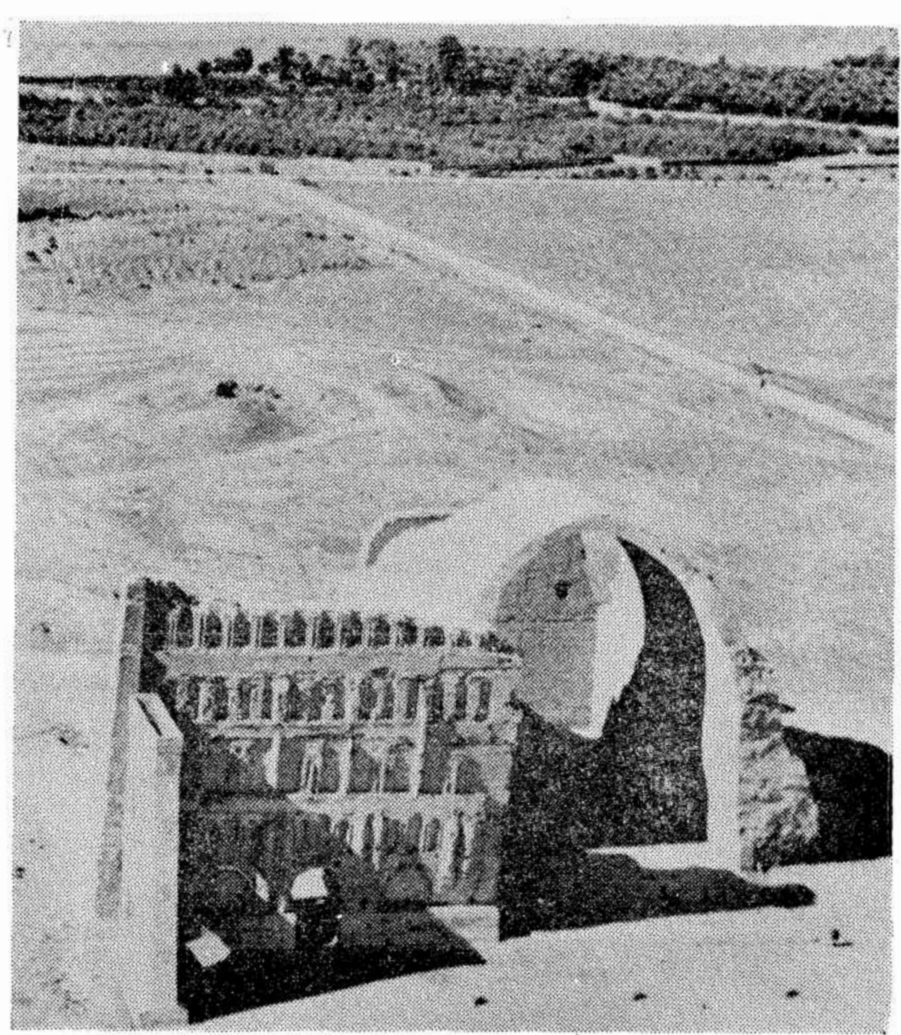


... وأهل الكوت المحاصرون
يرقبون ذلك



اللواء طاونسند
توفى في ١٨ أيار ١٩٢٤
قائد القوات البريطانية المحاصرة في الكوت





طاق كسرى

أكبر بناء مبني من الآجر والجص في العالم • ليس عليه كتابة ، ونقوشه قد عفت •
مشمخر" يلوح حيث ما سرت فهو قصد الطريق

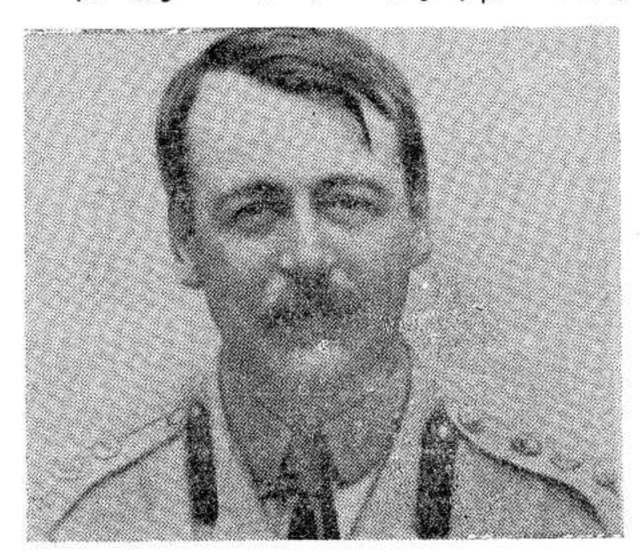
بجواره جرت معارك طيسفون العنيفة بين الجيشين التركي والبريطاني
في سبيل الاستيلاء على بغداد خلال (الحرب العالمية الاولى)

يا أيهــا المغرور بالــدنيا اعتبر بديار كســرى فهي معتبر الورى
غنيت زمانا بالملــوك وأصبحت من بعد حــادثة الزمان كما ترى





الجنود الهنود الذين دفع بهم البريطانيون الى مجزرة احتلال العراق ،
وقدرت عدتهم بنحو (٦٠٠٠٠) ، يصطف فريق منهم للتعداد



سر مارك سايكس
توفى في ١٩ شباط ١٩١٩
الطرف الاول في معاهدة سايكس - بيكو

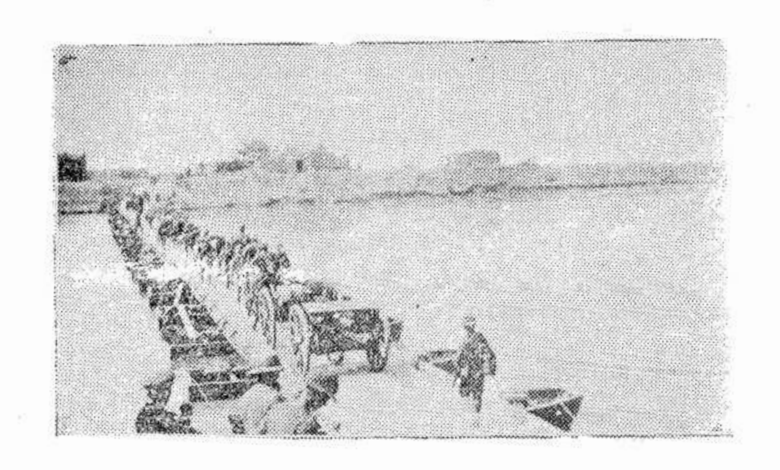




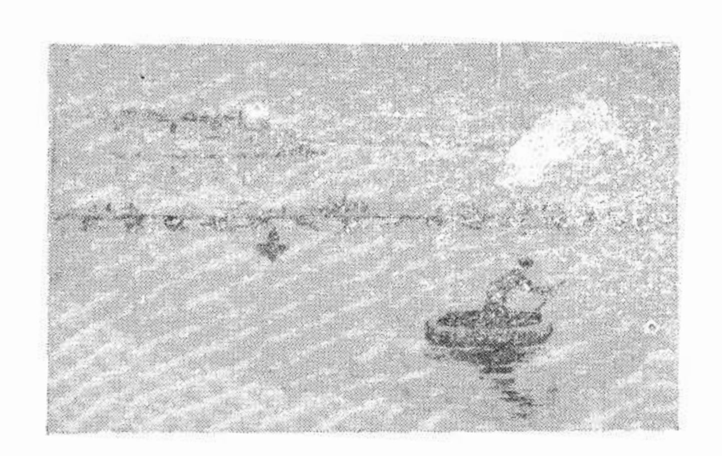
أنور باشا
رجل الانبراطورية العثمانية السياسي - العسكري الاول -
الحرب العالمية الاولى
جرّها الى صفّ (الدول المركزية) وزار الجبهة العراقية في أثنائها



الجنرال باراتوف الى اليمين ، والجنرال بيكاراكوف الى اليسار
والاول هو قائد القوات الروسية في حملتها على العراق
(الحرب العالمية الاولى)



الجسر الذي نصبه الجيش البريطاني على ديالى (الحرب العالمية الاولى)
وقطعاته تعبر عليه تلقاء بغداد
آذار ١٩١٧



جسر بغداد ... أيامئذ



فهرست



استدراكات ... وتصويبات (*)

الصحيفة	السطر	الخطــأ	وصوابــه
١٣	٢٠	الوجب	الوجه
٣١	٢٣	استعباد	الاستعباد
٥٣	٣	العنديد	(كذا وردت في الاصل والراجح انه يريد العقير) (استدراك) (محليا)
٨٦	١٤	التعاوض	التفاوض
٨٧	١١	المتسعة	المتسمة
٩٥ ، ٩٦	٢٠/٥	بساتين (على ما ورد في الاصل الانكليزي)	(بسيتين) على ما تلفظ بلديــا (محليا)
٩٧	٩	الاهوار	الاهواز
٩٧	١٠	ان يزور	وتعذر ان يزور
١٠١	٢١	انذر	وانذر
١٠٤	١٧	بلادنا	بلاد
١٠٨	١٧	عهد ذاك	عهد ذاك هو
١١٢	١٢	مزاح	مزاج
١١١	٢٥	الريف	الفرات
١٢٠	١٤	البحري	النقيب البحري
١٢٦	١	الرتيبات الخرقاء	الترتيبات الخرق
١٦٦	٣	بالنظر لى	بالنظر الى
١٧٢	١٦	لكن	لكن هذا ، على كل حال ، قرر صوابا ان ستهدر خدمات
١٩٥	١٧	المطاريح	المطاريح (٧)
١٩٦	١٦	الاول	الاول (٨)
١٩٨	١٧	خطلا	خطلا (١٠)
١٩٨	١٩	هور شويجية ارض منخفضة تصب فيه مياه (آب جنلولا) و (كلال بدرة) النابعين فيجبال بشت كوه (استدراك)	
٢٠٠	١٣	مرير	مرير (١١)
٢٢٠	٢٠	على صدوه	على ما صدوه
٢٢٢	٥	هذ	هذا
٢٢٢	٢٦	Fightung	Fighting
٢٣٦	١٥	با مجنود	بالجنود
١٧٧	٢٠	ناثير	تاثير
١٣٤	١٥	تتسمم	تتسم

(*) على الرغم مما بذلناه **من عناية مستأنية في تصويــب** (تجارب الطبع) وقعــت ـ ويا للاسف ـ اخطاء مطبعية فلامعدى عمن (تصويبات) • وقد تكون في (الكتاب) غيرها وهــي لا تخفى على القارىء الكريم ـ فمعذرة (وللحليم من العــورات اغضاء) مشفوعة برجاء منه هو ان يصوبها قبل البدء بمطالعته، كما ضممنا اليها (استدراكات) ، ارادة التحقيق •

ف • بـ

الصحيفة	السطر	الخطـــأ	وصوابـــه
٢٣٩	٢٦	ثمة اعتقاد	ثمة اعتقادا
٢٤١	٢٣	المجارين	المجاورين
٢٥٦	٢٦	Ecursions	Excursions
٢٦٩	١٢	صوات	صواب
٢٧٨	١٢	مبنيـــا	مبينا
٢٩٧	٦	كـــن	كان
٣٢١	٦	ال (فيند) Fiends	ال (فيندز الاشرار) Fiends
٣٢٦	١	الانقاد	الانقاذ
٣٥٩	١٦	يبدل	يبذل
٣٦١	١١	(فلارندرز)	فلاندرز

تـــم

طبع (الجزء الاول) من (الكتاب) في ١-١١-١٩٦٩

ويليه (الجزء الثاني) بعون من الله وتوفيقـه





مقدمة (المترجم) التصديرية ل (الجزء الثاني) من (الكتاب)

هذا الذي تحمله بيمينك ـ ايها القارىء الكريم ـ هو (الجزء الثاني) من (الكتاب) الذي يعتده كثير من البحّاث الاثبات والدرّاس الثقات من أخطر المصادر المؤلفة في تأريخ (عراقنا الغالي الحبيب ، في مطلع القرن العشرين) ·
لقد تناول (الجزء الاول) منه ، سردا وتحليلا ، الحركات العسكرية ـ السياسية منذ بدء (الحملة البريطانية) عليه حتى (احتلال بغداد) ، ويتناول هذا (الجزء) ما اعقب ذلك من حركات عسكرية ومناورات سياسية حتى اعلان (الهدنة) ····

ثم بدأت سلسلة من الثورات الرائدة بازاء (المحتل البريطاني فكانت منها (ثورة النجف سنة ١٩١٨) و (ثورة الشيخ محمود الحفيد ـ ر ح ـ) و (المؤلف) يقص حديثهما فيه ···

آمل ان يكون في جهدي المتواضع الذي صببته في اعداد هذا (الجزء) كشأن سابقه ، وكشأن (لاحقيه) ما ينفع الناس وينشر الوعي الوطني ـ القومي في (وطننا الاصغر) و (وطننا الاكبر) ، ويحفز على تحقيق (اهدافنا) السامية ·

والله من وراء القصد ·



فؤاد جميل

٩٠٠ فلس